الإبحار

مذكرات بهائي حكم عليه بالإعدام

محمد كبداني

الفهـــرس

الفصـــــــــــــــول	صفحة
االفهرس	2
تنويه	4
المقدمة	5
1- مدينتي الهادئـــة:	
أ - مرابع الصبا.	7
ب – حياة السكان والعلاقات بينهم	10
ج - بداية النهاية	18
2 - شاطئ بحر العرفان:	
أ - النبأ	22
ب - الوديعة	26
ج - تبلور القرار	29
د - عودة الصديق	40
3 - الإبحـــــار:	
أ - نار المحبة	46
ب - الانفتاح	50
ج - المحفل الروحاني المحلي	56
د - زيارات متبادلة	59
ه - السلطة المحلية	63
4 - الأمـــواج:	
أ – في مخفر الشرطة	65
ب - الاستمرار في اعتقال البهائيين	89
ج - اللجنة الحكومية	93
5 - مصارعة الأمواج:	
أ - حياة السجن الأولى	101
ب - أفراد العائلة	108
ج- امتداد يد السلطات إلى البهائيين خارج الناضور	113
د- الجامعة البهائية	124
هـ - الاحتكام إلى القضـــــاء	126
و- التحقيق والمحاكمـــــة	132
6 - في بحبوحة الغرق	
أ – الحبس الانفرادي	150
ب - السجن المركزي	158
ج – انقلاب السلوك	167

7 - الإسعـــاف:
أ - الإعلام وردود الأفعال 171
ب - المواجهة 176
ج - موقف علماء الدين 182
د- احتجاج المتعاطفين 196
هـ - الموقف البهائي 208

8 - هدوء العاصفـــة:
أ - مجتمع السجن 218
ب - في الزنزانة 224
ج - وضعية البهائية في المغرب الحديث 229
د - الكتابة 232
هـ - الزيارات 236

9 - مرفأ الوصـــــول:
أ - وسائل الإعلام من جديد 251
ب- رضوان 1963 والانتخابات البهائية العالمية 266
ج - الخبر المفاجـــأة 278
د - صخب حياة الأحرار 289

المراجع 293

تنويـــه

يفيض قلبي بالشكر الجزيل للسيد محمد معنان وشقيقتي اللذين زوّداني بمعلومات ووثائق إضافية وللدكتورين محسن عنايت وعبد الرحمان الشريف الشركي والسيد روشن مصطفى على مراجعتهم للمخطوط وعلى آرائهم وإرشاداتهم السديدة، ولزوجتي التي ساندت عملي بالسهر على توفير ما أحتاج إليه من الفراغ والهدوء، ولجميع الذين شجعوني على كتابة هذه الذكريات وساهموا في إمكانية إخراجه على الصورة التي وصلت إلى القارئ، خاصة الدكتورة "شيرين" لمساعدتها القيمة على استرجاع قوة بصري.

محمد كبداني

المقدمـــــــــــــة

دفعني إلى كتابة هذه الذكريات رغبة عدد من المحبين الذين يربطني بهم ودّ حميم، لا يدانيه قرباً إلى فؤادي سوى الأحداث التي فرضتها عليَّ الأقدار للمساهمة في بعض أدوارها.

والحق أني تأخرت كثيرا عن تلبية هذه الرغبة وتسجيل ذكرياتي التي لا تخص الأشخاص الذين رشحتهم الأقدار للمرور عبر محك الامتحان، حتى يمحص صدق إيمانهم وتنجلي حقيقة عقيدتهم الجديدة واضحة للعيان، وإنما تخص جميع النفوس الواعية ذات الضمائر الحية، لما حملته من رموز القيم الإنسانية، شاء المخططون لإثارتها وعرضها على العموم، عن قصد أو دونما قصد، أن توضع في ميزان المناقشة والتقييم .

و لعل العذر في التأخير يرجع إلى مشاغل الحياة التي تبدد الوقت وتحتكر الجهد، لدرجة أن الراغب الجاد في الكتابة لا يجد مجالا للتفرغ لها، نظرا لما تتطلبه من صفاء الفكر والتحكم في الوقت اللازمين لاستعادة الذكريات وتمحيصها وكتابتها بالأمانة المطلوبة.

أما وقد هيأ الله الأسباب وبلغت الحياة المهنية إلى نهايتها وأعفتني العناية الإلهية من المهام ذات الأولوية، فلم يعد ما يمنع من تكريس الوقت وما تبقى من الصحة والجهد للشروع في إنجاز هذا العمل الذي تأجل موعده.

شرعت في الكتابة متوقعا أن لا تتطلب مني أكثر من الرجوع إلى بعض رؤوس الأقلام التي كنت قد سطرتها كعلامات في الطريق أرجع إليها عندما تسمح ظروف مشاغلي بذلك .

كم كنت مخطئا، إذ تبيّن لي أن المسألة تتطلب من الوقت والسعي والمهارة أكثر مما كنت أتصور، وأدركت أن جهود الكتّاب المضنية التي ينجزون بها أعمالهم تتعالى كثيرا عن السهولة التي يقرأ بها القراء كتاباتهم. وأيقنت أني لن أتوفق في الكتابة بمجرد الرغبة فيها أو الشعور بواجب القيام بها. وإنما علي أن أستكمل بعض المعلومات الناقصة بالتشاور مع زملائي المشاركين في نفس الحادثة أو أستأنس بالاستماع إلى ما يتذكره بعض الذين عايشوا تلك الفترة من غير البهائيين، حتى أتأكد من الانطباعات التي تركتها لدى عامة الناس. كما كان علي أن أرجع إلى عدد من الجرائد التي نقلت الخبر إلى القراء أو نشرت التحاليل والانتقادات وأن أستقصي أفكار الذين اهتموا بالقضية وساهموا فيها بنشر آرائهم ومواقفهم منها. فتهيبت الكتابة عندما تجسدت لي في صورتها الحقيقية.

توقفت لأعيد حساباتي، وأتساءل : هل أنا الشخص المناسب لتسجيل مثل هذا العمل الهام؟

هل لي من الإمكانيات ما يجيز لي أن أستعيد الحادثة بأمانة رغم الملابسات التي تحيط بها، وأتصورها تصورا يعكس الحقيقة المجردة؟

هل بإمكاني أن أتحكم في ذاتي وأكون موضوعيا وقادرا على التحرر من إكراهات الذات، خاصة وأني من المعنيين مباشرة بمختلف فصول الحادثة؟

أعلم يقينا، أن ميدان الكتابة له أهله من ذوي الاختصاص، كما أعلم أن من هم أقدر مني قد كتبوا في هذا الموضوع، وسيكتبون مستقبلا بكفاءة أكبر، إلا أن قناعتي بأن من عايش الأحداث وكان أحد ضحاياها أولى بالكتابة عنها، لم تترك لي مجالا للاعتذار والتملص من الالتزام.

والاعتذار الوحيد الذي يحضرني، هو الذي أقدمه للقارئ إذا وجد أسلوب الكتابة لا يرقى إلى مستوى وقائع الحدث الذي أثار اهتمام العام والخاص، ونبه أصحاب الأفكار وذوي النفوذ والتأثير في صنع القرار بالمغرب إلى المنهج الذي ينبغي أن تسلكه الدولة من أجل تحقيق الصالح العام .

أجل، وجب الإلحاح على الاعتذار للقارئ إذا لم يستمتع بالقراءة ولم يستفد من الكتاب كما ينبغي. لأني لست محترفا وإنما مجرد حامل أمانة تاريخية أشعر بواجب أدائها.

وهذه الأمانة، أمانة اختيار العقيدة والتشبث بها في وقت الشدة التي تدور حولها حادثة الناضور، تتراءى لي، موجة من الأمواج في بحر العالم البهائي النامي الزاخر بالأحداث الخاضعة لمبادئ يحكمها التقدير الإلهي الذي يُظهر خفياته في مراحل تطور مساره الذي تهيمن عليه عناية الله وقدرته الغالبة التي تشمله كما شملت مسار كل دين من الأديان في الأدوار السابقة.

إنها نفس العناية والقدرة الإلهية الخفية التي رشحت فئة من الشبان لتصنع الحدث، أو على الأصح، صنعت الحدث لهؤلاء الشبان الذين لم يكن بإمكانهم، بجميع المقاييس، أن يرشحوا أنفسهم للتفكير في صنع أي حدث هام يخالف الأعراف في مجتمع تقليدي، حتى لو توفرت لديهم الوسائل والأسباب. فما بالك وهم المستضعفون في مواجهة اعتراض الجميع.
تعيد هذه الحادثة إلى مسرح الحياة، حكاية الأقوياء الذين يحاولون القضاء على الضعفاء في حلبة الصراع بين عشاق الحرية وبين جلاديها، بين الذين يضحون بحياتهم في سبيل عقيدتهم وبين الذين يضحون بحياة غيرهم في سبيل قناعاتهم ومصالحهم، بين الذين يذرون الرماد في العيون وبين الذين تنورت بصائرهم بنور الإيمان، بين الذين يعشقون الحب في الحياة وبين الذين لا تهاب قلوبهم ولا ترتجف أيديهم من سفك الدماء.

وككل قصة لا بد أن يقوم المتفاعلون فيها بأدوارمتميزة، منهم من يقع عليه عبء أحداثها ومنهم من يشارك في نسج خيوطها ومنهم من يساهم فيها بما دون ذلك، لتكتمل القصة ويخرج منها القارئ بالعبرة المنشودة.

وميزة هذه القصة أنها لم يبتكرها الخيال ولكن نسج خيوطها أشخاص واقعيون، مثلك ومثلي، وتحكم القدر في مصيرها الذي تميز بانتصار القيم الإنسانية وقوانين العدالة عندما أسدل الستار عليها في النهاية.

****

1- مدينتي الهادئـــــــــــة

أ - مرابع الصبـــــــــــا.

لـــم تعد مدينتي كما عهدتها، محارة جميلة بيضاء، فاتحة ثغرها الباسم العريض على الماء، متربعة على عرش موقعها المشرف على البحيرة الرائعة، في أقصى شمال شرق جبال الريف، تحتضنها بقوة أذرع كتلها الثلاثة الخالدة، بينما يمدها سخاء بسيط "بوعرق" بخيرات تربته المعطاء.

لم تعد كما كانت، بعد أن اكتسح أطرافها تيار التوسع العمراني بوتيرته المتسارعة الذي لا يعرف جشعه الهوادة والانضباط، مثل اخطبوط تمتد أذرعه في كل اتجاه دونما انسجام، لدرجة أن العائد إليها بعد غياب طويل، لا يهتدي إلى منزله القديم إلا بعد حيرة وارتباك.

منظر موقع المدينة من الجو

تفتح مدينتي عيونها، كل شروق، على الأنوار المتلألئة على صفحة بحرها اللامعة الصافية التي تعودت الشمس إرسالها من الأفق الأزرق شعاعا ذهبيا، يرسم قبلة الصباح الدافئة على الثكنة وعلى سفح الحي العسكري والمدني الآهلين بالفقراء من سكانها، لتتفقد سطوح مساكنهم الآيلة للسقوط، ثم تغمر بالضياء باقي مبانيها وخط ساحلها، ليسري نورها ودفؤها المنعش في بيوتها، فيستيقظ أهلها مستبشرين بالحياة في يوم جديد .

نادرا ما يهزّ العنف أعطافها، وحتى عندما تغضب الطبيعة وتهيّجها الرياح الشرقية المشاكسة، فإن قوتها الكاسحة إنما كانت تكنس شوارعها المغبرّة من العلب المتناثرة وأوراق أشجارها المتساقطة؛ وإذا انفجرت عيون السماء وأسالت غيومها دموع الرجاء، إنما لتغسل وجه المدينة من أدرانها بدلا من شاحنات الماء الرشاش الذي كانت تقوم به مصلحة البلدية أيام الحماية البائد للتخفيف من حدة حرارة جو الصيف؛ وإذا ماج البحر وارتفعت أمواجه عالية فمن أجل غسل ساحله واقتحام جدران المنازل القريبة، يدق أبوابها وجدرانها احتجاجا على تصرفات وعقوق سكانها الذين يصرفون إلى أحشائه مياه مجاريهم العفنة ويلوثون بيئتها السليمة. لكن الطبيعة سرعان ما يتسع صدرها، فتكفكف غضبها وتعود إلى طبيعتها الهادئة، كأنما تتمثل بقول الشاعر:

كن كالنخيل عن الأحقاد مرتفعا بالطوب يُرمى فيرمي أطيب الثمر

***

إنها "الناضور" التي تختزن ذكريات طفولتي وبداية شبابي ... بناها الأسبان ليحققوا، تحت مظلة الإصلاحات، أغراضهم العسكرية والاقتصادية والسياسية والدينية، ونصبوها عاصمة إقليمية لشمال شرق المغرب الشمالي، رغم صغر حجمها وقلة عدد سكانها.

بنيت أغلب مبانيها المحاذية للبحر على شكل مربعات هندسية متقاطعة، لا يزيد علوّ منازلها العالية عن الطبق الواحد ، خالية تماما من العمارات الشاهقة ، تفصل بينها شوارع منتظمة، تحيط بها شمالا، بحيرة عظيمة يطلق عليها" ربحار أمزيان " أي البحر الصغير بالأمازيغية أو "مار شيكا" بالاسبانية.

استفاد الأسبان من موقعه المتميز، فشيدوا عليه مقهى صغيرا غرست قوائمه في صخور غور مياه البحر. أوصلوه برّا بقنطرة تمكّن الوافدين عليه من الولوج إليه، دشنوه باسم "النادي البحري"، يتراءى شكل بنائه مثل سفينة راسية في الميناء، تعلوها شرفة تنتصب عليها، أيام الحفلات، الجوقة الموسيقية التابعة لبلدية المدينة.

الناضور في أول نشأتها

يطوّق مبناه الرئيسي ممر عريض، ينتهي بسياج من الألواح الخشبية، تحول دون سقوط المارة في مياه البحر.
كثيرا ما كنا نحن فتية المدينة، في غفلة من أهلها، نتجرأ على تسلق تلك الأخشاب متنافسين في ليالي الصيف الساخنة والقفزمن علیائها في مياه البحرالمنعشة.
وعلى جنبات الممر، تتناثرالكراسي والطاولات، خدمة للزبناء الذين يؤثرون الجلوس في العراء، ويعشقون مشهد البحر الممتد على مرأى البصر، مستمتعين بلمسات نسيمه الناعمة، وأشعة الشمس الدافئة، بينما يفضل غيرهم الاسترخاء والاستظلال في الفضاء المغلق داخل المقهى حيث يسرحون بنظرهم بعيدا عبر النوافذ الزجاجية.

كثيرا ما كان "النادي البحري" والبحر حوله، يزين في الأعياد بالأعلام الملونة الخفاقة التي كان بعضها مثبتا طافيا بنظام معين في عرض البحر، وبعضها متصلا بحبال مزينة ممتدة حول المبنى، فيتحول البحر إلى مهرجان لسباق الزوارق الشراعية التي تنساب بين أمواجه الساكنة وتميل أحيانا مع لمسات الريح الناعمة وأحيانا أخرى مع الاتجاه الذي تريدها لها مهارة ربانها .

وعند نهاية الخليج حيث تمتد نتوء جبلية في البحر، شيدوا مرأبا، تأوي إليه الطائرات المائية بعد أن تقوم بحركات بهلوانية في عنان السماء لتنزلق على سطح مياه البحر في منظر يبهر الناظرين .
يمتد على طول الساحل جدار منخفض تكسو سطحه طحالب زلقة، قد توقع في البحر من يجازف بالمشي عليه، خاصة الأطفال الأغرار الذين قد تبتلعهم مياهه إذا لم يسعفهم أحد، كما حدث لي في أول طفولتي. وفي نفس الوقت يحمي المباني القريبة من طغيان الأمواج العاتية في أيام الشتاء العاصفة.

تنتصب عند نهاية الرصيف التلة المحاذية للميناء، تتوجها قبة حارس المدينة ولي الله "سيدي علي البحري" الذي يعد المتنفس الوحيد المباح لزيارة النساء، دون الرجال، قصد التشكي والاستشفاء والاستشفاع ب" الولي " والاستعانة ببركته على قضاء حاجاتهن وإزالة كربهن، والترويح عن النفس من الإقامة الإجبارية المفروضة عليهن في منازلهن.

يربض الجبل والثكنة العسكرية المشرفة على المدينة، قبالة المقهى. يحاذيه الطريق المعبد والسكتان الحديديتان الناقلتان خامات الحديد والرصاص والزنك من مناجم المنطقة عبر المدينة، لتفرغها في ميناء " مليلية " أو " روسادير " العريقة، كما سماها بناتها الفينيقيون، أثناء مغامراتهم التجارية في العهود التاريخية القديمة.
لا يفصل مدينة "الناضور" عن "مليلية" إلا مسافة عشر كيلومترات، ولا يربط بينهما إلا طريق معبد واحد، يحاذي الثكنة العسكرية ، ليتوغل في أعماق البلاد بعد أن يفصل المدينة عن الحيّين العسكري والمدني اللذين يحتلان مكانا مرتفعا على سفح الجبل الذي تنبت عليه مساكن متواضعة ، أقرب ما تكون إلى الأكواخ منها إلى المنازل، إلا قلة منها، خصصت مبانيها لأصحاب الرتب المتواضعة في الجيش.

في حي هذا السفح، حشر الجنود المغاربة العاملون في صفوف الجيش الاسباني. وعند قدمه بنيت لأبنائهم الصغار مدرسة اسبانية، يلتحق بها الذين أسعفهم الحظ ، وأتيحت لهم فرصة تعلم أدوات التعلم الأساسية والاستمتاع وسط فترة الظهيرة برغيف صغير أبيض تتوسطه قطعة « الشوكولاتة » تشجيعا لهم على الاستمرار في الدراسة، التي قلما كان يهتم بها أولياء أمورهم الذين قد يدفعهم الحافز الديني إلى العزوف عن التعليم الذي يقدمه الاسبان، فيلحقون أبناءهم بالكتّاب القرآني.

كثيرا ما كان هؤلاء الصغار يتسلقون صخور سفوحه الوعرة ، أو يشاركون في حملة غرس شتل الأشجار، بمناسبة يوم عيد الشجرة.

*****

ب– حياة السكان والعلاقات بينهم

أدت المواجهة الدينية بين الإيبريين المسيحيين، بعد اكتشافاتهم الجغرافية الكبرى، وبين العالم الإسلامي، إلى احتلال مدينة "مليلية" سنة 1497، لتبدأ مرحلة جديدة من التفاعل بينهم وبين القبائل المغربية المقيمة على الحدود، تتناوبها المناوشات الحربية حينا والتعامل التجاري حينا وعمليات التهريب دائما.

وفي بداية القرن العشرين هيمن الإسبان على هذه الجهة من العالم التي لا تقوى الفلاحة المعيشية على سد حاجات سكانها الغذائية، فاضطر الكثير من شبانها، بدافع الفقر وظروف العيش القاسية، في سنوات الجفاف المتعاقبة، إلى الإقبال على العمل في الجيش الاسباني، إذا وجدوا إليه سبيلا، خاصة أثناء فترة الحرب الأهلية الاسبانية، التي عرفت نهايتُها بداية الحرب الكونية الثانية، فعرف الإنتاج الغذائي نقصا تمخضت عنه المجاعة والوباء، جعل عددا مهما من عناصر جيش الأسبان في "الناضور" يتكون من المغاربة الذين كانوا تحت إمرة الضباط الأسبان أو الضباط المغاربة القلائل.

كان لهذا الجيش، ذي الوحدات المغربية، الأثر البعيد والحاسم ، ليس في مجال تهدئة القبائل المغربية الثائرة على الاحتلال الاسباني فحسب، ولكن أيضا، في مسار الحرب الأهلية الاسبانية وما تلاها من حكم عسكري لم يخضع لقبضته الشعب الاسباني قرابة أربعة عقود من تاريخه المعاصر فحسب، ولكن ما عاناه سكان الريف أيضا من مجاعة وأمراض أودت بعدد لا يستهان به من السكان .

***

كان الأسبان لا يدعون مناسبة دينية أو وطنية دون الاحتفاء بها، وإقامة المهرجانات والحفلات البهيجة، سيرا على مزاجهم المعهود. فتنتصب الجوقة في شرفة "النادي البحري"، وقد تنصب لها منصة خاصة في الساحة المجاورة، لتشرع، منذ ساعات المساء الأولى، في عزف الألحان التي يرقص على أنغامها ذكور الأسبان وإناثها، على طول الكورنيش والشارع الممتد من النادي إلى مقرّ إدارة الحاكم.

يقضي الناس كامل يومهم، في مشاهدة الأنشطة الاحتفالية المتنوعة، التي يتم فيها استعراض الجديد من سيارات الميسورين، الحاملة على أجنحتها جميلات عذارى المدينة، والاستمتاع بمشاهدة أنواع الرياضة التي تمتزج فيها كرة القدم والملاكمة وسباق الدراجات والسفن الشراعية، إلى اللعب البهلواني للطائرات في عنان السماء التي تنتهي بالانزلاق على صفحة مياه البحيرة، كما يفتح المسرح أبوابه للاستمتاع مجانا بالتمثيليات والغناء والرقص الفولكلوري الأندلسي المثير.

إلى جانب مظاهر البهجة الاحتفالية الاسبانية، كان الأهالي المسلمون يحيون احتفالاتهم الدينية بمناسبة عيد الأضحى، بصفة خاصة. فيعمد بعض الشباب إلى ارتداء فروة أضاحي العيد، ووضع الأصباغ على وجوههم، سائرين عبر شوارع المدينة، من بيت إلى آخر، يحاولون إدخال البهجة على المحتفين وتليين أكف كرمهم، وهم يرقصون على ضربات الطبول والمزامير في حركات تخيف الصبية، بقدر ما تثير جرأتهم، فيتعمد الراقصون من حين إلى آخر الهجوم عليهم، مما يزيد موكبهم إثارة وبهجة.

كما كان الموسم السنوي لزيارة " أورش"، إحدى الزوايا الدينية قرب "مليلية"، مناسبة لتوافد مختلف القبائل التي تشد إليها الرحال، مارة عبر "الناضور"، تحمل أعلامها وتردد أورادها الصوفية المتميزة.
كانت مناسبة عيد "الفصح" التي تشد إليها الرحال بدورها، لا تقل إثارة واجتذابا للناس. تجند لها الكنيسة الكاثوليكية كل إمكانياتها، و تخرج موكب "المسيح" عبر أهم شوارع "مليلية" في مسيرة دينية رهيبة، ترافقه دقات الطبول في وتيرة متأنية رتيبة، تضبط خطوات المرافقين الحاملين لتماثيله. فيصطف الناس صفوفا على جانبي الشوارع التي يمر بها الموكب، تشرئب أعناقهم إلى مشاهدة مكونات الاستعراض، وتحملق عيونهم في تماثيل السيد المسيح المحمول على المنصة، وفي القساوسة والمؤمنين التائبين والناذرين، أمامها وخلفها، يحملون على أكتافهم الصلبان الخشبية الثقيلة، أو يجرّون أرجلهم الحافية المقيدة

بالأغلال والسلاسل الغليظة، أو يزحفون على ركبهم أو يجلدون بالسياط ظهورهم العارية الدامية، تذكّرا لآلام السيد "المسيح" في طريقه المؤلمة إلى محنة الصلب.
كانت هذه المناسبة في إثارتها تماثل مناسبة استعراض قوة الجيش المهيب الذي يستعرض فيه الحكم العسكري عتاده وقوة عضلات جيشه المفتولة، خاصة فرقة "ليخيون" (المرتزقة الأجانب) بلحاهم الكثة وأكمام قمصانهم المطوية وأوشامهم البادية على صدورهم وأذرعهم، ويعبئ لها كل الإمكانيات، بما فيها قطار الشحن لتنقل عرباته عناصر الجيش من ثكنات المنطقة المجاورة قصد تعزيز الاستعراض.
أما المفلسون، من فتيان المغرب، الراغبون في الحضور إلى" مليلية" لمشاهدة المهرجان، فما عليهم إلا أن يقطعوا المسافة سيرا على الأقدام إن لم يسعفهم حظ التشبث بجوانب عربات القطار.

***

شغل معظم الأسبان المناصب الإدارية والعسكرية السامية والأعمال التجارية المهمة، بينما تولى المسلمون الوظائف الإدارية والعسكرية الثانوية، إلا نفر قليل شغلوا وظائف صورية هامة، سواء في الإدارة "المخزنية" التقليدية أو الإدارة الجديدة التي أقامتها سلطة الحماية، أما الأغلبية الساحقة من الساكنة النشيطة، فكانت تكسب قوتها كعمال مأجورين أو تجار تقسيط أو جنود يأتمرون بأوامر قيادة الحماية.

كان هذا المجتمع المختلط مجتمعا رجاليا بامتياز، أما النساء، إسبانيات كن أم أمازيغيات، فإن عملهن يقتصر في الغالب على شؤون البيت.

وكان من السهل على عين المراقب العادي، أن يلاحظ الفرق الواضح بين المنزل الاسباني والمنزل المغربي حتى في الحالات التي يتجاورون فيها. فبينما تشاهد شرفات منازل الأسبان تزينها الزّهريات، وتبقى أبوابها مفتوحة يستطيع المار أن يرى سيدة البيت بارزة جالسة أو منهمكة في عمل المطبخ أو التنظيف، تردد الأهازيج وتتغنى بأغاني ال"كوبلا" الشعبية بصوت رخيم، أو تراها متأنقة في طريقها إلى السوق"بلاسا" لتقضي حاجات أسرتها الغذائية اليومية، ترى بيوت الأهالي مغلقة على نفسها، تشعرك وأنت تعبر السبيل قريبا منها، أن عينا تراقبك من وراء ثقب الأقفال أو قد ترمق الباب يفتح أو يوصد باحتشام.

وحتى في البوادي حيث تخرج المرأة سافرة من البيت لجلب الماء من العيون أو الاحتطاب من الغابة المجاورة، وتشارك زوجها أحيانا في أعمال الفلاحة إلى جانب قيامها بالأعمال المنزلية التي تقتصر عليها، فإن نساء المتميزين من الرجال ما كان لهن أن يخرجن من منازلهن بل " يقرن في بيوتهن " حتى لا تقع عليهن العيون.

أما المتسوقات من النساء الأمازيغيات، فإنهن، من الأرامل المتقدمات في العمر غالبا، يتجهن إلى السوق بسلالهن القصبية وهن يأتزرن إزارا أبيض يشد طرفيه ممسك " خلالة " فضي تقليدي على الجانب الأيسر من صدورهن، بينما يشددن وسطهن بزنّار زركشته بالألوان الزاهية مهارة يد الصانع التقليدي، ويثبّتن أطراف ظفائر شعراتهن المخضبة بالحنّا، في جانبي دائرة العمائم البيضاء اللائي يتوّجن بها رؤوسهن.

وقلما تشاهد العيون نساء خواص مجتمع" الناضور" في المرافق العمومية، خاصة إذا كنّ من الأسر المحسوبة على الأشراف المنتمية إلى الرسول أو إلى جدّ اشتهر بالتدين وشاعت بركته أو إلى قاض يحكم بين الناس أو فقيه يقرئ الصبية ويعلم الدين و يؤم بالمسلمين في أوقات الصلوات.

***

رغم هذه الفروق الظاهرة بين المغاربة والأسبان وغيرهم، فإنهم كانوا يتقبلون بعضهم البعض ويعيشون في تسامح كامل من الناحية الدينية. يعتقد كل فريق منهم في صحة دينه، يلقنه لصبيته ويعلمهم مزية تعظيمه زارعا في تربة وجدانهم الخصبة بذرة التعلق به، ويسقيها ويرعاها إلى جانب زؤان الكراهية والنفور من معتقدات وطقوس الذين لا يشاطرونه دينه وتقاليده. يحذرهم أحيانا حتى من معرفة ما يعتقده الذين يشاهدهم يوميا في أعمالهم وفي مناسبات تعبدهم في معابدهم، أو قد تضطره الحاجة إلى الاحتكاك بهم.

وإذا ما اشتد عود المولود مسلما، ترسب في وعيه أن الإنسان على كوكب الأرض، عاش في ظلام دامس، إلى أن أشرقت شمس الرسالة المحمدية، فأخرجت الناس من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام، دون أن يتوقف للتأمل واستيعاب مرامي التشبيه والمثال، في حدود الزمان والمكان، مثله في ذلك مثل اعتقاد الأجيال التي عاشت قبل الاكتشافات الجغرافية الكبرى، بعدم وجود أي شيء خلف مياه المحيط الأطلسي في البعد المكاني، إلا الفراغ والظلام.

ومنهم من اعتقد، في غياب المعلومات الجغرافية والفلكية الصحيحة، أن الشمس تشرق من الكعبة، نظرا لما رسّخه كثرة السماع من أن القبلة تقع جهة مشرق الشمس أو ما سمعه من المفسرين الحرفيين لقول الله تعالى في القرآن الكريم:

" حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما ..."[1]

ورغم المعرفة الشخصية والاحتكاك اليومي القائم بين المسلمين والمسيحيين، إلا أنهم لا يعرفون عن دين بعضهم البعض، سوى ما تلقنوه من رؤساء دين مجتمعهم، الذين حرصوا على تلقين فريقهم ما يبعده عن الآخر: فالمسلمون ينكرون على المسيحيين عبادة التماثيل وأبوة الله، ويبررون غلبة وتقدم الكفار بذريعة ما تتناقله الأقوال من: "إن الله يسلط القوم الكافرين على القوم الظالمين، وإن الله أعطاهم هذه الدنيا الفانية بينما أعطى المسلمين الجنة في الحياة الباقية"، معززين قناعتهم بقوله تعالى في سورة الشورى:

" من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب"

والمسيحيون بدورهم يستنكرون على المسلمين غباء اتّباعهم هذيان رجل أصيب بمرض الصرع، ويستدلون، على ضلالهم وبطلان دينهم، بما يبدو عليهم من التخلف الحضاري وانحطاط مستواهم الأخلاقي والمعيشي.

مما أدّي إلى الاقتناع بأن دين الآخرين ضلال ، لا يقبله الله ، ولا يؤدي إلى النجاة من عذاب الجحيم، ولا يحقق الراحة والاستمتاع في جنة النعيم، ولا يستحق أكثر من الازدراء واللامبالاة، كأنهم يجسدون قول العليم الخبير:

" وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون"[2]

وبذلك احتجبت قوة الروح التي تجلت عبر هيكل السيد "المسيح"، وهذبت قيمها نفوس المقبلين عليها لدرجة استرخاص أرواحهم في سبيلها، ورفعت الأمم والأقوام المؤمنين بها إلى علياء مدارج السمو والارتقاء... وأصبحت تماثيل رموزها مجرد أوثان وأصنام في نظر البعض! مثلما صار الوحي الذي أنزله الروح الأمين على قلب « محمد » في " يثرب " و "البطحاء "، واستفاضت منه نفوس وأرواح من قبائل وأمم

---

[1] - **القرآن : سورة الكهف . آية : 86**

[2]- **القرآن : سورة البقرة : آية : 113**

شتى، أثمرت حضارة امتدت آثارها إلى مشارق الأرض ومغاربها... مجرد هذيان وثرثرة، في نظر الآخرين!

لله ما أشد ضلال وتعسف التعصب الأعمى، وما أبعد أثر سمومه إذا تفشى في عقول ونفوس الورى !
على ذلك يترعرع الصبي، وينشأ في ضميره شعور باحتقار واستصغار دين الآخر وكراهيته. وقد يتبلور هذا الإحساس و القناعة الدينية، مع مرور الوقت وتمكّن الجهل وتعزيزه، إلى ترسّب الاعتقاد بأن الذين ليسوا على شاكلة دينه، لا يحملون في قلوبهم المشاعر الروحانية.

ومن مظاهر المخزون الذي يعزز هذا الاعتقاد، ما كان يدفع بشيطنة الصبية أحيانا، إلى استغفال صغار اليهود أيام السبت عند باب كنيسهم، فيشنون الهجوم عليهم لخطف القلانس الصغيرة التي تغطي قمم رؤوسهم، أو يبصقون على باب الكنيسة المفتوح على صليب ضخم قبل إطلاق الساقين للريح .

ولا أدل على أثر الكراهية المستحكمة في الضمائر التي قد تولد الغثيان، ما سمعته من أن:

أحد الكهربائيين كان عليه أن يصلح عطبا في مصباح سقف مجزرة، من مخلفات الاستعمار، وبينما كان يعالج العطب، وهو في أعلا السلم، التفت إلى شيء لامس رأسه، فإذا به فخذ خنزير جافّ يتدلى، فأصابه غثيان أفقده التوازن وأوقعه على الأرض.
هكذا تكونت مشاعر الاحتراز و النفور من الآخر في فطرة النفوس البريئة، وحال ما بناه الآباء والمساهمون في تنشئة الأبناء، من جدران التعصب العالية المنيعة ـ التي ليست أقل مناعة من الجدران الفاصلة التي شيدتها بعض الدول المتقدمة ـ دون المعاشرة والمودة الحقيقية بين أتباع الأديان المتواجدة في المجتمع الواحد. وكأنما القوم متفقون على تكفير بعضهم بعضا في جو من الكياسة والتقدير والاحترام، في وقت لم تكن مؤسسات الأديان قد بادرت بالدعوة إلى حوار الأديان، أو قبلت الاشتراك فيه.

ويبدو أن مرحلة الاستعمار التاريخية، رغم مساوئها، قدمت مجالا من التقارب والاختلاط بين شعوب الشرق والغرب بشكل لم يسبق له مثيل، وسمحت ظروفها، بالتقاء الثقافات الغربية والشرقية في مجال جغرافي مشترك واحد، لم يستشعر فيها زعماء الأديان بشائر التغيير ولم يستوعبوا المؤشرات الدالة على التقارب بين الشعوب والثقافات والأديان.
أما العامة، فقد سلمت كعادتها، مقاليد دينها لفقهائها، وظل كل متمسّك بدينه محافظا مع إخوته في الدين، على مبرّرات إيمانه التي يعززها بكل فكرة ترمي إلى تقوية حجته، متجاهلا دين الآخر ولا يتعامل معه إلا بحذر وفي حدود ! ولا تتطرق إلى خاطر أي منهما فكرة الاقتراب للاطلاع على ما يتعبّد به جاره! وإذا طرقت البال، أبعدها عنه في الحال قبل أن تلحق به اللعنة.

وكان المتعلمون القلائل المطلعون على العلاقات التاريخية بين مسلمي شمال إفريقيا وبين نصارى جنوب غرب أوربا بالخصوص، يختزلون الفرق بينهما في اختلال ميزان القوى الذي رجح كفة النصارى. وكان للدين المسيَس، من البداية إلى النهاية، دور القدّاحة في إشعال فتيل هذا الصراع الطويل الدموي المرير.
على أن ظاهرة هيمنة الشعوب النصرانية الأوربية اليوم على الشعوب الإسلامية وغيرها من شعوب العالم، لا يرجع أساسا في نظر بعض المفكرين إلى الصراع القائم بين شعوب الأديان المتجاورة، بقدر ما يعود إلى الصراع القائم بين الثقافة المادية التي برزت قوتها في غرب أوربا واكتسحت العالم بتفوقها العلمي والتكنولوجي، وبين قوة الروح التي خمدت جذوة نورانيتها في قلوب أتباع الديانات السماوية.

***

إن ربط علاقات بين الفريقين، مثل المصاهرة أو الرغبة في التجنّس بالجنسية الاسبانية، كان ضربا من المحال، إلا في ما ندر، بالنسبة للذين قرروا أن يختلطوا بالأسبان ويتبنوا نمط عيشهم منهجا لهم في الحياة،

دون أن يعيروا الاهتمام لشعور ذويهم المشمئز منهم، فضلا عن نظرة مجتمعهم المشفقة عليهم. فانفصلوا بذلك عن مجتمعهم التقليدي.

على أنه حتى لو تخلى الواحد منهم عن تقاليده وجنسيته الذي لا يختلف، في المفهوم العام يومذاك، عن التخلي عن الدين، ما كان له أن ينسى هويته وجذوره التي تظل حية في الأعماق، لا تلبث أن تلتهب جذوتها عند تحريك رمادها. مثلما حدث للضابط المغربي الأمازيغي الذي وإن ترعرع منذ نعومة أظافره في الثقافة الاسبانية، ولفت ذكاؤه في طفولته اهتمام ملك اسبانيا نفسه، واعتلى أعلى المناصب العسكرية، ومضى على اندماجه في الثقافة والعيش الاسباني ردحا طويلا من الزمن، إلا أنه ما أن تزوجت ابنته سرا، بضابط اسباني مسيحي، حتى انتفض بركان الغضب في أعماقه الهامدة، بما خرجت ابنته عن التقاليد المرعية والأصول العريقة.

وما كان ليليق به أن يحتج علنا في المناخ الاجتماعي واللحمة المهنية التي كانت تربطه بزملائه الضباط ومعارفه الاسبان، فكتم الغيظ على مضض، إلى أن واتته الفرصة عندما قبل الاستجابة للدعوة التي وجهها له "محمد الخامس" إثر استقلال المغرب مباشرة ، للمساهمة في تكوين الجيش المغربي ..

آنذاك، وجّه دعوة إلى ابنته لتزوره في المغرب رفقة زوجها الضابط الكاثوليكي، بذريعة التصالح وإنهاء ما بينهما من الجفاء الذي امتد أمده طويلا.

ما أن وطئت أقدام الضابط الاسباني أرض المغرب مع زوجته، حتى أمر بطرده. ولم تنفع بعد ذلك جميع محاولات الضابط لاسترجاع زوجته، بما فيها التظلم لدى رئيس دولته، الصديق ورفيق السلاح الحميم ذي الدالة الكبيرة على الضابط المغربي الكبير. كما أوردت ذلك اليومية الاسبانية "إل بايس":

" ترك بين الشباب الضباط الأسبان ذكرى، ليس في مجال تطرفه فحسب، فقد تزوجت إحدى بنات "أمزيان" عن طريق الكنيسة وفي السرّ، نقيبا عسكريا توسل الزوج إلى "فرانكو" أن يتوسط ، لكن الأخير أعاره أذنا صمّاء "[3].

لم تكن هذه الوضعية مقتصرة على علية القوم، وإنما كان شعورا عاما متمكنا من وجدان جميع الفئات الاجتماعية، مسلمة مغربية أو مسيحية اسبانية، سواء في أيام الحماية أو بعيد ذلك.

ولا أدل على ذلك مما حدث، إثر بعض التقارب الحاصل بين الشبان المغاربة والشبان الأسبان الذين لم يغادروا "الناضور" بعد السنوات الأولى من عهد الاستقلال.

فقد حدث أن فتاة اسبانية توصلت بمراسلة غرامية من شاب أبى الكشف عن نفسه، فاعتقدت أن مراسلها أحد المغاربة الذي كانت تستلطفه في فريق الرفاق الذين يسيرون مع بعضهم البعض ومعها في الشارع الرئيسي، كل مساء تقريبا، على العادة التي خلفها الأسبان.
كان من عادة كاتب الرسائل الغرامية أن يضع خطا في أعلا الورقة يوصله بخط آخر في المراسلات المتعاقبة، إلى أن اكتمل صليبا في إحدى الرسائل... فتأكدت الفتاة أن المرسل الذي يخاطب ودّها لا يمكن أن يكون إلا مسيحيا. فمال اهتمامها إلى النظر في رفاقها الأسبان إلى أن تم لها اكتشافه والتعرف عليه. وانتهى انجذابهما إلى بعضهما في النهاية، برباط الزواج المقدس السعيد.

***

كان المسلمون معجبين بنظام المسيحيين وانضباطهم في أداء الأعمال، ويقدرون سلوكهم ويتباهون به أحيانا مباهاة لا تقل عن إعجاب وإقرار الشيخ "محمد عبده" في عبارته الشهيرة بفضل المجتمع الفرنسي على المجتمع الإسلامي، عندما زار بلدهم في آخر القرن التاسع عشر.

---

[3] - إل بايس: جريدة يومية اسبانية، نشر في 4 يونيو 2006

أو كما صرح أحد العامة من أهل البلد، عندما التحق بمستشفى الصليب الأحمر "بمليلية" الذي يعالج بالمجان الجنود المغاربة الذين كانوا تابعين للجيش الاسباني، بعد أن جرب العلاج في مستشفى "الناضور". قال:

" ما أعظم اهتمام الأطباء الأسبان بالمريض وعناية الممرضات، " إيرماناس" أي الأخوات الراهبات، ولطفهن وصبرهن على خدمة المتألمين من المرضى ". لينهي إعجابه كلما حكى تجربته هذه بالقول: " إنهم المسلمون الحقيقيون لا تنقصهم سوى الشهادتين ".

وما كان هذا الإطراء ليمنع أي مسلم من أن يعتبر اتهامه بالمسيحي مسبة كبيرة لا يرتضيها أحد، وإذا نعت باليهودي فإنه يعتبر ذلك إهانة ما بعدها إهانة، قد تنتهي في الغالب بما لا تحمد عاقبته. ولو حدث، وقلما يحدث، أن اتهم مسيحي بمسلم " مورو"، فإن رد فعله لن يكون أقل من رد فعل المسلم المنسوب إلى المسيحية أو اليهودية.

*****

ج - بداية النهايـــــــــة.

فـــــي آخر النصف الأول من القرن العشرين، هبت رياح التغيير تنفخ روح الانتفاضة في الشعوب المستعمرة، وتمخضت عن الحرب الكونية الثانية هيمنة حركات اليمين واليسار المعادية للتوسع الاستعماري التقليدي القائم في إفريقيا وآسيا، الداعية إلى استقلال الشعوب في مختلف القارات.

ألحت الحركات الوطنية بدورها على المطالبة باستقلالها، وعرضت مبررات مطالبها في مختلف الأندية التي تتبنى مطالب الشعوب بحقها في الاستقلال وتقرير المصير، كما رفعت قضيتها إلى منبر هيأة الأمم المتحدة الحديثة العهد بالتأسيس، خاصة وأن ثلاثة من دولها الخمس الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن الذين يتمتعون بحق النقض " الفيتو "، ليست لها مصالح ترابية استعمارية تقليدية.

اضطرت الحكومة الفرنسية والحكومة الاسبانية بالتبعية، تحت الضغط الوطني الداخلي والرأي العام المتنور الفرنسي والعالمي إلى إلغاء معاهدة الحماية التي لم تدم أكثر من أربع وأربعين سنة، والتي أعلن عن زوالها الملك "محمد الخامس" عام 1956 بعد عودته من المنفى الإجباري، في أول خطاباته للشعب يزف له بشرى:
" نهاية عهد الحجر و الحماية و بزوغ فجر الاستقلال و الحرية ".

بدأ العهد الجديد، عهد فاصل بين عهد أُجبر فيها الشعب المغربي على العيش تحت وصاية الحماية التي تحكمت في مصير أبنائه واستنزفت خيرات بلاده، وبين عهد أشرق فيه فجر الاستقلال، فنبضت قلوب الشباب بالطموح إلى مستقبل زاهر، يتحررون فيه من الفقر والجهل والمهانة والاستبداد، و يرتفع فيه مستوى معيشتهم إلى حد لا يقل عن مستوى رخاء المستعمر الذي كانوا يرونه السبب في الحرمان الذي أجبروا على العيش فيه.

أخذ المواطنون يستعدون لتبوّء المناصب واستلام أعمال المعمرين والأجانب، الذين شرعوا زرافات وفرادى، يغادرون أنشطتهم في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والعسكرية والخدماتية التي كانوا يزاولونها في المدينة ونواحيها، ليحل محلهم المغاربة الذين أصبحوا يملكون ناصية أمرهم ويتحملون مسؤولية تسيير شؤون بلدهم بأنفسهم.

يا لسحر تلك الأيام ! التي كانت فيها الاستجابة الفورية القلبية، باسم الروح الوطنية، دونما اهتمام بالأجر مقابل العمل، كافيا لصرف المزيد من الوقت والجهد لخدمة الوطن وتقديم دروس إضافية لمحاربة الأمية أو شق الطرقات أو...

***

كانت الحاجة ماسة، سواء على المستوى المركزي أو الإقليمي أو المحلي، إلى الموارد البشرية، ومن ثم الاهتمام بالتعليم والتكوين وإعداد الأطر والعاملين بسرعة واستعجال لملء الوظائف الإدارية الشاغرة ومتطلبات الدولة الناشئة.

ذلك أن اهتمام الناس بالتعليم ضئيل، أيام الاحتلال، وحجتهم ما ترسّخ في قناعتهم، أن الناس قسمان : قسم متعلم مفكر يتولى الحكم، وقسم أمي خاضع يتولى العمل. استنادا على القول السائر " إذا أنت أمير وأنا أمير، من يسوق الحمير ؟ ". ومن تلك الفئة القليلة المهتمة، من كان يعارض التعليم العصري الذي توفره المدارس الحكومية التي تشرف عليها سلطات الحماية ويتعلم فيها المتعلمون المغاربة لغة وتاريخ وجغرافية بلد المستعمر أكثر بكثير مما كانوا يتعلمون لغة وتاريخ وجغرافية بلدهم. مما عزز الاعتقاد أن ذلك التعليم يقود إلى الكفر، كما تدل عليه مقولة: " من تشبه بقوم فهو منهم". لذلك أسس بعض الوطنيين المتنورين المدارس الحرة في بعض المدن، حفاظا على الهوية الدينية واللغة العربية، لغة القرآن، التي لم تكن المدارس الحكومية لتهتم بها كثيرا.

أما سكان القرى، فقد كانت نسبة
المهتمين منهم بالتعليم هزيلة، يدفعهم الوازع الديني الصرف، في الغالب، إلى إلحاق أبنائهم ب"الكتّاب" حيث
يحفظون القرآن ثم يتجهون بعد ذلك إلى جهات أخرى في قرى الأرياف، التي تتناقل الأخبار وجود "فقيه" بها مطلع على بعض العلوم التقليدية، فيتتلمذون عليه في مسجد القبيلة التي تتولى تموين "الطلبة" المغتربين الذين عادة ما يسعون إليه متناوبين، كل مساء، والكلاب تطاردهم، لدى أسر القبيلة.
لم تكن تتوفر مدرستا التعليم الديني والتعليم الثانوي العصري بالناضور إلا على بعض الفصول

الناضور حديثا

الدراسية في مستواها الأوّلي، فكان على الطلبة الراغبين في استئناف دراستهم أن ينتقلوا غربا، مسافة تزيد على 400 كلم، في حافلات متعبة، عبر طريق جبلي وعر، إلى مدينة "تطوان" العتيدة التي نزح إليها المسلمون الأندلسيون الوافدون من اسبانيا وعمروها بعد أن أرغمهم الملوك الكاثوليك على الاختيار الثلاثي: "مغادرة البلاد، التنصير أو الموت" ثم اتخذها الأسبان عاصمة لمنطقة احتلالهم ومركزها الإداري والعلمي، ومقرا لخليفة السلطان في شمال المغرب.

هناك، يقضي الطلبة الوافدون عليها سنتهم الدراسية بين أقرانهم، يتشاركون في كراء بيوت أو منازل متواضعة، يتعاونون، حسب ما تسمح به ميزانيتهم الهزيلة، على تغطية مصاريف ضروريات مطالب الحياة اليومية ـ إذا لم يكونوا من المقيمين في مأوى الطلبة الذين تتكفل بهم الإدارة ـ ويتتلمذون على الأساتذة المغاربة والأسبان والمصريين الذين توافدوا على المغرب إثر حصوله على الاستقلال، للمساهمة في عملية التعريب التي تبنتها الدولة، وعززها انضمام المغرب إلى "الجامعة العربية" الحديثة العهد بالتأسيس، العاملة بحماس وزعامة مصر "الناصرية" على استقلال شعوب العالم العربي، والتعاون والمساهمة في تبادلها السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي، الذي استفاد منه المغرب خاصة في قطاعي التعليم والقضاء.

قلما كان الطلبة الذين يتابعون دراستهم في الثانويات التعليمية أو المراكز المتخصصة يعودون إلى أهاليهم في الناضور أثناء السنة الدراسية، إلا عند حلول عطلة الصيف بعد انتهاء الدراسة والامتحانات.

في هذه العاصمة، حيث تعايش إلى عهد قريب، نظامان سياسيان: أحدهما تقليدي صوري، يمثله "خليفة" سلطان المغرب، والآخر أوربي حديث فاعل، يمثله "المندوب السامي" لحكومة اسبانيا، أتت الأقدار بأسرة مصرية بهائية في السنوات الأخيرة من الحكم الاسباني، وطّنت العزم على الاستقرار بها من أجل أداء رسالة مقدسة في غاية الأهمية، تفيد، في اعتقادها، جميع السكان الذين يتعاملون معها في مختلف جوانب الحياة الروحية والمادية. وساقت إليها نفس الأقدار من الناضور، في السنة التي تحقق فيها استقلال المغرب، "محمد معنان" من أجل متابعة الدراسة التي لا يتوفر مستواها في مدينته.

وما كاد "معنان" يضع حقيبة الترحال ويستقر به المقام ، حتى سمع عن الأسرة المصرية التي كان قد قيل له عنها في "الناضور" أثناء حديث عابر مع أحد المعارف ، أنها تبشر بدين جديد.

استنكر الخبر على التوّ، وتولدت في خاطره رغبة عارمة في الالتقاء بهذه الأسرة حتى يبيّن لها خطأ دعواها، ويقنعها بصواب رأي المسلمين في انتهاء الرسالات الإلهية برسالة الإسلام.

وما هي إلا أسابيع معدودة من وصوله إلى " تطوان " والتحاقة بثانوية " القاضي عياض" حتى تعرّف على منزل المصري، وقرع بابه ليستقبله صاحب البيت بحفاوة وكرم لم يتوقعهما. نسي ما قيل له عنه، من أنه يضع السحر في الشاي ليجذب إلى دينه الجديد الذين يتناولونه معه في منزله.

استمع المصري باهتمام واحترام زائدين لما يقوله هذا الشاب المتحمس الشديد الاقتناع بصواب ما يعتقد، ولم يحاول أن يعقب على أفكاره إلا بحديث قليل، تاركا له كل المجال ليفصح عما يجول في فكره، وطيب خاطره بالترحيب بأفكاره وتأجيل النقاش في المواضيع التي تناولها حديثه إلى فرصة أخرى في وقت يحدده اختياره في المستقبل القريب،.وأكد له قائلا:

إن باب منزله سيجده دائما مفتوحا في وجهه، يرحب به لمتابعة الحديث معه.

أعجب " معنان " بأدب المصري الجم وأخلاقه غير العادية وصبره على تحمل النقاش بصدر رحب وتقبل الرأي الآخر المخالف، دون ضجر أو اعتراض.

كان " معنان " معتدا بنفسه - نظرا للتكوين الديني الذي أهله لحفظ القرآن في الكتّاب القرآني والدروس الدينية التي وفرها له والده مع أستاذ خاص متفقه في الدين، موقنا أن حجة الإسلام لا تعلوها حجة. لذا كان واثقا من إقناع المصري بصحة وجهة نظره . فثابر على زيارة المصري، مرة في الأسبوع على الأقل، ومناقشته والدفاع بجدية عن آرائه الدينية، التي هي في نظره دفاعا عن الإسلام. وتتابع النقاش حول مفاهيم المسلمين بخصوص الرسالة الحقة والنبي الخاتم.

ومع تعاقب الحديث حول هذه المواضيع، زوّده المصري ببعض الكتب قصد الاستعانة بها في فهم المعاني الإسلامية الخاصة، مثل كتاب "الإيقان" الذي أعجب بمحتواه، ثم كتاب "النور الأبهى في مفاوضات عبد البهاء" الذي أراح عقله حول عديد من الأمور التي كانت تقلق باله، وخفف عنه وطأة مفاهيم بعض المسائل الغيبية مثل النار وعذاب القبر التي أخذها عن أستاذ التربية الإسلامية، وجعلت إدراكه مشوشا وتفكيره الديني مرتبكا عاجزا عن الاستيعاب المريح.

كان عقب كل ترددات على الأستاذ المصري "فوزي زين العابدين" وقراءة الكتب التي وضعها رهن إشارته، يشاطر " إسماعيل" ، شريكه في السكن، كل ما يدور بينهما من نقاش. يحاول أن يستأنس بوجهة نظره لعله يجد في رأيه ما يشد عضده للتغلب على حجة الأستاذ المصري، دون أن يتمكن من العثور على ما يدحض به حججه، فأخذ اليأس يتسرب إليه بعد أن عجز عن إيجاد برهان يتغلب به على محدّثه.

لم يكن " معنان " يعرف شيئا عن حياة المجتمع البهائي، ولا طرق خاطره أي ارتياب في نوايا الأسرة المصرية التي لا يرى في تصرفاتها إلا ما يوحي بالمودة والأمان. إذ بقدر ما كان الزوج "فوزي زين العابدين" محدّثا ومستمعا طيبا، بقدر ما كانت زوجته "بهية هانم" سيدة بيت كريمة مريحة ومشاركة خفيفة الظل، وصغيراهما، "كمال" و "شريف" في غاية المودة واللطف.

على أن هاجسه الأول وشغله الشاغل الأكبر لم يكن سلوك أفراد الأسرة، وإنما همه الأعظم كان الدفاع عن الإسلام بسلاح الإسلام الذي يتوفر عليه. ومع مرور الوقت، أخذ يشعر أن حسه يدله على صدق الرسالة الجديدة، وإن كان عقله لا يطاوعه في القبول.

ومع مرور الأيام شعر بالاطمئنان إلى أن موعود الأمم قد أتى، وأن العالم اليوم يعيش مرحلة جديدة من تاريخ تطوره الدائم، بسبب نزول "عيسى " (ع) وظهور "المهدي" المنتظر الموعودين في الآثار المقدسة، ودخل في عالم الرسالة البهائية بقلب نابض بالحماس وعقل مستنير بنور شمس إشراقها في كيانه الذي ينتشر إشعاعها منه حيثما حل وارتحل..

****

2 - شاطئ بحر العرفـــــان

" والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ".

القرآن.

***

أ – النبـــــــــــــأ.

كانـــــت عودة الطلبة الدارسين في الخارج، تضفي على مدينة " الناضور" رونقا جديدا، يتسم بفرحة اللقاء وتجديد أواصر المودة وتغذية السمر بالأخبار التي يحملها العائدون من المدن التي يدرسون فيها، سواء بالمغرب أو إسبانيا. ومن بينهم "محمد معنان" ، صديقي الحميم ورفيق الصبا الأثير.

قلما كان يمضي اليوم دون لقاء بين هؤلاء الطلبة، ودون السهر إلى ساعات متأخرة من الليل، يعبرون أثناءها شارع الكورنيش البحري ذهابا وإيابا والشارع الطويل الواسع العريض، الذي يمتد ما بين مقهى النادي البحري وبين مقر إدارة الحاكم. يتجاذبون أطراف الحديث ويستعرضون ما مرّ بهم من تجارب أثناء السنة الدراسية، يعبّرون عن ما يجول في خواطرهم وما تثيره الأحداث الجارية في نفوسهم التواقة إلى المعرفة، المبتهجة بالقدرة على التعبير عنها بالعربية أو الاسبانية.

محمد معنان

عاد "معنان" كغيره من الطلبة، لقضاء عطلة الصيف وسط أفراد عائلته ومع أصدقائه. لكن_عودته في هذا الصيف اختلفت عن سابقاتها، إذ عاد يحمل في صدره أمرا شغل فكره وملك قلبه وملأ عليه حياته. عاد باكتشاف جديد، تحدوه الرغبة الشديدة في أن يشاطر جميع أصدقائه في ما اكتشفه من أمر هام، إلا أنه كان يتردد، وينتهي به التردد إلى الإحجام عن الإفصاح، لتوجسه من عدم استعدادهم لاستقباله بالجدية التي تليق به. لذلك كان يتريث، ريثما ينتقي من بين أصدقائه من يبوح له بهذا الأمر الخطير.

شغلت هذه الخواطر باله باستمرار، سواء عندما ألتقي به وهو لا يجرؤ على البوح لي بما في وجدانه أو عندما يودعني دون أن يتمكن من مصارحتي، وأنا من أقرب الأصدقاء إليه!

كان تفكيره متواصلا والرغبة في إطلاعي على ما يخفيه عني تلح عليه إلحاحا غريبا دون أن يجد سبيلا مريحا إلى المبادرة بالتصريح.

أحسست من جهتي بالتغيير الذي طرأ على أفكار وأقوال وسلوك صديقي الذي أعرفه جيدا، كما أحسست بأن هناك سرا يحمله في قلبه ولا يجرؤ على البوح به. فلم أكلف نفسي عناء الاستفسار عن ما يختلج في صدره، ولم أجرؤ على اقتحام سريرته بالسؤال عن أمور قد تكون حميمية، يزعجه الحديث عنها، وأنا لا أرغب، بالتأكيد، في إزعاجه .

استراحت نفسي لهذا الخاطر وتناسيت الموضوع.

ذات مساء، وقد أوشكت عطلة الصيف على الانتهاء، وبينما كنا منفردين، نتجول كعادتنا ونتبادل أطراف الحديث في سكون الليل وهدوء المدينة، قدّر"معنان" أن الوقت قد حان لإشراكي في الموضوع الذي طالما أخفاه عني، فاستجمع قواه وتسلح بالجرأة ، وقال لي:

- إن لدي سرّا هاما، أود أن أخبرك به.

تعمدت عدم المفاجأة وسألته:

- ما السر يا ترى؟

وانتظرت باندهاش وتوقع أن يخبرني عن العثور على الفتاة التي ينوي الارتباط بها أو عن أية مغامرة لها علاقة بأحلام الشباب.

- إن السرّ يتعلق بظهور "المهدي" المنتظر ونزول "عيسى" عليهما السلام.

نظرت إليه مستغربا من خبر لم أكن أتوقعه، وقلت له متسائلا مندهشا:

- ومن أخبرك بذلك ؟
- تعرفت على أستاذ مصري في "تطوان"، وأخبرني بهذا الخبر العظيم. فقلت له:
- لعل الأستاذ يبالغ في قوله.
- بل أتى بالدليل القاطع والحجة الدامغة على صحة ذلك.

لمست في نبرات صوت صديقي كأنما قد صدّق الخبر، فحاولت أن أحذره مشفقا عليه:

- لعل هذا الأستاذ من هؤلاء الأجانب المغرضين الذين يعملون على تخريب البلادوالإساءة للدين. عليك أن تحذر من أمثال هؤلاء حتى لا يغوونك وتقع في المحظور، وتصبح من النادمين !

أجابني بجد وصرامة ممزوجة بنوع من اللوم والغضب:

- لست صبيا حتى يلعب غيري بعقلي !

شعرت بالإساءة التي سببها تحذيري إياه، وأنا أشد الناس حرصا على عدم خدش مشاعره، فتغافلنا الموضوع وسكتنا معا عن الخوض فيه، وتعمدت عدم إثارته.

علمت في ما بعد، أسف "معنان" على نتيجة هذا التصريح الأول، وعودته إلى بيته وهو يحمل في صدره امتعاضا وسخطا بسبب خيبة أمله في صديقه الذي، رغم انتقاده وإشفاقه، لم يبد أي اهتمام بالنبأ العظيم أو ميلا إلى مناقشته. وحاول أن يجد تفسيرا معقولا لموقفه حتى يتفهّمه... فسلم الأمر كله لله، واستسلم للنوم.

عدت بدوري إلى البيت، وقد حزّ في نفسي أن أكون سببا في اغتياظ صديقي الحميم، بسبب موقفي ذاك الذي لم يصدر عن تفكير وروية، بقدر ما كان جوابا عفويا، خوفا عليه، ورأيا صريحا لا مداراة فيه.

وبمعاودة التفكير في موقفي الارتجالي، تبين لي أنه نابع مما ترسب في وعيي منذ الصغر من أن ظهور "المهدي" لن يكون نبأ عفويا تتداوله الأفواه في الشوارع وتتبادله بهذه الطريقة الإخبارية البسيطة العادية. وإنما هو، في انطباعي، ظاهرة كونية مثيرة، تشهد لها الشمس والقمر والنجوم وزلازل الأرض وأمواج بحارها، وتقوم له الدنيا ولا تقعد. ويتحدث عنه كل الناس في مشارق الأرض ومغاربها؛ إضافة إلى ما رسخ في ذهني من الحذر المتواصل بوجوب الاحتياط من مكائد الأجانب التي أدت إلى استعمار البلاد واستغلال ثرواتها والتحكم في رقاب أهلها ... التي لم يتخلص المغاربة من شرها إلا منذ بضع سنين؛ كما سمعت من أفراد أسرتي وأساتذتي وأعيان مجتمعي، أكثر من مرة، عن حيل الأجانب لتضليل المسلمين وسلخهم عن دينهم.

هذه العوامل المتراكمة في خزانة شعوري هي التي طفت على سطح لساني وجعلتني أنبه صديقي إلى مغبة تصديق الخبر الذي رابني، ولو أننا، نحن المغاربة، نطمئن إلى مثل هذا الأستاذ المصري ولا ندخل أهل بلده في لائحة الأجانب الذين يجب الحذر منهم.

آويت إلى الفراش، والأفكار والأوهام والوساوس تزدحم في رأسي مما أذهب النوم عني، وتأكدت من أن ما كشف لي عنه صديقي إنما هو السر الذي كان يخفيه عني.

التقينا من جديد في اليوم التالي دون أن يجرؤ أي منا على المبادرة إلى الحديث في الموضوع المثير، تجنّبا لإثارة مشاعر التوتر في روابطنا الأخوية ومخافة أن يعكر الحديث صفو صداقتنا ويفسد المودة التي تجمعنا فيحول دون دوام لقائنا اليومي .

ما كان لذلك الاحتراز أن يعكر صفو صداقتنا أو يفسد المودة التي تجمعنا أو يحول دون لقائنا والمشي في "الممر البحري" والسمر في أول الليل إلى ما بعد منتصفه أحيانا، والاستمرار على ذلك الحال، إلى أن اقترب موعد الوداع وسفر الإياب قصد الالتحاق "بتطوان" مدينة تحصيل العلم . فذكّرني "معنان" بالحديث الذي كان بيننا عن "المهدي" و "عيسى" عليهما السلام ، وقال لي قبل سفره بيوم:

- إن لدي كتابا أو أكثر في الموضوع. وأضاف بلهجة المتحدي، أتجرؤ على قراءتها والاطلاع عليها؟

كنت أنتظر مثل هذه الفرصة للحديث معه، فأجبت على تحديه الذي استفزني:

- كلا ! ومم أخاف ؟
- حسنا، غدا قبل سفري، آتيك بها.

التقينا مودعين، وقدم لي ما وعدني به، موصيا إياي بالاهتمام بقراءتها. فاستلمت الوديعة شاكرا ومعبرا عن أملي في اللقاء من جديد في الصيف القادم لنكمل الحديث، ونحن نتعانق ونؤكد على الاتصال ببعضنا عبر المراسلة.

*****

ب - الوديعـــــــــة.

مـــــــا أن وصلت إلى البيت حتى فتحت الوديعة، فإذا هي كتابان عربيان: أحدهما يحمل عنوان "الإيقان" والآخر "التبيان والبرهان".

قرأت مدخل الكتاب الأول:

" كتاب الإيقان "

" قل هذا يوم فيه تمت الحجة وظهرت الكلمة ولاح البرهان. إنه يدعوكم بما ينفعكم ويأمركم بما يقربكم إلى الله مالك الأديان"

حركت الكلمات أعماقي، وأثارت في نفسي شعورا بجدية الكتاب وشيئا من الخوف والهيبة من الاستمرار في القراءة، فوضعت الكتاب جانبا واشتغلت بغيره من الأمور.

بدأ العام الدراسي، وما تتطلب انطلاقته من تكريس الوقت والتفرغ والإعداد لانطلاق العمل، فتناسيت الكتابين في غمرة الانشغال، إلى أن توصلت بالرسالة الأولى من صديقي يخبرني بسلامة وصوله ويسألني عن الكتابين وعن رأيي في ما قرأت. فلم أجد بدّا من إلقاء نظرة على محتوى أحدهما حتى ألبي رغبته، وأتمكن من الإجابة على سؤاله.
فتحت الكتاب الثاني، وقرأت في صفحته الأولى النص المكتوب على الغلاف:

" الجزء الأول من التبيان والبرهان، وعلى أن عيسى نزل وظهر مهدي آخر الزمان".
وبعد أيام كتبت رسالة، تتصدرها الافتتاحية التقليدية:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

ثم شرعت في إخباره بما قرأت في الكتاب، وإطراء ما ورد فيه من آيات القرآن، والأحاديث النبوية، واعدا إياه بإتمام قراءته. وكنت عند وعدي، إذ انتهيت بعدئذ فعلا من قراءة الكتاب، دون أن أجد ما كنت أترصده من الحيل المضلّلة والمكائد المغرية التي تبعد الإنسان عن دينه.

عدت إلى قراءة الكتاب من جديد، من أجل التأكد من صحة الآيات والأحاديث الواردة فيه، وأستعين على فهم تلك النصوص بما يفهمه منها بعض الذين أحترمهم من أساتذتي و أهل العلم في المدينة، ذوي المكانة الخاصة في نفسي وفي مجتمعي، دون أن أصرح لهم بالسبب الذي يدفعني إلى السؤال عن معانيها... فاحترت في الأمر، وتملكني الخوف من أن أتصور، مجرد التصور، بأن ما ورد في الكتاب حقيقة، وليس مجرد غواية أو خيال أو تسلية. فاستعنت بالصلاة في البيت دائما وفي المسجد أحيانا.

***

كان طريقي إلى المسجد يمر عبر الكنيسة الكاثوليكية، ولا يفصل بينهما إلا شارع مزدوج، تصطف على جانبيه مساكن تسكن في بعضها عائلات اسبانية، آثرت البقاء في الناضور بعد الاستقلال إلى أن تتهيأ لها أسباب الرحيل .

كنت أصادف أحيانا، وأنا في طريقي إلى المسجد في الصباح الباكر، فتاة اسبانية وقد ألقت خمارا شفافا على وجهها وتحمل في يدها كتابا وسبحة في طريقها إلى الكنيسة.

كانت الفتاة من بقية الفتيات اللائي كن، في تصور عامة الشباب المغاربة بالمدينة في المرحلة الانتقالية من الاستعمار إلى الاستقلال، من ذوات الجمال الذي لا يضاهى والأناقة التي لا تجارى والنعيم الذي لا يتناهى.

وكان أقصى ما يمكن أن يبلغه منهن الشاب الجسور، أن ينظرن إليه، متجاهلات، نظرة عابرة. وأ كثر ما يطمح إليه التفاتة شزراء، وغالبا ما كان نصيبه انتهارا كما ينتهر الكلب الذي يتسلل متوجسا إلى موائد أسياده. وكان الفرق الاقتصادي والاجتماعي بين الشباب المغاربة والأسبان شاسعا، لدرجة أن أحدهم عبر عن كوامن ذاته وهو يسير، ذات يوم أحد، في الشارع الرئيسي وعينيه تحملقان في الاسبانيات وهن، في أجمل زينتهن وأناقتهن، ممسكات بأذرع أزواجهن أو خطابهن، وفي أيدي بعضهن أحزمة كلابهن التي تزيّن أعناقها أطواق مزركشة، وقد امتد مقص الحلاق إلى أذنابها وقوائمها وظهورها وتفنن فيها ما شاء له التفنن في تزيينها، وتلطفت يد الخياط ، فصنع لها من القمصان ما ينسجم مع هندام الماسكة بالحزام ... فتنهد صاحبنا قائلا: " آه !!! لو أحظى في الجنة بحظ هذا الكلب، لكفاني ذلك ".

كان معظم الناس قبل الحركة الوطنية، راضين بهذا الوضع، رضاء طبقة المنبوذين بقدرهم في النظام الاجتماعي الهندوسي، ويعتبرون التذمر والاحتجاج اعتراضا على القضاء والقدر الذي يستوجب غضب الله.

كان منظر هذه الفتاة يثيرني ويطرح على نفسي العديد من التساؤلات:

- هل تراها تشعر بنفس الشعور الديني الذي أشعر به في علاقتي مع الله ؟
- هل كونها مسيحية، قلبها خال من الإيمان ؟
- هل ستكون حطبا لنار جهنم ؟
- هل لها حظّ من رحمة الله وغفرانه ؟
- ما الذي حال دون أن تكون مسلمة ؟
- هل كنت أكون مسيحيا مثلها، لو ولدت في أسرة اسبانية ؟
- هل كل إنسان يولد على الفطرة، كما يروى، ويتولى أبواه ومجتمعه تلقينه الدين الذي يتعبد به ؟
- إذا كان الأمر كذلك، هل من العدل الإلهي أن يُسأل الإنسان عن مبررات إيمانه أو كفره؟

مثل هذه التساؤلات وغيرها، لم تكن لتثير في نفسي أي قلق أو رغبة ملحة تدفعني لمحاولة التعمق في استقصائها واستيعابها. وإنما كانت مجرد خواطر عابرة مثل فقاقيع رغوة الصابون، سرعان ما تختفي لتترسب في خزانة التفكير.

***

أخذت ذات يوم ، كتاب "الإيقان" وشرعت في تصفح استهلاله:

" بسم ربنا العلي الأعلى.

الباب المذكور في بيان أن العباد لن يصلوا إلى شاطئ بحر العرفان إلا بالانقطاع الصرف عن كل من في السماوات والأرض. قدسوا أنفسكم يا أهل الأرض لعل تصلن إلى المقام الذي قدر الله لكم وتدخلن في سرادق جعله الله في سماء البيان مرفوعا ".

هالتني عبارة "الانقطاع الصرف"، وكلما تقدمت في القراءة ازددت يقينا أن الكتاب يتطلب مني أكثر من مجرد الرغبة في الاطلاع لاقتناص الزلات التي يتضمنها. وعندما عظم يأسي من العثور على الهفوات التي أترصّدها، لإثبات خطأ ما يعتقده صديقي، من أمر نزول "عيسى" وظهور "المهدي"، شرعت في تركيز انتباهي على المحتوى الذي يقدمه الكتاب حتى أستوعبه جيدا.

استوقفتني عبارة وردت في أول صفحات الكتاب، وهو بصدد استعراض إعراض الناس عن رسل الله في جميع الأزمان، رغم انتظارهم لهم:

" والآن يجب التأمل قليلا، ما ذا كان سبب اعتراض العباد واحترازهم إلى هذه الدرجة في ذلك الزمان... ؟ "

دعتني هذه الجملة إلى التريث، فوقفت عندها وقفة المتأمل الباحث عن أسباب اعتراض العباد، دون أن أهتدي إلى سبب وجيه معين... فتابعت القراءة، وتبيّن لي أن اعتراض العباد على رسل الله في زمان ظهورهم، قاعدة عامة لا استثناء لها.

توقفت عن القراءة من جديد، أفكر في أسباب الاعتراض، وأتذكر الأمثال السائرة: الإنسان عدو ما جهل... ومن السهل على المرء أن يؤمن بالموهوم الذي سمعه ألف مرة من أن يؤمن بالحقيقة التي لم يسمعها قط ... آويت إلى الفراش والرغبة في استيعاب العلة التي تحول دون إيمان الناس برسول الله حين ظهوره في وسطهم، تلح عليّ.

*****

ج - تبلور القـــــــرار.

ذات يـــــوم في طريقي إلى المسجد، والأفكار تراودني، خطر لي تساؤل عابر يسائلني:
لو كان جميع الناس على خطإ، وكنت الوحيد على الصواب، ما ذا عساك تفعل؟
وإذا بذاكرتي تسعفني بآية من القرآن الذي اختزنته بأحزابه الستين، ما بين فترة طفولتي وبداية المراهقة:

"وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن..."[4]

كان الجواب الذي أوحت به الآية القرآنية، بمثابة عهد بيني وبين نفسي، أعانني، دون أن أعمق التفكير فيه، على القرار الذي سأتبناه في المستقبل. بحيث أتمسك بما أراه صوابا، مهما كان موقف الناس.

نفذ هذا القرار إلى أعماق نفسي واستقر في لا شعوري، واسترسلت الأفكار تتداعى في خاطري، وتتساءل:

- ما الذي يجعل بعض الناس يؤمنون برسول عصرهم، وبعضهم يكفرون به ؟
- كيف استطاع المؤمنون الأولون، أن ينسلخوا عن معتقدات قومهم وهم فيالغالب الأعم، ليسوا من علمائهم ولا من أعيانهم ولا من أهل النفوذ منهم ؟
- لماذا ينزل الناس الأذى بالرسول والمؤمنين؟
- ما هي المصالح التي تتحقق لهم من وراء ذلك ؟
- أفلا يتكرر نفس الموقف مع الرسول ومع أتباعه إذا ظهر في هذا العصر؟

كانت مثل هذه الأسئلة، كثيرا ما تتوارد على خاطري دون أن أتمكن من الحسم فيها، فتترسب وتختمر في أعماقي.

يحيل كتاب "الإيقان" على سورة "هود" بخصوص اعتراض العباد على رسل زمانهم:

فقوم "نوح" أصروا على الكفر إلى أن أتى عليهم الفيضان؛ وكذلك "عاد" قوم "هود"؛ و"ثمود" قوم "صالح"؛ وقوم "لوط"؛ و"مدين" قوم "شعيب"؛ و"فرعون" وقومه مع "موسى"... جميعهم كذبوا رسلهم فحاق بهم العذاب بشكل أو آخر.
تأكد لدي من جديد، كقاعدة، أن الموقف الذي يتخذه الناس من الرسل حين ظهورهم، إنما هو التكذيب.

تابعت الاطلاع على محتوى الكتابين مرة بعد مرة، وكلما تمعّنت أكثر، تراءت لي الأجوبة على التساؤلات التي تراودني، ووصلت مبدئيا إلى حصر أسباب اعتراض العباد في عاملين: التعلق بالموروث، والغفلة عن الطارئ الجديد.

والتعلق بالنسبة لي، كان يعني التشبث بالعادات الاجتماعية والتقاليد التي يتوارثها الفرد أبا عن جد، إلى أن تشكل مع مرور الأيام جزءا من شخصيته، يتولى تغذيتها الشعور العام المشترك السائد في المحيط الاجتماعي الذي يعيش في أحضانه، فتتمكن من شغاف قلبه، ويصبح بوعي أو دون وعي، ملكا لها، يستميت في الدفاع عنها، لا يتسرب إلى نفسه هاجس احتمال خطئها أو محاولة مناقشة صحتها. وحتى إذا طرق فكره خاطر من هذا القبيل ، أبعده عنه مستعيذا بالله ، من شر نفسه ومن أوهام ظنونه ووساوس شيطانه. ويكون رد فعله التلقائي العفوي عند الشعور بما يهدد هذا الموروث، هو الاحتراز وسوء الظن والتأهب للنضال، خاصة إذا كان من الثوابت المسلمة بها في بيئته الاجتماعية. وكلما كان التعلق شديدا كلما كانت فرصة المناقشة محدودة والحرمان من الانفتاح على الآخر وعلى ثقافته كبيرا، وارتفع الجدار عاليا بين قناعات الإنسان الذاتية وبين التأكد من معرفة الحقيقة.

---

[4] - **الأنعام : 116 .**

رسخ في ذهني أن التعلق بالموروث دون مراجعته وفحصه، أحد الأسباب الرئيسية التي تحول بين المرء وبين إيمانه برسول عصره.

أما الغفلة عما حول الإنسان خارج محيطه الثقافي من الأمور التي لا يعرفها، فإنها تزيده تعلقا بما تعوّد عليه، وتحول دون انتباهه إلى الأسماء والوجوه والألوان والمعاني الأخرى التي يمكن أن تكون للحقيقة نفسها، موقنا أن الحقيقة التي تلقاها في بيئته الاجتماعية، لا يمكن أن يكون لها أكثر من وجه، وآيات كلام الله، في "الكتاب"، لا يمكن أن يكون لها أكثر من معنى، فتزداد قناعته بالمعنى السائد الذي تلقاه منذ صباه، ويزداد نفوره من الإقبال على الرغبة في معرفة قراءة الآخرين لنفس النص.

وإذا ما تصادف وجوده في موقف مناقشة مسائل تخص أمور دينه، فإن تدخلاته تكون غالبا منحصرة في إثبات معتقداته والدفاع عنها بحماس لا يخلو من الانفعال. وقلما يفسح لنفسه المجال ليستوعب ما يفهمه الآخرون. وإذا استمع بدافع أدب الاستماع ومبدأ التسامح، استمع على مضض.

أحيانا يسرح بي الخيال في فضاء التاريخ، أتصور المؤمنين الأولين بالدين الجديد، وأتذكّر الطبقات الاجتماعية التي ينتمون إليها، فإذا أغلبهم عبيد يحكمهم الفراعنة في عهد "موسى"، أو مستعمرون كالحواريين وغيرهم من المسيحيين الخاضعين لحكم الرومان، وكذلك الشأن بالنسبة للمسلمين الأولين الذين لم يكونوا يحتلون في بداية الدعوة المحمدية إلا مكانة اجتماعية لا ترقى إلى قمة الهرم الاجتماعي في سلم النظام القبلي السائد... وأتساءل:

- ما الذي جعل هؤلاء ينسلخون عن النظام العام الذي يخضع له الجميع ؟ أهو القهر المسلط عليهم، أم الفقر الذي يعيشون فيه ؟ أهي النقمة على مالكي ناصية أمرهم والرغبة في الانتقام منهم ؟ أم هي مجرد الرغبة في التغيير وتعليق الأمل على البديل؟ أم أن هناك قوة، لا يشعر بها غيرهم ولا يمكن أن يتصورها سواهم، جعلتهم يبذلون النفس والنفيس، دون الاهتمام بتحقيق مصلحة ملموسة أو منفعة آنية ظاهرة ! كما يروي تاريخ الأديان بصفة عامة ؟
- ثم لماذا ينزل المعارضون أشد الأذى بالرسول والمؤمنين به، مع ما يشهدون لهم بسمو في الأخلاق وترفع عن منافستهم في مصالحهم المادية ومقاماتهم الاجتماعية ؟
- ما هي الدوافع أو المصالح الآنية التي تتحقق للمعترضين الناقمين؟ أهو الحرصعلى التحكم في شؤون الناس، أم الخوف من احتمال فقدان هيبتهم ومراكزهم ومكانتهم بين أنصارهم ؟

استأثرت هذه الأفكار بتفكيري، وكأنما هي أمواج الحيرة تتلاطم على صخرة فكري، فتغطيه وتغرقه فيتبلد عقلي، وما تلبث أن تنحسر عنه، فيغزو القلق مشاعري.

فطنت إلى أن الكتاب يقدم أجوبة على الاستفسارات المذكورة الخاصة بسبب إنكار الناس لرسل الله وإيذائهم لهم في كل زمان ومكان، بقوله:

" تأملوا حينئذ ، ما ذا كان سبب هذه الأفعال ؟ ولما كانوا يسلكون بهذه الكيفية مع طلعات جمال ذي الجلال؟ إذ كل ماكان سبب إعراض العباد وإغماضهم في تلك الأزمنة قد أصبح اليوم أيضا بعينه سبب غفلة هؤلاء العباد...

ومن المعلوم لدى كل ذي بصر أنه لو كان هؤلاء العباد في حين ظهور أي مظهر من مظاهر شمس الحقيقة، يقدسون ويطهرون السمع والبصر والفؤاد من كل ما سمعوه وأبصروه وأدركوه، لما حرموا البتة من الجمال الإلهي ولا منعوا عن حرم القرب والوصال للمطالع القدسية. ولما كانوا يزنون الحجة في كل زمان بمعرفتهم التي تلقوها عن علمائهم، وكانوا يجدونها غير متفقة مع عقولهم الضعيفة ، لذا كان يظهر منهم في عالم الظهور أمثال هذه الأمور الغير المرضية "

كلما انغمست في قراءة الكتابين، ازددت معرفة بالمعلومات المودعة فيهما، وزادت محاولة فهمي لما يحاولان عرضه على القارئ ... فلا أجد فيهما سوى الدعوة الصريحة للتوجه إلى رسل الله الحاملين للحقيقة منذ الأزل، ودعوة خاصة للبحث عن حقيقة موعود هذا العصر المتمثل في ظهور "المهدي" ونزول "عيسى" الموعودين في الكتب السماوية والآثار الدينية تلميحا وتصريحا.

وأسأل نفسي من جديد :

- كيف يمكن أن يظهر الرسول الذي وعدت به جميع الأديان، ولا يكون جميعالناس على علم بذلك !
- كيف يظهر الموعود في وسط الناس الذين ينتظرونه بشغف وشوق، فإذا بهم يعارضونهويقتلونه ويضطهدون أتباعه ! وأنا الذي أتصور أن الخلق جميعا يهرعون إليه.
- أهي سنة الله في خلقه، أم أن في المسألة ما لا يقدر عقلي على استيعابه !

لازمتني الحيرة والتساؤل، طيلة السنة الدراسية، كما لازمني الخوف من الابتعاد عن جادة الصواب واستحقاقي لغضب الله وعقابه، فألتجأت إلى ربي، طالبا منه الأخذ بيدي وإنارة سبيل حياتي، حتى لا يخدعني بريق السراب أو تزل قدمي في ظلام الضلال .

تساءلت أكثر من مرة :

ما الذي جعل جميع الناس من حولي يعتقدون أن لا رسول بعد الرسول محمد (ص)ولا دينا مقبولا عند الله غير الإسلام ؟

لم تكن الإجابة على السؤال المزدوج الأخير لتحيرني أو أتردد في الاهتداء إلى الجواب عليها، ما دام أن القرآن قد نص على ذلك في سورة الأحزاب:

" ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما".

وما ورد في سورة آل عمران:

" إن الدين عند الله الإسلام ... "[5]

" ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين "[6]

وما دام أن كل مسلم يسلم بهده الحقيقة، فلا يمكن أن تكون إلا الحقيقة ذاتها.

هل يعقل أن يكون الجميع متفقين على الخطأ ؟؟

ومع الاستمرار في البحث والدراسة والتأمل في ما أقرأ، بدا لي أن منطوق الآيتين لا يحمل معنى واحدا متفقا عليه، إذ أن تاء "خاتم" تقرأ مكسورة كما تقرأ مفتوحة، وتبعا للقراءة يختلف المعنى المتأرجح بين الزينة والطابع والانتهاء.

والآية، في جميع الحالات، تنص على النبوة ولا تنص على الرسالة. وعند البحث عن معنى النبوة والرسالة في فهم الباحثين المتفقهين في الدين، تبين لي أنهم غير متفقين على فهم واحد: منهم من يرى أن النبي

---

[5] - **آل عمران : 19 .**
[6] - **آل عمران : 85** .

والرسول مترادفان ومنهم من يرى أن أحدهما أعم من الثاني وفريق يرى تميز أحدهما عن الآخر وآخرون يرون أنهما متلازمان ...

زادني هذا الاختلاف في الفهم حيرة في الوصول إلى فهم حاسم للآية، خاصة وأنها قد وردت في سياق، يكاد لا يمتّ بمعالجة الموضوع بصلة.

إذ سورة الأحزاب التي نزلت آياتها 73 في "يثرب"، تدعو بعض آياتها (من 1 إلى 6) إلى الامتثال لأحكام الله، و تحكي الآيات (من 7 إلى 26) عن موقف سكان "المدينة" من حصار القبائل العربية التي لها سابق ثأر عند المسلمين، بإيعاز من يهود يثرب، في ما يعرف بحرب "الخندق".
وجاءت الآية (40)، المتعلقة بخاتم النبيين، في سياق الحديث عن "زينب بنت جحش"، طليقة "زيد بن حارثة"، أول من أسلم من مستواه الاجتماعي، والمسلم الوحيد الذي ورد ذكر اسمه في القرآن. أهدته "خديجة" أم المؤمنين لزوجها "محمد" قبل بعثته (ص)، فحرره وتبنّاه. فنزلت الآية:

" **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم** ..." تنفي أبوّة المتبني.

في هذا السياق، سياق تنظيم أحكام الأزواج والتبني، نزلت الآية التي يستدل بها على أن "محمد بن عبد الله" آخر الأنبياء والمرسلين.

تذكّرت أيضا أن في القرآن سورة ، تسمى باسم "محمد" أو سورة القتال، كما وردت في فهارس بعض المصاحف والتفاسير مثل تفسير "الجلالين"، فعدت إلى قراءتها لعلي أجد فيها مأربي. فإذا بها "مدنية" أيضا، تحتوي على ثمانية وثلاثين آية، تناولت أحوال المؤمنين والكافرين بمحمد (ص) دون أن تذكر شيئا عن مقامه بين الرسل.

وعند الرجوع إلى ما ذكره "بهاء الله" في كتاب الإيقان المعرّب عن الفارسية، تبين لي أن الرسالة الإلهية تنتظم وفق مبدأ ثابت لا يعرف التغيير، وهو مبدأ الدور المتجدد المستمر باستمرار حياة البشر التي يعيشونها على كوكب الأرض. يقول بصدد توضيح هذا المبدأ:

" ... ففي هذا المقام لا يشاهد بينهما – محمد وعيسى عليهما السلام – فرق ولا يرى في كتابيهما غيرية ، لأن كلا منهما كان قائما بأمر الله وناطقا بذكر الله ، وكتاب كل منهما مشعر بأوامر الله . فمن هذه الوجهة قال عيسى بنفسه : إني ذاهب وراجع . مثل ذلك مثل الشمس ، فإذا قالت شمس اليوم إني أنا شمس الأمس فهي صادقة ، ولو قالت : إنني غيرها نظرا لاختلاف الأيام فهي صادقة أيضا ، وكذلك لو نظرنا إلى الأيام ، وقلنا إنها جميعها شيئ واحد ، فإن هذا القول يكون صحيحا وصادقا . وإذا قلنا إنها غيرها من حيث تحديد الإسم والرسم فإن ذلك أيضا يكون صحيحا وصادقا . إذ بينما يلاحظ أنها شيء واحد ، فإنه مع ذلك يلاحظ أن كلا منها له إسم خاص وخواص أخرى ورسم معين لا يرى في غيرها..."

ويقول في نفس الكتاب :

"... لو تظهر طلعة من الطلعات الإلهية في الآخر الذي لا آخر له ، وتقوم على أمر قام به طلعة في الأول الذي لا أول له ، فإنه في هذا الحين يصدق على طلعة الآخر حكم طلعة الأول . لأن طلعة الآخر الذي لا آخر له قد قامت بنفس الأمر الذي قام به طلعة الأول الذي لا أول له . ولهذا فإن نقطة البيان (الباب) روح ما سواه فداه ، قد شبه شموس الأحدية بالشمس، ولو أنها تطلع من الأول الذي لا أول له إلى الآخر الذي لا آخر له ، فإنما هي هي تلك الشمس . والآن لو يقال بأن هذه الشمس هي الشمس الأولية فهو صحيح، ولو يقال عنها بأنها رجوع تلك الشمس فهو صحيح أيضا . وكذلك يصدق من هذا البيان ذكر صيغة الختمية على طلعة البدء وذكر صيغة البدئية على طلعة الختم ، لأن ما يقوم به طلعة الختم هو هو بعينه ما قام به جمال البدء... "[7]

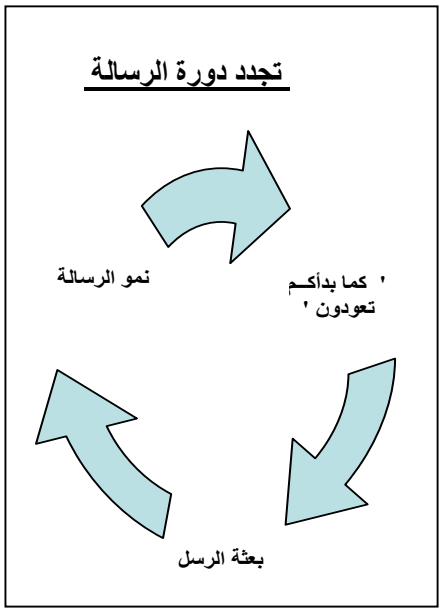

تمعّنت في هذا االمعنى الذي يجعل تصريح أي رسول بالأولية أو الآخرية لا يعني سوى أنه هو نفس الرسول الذي جاء في البداية وهو هو الذي أتي في النهاية التي لا نهاية لها.

وبهذا المعنى يسري على رسل الله الحكم المنصوص عليه في القرآن:

" ... لا نفرق بين أحد من رسله ..."[8]

وهو نفس ما يرمي إليه "بهاء الله" في مكان آخر من نفس الكتاب في تجديد الدورة الرسولية عندما يبعث الله رسولا جديدا ، فيتكرر إنتاج أحوال الأمم والمواقف التي كانت عليها في الدورة السابقة، من صفات الإيمان في المقبلين على الرسول الجديد ونعوت الكفر في المعرضين عنه، مستعرضا المعنى الذي ترمي إليه الآية القرآنية:

" وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين"[9]

أدركت من الشرح، أن روح الرسالة الإلهية تجدد عند عودة قوتها كل شيء: صفات الرسول؛ هيمنة الرسالة؛ أحوال المؤمنين والكافرين: فالمؤمنون زمان موسي وعيسى ومحمد وغيرهم من المؤمنين والكافرين السابقين قاموا بنفس الأدوار.

إنه التاريخ يعيد نفسه، وتتجدد الأحداث ذاتها بنفس الشكل تقريبا. إنه التجديد والتغيير الذي يحكم حياة الإنسان على سطح الأرض، وفق المقولة الرائجة، كل شيء قابل للتغيير إلا التغيير.

لم أكن أعلم أن كتاب الإيقان تعريب للأصل الفارسي، كتبه صاحبه في مدة لا تتجاوز اليومين، دون أن يستعين بالمراجع على كثرة المقتبسات الواردة فيه، ولا راجعه كما يفعل الكتّاب قصد التغيير والتبديل

---

[7] - بهاء الله : الإيقان .
[8] - البقرة : 285.
[9] - البقرة : 89.

والتصحيح والتعديل. الشيء الذي ذكّرني ببيت من قصيدة "واحر قلباه" ! يفتخر فيها الشاعر بموهبته الشعرية:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصم

وما كنت لأعلم شيئا عن الأسباب والظروف التي أدت إلى كتابة هذا الكتاب، التي هي جواب على استفسارات أحد أخوال " الباب " الذي أخذه الاستغراب من أن يكون أحد أفراد أسرته، ابن أخته، قد اختاره الله مهديا، قائم آل البيت الموعود الذي يتضرع المؤمنون، أبناء جلدته الشيعة، كل يوم، أن يعجل الله بفرجه وظهوره. فأودع هذه التساؤلات التي حيّرته في رسالة قدمها إلى "بهاء الله" عندما كان في "بغداد" يلتمس منه جوابا لعل يجد فيه ما ينير بصره وبصيرته، وييسر له إدراك ما خفي عنه. فجاء كتاب "الإيقان" ردا على هذا الاستفسار.

ولم يراود فكري ما إذا كان صاحب الكتاب منتميا إلى أهل العلم والتأليف المتمرسين، أو ما إذا كان قد تعلم أصلا في المدارس التي كانت بالتأكيد قليلة في القرن التاسع عشر في إيران، ولا يختلف إليها إلا ذو حظ كبير.

ولا بلغ بي الاهتمام إلى استيعاب نوع التعليم الذي تلقاه، كما أشار إليه نفسه في "لوح السلطان" الذي وجهه إلى"ناصر الدين شاه" ملك إيران، الذي نفاه خارج حدود مملكته عقب النكبة التي أصابت البابيين على يد العلماء وأولياء الأمور والشعب بصفة عامة.

هذه النكبة التي امتد شواظ لهيب نارها المحرقة حتى إلى رسول "بهاء الله" الذي حمل رسالته إلى شاه إيران، بعد عقدين تقريبا من ذلك النفي إلى أرض فلسطين.
هذا الرسول اليافع في شبابه الواعي بدقة المهمة المنوطة به، وخطورة أبعاد الرسالة التي حملها من مدينة "حيفا" بالشام، يومذاك، قاطعا الفيافي والأودية والجبال، ماشيا حوالي 2000 كلم على الأقدام، متحملا في سبيل ذلك كل معاناة السفر وأخطار الطريق... إلى أن وصل إلى ضواحي "طهران" حيث كان يصطاف السلطان.

والراجح أنه أثناء سفره الطويل، استحضر في ذهنه الصورة اللائقة التي ينبغي أن يؤدي بها مهمته الخطيرة . فلم يجد خيرا من الاقتداء بجواب "الهدهد" الوارد ذكره في القرآن ، عندما استفسره الملك ، نبي الله "سليمان" (ع) عن سبب غيابه .

فقال "للشاه" عندما واتته الفرصة:

يا ملك، قد " جئتك من "عكا " بنبإ يقين " وهو يمد إليه رسالة بهاء الله.

غير أن مصير هذا الهدهد كان غير مصير هدهد "سليمان"، إذ أسلم الروح تحت أبشع صور التعذيب، على غير عادة معاملة الرسل.

في هذا اللوح دعا "بهاء الله" الملك إلى فحص رسالته، وإلى إنصافه ورفع الظلم الذي نزل عليه وعلى أتباعه. وفيه يشير إلى نوع التعليم الذي تلقاه:

"... ياسلطان إني كنت كأحد من العباد وراقدا على المهاد ، مرت على نسائم السبحان وعلمني علم ما كان ، ليس هذا من عندي بل من لدن عزيز عليم ، وأمرني بالنداء بين الأرض والسماء ، وبذلك ورد علي ما تذرّفت به عيون العارفين . ما قرأت ما عند الناس من العلوم وما دخلت المدارس ، فاسأل المدينة التي كنت فيها لتوقن بأني لست من الكاذبين... "[10]

---

[10] - بهاء الله : لوح ناصر الدين شاه.

وما كنت أعرف نسب وثروة صاحب الإيقان التي تجعل حياة الأغنياء وأصحاب السلطة متميزة عن حياة العامة، وتحتّم العادة المرعية على النخبة المستوية على كراسي مناصب قمة هرم الحكم في المجتمع الإيراني، أن ينتقي الأكابر منهم أحسن المعلمين ليشرفوا في قصورهم على تلقين أبنائهم فن القراءة والخط والفروسية وما إلى ذلك من فنون الحرب حتى يتولوا غالبا، في المستقبل المنظور، المهام والمناصب التي تولاها آباؤهم في حكومة السلطان.

كذلك سلك والد "بهاء الله" الوزير في بلاط الشاه، نفس المسار في تنشئة أولاده.

من المعروف أن العلم يساعد صاحبه ويمكنه من اقتناص الأفكار وابتكارها أحيانا وإتقان التعبير عنها. وهذا لا يتم له إلا بعد دراسة وممارسة تأخذ منه قسطا مهما من عمره ثم يصرف وقتا ليس باليسير من أجل أن يؤلف كتابا إذا أسعفته قريحته، وقبل أن ينشر الكتاب لا بد له من مراجعته، والاستعانة أحيانا كثيرة بمن يعينه على ذلك. ومع هذا فإن إنتاجه، مهما كان رائعا، لا يرقى إلى ما خلفه رسل الله من الآثار المكتوبة، لا من الناحية الأدبية ولا من حيث التأثير في النفوس ولا من حيث الدوام.

إذاً، من أين يأتي الرسول بمثل هذا القول المشحون بالروح المؤثرة قوته إيجابا في القلوب؟.

يكشف "بهاء الله" عن الطريقة التي يتلقى بها الوحي في "لوح الحكمة" الموجه لأحد علماء زمانه:

" وإنك تعلم أنا ما قرأنا كتب القوم وما اطلعنا بما عندهم من العلوم ، كلما أردنا أن نذكر بيانات العلماء والحكماء يظهر ما ظهر في العالم وما في الكتب والزبر في لوح أمام وجه ربك ، نرى ونكتب إنه أحاط علمه السماوات والأرضين "[11]

لم يزد حرصي على القراءة والتمعن في ما أقرأ، وأنا غير ملم بهذه التفاصيل، إلا حيرة وقلقا وخوفا مما قد أكتشفه من حقائق تكذب ظنوني وتوقعاتي. فرغبت، بعد أن استوعبت القانون الدوري، في أن أطّلع من جديد على ما ذكره الكتابان حول مفهوم الإسلام.

عدت إلى الاستغراق في القراءة حريصا منتبها، فتبين لي أن ما هو شائع من أن الإسلام هو دين الأولين والآخرين، لا يقصد منه أن الأولين كانوا يتعبدون الله وينظمون حياتهم بنفس الشريعة التي نزل بها القرآن، كما كان قد استقر في ذهني أثناء القراءات المتكررة للقرآن وما سمعت أو قرأت من تفاسير عن التحريف. وإنما يعني، وكأنما اكتشفت هذه الحقيقة لأول مرة، أن الإسلام هو الخضوع والاستسلام لإرادة الله التي تكشف عنها مضامين رسالة رسوله للعالمين بغض النظر عن الزمن الذي ظهرت فيه أو الاسم الذي جاءت به.

" ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين"[12]

وتبين لي أن دين الإسلام، لا يقتصر على المسلمين فحسب، ولكنه يتسع ليكون دينا لكل من خضع وأسلم وجهه لله.

فاليهود عندما آمنوا "بموسى" (ع) وخضعوا لأوامره صاروا مسلمين، وكل من آمن من اليهود وغيرهم بسيدنا "عيسى" (ع) صاروا مسلمين، والذين آمنوا، من القبائل العربية واليهودية والنصارى والمجوس والصابئة وغيرهم من الأمم المختلفة، برسالة "محمد بن عبد الله" (ص) أصبحوا مسلمين. أما الذين حرموا

---

[11]- بهاء الله : لوح الحكمة . مجموعة ألواح مباركة .

[12] - آل عمران : 67.

من الإيمان في عهد الرسول، أي رسول، فإنهم لا يدخلون في حظيرة المسلمين ولا ينضوون تحت راية الإسلام.

ومن هذا المفهوم، نفذ إلى نفسي تساؤل مريب، هل هذا يعني أن من آمن "ببهاء الله"، إذا كان رسولا من عند الله، ينطبق عليه نفس الحكم ؟

رباه ! صرخت في أعماقي استغاثة المضطر المحتاج عندما ترجح لدي الجواب بالإيجاب. ما الذي ينبغي لي عمله؟حدثت نفسي حائرا:

- هل أقذف بهذا الموضوع مرة واحدة وإلى الأبد في سلة النسيان؟ وأنتهي من هذه الحيرةالمقلقة. أم أتركه إلى حين في هامش الأولويات؟
- لم أعد أعرف ما أبحث عنه:
- هل أبحث عن الحل الصحيح أم عن الحل المريح، بغض النظر عما إذا كان الحلالمريح صوابا أم خطأ...!

غير أن حب المعرفة الملازم لطبيعة الإنسان، جعلني لا أستريح لموقف اللامبالاة، مما جعلني أعود إلى نفسي مرة أخرى أسائلها:

- ترى ! لم منح الإنسان نعمة الحياة ؟ هل منحها من أجل الحياة ذاتها، أم أنها مجرد وسيلة مقلقة ليجهد الإنسان جسمه وعقله ومشاعره ليلبي الحاجات المفروضة عليه في هذا العالم المنظور المحسوس ؟ أم منح الحياة في هذه الدنيا من أجل أن يسعى جاهدا ليفهم العالم المجرد الذي لا يتناوله الملموس ؟
- كيف لي أن أخرج من هذا المأزق الذي وضعت نفسي فيه؟!

ذات مرة ، تساءلت:

- ما الدلائل والحجج التي جعلتني مؤمنا بالله وبالاسلام ؟
- ما الدلائل التي تجعلني أرفض الإيمان بهذا الدين الجديد ؟ ...

ثم تساءلت متحيرا مرتابا :

- أفلا أكون قد ولدت في هذا الزمان لأعيش في مرحلة من التاريخ، عاشها الناس سابقا في بداية ظهور الرسالة الإلهية ؟

حاولت أن أعدد الدلائل التي جعلتني مقتنعا بأحقية الرسالة السماوية التي تلقنتها منذ نعومة الأظافر. فوجدت القرآن وما يتضمنه من بلاغة وهداية تتصدر الدلائل. واستشعرت في آياته من القوة ما أثر في المؤمنين به تأثيرا جعلهم يتغيّرون ويغيّرون مجرى التاريخ، ويبنون بواسطة تعاليمه حضارة ما زالت معالمها شاهدة عليها.

استحضرت شخصية الرسول (ص) منذ يتمه وصباه، وانقطاعه الكامل عن الدنيا وزخارفها في رده الحاسم القاطع، عندما عرض عليه قومه الزعامة والثروة والمباهج المتوفرة في زمانه. فأجاب دون تردد:

" والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته "

وتذكرت ما تحمله وأتباعه من اضطهاد، لم يخل من الشتم والضرب والحصار والعذاب إلى حد القتل، الذي لم ينج منه صاحب الدعوة نفسه إلا بالخروج من منزله تحت جناح الليل، متستّرا بظلامه، مجبرا على الهجرة مع صاحبه مبتعدا عن عدو غاشم محتال، ملتجئا إلى "يثرب" التي تنورت بنور قدومه ومقامه.

وعدت إلى التساؤل:

- لما ذا تحمل الرسول كل هذه المشاق؟
- لما ذا تعرض أتباعه لكل هذا العناء؟
- لما ذا لم يعيشوا كغيرهم من السكان حياة عادية وادعة آمنة؟

- أفلا يقدم ذلك دليلا إضافيا، لأمثالي، على صدق الدعوة التي يدعو لها رسول العصر؟
- ألم يولد "الباب" يتيما ؟
- ألم يكن بهاء الله وسط قومه مشهورا بالأخلاق الحميدة، كما كان النبي العربي؟

تعاقبت الأيام ... وفي إحدى الليالي الهادئة المقمرة، أحسست بامتلاء الفضاء بوجود الله، فتوجه قلبي إليه بكل ما يحمل من يقين في هيمنته وسلطانه، سائلا إياه: رب اهدني وتولى أمري وأن لا تجعل الحق ملتبسا علي، واكشف لي عن ثوب الباطل الذي قد يلبسه المحتالون المغرضون للحق. وتقبلني خادما لك ما بقيت في الحياة.

وحال ما انتهيت من هذه النجوى، أحسست بشعور هادئ ينفذ إلى وجداني، وسكينة غامرة تملأ جوانحي، خففت عني ما كنت أعانيه من قلق وخوف وحيرة .

*****

د ـ عودة الصديـــــق.

حـــــل الصيف من جديد، وحل "معنان" الذي لم يعد يتحفظ في الحديث معي في مسألة البهائية. يخبرني بكل ما يعرفه ويفهمه عن الرسالة الجديدة التي أخذ الناس يسمعون عنها، ويقبل بعضهم على الإيمان بها. ويعيد على مسامعي من حين إلى آخر حديث:

" ليس كل ما يعلم يقال، ولا كل ما يقال حان وقته، ولا كل ما حان وقته حضر أهله"

إشارة إلى أن هذا الحديث الجاري بيننا، لا يقال كله لكل الناس. كما أن الانتساب إلى الله والإيمان بالرسول الإلهي وقت ظهوره ليس من الأمور المريحة دائما، وكان يردد الحديث المأثور:

" الناس ممتحنون إلا المؤمنون والمؤمنون ممتحنون إلا المخلصون والمخلصون ممتحنون إلا المقربون والمقربون في خطر عظيم ".

كنت أفهم من أحاديثه التي أوافقه عليها صامتا، أن طريق الإيمان ليس فسحة على "الكرنيش" وأن العباد يمرون عبر هذا الكوكب من أجل أن يعمروه ويرتقوا فيه بالكد ومواجهة التحديات والتغلب على المصاعب، إلى أن يحققوا مبتغاهم، فيشرع الطامحون، من جديد، في الكد محاولين الوصول إلى المرحلة المتقدمة الموالية. واتضح لي أن الإيمان ليس إلا المرحلة الأولى التي يليها الإخلاص الداعي إلى الالتزام بمتطلبات الإيمان، حتى إذا ما ثبت إخلاص المؤمن، فرض عليه موقعه الجديد من السلوك ما يكون لائقا بالمستوى الذي وصل إليه. مثله في ذلك مثل مراحل النمو العضوي للإنسان: فما يأتي به الرضيع من السلوك غير ما يتوقع أن يأتي به الطفل، فالحبو أو الرضاعة الممدوحة في الرضيع غير مقبولة ممارستها من طرف الطفل. وما يأتي به المراهق من المهارات العقلية التي استحق عليها الثناء والتشجيع في مرحلة الطفولة، كالتهجي أو العمليات الحسابية البسيطة، يلام على فعلها إذا ما أتى بها في مرحلة المراهقة، وهكذا في المراحل اللاحقة...

وتذكرت،على مستوى الفضائل والكمالات، قصة تمرد "إبليس" على الامتثال لأمر ربه، غرورا واستكبارا، عندما أمره الله بالسجود "لآدم"، وهو من المتميزين في صفوف الملائكة المقربين المنزهين عن النقائص والرذائل المميزين بطراز الطاعة، فكان هذا الاقتراب من ساحة رب العزة في حد ذاته خطرا عظيما أدت به أنانيته وغروره وعصيانه إلى الخسران المبين. ذلك أن لكل مقام مخاطر، والغرور هو خطر البالغين إلى المقام العالي. وليس من سرطان فتاك بالصحة الروحانية، أكثر من سرطان الغرور !

وبنفس المناسبة، تذكرت أيضا قول الله تعالى بخصوص الامتحان، الذي يمرّ عبره الذين ينسبون أنفسهم إلى الإيمان، للتأكد من حقيقة انتسابهم:

" أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون"[13].

وكانت هذه الخواطر بمثابة ناقوس التنبيه الذي يعدّني إلى ما يمكن أن أواجهه من المصاعب التي يتعرض لها الذين يقدمون على الإيمان بالرسالة الإلهية الجديدة.

***

[13] ـ **العنكبوت : 2.**

في الأيام الأخيرة من عطلة صيف 1959، دعاني صديقي إلى مرافقته في سفر عودته إلى "تطوان" حتى أتعرف على الأستاذ المصري وعلى البهائيين هناك، فقبلت الدعوة بعد تردد، نظرا لاقتراب موعد الدخول المدرسي وبداية الشروع في عملي المهني.

لم أكن أعلم أنه يخفي عني مفاجأة تتعلق باستدعاء يسمح لنا بالمشاركة معا في مباراة الولوج إلى المدرسة الإدارية، وثوقا منه في أن مبادرته هذه ستجعلني مسرورا بمرافقته في متابعة الدراسة للارتقاء بمستوانا العلمي والمهني.
وصلنا إلى "تطوان" التي لم أزرها منذ أن استكملت دراستي فيها بتكوين سريع أهلني لمزاولة مهنة التعليم.

وما أن استرحنا قليلا حتى بدأ يعرّفني على المؤمنين بالرسالة الجديدة: منهم من كان من زملاء الدراسة، ومنهم من لم يسبق لي أن تعرفت عليهم من قبل. غير أني لاحظت أن أخلاقهم جميعا، أضحت غاية في الدماثة واللطف.

كان المصري غائبا في مهمة خارج المدينة، كما أخبرتنا زوجته التي زرناها في مقر عملها بالشارع الرئيسي، وهي تستقبلنا بترحاب زائد وفرحة ظاهرة لرؤية "معنان" العائد إلى تطوان بعد انتهاء عطلته الدراسية. وأخبرته أن الليلة سيلتقي المؤمنون في المكان والوقت المعيّن.
أصابني الذهول عند الدخول إلى مكان اللقاء، إذ لم أتصور أن المجتمعين سيكونون رجالا ونساء مختلطين.
وما كنت أعلم أن أحد المبادئ الأساسية التي تدعو إليها الديانة البهائية هي المساواة بين الرجال والنساء في الحقوق والواجبات، والسعي جنبا إلى جنب لاكتساب العلم والكمالات. وأنى لي أن أعلم وتقاليد مجتمعي لا تسمح باختلاط الجنسين في مجلس واحد. وتعتبر هذا الاختلاط، في حد ذاته، دليلا كافيا على تفسّخ الأخلاق.
وبالرغم من أن تربيتي الدينية والاجتماعية تفرض علي أن أغض الطرف عند النظر إلى النساء، فإن نظرة خاطفة مكنتني من أن أرى أن جميع النساء سافرات الوجوه، بعضهن في الجلابيب التقليدية وبعضهن يلبسن ملابس أوروبية .

رحب صاحب البيت بالحضور كما رحب بي، وطلب من سيدة أن ترتل دعاء، وتتابع بعض الحاضرين، رجالا ونساء، على قراءة وترتيل الأدعية، فتحول شعوري تدريجيا من التوجّس الذي تملّكني أول وهلة، إلى الاطمئنان إلى أن المكان طاهر ومن فيه عفيف. وكانت السيدات مندمجات في ما يجري من أحاديث، ومشاركات في المواضيع المطروحة في جو يسوده الوقار والاحترام، بعيدا عن اللغو وسقط الكلام، خلاف العادة الجارية بإقصاء النساء عن مجالس الرجال واقتصار مهامهن على شؤون البيت. وإذا حتمت الضرورة حضورهن حيث يتواجد الرجال، فإنهن غالبا ما يلتزمن الصمت وهن حانيات الرؤوس من الخجل وعدم النظر أبدا في وجوه وعيون الرجال، وقلما يتحدثن أو يرفعن أصواتهن لاعتبار المرأة فتنة يجب سترها وصوتها غواية يستحسن أن لا يطرق آذان الرجال.
إنها تجربة فريدة وإحساس طيب مريح، لم يسبق لي أن شعرت بمثله من قبل، في المناسبات الاجتماعية.

استفسرني صديقي بعد الخروج من المنزل عن الانطباع الذي تركه الاجتماع في نفسي، فلم أجد ما أفسر به انطباعي إلا باختصاره في كلمة واحدة "رائع".

زرنا في اليوم الموالي منزل الأستاذ المصري "فوزي زين العابدين" الذي كان قد عاد من سفره للتوّ.

كان رجلا مكتمل الجسم، يلبس ملابس أوروبية، تعلوه ابتسامة عريضة مرحبة، على جانب كبير من الأدب والمروءة والرزانة، بقدر ما أن زوجته السيدة "بهية" لطيفة ودودة وجريئة.
كان أول حديثه معي يدور حول علاقة الإنسان بالله، واسترسل في ذكر مواهب الله وعنايته وأفضاله على الإنسان الذي كثيرا ما يقابلها بالجحود وبالتقصير في أفضل الأحوال ... وما كدت أستوعب ما يرمي إليه وأنا أنصت إليه باهتمام، حتى رأيته في التفاتة مفاجئة يرفع يده ويصفع صفحة خده، آسفا على نفسه ناعتا إياها بالتقصير في أداء واجبه أمام الله. ثم استطرد في الحديث قائلا:

إن الله خلق الإنسان ووهبه الإرادة التي تجعله مسؤولا على أعماله، وضرب مثلا بالعنكبوت التي نصبت شبكة بيتها للإيقاع بالفراشة... محاولا الاستدلال على أن المشاهد يعلم بما يجري، لكن علم المشاهد ليس

مسؤولا على نكبة الفراشة إذا حدثت. وكأنما يريد أن يبين لي أن علم الله بمصائر العباد ليس مسؤولا عن اختيار القرارات التي يتخذونها في حياتهم، وأن كل إنسان يختار ما يريد بمحض إرادته.
ثم تناول بالحديث واجب الإنسان في هذا اليوم الذي ظهر فيه الموعود، والفرصة المتاحة التي تمنح شرف وامتياز دعوة الناس إلى رسالته وصرف العمر في طاعته وخدمة أمره.

وبينما الأستاذ يسترسل في الكلام ويسهب في التوضيح والتفسير، تراءت لي آفاق مضيئة في عالم، كنت أتمنى في قرارة نفسي، أن أقضي في رحابه أيام عمري، لدرجة أن صديقي "معنان" عندما أمدني، في ما بعد، بالاستدعاء للمشاركة في المباراة التي تمكننا من تسلق سلم الارتقاء في الوظيفة العمومية، أمسكت بالاستدعاء ومزقته قائلا:

أبعد ما سمعناه من الحاجة الماسة إلى القيام على خدمة أمر الله، نهتم بغير ذلك؟

في مساء نفس اليوم، التقى "معنان" في ساحة الشارع الرئيسي ببعض معارفه، فقدمني لهم. وكان أحدهم مصريا، فقال لي بعد مصافحتي باللهجة المصرية، ما معناه:

في هذه الدنيا ثلاث طرق: طريق سلامة وطريق ندامة وطريق لا يعود منها سالكها. أسأل الله أن يكون طريق السلامة طريقك.
أخلدت بخواطري إلى سرير النوم، وأنا أفكر في الأحداث التي مرت بي، وفي البهائيين الذين التقي بهم لأخلص إلى النتيجة: أن هؤلاء الطيبين لا يمكن أن ينتسبوا إلا إلى ما هو طيب، ولا يمكن أن تكون حقيقة الرسالة التي يؤمنون بها إلا من عند الله، لأن الرسالة السماوية لا تدعو إلا إلى الخير، ولا تنبت بذورها في أرض القلوب إلا ما هو طيب، كما ورد في القرآن:

" والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلا نكدا ..."[14]

والفرق بين كلمة الداعي إلى الله والداعي إلى غير الله ، كالشجر المثمر والشجر غير المثمر، كما مثّل القرآن الحكيم لذلك:

" ألم تر كيف ضرب الله مثلا، كلمة طيبة كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي أكلها كل حين، بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس، لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة، كشجرة خبيثة، اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار * يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضل الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء"[15]

كبداني محمد

استيقظت صباحا، وأنا مطمئن إلى أن هذه الدين إلهي المصدر، وبمعية صديقي ذهبت مساء إلى منزل الأستاذ المصري قصد توديعه، فجلست في الصالون بينما دخل صديقي إلى غرفة بالمنزل. وبعد لأي عاد يسألني:

- ما رأيك في الدين الجديد بعد أن سمعت وقرأت ورأيت المؤمنين به؟
- كل خير.
- هل تعتقد أنه من عند الله؟

---

[14] - سورة الأعراف : آية 58 .
[15] - سورة إبراهيم : آية 24 و 25 و26 .

- أعتقد ذلك.
- أتستطيع أن تكتب تصديقا بذلك ؟
- لو توفرت على ما أكتب به، لفعلت. استمهلني وغاب قليلا ثم عاد بورقة وقلم، وقال:
- اكتب .
- ما ذا أكتب ؟

اكتب ما أنت مؤمن به، وانصرف ليفسح لي مجال الكتابة.

شرعت في كتابة طرف من حكايتي مع الدين الجديد، وعن ماذا يعني "علي محمد" المعروف "بالباب" الذي بشر بقرب ظهور "بهاء الله"، الذي كان يعني بالنسبة لي ظهور الموعود المنتظر من البشر جميعا، أرسله الله ليحقق اتحاد الناس والسلام في العالم...
وبينما أنا منهمك في الكتابة إذا بصاحبة البيت تدخل إلى الصالون، فناولتها المكتوب...

***

غادرت المكان مع "معنان" مودعا وأنا مطمئن البال إلى الخطوة المهمة التي أنجزتها في حياتي، وأحسست بسكينة وهدوء يسريان في كياني، أذهبا عني ما كنت أشعر به من قلق الحيرة ومعاناة الشك الذي طالما أقلق مضجعي.
أزفت لحظة الوداع والعودة إلى "الناضور"، بعد أن مرت الأيام القليلة الفريدة التي قضيتها في "تطوان" بسرعة كبيرة، شكلت حدا فاصلا في حياتي بين عهد ولى وبين عهد ما زالت بوارقه تتجلى.
أخبرني "معنان" أن أحد المؤمنين الوافدين من مصر قد استقر حديثا في مدينة "فاس"، وسيسر بزيارتي إذا مررت عليه في طريق العودة. ومدني بعنوانه عندما وافقته على السفر عبر "فاس".
وفي الصباح استقلت الحافلة العمومية المتوجهة إلى "فاس" بدلا من الطريق التقليدية المعهودة. وما كنت لأشعر بمشقة الطريق ومعاناة الحافلة ما بين المنعرجات الملتوية عبر سلسلة جبال الريف الوعرة المسالك، وإنما كان تفكيري هائما في التجربة التي مررت بها في الأيام القليلة الماضية. تتوارد ذكرياتها تباعا على خاطري أثناء السفر إلى أن وصلت إلى فاس مساء ، فبحثت عن فندق آوي إليه ثم شرعت استفسر عن موقع العنوان الذي لم يكن العثور عليه عسير المنال.

طرقت الباب الذي سرعان ما فتحه فتى يرنو إلي بعينين بريئتين لامعتين مستفسرتين. فسألته:

- أهذا منزل الأستاذ "روحي" ؟
- أجاب الصغير رافعا صوته: بابا ، بابا.

فحضر بابا، وقال :

- هل من خدمة؟
- جئت من طرف "فوزي زين العابدين" من مدينة "تطوان".

فتهلل وجهه بالاستبشار، وقال:

- أهلا وسهلا، تفضل، ادخل.

كان المنزل خاليا من الأثاث أو يكاد، فأجلسني ونادى:

- ألفت . تعالي ، تعالي .

حضرت ربّة البيت. رحبت وسلمت ثم قالت تكرمني:

- ما ذا تريد أن تشرب ؟ فبادرها زوجها قائلا:
- سيتناول العشاء معنا، ثم طلب من ابنه أن يخرج من البيت ليحضر "العيش".

كانت الأسرة لا تتكلم إلا باللهجة المصرية، وكنت لا أفهم كل ما يقال، ومنها كلمة "العيش" التي اتضح معناها عندما عاد الطفل يحمل في يده الخبز.
قضيت وقتا ممتعا ومفيدا مع أفراد هذه الأسرة في بيتهم المتواضع حول صندوق خشبي، استعمل مائدة قدّم عليه الشراب والطعام، إذ لم تكن الأسرة قد أثثت منزلها بعد. واسترسل الحديث عن الأمر البهائي وعن التعاليم التي جاء بها "بهاء الله" إلى أن تقدم الليل، فشعرت أني قد أخذت من وقت أهل البيت ما يكفي، رغم أن الرغبة في الاستزادة من المعرفة كانت ما زالت حاضرة.

استأذنت معتذرا بواجب استعدادي للسفر باكرا في يوم الغد، مودعا هذه الأسرة المهاجرة الثانية التي تعرّفت عليها في هذه المرحلة الجديدة من وصولي إلى شاطئ بحر العرفان الذي يمتد مداه أمام بصري الغافل عن شساعته اللامتناهية وغير الواعي بأغواره السحيقة.

****

3 - الإبحـــــــار

أ - نار المحبـــــــة.

" ... المحبـــــــة هي سبب ظهور الحق في العالم الإمكاني. المحبـــــة هي الروابط الضرورية المنبعثة من حقائق الأشياء بإيجاد إلهي. المحبـــــة هي السعادة الكبرى في العالم الروحاني والجسمـــــــاني. المحبـــــة هي نور يهتدى به في الغياهب الظلماني. المحبـــــة هي الرابطة بين الحق والخلق في العالم الوجداني ...".

***

اطمأنـــت نفسي إلى الحقيقة التي تعرّفت عليها واعترفت بها، وارتبط قلبي بحبها حبا لا يزيده مرور الأيام إلا تمكينا.

حب حركت قوته أعماق نفسي وأدارت حول محوره حياتي.

حب أشعل في نفسي نار الشوق المبرح، فلا أنا قادر على تخفيف لهيبه بالبوح به ولا صبري قادر على كتمان سره في أعماقي.

حب يدفعني تارة إلى البوح بما يثيره في أعماقي من مشاعر أكاد لا أستبين طريقة الإفصاح عنها، أو الإعراب عن ماهية ما يجيّشه في صدري من عواطف لا أحسن التعبير عنها.

إنه حب يحن إلى الإفصاح ويضيق بالكتمان.

ولعل معاناتي الأكثر تعقيدا هو إحساسي بعدم وجود النفوس المتعاطفة في محيطي القادرة على تقديرها.

ورغم التوجّس من لوم اللائمين واحتمال استهزاء الساخرين واعتراض المعرضين وإنكار المتزمتين وأذى المنكرين، فإن إرادتي لم تتمكن من كبح جماح قوته الجارفة الدافعة إلى الإفصاح عما ينطق في داخلي.

ظللت هكذا حائرا مكتويا متأرجحا بين نار كتمان هذه الحقيقة عن الخلق وبين السعي إلى الراحة التي أتوسّمها في الإعلان عن الحب الساكن في أعماقي.

وأنى للمحب أن يمسك جملة عن ذكر المحبوب !

وقد صدق من قال: من أحب شيئا أكثر من ذكره.

تعاظمت حاجتي مع مرور الأيام إلى أن أشاطر غيري في اكتشافي المثير، فحاولت أن أتعرف على الشخص الساكن معي في نفس المدينة، الذي قيل لي إنه يعرف نفس الحقيقة، فبحثت عنه إلى أن اهتديت إليه.

تعرّفنا على بعضنا البعض واطمأن كل واحد منا إلى الآخر، غير أن مسؤولياته على رأس إدارة عمومية وواجباته الزوجية والمنزلية بالإضافة إلى هوية الصيد التي كان مولعا بها، لم تكن لتترك له إلا فرصا محدودة لا تروي ظمئي إلى المزيد من المعرفة والحديث العذب المسترسل عن حبي الجديد الذي تتأجج ناره في أحشائي.
التجأت إلى المراسلة مع المؤمنين الذين تعرفت عليهم، أبثهم مشاعري وتعلقي بالدين الذي اكتشفته حديثا ورغبتي القلبية في أن أكون مثلهم واحدا منهم، أشاطرهم أفكاري وأستفسر عن كل ما يرد على خاطري. فوردت علي منهم أجوبة تحمل عبق المحبوب فينتعش وجودي ويمتلئ يومي فرحا وحبورا.

كان المصري "فوزي زين العابدين" وهو الأستاذ في الفنون التشكيلية، لا يترك مناسبة بهائية تمر دون أن يبعث برسالة موشاة بإطار فني أو لوحة فنية مكتوب عليها النص الذي يتحدث عن المناسبة أو الدعاء المتعلق بها.

ومن بين الأمور التي سطرته الردود الكتابية التي وصلتني، وتركت أثرها الدائم في ذاكرتي، ما ورد في إحداها: من أن معظم الناس يتركون البحر الذي يتموج أمامهم ويقنعون بماء الغدير... وأن المؤمن في هذا الدور البديع إذا سقاه أحدهم السم، عليه بالمقابل أن يسقيه الشهد.

أدركت أن البحر الذي ينبغي التوجه إليه والاغتراف من معارفه وتعاليمه إنما هو الآيات الواردة في كتب الله، وأن معارف العباد مهما كانت واسعة ومفيدة وموافقة للحقيقة، فإنها لا تعدو أن تكون غديرا بالمقارنة مع الحكمة المكنونة في الآيات الإلهية المنزلة.

أحسست أن اختيار الدين الجديد يتضمن الالتزام بقبول مسؤوليات تطبيق أحكامه ومبادئه. فقررت العمل على الاستزادة من معرفة الأحكام والتوجيهات التي أتى بها "بهاء الله"، والعمل على تقويم سلوكي حتى يكون موافقا لها.

أخذت على عاتقي مسؤولية الانتباه إلى نفسي وإلى سلوك الآخرين أكثر فأكثر، فلاحظت في تصرفات غيري وفي تعابيرهم اللفظية ما هو متميز بالرضاء والقبول ومنه ما يمجّه الذوق السليم. فعملت على الابتعاد عن التلفظ بالمصطلحات البذيئة التي يستعملها أحيانا الأصدقاء تحببا مع بعضهم البعض، ونبذت السب واللعن لحظة الغضب والاستفزاز، عندما قرأت في الآثار البهائية قد " **اختص اللسان لذكري، فلا تلوثوه بسب أحد ولعنه** "، واجتنبت ما استطعت ردود الأفعال العنيفة في المواقف الحرجة. و حاولت أن أهذب لغتي وأقوّم سلوكي في محيطي الاجتماعي حتى يكون وفق ما أتعلمه من الوصايا الواردة في الكتب البهائية التي تصل إلى يدي .

ذلك أن الحب يقتضي الالتزام بما يرضى عنه المحبوب، والتمسك بما يرشد إليه من الأعمال والأقوال. ألم ينص القرآن على ذلك ؟

"قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم"[16]

تأملت في الأعمال التي يمكن أن يأتيها الإنسان، فرأيت أنه بالإمكان أن يأتي بالحسن منها كما يمكنه أن يأتي بالسيئ. فقررت السعى في، حالة عدم القيام بالعمل الحسن، تجنب العمل السيئ. وأيقنت أن العمل على اجتناب النقائص يساعد على ظهور الفضائل في الحياة العملية.

انغمست في القراءة، وأحسست أني أنظر إلى الأمور بنظر جديد، وأدرك من قراءاتي ما لم يكن يخطر ببالي في السابق، وأرى في الآيات القرآنية من المعاني ما لم يكن يتراءى لي من قبل. وكأنما هدير أمواج بحر الآيات التي كانت تنكسر معانيها على الشاطئ الذي وصلت إليه، يخاطب عقلي بمفاهيم كانت غائبة مستورة لم تكشف لي عن نفسها في قراءاتي السابقة، ولا حملتني إلى أعالي البحار لمشاهدة ما حدث للأوّلين على يد أبناء قومهم في سبيل عقيدتهم التي آمنوا بها في عصورهم المتعاقبة. وكأنني أصبحت أشاهد أحداث الأمم السابقة في تاريخ الأديان السماوية تتكرر في اللحظة التي أعيش فيها وفي المكان الذي أتواجد فيه، وأنا أقرأ كتاب "مقالة سائح".

حاولت على مستوى واقع حياتي الشخصية أن أهتم بالعبادات، فتعلمت من كتيب المناجاة، الوضوء والصلاة، وحفظت الآيات التي يجب تلاوتها أثناء غسل اليدين.

---

[16] - **آل عمران : 31** .

استحضرت أثناء مباشرة عملية الوضوء، وأنا أتلو الآيات المرافقة، ما ترمي إليه من الحض على المواظبة على فضيلة الأمانة في النوايا والأقوال والأفعال خالصة لوجه الله تعالى، دون سواه.

التزمت مبدئيا بأداء الصلاة القصيرة التي دأبت على القيام بها من زوال إلى زوال، أظهر بها عبوديتي اليومية لله، خاصة وأنها كانت سهلة يسيرة، تقتصر على فقرة صغيرة :

" أشهد يا إلهي بأنك خلقتني لعرفانك وعبادتك، أشهد في هذا الحين بعجزي وقوتك وضعفي واقتدارك وفقري وغنائك، لا إله إلا أنت المهيمن القيوم ".

كلما تأملت في معاني كلماتها، استقر في نفسي أن الهدف من الوجود إنما هو معرفة الله وعبادته. وكان يعني لي ذلك أن الهدف من حياتي، إذا أردت لها أن تكون مثمرة، هو أن أعمل ما استطعت على اكتساب العلم والمعرفة، وبذل أقصى الجهد للقيام بالعمل الصالح الذي يرتقي إلى مستوى العبادة. ولم أر سبيلا لتحقيق ذلك أفضل من الالتزام بما أتى به "بهاء الله" للبشرية في هذا الزمان.
صمت شهر الصيام، 19 يوما كاملة، من 2 مارس إلى 21 منه، في وسط مجتمع يصوم في غير هذا الوقت. وعلى الرغم من قناعتي بأن الكيفية التي أؤدى بها الصيام هو الشكل الذي يجب أن أتعبد به الله إلا أن التغيير في طرق العبادات، لم يكن بالأمر الهيّن على نفسي، بل كثيرا ما ترددت في ذلك، وكثيرا ما كان التفكير في تغيير شكل العبادات يقلقني، وأتمنى في قرارة نفسي لو تركت كما كانت، مبررا أمنيتي بعدم تضرر أحد ببقائها على حالها. وهو نفس التفكير الذي كان يراودني قبل الإعلان عن إيماني، وكاد يشكل السبب الحاسم في رفض الاستمرار في السير قدما في طريق التحري الذي سرت فيه شوطا بعيدا. وكنت كلما جادلتني نفسي العصية في صعوبة تغيير طريقة العبادة التي تربيت على ممارستها وتعوّدت عليها منذ الصبا، وجدت عزاء وأسوة في المؤمنين الأوّلين بالرسالة المحمدية الذين كانوا لا يجادلون في ما يأمرهم به رسول الله (ص).

وتذكّرت حادثة تغيير القبلة في "يثرب" والناس يصلون متجهين إلى بيت المقدس جهة الشمال، فإذا بهم يحوّلون اتجاههم نحو الكعبة في "مكة" جهة الجنوب. وفي ذلك اختبار لمدى امتثالهم لأحكام الرسالة الجديدة وإيثارها على ما تعودوا عليه وتعلقوا به. كما أدركت أن رسول العصر لو ساير الناس في شكل عباداتهم ما استطاع أن يرضي جميع المقبلين إلى دعوته، من أصحاب الديانات المتعددة المختلفة، المتفرقين في أركان الأرض.

انتهت بي القناعة، بعد تردد متعب، إلى أن الإيمان برسول العصر لا يقتصر على الاعتراف به قولا فحسب، وإنما ينبغي أن يكتمل باتباع الشريعة المنزلة في جميع ما تأمر به وتنهى عنه.

*****

ب – **الانفتـــــــــــاح.**

طمحـــت نفسي إلى مشاطرة أصدقائي وأفراد أسرتي الأقربين نبأ هذا الدين الذي يمنح معنى جديدا فسيحا للحياة. فقارنت بين أفراد الأسرة وبين الأصدقاء. فوجدت أن هذه المشاطرة ليست سهلة مع أفراد أسرتي مثل ما يمكن أن تكون مع الأصدقاء، وذلك نظرا للمكانة التي يحتلها الوالدان في وجداني مثل غيري من الأبناء الذين نشأوا في البيئة الاجتماعية الأمازيغية التي تربي النشء على احترام الكبار المتمثل في عدم مناقشة الوالدين في آرائهم، والذين هم أكبر سنا بصفة عامة، بغض النظر عن وضعهم الاجتماعي أو المستوى العلمي، ودون اعتبار ما إذا كان ما يقوله الكبار وما ينصحون به معقولا أو مفهوما للصغار أم لا. واعتاد الكبار في حالة ما إذا طرأ أن تجرأ أحد الصغار على الكلام في حديث بين الكبار، أن يكون رد فعلهم في الغالب، إما الاستهانة أو الزجر: "اسكت... إنك ما زلت صغيرا" لدرجة أن أحد الكوميديين المغاربة قال في مسرحية:

" كلما هممت بالكلام في طفولتي قيل لي "اسكت" وحسبت لكثرة ما سمعتها، أنّ "اسكت" هو اسمي".

ولم يكن هذا التحكم في الصغار مقتصرا على أفراد العائلة بل كان كل الجيران مسؤولين عن ضبط تصرفاتهم بنهرهم وتعنيفهم بالقول واليد أحيانا، فتنشأ الأجيال طائعة خاضعة لا يربطها بالأجيال السابقة رابط الأخذ والعطاء ولا يمتد بينهما أي جسر سوى جسر الحذر والاحترام والمراعاة المنبعثة من الخوف المزدوج: بطش الكبار في البيت و الشارع و في الكتّاب الذي يتعلم فيه المحظوظون منهم، وبطش الله بعد الموت إذا لم يمتثلوا لإرادة الوالدين. خاصة الوالد.

وتزداد شقة الابتعاد بين دنيا الأجيال تدريجيا إلى أن تنتهي إلى صراع صامت يهيمن عليه الاستسلام إلى تقديس العادات والتقاليد في إعادة إنتاج نفسها في الأجيال المتلاحقة.

ومن هذا العرف القائم يستمد الأب في البيت سلطة لا تعلوها سلطة، يفرضها بجديته وصرامته وصراخه وعقابه العنيف أحيانا في التعامل مع جميع أفراد أسرته الذين لا يمتثلون لرغباته، ولا تستثنى زوجته أو زوجاته من تصرفات عنفه الشديد. ولعل مؤلف "الخبز الحافي" خير من كشف صورة مخازي السلوك العنيف لأب تكالبت عليه الغربة والجهالة والجوع والفقر والبطالة و... الذي عاش في متاهاته عدد من الذين هاجروا قسوة ظروف الأرياف إلى قسوة ظروف المدينة.

كنت واهما عندما اعتقدت أن مثل هذا السلوك الأبوي العنيف قد ودعه جيل المجتمع الحالي وولى إلى غير رجعة، إلى أن أيقظني من نومي في إحدى السنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين، صراخ صبي كان في المقصورة المجاورة لي في الباخرة التي تقطع المسافة الفاصلة بين "طنجة" وميناء "سيت" بفرنسا. سمعت صوت أب يأمر الصبي بالسكوت بالأمازيغية، والصبي يزداد صراخه من ألم وعكة ألمّت به، وصوت والده يرتفع آمرا بالصمت إلى أن سمعت دويا انقطع معه الصراخ .. تخيلت أنه رأس الصبي ارتطم بشيء صلب فأسكته إلى الأبد، ليبدأ صوت رقيق متشنج متألم يقول بأمازيغية الريف:
قتلته... قتلت ولدي أيها المجنون...
طار النوم من عيني وأيقنت أن مأساة سيعلن عنها في الصباح الباكر.

إن الأب في العرف التقليدي بمنطقة " الريف " مهما كان وديعا ومسالما وودودا في التعامل خارج البيت، فإن سلوكه الإنساني ذاك، يتوقف بصفة عامة عند عتبة البيت ليبدأ سلوك الصرامة والمحاسبة والمؤاخذة الشديدة على كل حركة أو سكون يحدث داخل البيت، حتى يضمن سلطته التي يمجدها المجتمع. لذا كان كل من في البيت يحسب لوجوده ومزاجه ألف حساب.

اتجه تفكيري إلى الاهتمام بالشروع في تقديم نبإ مجيء الموعود المنتظر إلى أحد أصدقائي، الذي استقبل الخبر بترحاب لم أكن أتوقعه، ولم أتصور رغبته الكبيرة في الاستزادة من المعلومات. وكلما زاد علما اهتم

بمعرفة المزيد. وعندما بدأ يطّلع على أحكام الدين التي جاء بها الموعود، أحس باضطراب في نفسه وعبر عن امتعاضه، واتخذ موقف المدافع: تارة يعاند وتارة يجادل، ولما اقتنع بأن الرسالات الإلهية لا تأتي من أجل أن تبقي الشرائع والقوانين السابقة على ما كانت عليه، وإنما من أجل أن تنزل الأحكام التي تناسب حاجات الناس وتنظم حياة مجتمع العصر الذي تظهر فيه. سأل عما إذا كان مقام "بهاء الله" مساويا لمقام "محمد" رسول الله (ص). وعندما علم أن رسل الله متساوون في مقامهم عند الله ... امتعض من أن يكون مقام محمد رسول الله هو نفس مقام الرسل الآخرين.

أدى استمرار المناقشة إلى الاستطراد في الحديث حول تفاوت المقامات القائم بين العوالم التي خلقها الله: فمقام عالم الجماد غير عالم النبات وهو غير عالم الإنسان والحيوان . ومقام الناس في عالم الإنسان واحد وإن تباينت أشكالهم وألوانهم ولغاتهم، وكذلك الشأن بعالم الرسل، فهم في عالمهم سواء ولا فرق بين بعضهم البعض مهما تميزت أوضاعهم ومراتبهم في النظام الاجتماعي الذي نشأوا فيه. وهذه القاعدة هي التي يخضع لها عالم الناس كما يخضع لها نظام رسل الله ، مثلما هو المنصوص عليه في القرآن:

" ... لا نفرق بين أحد من رسله..."[17]

استغربت من التعارض بين الفكر والشعور في ما يوافق عليه عقل صديقي بخصوص مقام الرسل، وهو يتلو قول الله في آية القرآن الكريم السابقة وبين ما يشعر به في أعماق قلبه. وإن كنت أتفهم ذلك، لأني كنت مثله في هذا المجال. وانتبهت إلى أن التعوّد على حب رسول معيّن باسم محدد وتعزيزه بحب أبناء مجتمعه له واستمرار ترديد ذلك، يتحول في الوجدان وفي الذاكرة الدينية إلى تعلق يفوق بكثير ما يمكن أن يكنّه المرء من حب لباقي الرسل الذين لا يقلون شأنا عن الرسول الذي تعود سمعه وبصره ووجدانه على تقديسه وحبه وتمجيده. ولعل ذلك ما يؤدي إلى التعلق بحب الأسماء والأشخاص أكثر من التعلق بالجوهر والروح الفاعلة التي أظهرت هؤلاء الرسل إلى عالم الشهود. هذه الروح المقدسة الخلاقة التي تنبض في كيان الرسل جميعا.

أدركت عندما اقتنع صاحبي بوحدة الرسل، أن ما يقبله العقل ليس بالضرورة دائما ما يحس به القلب، فقررت العمل على مراقبة حالة الانسجام بين أفكاري ومشاعري في التصرفات التي أقوم بها في حياتي الخاصة.

كثيرا ما يذهب سوء الظن بالناس إلى توقع الشر من الآخرين ويتصورونه حتى في أكمام أعمالهم الطيبة، ويتمخض عن ذلك التصور الخاطئ اختلاف وصراع يؤدي أحيانا إلى حروب تغذيها نفس المبررات ونفس الشعارات: الدفاع عن الله .
ولعل رمزية وقائع هذه الحكاية حول لله والرسل والبشر تصور هذه الحالة:

" يحكى أن أحد الملوك بعث أبناءه متعاقبين ليؤدوا رسالتهم في وسط البشر. وبعد أن توفقوا في أداء مهمتهم، وصار كل واحد منهم ملكا عظيما بدوره في منطقته، قرروا زيارة والدهم العظيم.

تصادف أن تزامن وقت عزمهم على الزيارة، فاكتشفت طلائع جيوشهم عند الاقتراب من حصن والدهم المنيع جيوشا مقبلة على اقتحامه من جهات مختلفة. فقرر كل واحد منهم على حدة، الدفاع عن والده حتى الموت.

في الصباح الباكر، صعد الوالد إلى برج المراقبة في أعلا الحصن. يا لهول ما شاهد ! أبناؤه الثلاثة يستعدون للاقتتال !

أرسل على جناح السرعة رسولا، يستطلع الخبر. فإذا بالظن والوهم وسوء الفهم هو السبب.

لم يكن سهلا على الرسول أن يرفع سوء التفاهم، ويقنع الجميع بأن محبوبهم واحد وغيرتهم واحدة وهدفهم واحد. ويضع في النهاية حدّا لهذا الخطأ الجسيم"

---

[17] - **البقرة : 285 .**

***

عاودني التفكير في ما يحول دون إقبال الناس على الإيمان برسول عصرهم الذي عايشوه، وجاءهم بما يصلح به شأنهم ويدخل الراحة والاطمئنان إلى قلوبهم. فلم أجد سببا وجيها.

ومما يزيد المرء استغرابا من عدم إقبالهم، توقعهم مجيء الموعود في ميقات شبه معلوم، واستمرار مواظبتهم على التشبث بانتظاره، وعقدهم العزم على الإيمان به عند ظهوره في زمان يتوقعون علاماته، ورغم إقرارهم أحيانا بوجود العلامات إلا أنهم يتوقعون مجيئه بعيدا في آخر الأيام !
وإذا ما فوجئ أحدهم بخبر ظهور ذلك الموعود المنتظر، استغرب مندهشا بحدوثه دون أن يكون على علم بذلك، ودون أن يؤمن به جميع الناس.

وإذا ما قيل له: إن إيمان الجميع به إنما يتحقق بإيمان الأفراد واحدا بعد الآخر كما حدث في الرسالات الإلهية السابقة، صوّرت له مخاوفه التحدّي الكبير الذي يفرضه الإيمان برسول العصر، وصعوبة تجاوز تحديات ثوابت الإرث الديني الراسخة في أعماقه، ومواجهة التقاليد الاجتماعية ... وقد تزين له نفسه الموقف المريح الذي يتخذه عندما يشير عليه عقله: لم تكون أنت من أوائل المؤمنين؟ أفلا يجمل بك أن تنتظر حتى يؤمن الآخرون؟.

إن مجرد تفكيري في واجب تقديم هذه الرسالة الإلهية لأناس أعرفهم وأشعر مسبقا أنهم لن يرحبوا بها، يتطلب مني مجهودا معنويا كبيرا، يسرب الإحباط إلى نفسي ويولد في وجداني عائقا يحول بيني وبين الإفصاح. وفي نفس الوقت، لا أرى لنفسي خلاصا من هذه المسؤولية الوجدانية إلا ببذل المزيد من المحاولات لتقديم الدين الجديد لأصدقائي وزملائي الذين أتوسّم فيهم الاستعداد لتقبل البحث عن الحقيقة.

لم يكن الوصول إلى تحقيق ذلك من الأمور السهلة اليسيرة، وبدا لي بعد التفكير في أبناء مجتمعي المتعلمين، من أبناء جيلي الذين أتعامل معهم، أنهم بصفة عامة ثلاثة أصناف كبيرة:

- صنف لا يهتم ولا يبالي بالدين. يصرف معظم وقته في لغو الحديث ضاحكا مازحامستهترا.
- صنف قانع بالتقاليد الدينية، حريص على المحافظة على بقائها.
- صنف يعتبر نفسه تقدميا، يدعي الميل إلى الاشتراكية العلمية، ولا يرى في الدين إلاوهما قديما ورثناه عن سلف لم يحصل على ما تيسر لنا من معارف حديثة ليحل المشاكل التي تواجهنا الآن.

وكنت شبه متأكد، من أن الأفراد الراغبين في معرفة الحقيقة المستعدين لتبنّيها، مهما كانوا قلة، يمكن العثور عليهم في جميع الأصناف. والصعوبة كل الصعوبة تكمن في تعيين أشخاصهم. ورأيت أن ذلك لا يتحقق دون القيام بمحاولة البحث عنهم !
كان الصنف الأول من الشباب المتعلمين الذين درسوا بالاسبانية والعربية، مهووسين بتقليد ضحكات وقهقهات اللهجة المصرية في تعابير وحركات ما ينتجه الممثلون المصريون في أفلامهم.

وكان شغلهم الشاغل بعد الانتهاء من ساعات العمل والجلوس إلى بعضهم البعض في المقاهي أن يصرفوا الوقت في ما مرّ بهم من الأحداث اليومية في العمل أو استعراض ما سمعوه أو شاهدوه من أحداث مثيرة في الأفلام . ويجدون متعة وترويحا عن النفس في تقليد اللهجة المصرية ، خاصة وأن أهل المدينة كانوا لا يتكلمون إلا بالأمازيغية في بيوتهم أو في الشارع ، مثلما كان يفعل أهل المنطقة كلها . إذ لم يكن يتقن الحديث بالعربية" الدارجة" إلا عدد محدود من الوافدين على المدينة من قبائل الرحل العربية القريبة أو من الموظفين الذين جاءوا من مناطق المغرب بعد حصوله على الاستقلال أو بعض المصريين الذين استقدمتهم الحكومة المغربية للمساهمة في تنمية الموارد البشرية والاشتراك في تطبيق سياسة تعريب التعليم والقضاء.

كانوا يتخذون من جل المواضيع ، مهما كانت جديتها ، مادة للضحك والترويح عن النفس ، يتعاملون معها بأسلوب المزح والاستخفاف . كأن حاجات البلاد الملحة إلى الموارد البشرية للنهوض بمطالب الدولة الوطنية لم تكن من اهتماماتهم الأولى . وكأنما الاستفادة من الفرص التي تمنحها ظروف الاستقلال لم يكونوا يستشعرون أهميتها.

ولعل ذلك يرجع إلى منحى عهد الاستقلال الذي اتخذته مقتضيات السياسة الجديدة والمنعطف الذي سارت فيه التيارات الحاكمة. فبعد أربع وأربعين سنة من الحكم الاسباني ونشر الثقافة واللغة الاسبانية في شمال المغرب، تقرر تعريب التعليم وتعميم اللغة الفرنسية في العمل بالإدارات العمومية وغيرها. وبذلك أصبح من الصعب على السكان المتعلمين المحليين والموظفين في الجهاز الإداري الاسباني سابقا، أن يقوموا بدور مهم في الارتقاء بقدراتهم وطموحاتهم إلى مستويات المشاركة الفعالة في تسيير البلاد أو في صنع قراراتها المصيرية، وهم لا يتقنون العربية ولا يعرفون الفرنسية.
والصنف الثاني المرتبط بالدين الموروث عن الآباء والأجداد من المهد، يؤمنون بحديث "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه" . وغالبا ما لا يبدون أي اهتمام بالجديد في الدين بل يعتبرون البحث أو مجرد فكرة التفكير في البحث في إمكانية وجود دين جديد، زلة العمر تقود صاحبها إلى الجحيم. ومهما تعددت المناقشات وبذلت المجهودات للتفكير في إمكانية التغيير والتجديد، وكيفما كانت الدلائل العقلية أو النقلية مقنعة وسليمة المنطق الداحض لمقولاتهم المعارضة، ومهما لمس أحدهم صحة وسلامة الحجة التي تثبت صحة ظهور الموعود، فإنه لا يجد الخلاص إلا في التمسك بموقفه المطمئن إلى الموروث الدفين في النفس، المنقوش في الوجدان.

كانت هذه المواقف المتشابهة قاعدة عامة قلما تجد لها استثناء أو تجد من يحيد عنها قيض أنملة إلا نادرا.

في هذا المسار، جرى حديث بيني وبين أحد الأساتذة الذين يدخلون في الصنف الثالث، من ذوي الميول الاشتراكية حول نزول "عيسى"، فقلت له مستفسرا:

- لو قيل لك، إن "عيسى" قد نزل، ما ذا يكون موقفك من الخبر؟
- لو نزل "عيسى" حالا من السماء أمام بصري، لقلت جازما، لا يخلو أن يكون النازل من الجواسيس الأمريكان أو السوفيات ...

هذه كانت مواقف عدد من الشبان المنحازين للاشتراكية، المتأثرين بالأحداث العالمية التي كان يطغى عليها آنذاك، تنافس شديد للسيطرة على العالم إيديولوجيا وسياسيا واقتصاديا في حرب باردة محمومة بين القطبين الليبرالي والشيوعي. واقتصر اهتمامهم بالحديث عن الدين، إذا فعلوا، على التعريض بتخلفه وفساد رجاله، ونعته " بأفيون الشعوب ".

بين جموع هذه الفئة من السكان، عرضت النبأ على بعض الأفراد من المجموعة التي يتكوّن منها رفاقي الذين ألتقي بهم يوميا تقريبا عندما تسمح الفرص بذلك. فكان منهم من ألقى أذنا صاغية دون أن يكون له أي رد فعل، ومنهم من استمع وحاول أن يعرف المزيد إلى درجة الاكتفاء، ومنهم من بلغ به البحث إلى مرحلة الاقتناع.

ومن بين المقتنعين من قدّروا العواقب الوخيمة التي يمكن أن تتولد عن الاعتراف بالرسالة الإلهية إذا علم بذلك أهلهم وأولياء أمورهم. وكانوا محقين تماما في تخميناتهم. لكن منهم من تابع البحث والاستقصاء، رغم اضطراب نفوسهم عندما اقتنعوا بسنة الله في إرسال رسل الله باستمرار إلى الخلق، واقتناعهم بعد مناقشات متتابعة مسترسلة بوجود رسول على الأرض بعد رسول الله محمد (ص)... فأقبلوا على الرسالة الجديدة واشتعلت قلوبهم بحب الله والتوكل على ألطافه وعنايته، فتسلحوا بالشجاعة ودخلوا في فُلك الإيمان.

ج – " المحفل الروحاني المحلي "

لم يمـــر وقت كثير بعد إيمان المجموعة الأولى من المعارف والأصدقاء، حتى أخذ عدد المؤمنين يتزايد في المدينة، منهم من آمن بها حديثا ومنهم من انتقل إليها بحكم العمل والوظيفة، علاوة على بعض المؤمنين الساكنين في مدينة "مليلية" المجاورة الواقعة خلف الحدود المغربية، وفي نفس الوقت تقلص عدد معارفي الذين يمكن إبلاغهم بنبأ الرسالة الإلهية، فضلا عن الذين لم يولوا الاهتمام الذي يستدعي المتابعة.

ومع انتقال بعض المؤمنين من المدينة، أصبحت الحاجة ماسة إلى تعويضهم، ولو أنها لم تعد مقلقة عندما تداركت بوفود أسرة بهائية علينا عززت جامعتنا باستقرارها في وسطنا. وبذلك تفرغت الجامعة إلى العمل على أن تحيى حياتها الجماعية وفق ما يرسمه النظام البهائي.
اتفق الجميع على أن يجتمعوا بانتظام من أجل دراسة التعاليم التي جاء بها "بهاء الله" وتبادل المعلومات والتجارب مع بعضهم البعض، والشروع في تطبيق الأحكام الخاصة بالحياة الجماعية، ومنها العمل على تأسيس "المحفل الروحاني المحلي"[18]. كما نص الكتاب الأقدس:

> **" قد كتب الله على كل مدينة أن يجعلوا فيها بيت العدل ويجتمع فيه النفوس على عدد البهاء وإن ازداد لا بأس ويرون كأنهم يدخلون محضر الله العلي الأعلى ويرون من لا يرى وينبغي لهم أن يكونوا أمناء الرحمان بين الإمكان ووكلاء الله لمن على الأرض كلها ويشاوروا في مصالح العباد لوجه الله كما يشاورون في أمورهم ويختاروا ما هو المختار كذلك حكم ربكم العزيز الغفار إياكم أن تدعو ما هو المنصوص في اللوح اتقوا الله يا أولي الأنظار "**[19].

ما أن تأسس المحفل حتى تولى الإشراف على تنظيم حياة المؤمنين الجماعية والدعوة إلى إقامة الضيافات التسع عشرية التي يلتقي فيها المؤمنون ويتشاورون في أمورهم الخاصة.

على أن تأسيس المحافل في هذه المرحلة التاريخية، في مسيرة تقدم البهائية، كان يكتسي أهمية متميزة نظرا للعمل المشترك الذي كان يقوم به المؤمنون في مختلف جهات العالم في إطار أول مشروع عالمي يرمي إلى تتويج جهود المنضوين تحت لوائه العاملين في إطاره، بتأسيس " بيت العدل الأعظم ": قمة صرح النظام البهائي الإلهي المصدر الذي نصت عليه التعاليم البهائية، حتى يكتمل بذلك البناء الإداري الذي جاء به "بهاء الله" للبشرية في هذا العصر الجديد. فكان التوجه نحو الإكثار من تشكيل المحافل الروحانية، بوصفها القاعدة المكينة التي يقوم عليها بيت العدل الأعظم.

اتجهت جهود الأفراد والهيئات البهائية، حيثما كانت في العالم، إلى تشجيع المؤمنين على الهجرة، وذلك بالانتقال من بلدانهم أو من الأماكن التي يزيد فيها العدد عن النصاب إلى حيث الحاجة إلى تشكيل المحفل الروحاني على المستوى المحلي. فسرنا نحن البهائيون "في الناضور" في ركاب إخواننا في العالم، من أجل أن نحقق بدورنا هذا الهدف المنشود.
كانت معظم لقاءاتنا الأولى، سواء من أجل المشاورة أو الدراسة، تقع بمنزل أحد المؤمنين المتزوجين أو بمنزل والدي "معنان" اللذين كانا من التسامح ومن إعزاز أصدقاء أبنائهم، ما يحملهما على استقبال إخوانهم من البهائيين بتمام الترحاب والكرم. وفي منزلهم ذاك، تأسس أول محفل روحاني في 21 أبريل 1960، عندما بلغ العدد تسعة مؤمنين راشدين، وفق حكم " الكتاب الأقدس ".

---

[18] - حيثما أقام المؤمنون البالغون 21 سنة الذين يزيد عددهم على 9 ، يجب أن يتفقوا وينتخبوا في اليوم الأول من الرضوان هيأة إدارية محلية ، تتكون من 9 أعضاء تسمى المحفل الروحاني للبهائيين لذلك المحل... مع ذلك ، كما ذكر سابقا ، عندما يكون عدد البهائيين 9 فقط ، يجب عليهم أن يشكلوا هم أنفسهم ويقروا متفقين في اليوم الأول من الرضوان المحفل الروحاني المحلي ...
(مأخوذ من دستور بيت العدل الأعظم) .

[19] - بهاء الله : الكتاب الأقدس .

كان هذا الإنجاز، رغم ما يستتبع ذلك من صعوبة العمل الجماعي، إنجازا عظيما وانتصارا كبيرا على المستوى المحلي، من أجل الشروع في تطبيق النظام الذي انفرد "بهاء الله" بتقديمه لسكان العالم.

كان هذا الإنجاز بالنسبة لي بداية الشروع في حرب الانتصار على الذات، نظرا لما يتطلبه من التنازل عن أنانية التمسك بالرأي الشخصي والخضوع لما تقرّه الأغلبية، في مجتمع تقليدي غالبا ما تؤخذ فيه القرارات من طرف الأفراد الذكور الكبار وحدهم، تبعا لموقع السلطة الذي يحتلونه، إن كانوا آباء في الأسر أو معلمين في المدارس أو رؤساء في المؤسسات.

وتتمثل أهمية تأسيس المحفل الروحاني وتواجدي فيه، في هذا المجتمع التقليدي الذي يتباهى بالتمسك بالرأي معتبرا الاستماتة في التشبث به مكرمة وفضيلة ومظهرا من مظاهر الرجولة والتفوق وإثبات الذات، مقدمة للتدرب على التشاور من أجل الوصول، في جو روحاني هادئ إلى صنع القرارات الجماعية، مهما كانت متواضعة، بالنسبة لنا نحن المجموعة الأولى القليلة العدد والمعرفة والخبرة.
كانت مساهمة محفل "تطوان" في مساعدتنا على تأسيس محفلنا كبيرا، بحرصهم على الأخذ بيد المحفل الوليد، حتى لا تتعثر خطواته الأولى، فقرر استضافة كاتب المحفل للحضور إلى جامعتهم حتى يطلع على الطريقة التي يقوم بها أعضاء المحفل الفاعلين على أداء عملهم. فأمكن لي الاطلاع على الطريقة التي يعمل بها المنتخبون لأداء الوظائف التي يحتاج إليها السير العادي للمحفل، من تنظيم جلسته أثناء انعقادها وتسجيل القرارات عند الاتفاق عليها وتبليغها للمؤمنين في الضيافات التسع عشرية...

ومع مرور الأيام، تراجع عدد المؤمنين بسبب انتقالهم من المدينة لأسباب مختلفة، أهمها الدراسة والوظيفة أو التكوين من أجل الترقية فيها، وبذلك اختل النصاب المطلوب شرعا لإعادة انتخاب المحفل في "الرضوان" القادم. وكان لا بد من الأخذ بأحد الخيارين: إما فقدان المحفل أو العمل من أجل المحافظة على استمرار وجوده. وكان الاحتفاظ على وجوده هو الاختيار الأفضل، وبالتالي السعي للتعريف بالدين لبعض من تبقّى من الأصدقاء والمعارف الذين يظهر من مناقشاتهم بصيص من قابلية البحث. لكن انتشار الخبر أكثر مما ينبغي، جعل الألسنة تتناقل أحاديث خاطئة وكيدية عن البهائية، وتغالي في ذلك ما شاء لها الهوى وجاد به الخيال.

وإذا كان من الطبيعي أن يفوق اهتمام السلطات بالأمور العامة اهتمام عامة الناس، فإن بعض الأفراد، خارج إطار السلطة المعنية، تصدوا للقيام ببحثهم الخاص بدافع من الفضول المحض. ومنهم أحد المعلمين الذي ارتأى أن يتأكد مما إذا كان صحيحا ما يشاع بأن أحد زملائه ينتمي إلى البهائية.

اغتنم فرصة جلوسي معه ذات يوم في المقهى المقابل للمدرسة التي نعمل بها، ننتظر دق جرس الدخول لحصة ما بعد الظهيرة.

كان المعلم يعلم أن البهائيين يصومون في شهر مارس، ما بين الثاني والواحد والعشرين منه. وكان من عادات أهل البلد الترحيب بالوافد عليهم وإكرامه بدعوته إلى تناول مشروب معهم. فدعاني زميلي كما تفرض العادة، فاعتذرت شاكرا. لكنه ألح متودّدا على أن أشرب قهوة إذا لم أرغب في شرب الشاي. وعندما اعتذرت ثانية بحجة أن وقت العمل يداهمنا. عاب علي أن أرفض كرمه، وأقسم أن أقبل دعوته.
فلم أجد بدا من المجاراة، قائلا: إني لا أريدك أن تصرف نقودا في كرم لا تدعو الحاجة إليه، وناديت النادل وطلبت منه أن يهيئ لي شايا. وعندما حضر استبطأت وضع السكر فيه كما استبطأت تذويبه، وأخذنا نتبادل أطراف الحديث مع الجالسين من الزملاء إلى أن دق الجرس فقمت مستعجلا، قائلا لزميلي: ألم أقل لك إن وقت العمل يداهمنا ؟

*****

د - زيارات متبادلـــة.

كـــان من عادات شباب الناضور في السنوات الأولى من الاستقلال السفر إلى مدينة "مليلية" المجاورة التي لم يكن الانتقال إليها عبر الحدود الفاصلة بينها وبين المغرب يحتاج إلى تأشيرة الدخول، أو تحول دونها الحواجز الإدارية الجمركية. فكنت بدوري أسافر إليها أزور البهائيين المقيمين بها وأقضي معهم لحظات روحانية ممتعة، أتعرف على أحوالهم وأشارك في لقاءاتهم الروحانية، حاملا إليهم الأخبار البهائية الواردة علي وأنقل عنهم ما يكون لديهم من مستجدات.

ومن عجيب تجربتي أن سفرياتي كانت مشمولة بتمام التوفيق إذا كانت لها علاقة بزيارة المؤمنين في "مليلية". فما أن أخرج من باب منزلي لأستقل سيارة في اتجاه "مليلية" ، حتى يقف لدى موقفي أحد معارفي بسيارته، ويسألني بدافع الصداقة والنخوة والكرم، عما إذا كنت قاصدا "مليلية"، فيصطحبني معه. أما في حالة ما إذا كان وقوفي قاصدا نفس المدينة لمهمة شخصية، فكنت أعاني من نفس ما يعاني منه بقية المسافرين من البحث المتعب أحيانا عن وسيلة نقل عمومية!

وفي العام الموالي لتأسيس المحفل الروحاني، زرت مع بعض المؤمنين مدينة "فاس"، قصد المشاركة في استقبال أحد الزوار المرموقين.

كانت تلك أول رحلة لي مع غيري قصد التعرف على الذين يشاطروونني نفس العقيدة. سافرنا في سيارة أحد المؤمنين العاملين في مصلحة البريد، مبتهجين بالرحلة، مستمتعين بمناظر الطبيعة في فصلها الخلاب من سنة 1961، متآنسين بالمودة المتبادلة، تغمرنا سعادة الإيمان التي تملأ قلوبنا النابضة بحب الله، نشعر كأنما كنوز الدنيا ليست بشيء مقابل نعمة الهداية التي تغمر أرواحنا.
وصلنا "فاس" ليلا، ونزلنا في فندق وسط المدينة الحديثة، وفي الصباح قصدنا المكان حيث اجتمع المؤمنون في منزل نفس الأسرة التي زرتها أول ما زرت "فاس"، بعد اعترافي مباشرة بالدين البهائي.

ويا لدهشتي، لدى وقوع عيني على الزائر المحتفى به ! إنه من العرق الأسود، قدم من إفريقيا السوداء !

إنها المرة الأولى التي أحتك فيها بأبناء هذا العرق، الذي كان قد تكوّن لدي الانطباع بأنهم دون العرق الأبيض عقلا وفهما، دون أن أعرف بالضبط كيف ترسّخ هذا الانطباع في نفسي.

كان حضوره في هدا اللقاء سببا في إزاحة مسخ التعصب العرقي البشع الذي تسرب في وجداني واستقر في نفسي بلا وعي، وربما نتيجة لاعتبارات تاريخية واجتماعية ما أنزل الله بها من سلطان. إذ أن ما لقنه لنا التاريخ من أحوال السود وسوق الرقيق وما يحمله لون السواد في الثقافة الشعبية من دلالة وما يشيعه الأدباء العرب عن السود قمين بأن يرسخ في الوجدان ما يجعل صاحبه يشمئز من السود.
كان لا يتكلم[20]* إلا بالإنجليزية ولا يفهم منه أكثر الحاضرين سوى ما يترجم من قوله، ومنه هذه الحكاية التي ترمز إلى الإمدادات الغيبية:

" بينما الحكيم يسير وأتباعه خلفه في العراء، إذا برجل جالسا على قارعة الطريق يبدو عليه البؤس والحاجة.

أمر الحكيم أن يقدم له بعض الطعام، وما أن فعلوا حتي التمس البائس أن يقدّم له بعض النقود، وما أن فعلوا حتى طلب بعض الكساء، وما أن فعلوا حتى طلب الحذاء ثم العمامة ثم العباءة... هو يطلب والحكيم يأمر أتباعه، الذين يتسابقون إلى تنفيذ أوامره، بالامتثال، إلى أن استجابوا لجميع طلباته وأرضوه تماما.

تابع الحكيم السير والأتباع خلفه يتساءلون في أنفسهم:

*** - السيد إينوك أولينكا من أيادي أمر الله، وهو أعلا مقام يصل إليه المومن البهائي، وكانت وظائفهم القيام على ترويج أمر الله وحمايته.**

ما الذي جعل معلمهم الحكيم يستجيب لطلبات المتسول المستفزة؟

لم يجرؤ أحد منهم على استفساره. وبعد هنيهة، التفت إليهم المعلم قائلا:

- أتعلمون من كان ذاك الشخص في قارعة الطريق؟ قالوا:
- أذلك المتسول الوقح!
- ليس الرجل كذلك ، إنه فرد من عصابة قطاع الطرق الذين كانوا مختبئين خلفذلك التل، ينتظرون إشارة منه لتلبية ندائه والانقضاض علينا ".

ثم أضاف بواسطة المترجم :

إن المؤمنين لا ينبغي أن ينظروا إلى ظاهر فقرهم وعجزهم وقلة عددهم وضعف حيلتهم في خدمة أمر الله، بل عليهم أن يوقنوا بأن ملائكة النصر والتأييد واقفة متأهبة، خلف الحجاب، مترصدة لسماع ندائهم، فتسرع إلى نجدتهم وتعزيز جهودهم ".

أشار على الحضور، بعد الانتهاء من الحديث، بالوقوف، وأن يأخذ كل واحد منهم بيد الآخر كحلقات متماسكة في سلسلة مغلقة. وعندما تمّ له ذلك، قال: هكذا ينبغي أن نكون دائما متحدين في ميدان خدمة أمر حضرة "بهاء الله".

أحسست بموجة روحانية عارمة حملت نفوس الحاضرين جميعا، وهم ينصتون باهتمام إلى المتحدث الأسود البشرة، إلى عالم تخلص من الفروق الفاصلة بين الناس حيث يعملون متعاونين في جو من المحبة الخالصة التي لا تشوبها أية كدورة أو اعتبار عرقي أو ثقافي أو مستوى اجتماعي.

وبعد أن تناول الجميع طعام الغذاء في نفس المنزل، انصرف كل منا إلى حال سبيله، وانصرفت بدوري مع رفاقي وأنا أشعر بانتعاش يسري في ذاتي، وبطاقة جديدة تشحن عزمي على تقديم هذا الأمر الإلهي لأهل بلدتي.

ومن بين الزوار الذين كلفوا أنفسهم مشقة السفر إلى "الناضور" ومنحوا لنا فرصة التعرف عليه، شاب لبناني قدم في سيارته الشخصية من فرنسا لزيارتنا. فكان لمبادرته تلك وقع كبير في نفوسنا، لما تعنيه من روابط تتعدى حدود المجتمعات والبلاد التي نحيا فيها، ومن لحمة تعلو على العصبية القبلية والالتئام الوطني. لازمناه طيلة الأيام التي قضاها في أحد الفنادق بمدينة "مليلية"، ونظمنا له جلسة خاصة في منزل أحد المؤمنين المقيمين بها. وفي تلك الجلسة أشار معبرا عن شعوره قائلا:

" لقد قطعت هذه المسافات الكبيرة مثل مسافر أنهكه عناء السفر، إلى أن وصلت إليكم، فشعرت بالراحة التي يشعر بها قاطع الصحراء عند وصوله إلى واحة فيحاء".

دعوناه أثناء مقامه لزيارة مدينة "الناضور"، فتراءت له في شرقها قرية بيضاء رابضة في شاطئ الساحل عند قدم جبال "كبدانة" المحيطة بها، وقد أعجب بجمال موقعها وذكّرته بقرى بلده لبنان، لدرجة التعبير عن رغبته في شراء أرض بها.

كما وفد علينا عدد من المؤمنين المهاجرين من مدن المغرب مثل "الرباط" و"الدار البيضاء"، قصد زيارتنا، فكان لهؤلاء الزوار الأثر الحميد في توثيق أواصر التعارف والتآلف بيننا وبين المؤمنين الذين يسكنون في جهات أخرى، مما جعلنا نشعر بانتمائنا إلى مجتمع يتواجد في جهات مختلفة من العالم.

كان لأحاديث الزوار، عن تاريخ أمر الله وتاريخ حياة المؤمنين البارزين الذين عايشوهم وكذا عن سيرتهم الذاتية وتجاربهم وسلوكهم الشخصي، أثر في حياتنا الجديدة ، الشيء الذي ساعد على الإحساس بامتداد جذور إيماننا، رغم حداثته، في تاريخ تتراكم أحداثه المتتابعة التي تزيد على قرن من الزمان.

إن وفود هؤلاء الزوار من حين إلى آخر على المدينة، وكذا زيارة بعض المؤمنين لي في منزلي جعلني دائم التأهب والاستعداد لاستقبال الطارقين، بحيث أكون مهيأ الملبس ومنتعل الحذاء في أكثر الأوقات حتى أسرع

إلى فتح الباب بمجرد ما يصل طرقه إلى سمعي، فأكون في رفقة الطارق أو القيام بأية مهمة مطلوبة بمجرد الاطلاع عليها.

كانت هده الزيارات المتبادلة خاصة التي أقوم بها، صحبة صديقي "معنان" في عطلة الصيف في بعض المدن المغربية إلى المؤمنين، الذين كان معظمهم من المهاجرين الوافدين على المغرب، حاملين بين جوانحهم تلك الرسالة الإلهية الجليلة، من العوامل التي وسعت أفق معرفتي ورسخت الإيمان في قلبي وغيرت مجري حياتي وحياة غير قليل من المغاربة.

إن استقبال المهاجرين الحار واهتمامهم الكبير بالضيوف وكرمهم الزائد وأحاديثهم التي تكاد لا تتناهى عن أمور تصب كلها في البهائية، وأسلوبهم المعبر عن حبهم الكبير " لولي أمر الله"[21] وتأثرهم البالغ بالوفاة التي استعجلته سنة 1957، من الأمور التي كانت تثير كامل اهتمامي وتنال غاية إعجابي.

كما كان هذا الاتصال المباشر بالمؤمنين من الأسباب التي جعلتني ألمس، عن كثب، أخلاق وسلوك البهائيين في تصرفاتهم التلقائية في حياتهم اليومية، وتشعرني بما تحققه قوة روح الرسالة الإلهية من تغيير في واقع الناس وما تكسبهم من سلوك فاضل وأخلاق عالية.

تأكد لدي بما لا يدع مجالا للشك، أن هدا النوع من الخلق الذين يتحملون المشاق من أجل الاستقرار في بلاد الغربة، ويبذلون الجهد من أجل أن ترتقي نفوسهم إلى هذا المستوى الرفيع من الأخلاق الإنسانية السامية، لا يمكن إلا أن يكونوا من ثمار الشجرة الإلهية المباركة التي نص عليها القرآن في سورة إبراهيم:

" ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون"

وأي فخر وأي مقام أكثر جلالا، يتمنى الإنسان أن يبلغه في هده الحياة، من أن يكون من ثمار شجرة الرسالة السماوية!

*****

[21] - **شوقي أفندي، (1921- 1957) إذ هو آية الله والغصن الممتاز وولي أمر الله ومرجع جميع الأغصان والأفنان وأيادي أمر الله وأحباء الله ومبين آيات الله . ألواح وصايا عبد البهاء .**

هـ - السلطة المحليـــــــــــة.

هكـــــذا مر العام هادئا بين اللقاءات البهائية المحلية وبين استقبال الزوار الذين كانوا يقصدون زيارتنا إلى أن أخذت السلطات تستدعي بعض المؤمنين من أجل التأكد من انتمائهم للبهائية.

وكان "بوعرفة معنان" الذي يعمل مفتشا للشرطة، من المدعوين الأوّلين، فأطلعهم على حقيقة البهائية وقدم لهم كتاب " بهاء الله والعصر الجديد " الذي يقول عنه مؤلفه في المقدمة:

"جمعت فيه خلاصة كل ما وصلت إليه يدي (من معلومات عن البهائية) وما عرفته.."

والراجح أن المعلومات الواردة فيه كافية للقارئ العادي الراغب في الاطلاع على تاريخ البهائية وأحكامها ومبادئها.

ومن المدعوين أيضا "عبد العزيز الورياشي" الذي قدم من "مليلية" التي تزوج فيها حديثا، ليرى ما إذا كانت حوالة أجرته الشهرية قد وصلت ليغطي بمبلغها ما تبقى من مصاريف مستلزمات الزواج.

فاستدعاه رجال الأمن ودّيا وتحدثوا معه في الموضوع وتأكدوا من صحة الخبر.

التقى بي عند خروجه من مركز الأمن وأخبرني بالحديث الذي دار بينه وبين رجال الشرطة عن البهائية، كما أخبرني عن تحذيرهم إياه من مغبة الانتماء إليها.

وبينما نحن نسير في الشارع الممتد بين "النادي البحري" وبين مقر عمالة الإقليم، إذا بشرطيين قادمين في اتجاهنا، ولدى اقترابهما منا أسر إلي "عبد العزيز" هامسا أنهما اللذان استجوباه في مركز الشرطة.

ألقيا التحية علينا عند نقطة التقائنا، وصافحانا، ولمّح أحدهما إلى الخطر الذي يحدق بنا، بينما قال الثاني مشفقا: عليكما أن تكونا حذرين وعاقلين. وحتى أقطع عنهما حديث إشفاقهما، قلت لهما مازحا:

ومتى ستستدعونني بدوري؟ فنظرا إلينا نظرة تنطق بكثير من الإشفاق والوعيد رغم الابتسامة المرسومة على وجهيهما وهما يودعان.

إن كثيرا من رجال الأمن العاملين في المدينة يعرفون أهلها معرفة كاملة نظرا لقلة عدد سكانها خاصة العاملين منهم في مرافق الحكومة، وتربطهم بهم في الغالب روابط الثقة والتعاون، ومنهم من طلب مني أن أساعدهم على تعلم اللغة العربية عندما انتهجت الحكومة سياسة تعريب الإدارة، فكان لهم ذلك.

وبذلك تولد لدى بعضهم الاحترام المفترض في المتعلمين تجاه معلميهم.

ولعل هذا الاحترام الذي يكنونه في أعماقهم لنا، هو الذي دفعهم إلى إبداء الشفقة علينا وتحذيرنا مما يبيّت لنا في الخفاء.

***

في أصباح جميع أيام العمل، أخرج من البيت قاصدا المدرسة التي أعمل فيها معلما وقد تأبطت المحفظة التي جمعت فيها ما أعددته من أدوات تلقين دروسي الجديدة، أستعرض على فكري أثناء سيري صور الطرق التربوية التي ينبغي أن أقدم بها للصغار عناصر درسي بكيفية ناجحة.

غير أن ذلك الصباح، من اليوم 12 أبريل سنة 1962، تسرب القلق والتوتر إلى عقلي ونفسي أكثر من الأيام السابقة، التي أخذت مصالح الأمن تستجوب فيها بعض المؤمنين. فلا تفكيري كان صافيا قادرا على التركيز

ولا نفسي هادئة توفر لمشاعري بعض السكون. مع أن صباح ذلك اليوم كان من أيام الربيع المشرقة المعطرة الدافئة الجميلة التي تنشر أشعة الشمس فيها ضياءها في كل الأرجاء، بما فيها أرجاء النفس، وتبعث الانتعاش في جميع الأبدان، باستثناء نفسي التي لم تكن منسجمة مع إطار الطبيعة الزاخر بالحياة والإشراق البهيج. ومهما حاولت الخروج من الشرود والاكتئاب الذي يطوقني، أجدني، رغما عني، أسير حباله، لدرجة أني، على غير عادتي، لم أخرج من حجرة الدراسة أثناء فترة الاستراحة وسط الحصة الصباحية لأستمتع بدفء الشمس وتبادل أطراف الحديث مع زملائي، بينما الصغار يلعبون ويمرحون في ساحة اللعب.

كنت جالسا أمام مكتبي مستغرقا في التفكير عندما لمحت مدير المدرسة واقفا لدى باب الحجرة محييا ومشيرا إلي بالخروج، فخرجت إليه أصطنع الابتسام.

وما أن وصلت إلى الباب حتى رأيت مفتش الشرطة إلى جانب المدير، فحياني بدوره واضعا يده على كتفي طالبا مني أن أرافقه. فعلمت أن أمواج البحر بدأت تتحرك وأن وقت الافتتان قد أزفت لحظاته الحرجة.

استسمحت عفويتي مفتش الشرطة، من أجل استئذان مديري الذي بجانبه قصد مرافقته. وقبل أن أفعل، أسرع المدير بالجواب الاضطراري:

نعم ! نعم ! يمكنك الانصراف، يمكنك الانصراف، يمكنك الذهاب معه!

****

4 - الأمـــــــــواج

أ - في مخفر الشرطـــــــة.

" الـــــم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتـــــــــــــنون"

القرآن

***

" يا أبناء الهوية في الغيب ستمنعون عن حبي وتضطرب النفوس من ذكري لأن العقول لن تطيقني والقلوب لن تسعني ".

كلمات مكنونة

***

خرجـــت من باب الحجرة الدراسية التي أزاول بها مهنتي، تاركا على مكتبها محفظتي وما حوته من وسائل العمل دون أن أتمكن من توديع صغاري اللاعبين المرحين في فناء المدرسة إلى أن يرن الجرس، فيهرولون عائدين إليّ لاستئناف عملهم اليومي.

سرت إلى جنب مفتش الشرطة الذي تعمّد أن يعاملني معاملة أولياء التلاميذ لمعلمي أبنائهم، ونحن نخترق الساحة الغاصة بضجيج وصراخ الأطفال الذين يجرون في كل اتجاه حتى لا يشك أحد في أنه جاء يعتقلني، إلى أن وصلنا إلى باب الساحة الخلفي الكبير المنفتح على الشارع المزدوج الرئيسي، حيث كانت شاحنة الشرطة الصغيرة المقفلة في الانتظار.

دعاني المفتش إلى دخول السيارة من الباب الخلفي، فألقيت التحية على الشرطي الذي كان واقفا إلى جانب الباب، فتجاهلني رغم سابق معرفة.

وضعت قدمي اليمنى على سلم البوابة واتكأت عليها حتى أرفع كل جسمي ويسهل علي الولوج إلى داخل السيارة التي رأيت في زاويتها المقابلة "بنشلال"، أحد المؤمنين البهائيين العاملين في مركز البريد، جالسا عابسا حزينا تبدو عليه الكآبة الممزوجة بالغضب. فألقيت عليه التحية:

أأنت هنا ؟ وأخلدت للسكوت احتراما لما تفرضه المفاجأة والموقف من التدبر في العاقبة. خاصة وأن والد "بنشلال" كان يحتل، في تقدير الناس، منصبا كبيرا في السلطة المحلية، لا أقل من خليفة " الباشا " الذي كان يعيّن آنذاك، على رأس موظفي البلدية.

انطلقت بنا السيارة المغلقة، التي لا يرى الناس ما في جوفها، تعبر الشوارع القليلة التي تفصل مؤسسة المدرسة عن مؤسسة الأمن حيث تعودت إفراغ حمولتها. أمرونا بالنزول بعد أن فتحوا لنا الباب الخلفي من الخارج لنجد أنفسنا في مخفر الشرطة.

لم يكن مبناها يتميز عن أي من المنازل المجاورة، لولا العلم الخفاق واليافطة المكتوب عليها إدارة الأمن الوطني على أعلا مدخلها، الذي يمتد منه ممر طويل يفصل المكاتب الواقعة على يسار المدخل عن الزنازين الواقعة في الجهة المقابلة .

ولعل هذه المرة كانت الأولى التي نتخطى فيها عتبة هذا المدخل، رغم أننا من أبناء المدينة الذين نشأوا وترعرعوا في أحيائها.

زجّ بنا في إحدى الزنازين الخالية من كل شيء إلا من الظلام والكآبة والرائحة النتنة والوسخ الذي كان سيد الموقف في داخلها، أما جدرانها الملطخة، التي أخذت تتضح مع تعوّد العين على الرؤية في الظلام، فقد بدت وكأن يد النظافة لم تتلطف بلمسها منذ نشأتها، ولم تتجرأ على ذلك إلا أيدي الضجر التي دفعها السأم إلى حفر أسماء أصحابها أو تخليد شعاراتهم على صفحتها. وعلى طول جوانب جدرانها الثلاثة بني مقعد من الإسمنت الحافي لا تغطيه غير حرارة الطقس .

سلمنا بالأمر الواقع وجلسنا نتحسس برودة المكان... وما هي إلا لحظات حتى دعينا إلى أحد المكاتب قصد الاستجواب.

***

كان المفتش الذي يأمرني بالجلوس جالسا على كرسي مكتبه في الجهة المقابلة لي. وما أن امتثلت لأمره واستقر بي المقام على الكرسي حتى أمسك بيده اليمنى مسطرة حديدية مكعبة طويلة يداعب بها يده اليسرى ملوّحا باستعمالها، وهو يلقي علي أسئلة فيها كثير من الاستخفاف والازدراء، مثل:

- من أين جئتم أنتم بهذه الديانة الجديدة؟
- كيف تقولون بظهور دين جديد بعد الإسلام وبمجيء رسول بعد سيدنا "محمد"؟

كانت لهجة الاعتراض والاستنكار والسخرية بادية في اللهجة التي يلقي بها الأسئلة. امتعضت منها أيما امتعاض وتولدت لدي الرغبة في الاعتراض، غير أني آثرت الانصياع لرغبته قائلا:

- إن هذا الدين الجديد ظهر في إيران عام 1844، عندما أعلن حضرة "الباب" أنه المبشر بمن يظهره الله... فقاطعني بقوله:

- آش من باب هذا وآش من سرجم؟ ! بمعنى أي باب هذا وأية نافذة ... من باب السخرية والاستهزاء والاعتراض.

أخلدت للصمت بينما المفتش يتأملني ليقول لي بعد تفكير:

- عد إلى الزنزانة حتى نرى ما نفعل بكم

بينما أنا وصاحبي في ظلام الزنزانة، فتح بابها ليدخل منه بعض النور و "عبد السلام سالم"، الضابط في الجمارك الساكن في مدينة "مليلية" مع زوجته وأولاده منذ أن تم تعيينه للعمل موظفا في الجمرك بالحدود المغربية/الاسبانية في "بني أنصار".

عبد السلام سالم

آمن بأمر "بهاء الله" في "تطوان" قبل انتقاله بسبب العمل. ولم يكن الأسبان، يومذاك، يمانعون في أن يسكن المغاربة في المدينة التي يديرون شؤونها، ففضل السكن بها. وعاش فيها حياة عادية يمارس شعائره الدينية ونشاطه البهائي بالحرية الكاملة دون أن يحاسبه أفراد المجتمع أو تؤاخذه السلطة على ذلك، لأن حرية العقيدة وممارستها في "مليلية" مكفولة للجميع، وما كان ليدور في خلد أحد أن يد السلطات المغربية ستمتد إلى ساكنة المدينة الاسبانية لتلقي القبض على البهائيين المغاربة الساكنين بها.

اتضح لنا أن المسألة لا تقتصر على اعتقال البهائيين المقيمين في مدينة "الناضور"، بل يمتد الاعتقال إليهم حيثما كانوا في الجوار.

وأخذ الشك في نوايا سلطات الأمن يتسرب إلى عقولنا، والتخوف من مقاصدها يتعاظم في نفوسنا، وبدأنا ندرك أن التحقيق معنا قد لا يقتصر على مجرد التعرف علينا وعلى البهائية، كما كنت أتوهم، وإنما قد يكون غرضها محاولة استئصالها باستئصالنا، خاصة عندما تفوّه "عبد السلام" بالقول، وهو أكبرنا سنا وأقدمنا في الإيمان وأكثرنا تجربة في الحياة:

" إنهم سيفتكون بنا كما تفتك الذئاب الجائعة بالنعاج ".

تنفسنا الصعداء عندما أطلقوا سراحنا وقت نهاية فترة عمل الصباح، عند الظهيرة، طالبين منا العودة بعد الزوال إلى مركز الشرطة. وما أن ابتعدنا عن المخفر بعض عشرات الأمتار حتى التحق بنا شرطي جاء يهرول في أعقابنا طالبا منا العودة.

عدنا ليزجّ بنا في الزنزانة من جديد حيث احتفظ بنا طيلة فترة الظهيرة التي يتوقف عندها العمل، دون طعام أو شراب، إلى أن عاد الموظفون إلى مزاولة عملهم في فترة المساء. أخرجونا بعد الزوال إلى المكاتب ليبدأ التحقيق مع كل واحد منا على انفراد.

دار التحقيق معي حول أمور أولية تتعلق بالتعرف على هويتي وسيرة حياتي لتنتهي بمساءلتي عن البهائية.

- كيف عرفتها؟
- تعرفت عليها بواسطة قراءة الكتب.
- من أعطاك الكتب؟
- أعارني إياها صديق لي.
- أين يوجد هذا الصديق؟
- إنه ليس بالناضور.
- ما اسمه؟
- "معنان محمد".
-
- هل تصلّون؟
- نعم نصلي.
-
- كيف تؤدون الصلاة؟
- تؤدى حسب استعداد وإمكانية كل فرد. فالمؤمن مختار بين أداء واحدة من الصلوات الثلاثة المفروضة:

- صغرى تؤدى من زوال إلى زوال.
- وسطى تؤدى ثلاث مرات في اليوم: في الصباح وعند الزوال وفي المساء.
- وكبرى، تؤدي مرة واحدة في اليوم.

- هل تتوضأون مثل المسلمين؟
- نعم، ونقرأ دعاء عند غسل الأيدي وغسل الوجه.
- هل تحفظ الدعاء؟
- عند غسل اليدين أقول:

" إلهي قو يدي لتأخذ كتابك باستقامة لا تمنعها جنود العالم ثم احفظها عن التصرف في ما لم يدخل في ملكها إنك أنت المقتدر القدير "

وعند غسل الوجه أقول:

" أي رب وجهت وجهي إليك نوره بأنوار وجهك ثم احفظه عن التوجه إلى غيرك "

- هل لديكم قبلة تتوجهون إليها في صلواتكم مثل المسلمين؟
- نعم، إن القبلة توجد جهة المشرق في نفس الاتجاه الذي يتجه إليه المسلمون مع ميل قليل نحو الشمال:
- هل تصومون في شهر رمضان؟
- نصوم في شهر مارس ما بين 2 و 21 منه.

علق قائلا : نقص عدد أيام الصوم. هذا أفضل. ثم أضاف سائلا:

- وهل تحجون أيضا؟
- نعم في البهائية حج إلى أماكنها المقدسة.
- إلى أين ذهبت عندما نزلت من الحافلة في مدينة "تاوريرت"؟

فاجأني السؤال، فما كنت لأتصور أبدا أن أحدا يهتم بما أقوم به في سفري، خاصة في المحطات الطرقية، وأدركت بهذا السؤال أن حركاتي كانت مراقبة من طرف رجال الشرطة عندما سافرت مؤخرا في عطلة الربيع المدرسية، فأجبت:

- زرت صديقا لي في مستشفى المدينة.

لم يسألوا عن هوية هذا الصديق الذي لم يكن سوى الدكتور "مؤيد نصرت الله"، أحد البهائيين المهاجرين الذين قدموا من إيران للاستقرار في المغرب، وعين طبيبا في هذه المدينة/ القرية النائية عن المدن المتوفرة على الوسائل الحضارية التي قبل العمل فيها دون تردد إرضاء لعقيدته التي تحث على خدمة الإنسانية في أي مكان. كان الرجل مثالا للتواضع والإخلاص في مهنته الإنسانية رحيما بمرضاه مشفقا عليهم مراعيا للفقراء منهم زاهدا في متع الدنيا عاشقا لخدمة دين الله خاضعا خاشعا في محضر المؤمنين.

دخلت إلى المستشفى وسألت عنه، فدلني أحدهم على الغرفة التي يعالج فيها مرضاه، فاتجهت إليها لأجده منهمكا في فحص بطون بعض المرضى الذين استعدوا جميعا لرفع قمصانهم حتى ييسروا له عملية فحصهم، فوقفت إلى جانبهم حتى لا أتخطاهم، وما أن انتهى من فحصهم حتى طلب مني أن أرفع قميصي ليفحصني، فأخبرته أني لست مريضا وإنما أنا من البهائيين جئت لزيارته. فأشرق وجهه فرحا واستبشارا ودعاني إلى أن أتناول معه طعام الغذاء في منزله، غير أني اعتذرت بمتابعة السفر في الحافلة التي تنتظر في المحطة الطرقية

***

حضر بعض رجال الشرطة الذين أخذوا بدورهم يلقون أسئلة مشحونة بالاستنكار والتحدي، فتحول الاستجواب إلى نصح ووعد واستنكار ووعيد من جانب رجال الشرطة وتفسير ومحاولة تفهيم من جانبي.

ومن جملة الأسئلة :

- كيف تقولون أنكم تؤمنون بدين جديد، ودين الإسلام هو آخر الأديان، وسيبقى كذلك إلى يوم الدين.

كما يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

" ... اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا..."[22]

[22] - **المائدة : 3 .**

" إن الدين عند الله الإسلام ... "[23]

" ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين"[24].

- إن البهائيين يعتقدون أنه بالإضافة إلى أن الإسلام دين المسلمين فهو دين جميع

الناس من الأولين والآخرين ، بمعنى أنه دين جميع الذين آمنوا برسل الله ، منذ آدم إلى يومنا هذا، وإلى ما لا نهاية له. وسيبعث الله رسلا كلما دعت حاجة البشر إلى ذلك. فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى (عليهم السلام) كلهم كانوا مسلمين بنص من القرآن ، والذين آمنوا بهم في كل عصر كانوا مسلمين .

فالبهائيون ، بهذا المعنى ، مسلمون أيضا ، لأنهم يؤمنون بجميع رسل الله ويؤمنون

"ببهاء الله" الذي يعتقدون أنه رسول من عند الله في هذا الزمان .

- لكن القرآن يقول: إن الرسول محمد (ص) هو خاتم الأنبياء والمرسلين.
- إن القرآن يقول:

" ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين"

لم يقل القرآن الكريم أنه خاتم المرسلين، وإنما نص على أنه خاتم النبيين فقط. والبهائيون يعتقدون أن "بهاء الله" جاء من أجل أن يحقق وعود الله للبشر، فهو الموعود الذي سمي "بعيسى" الذي ينزل في اليوم المعلوم عند الله، وبهاء الله أعلن أن ذلك اليوم هو هذا اليوم، وأنه هو نفسه الموعود الذي يظهر فيه.

وقال آخر :

- لكن القرآن لم يقل بأن رسولا يأتي بعد سيدنا محمد!
- إن الأحاديث النبوية تقول بظهور "المهدي" وبمجيء "عيسى". والقرآن يشير إلى ذلك بقوله:

" وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا " [25].

بمعنى أن جميع أهل الكتاب يؤمنون به قبل موته، وبما أن اليهود والمسيحيين الذين هم من أهل الكتاب لم يؤمنوا به إلى حد الآن، فلا بد من عودته حتى يؤمن به أهل الكتاب ويتحقق وعد الله الذي لا ينطق عن الهوى.

والجدير بالتنويه، أن الذين يؤمنون من أهل الكتاب ببهاء الله، لا يقبل منهم اعترافهم بالإيمان إلا إذا آمنوا بالسيد المسيح وبمحمد رسول الله وما قبلهما من الرسل. ومن ثم فإن البهائيين يعملون على تعميم الإيمان برسل الله في مشارق الأرض ومغاربها في هذا الوقت الذي هيأ الله فيه الأسباب للتعرف والاتصال بالقارات حتى يعم الإيمان بالله أركان المعمور.

وجاء في الحديث قول رسول الله (ص):

---

[23] - آل عمران : 19 .
[24] - آل عمران : 85 .
[25] - النساء : 156 . 157 . 158 .

"والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الحرب ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها "

وفي آية أخرى من القرآن، يقول الله تبارك وتعالى:

" ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون * يا بني آدم إما ياتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون "[26] .

مشيرا إلى استمرار رسل الله، وإلى واسع رحمة الله التي لا تعجز عن إرسال الرسل إلى البشر.

- هذا ما لم نسمع به من قبل، وهل أنتم تؤمنون بكل شخص يقول لكم مثل هذا القول!؟ إنه الغباء والجهل بالدين وبما تعنيه الآيات. وقال آخر يخاطبني، قل لي:
- من أي بلد هو بهاء الله؟
- ظهر حضرة بهاء الله في إيران حيث أخبره الله في السجن بأنه قد اختاره رسولا للعالم. فقاطعني أحدهم:
- هؤلاء الإيرانيون كانوا دائما يبثون الكفر في وسط المسلمين، وما زالوا يحاولون تخريب الإسلام.

وقال غيره، قل لي:

- ما اسمك؟
- اسمي محمد.
- وما اسم أبيك ؟
- اسمه محمد.
- وما اسم أمك؟
- اسمها فاطمة.

قال الشرطي السائل بلهجة المستنكر:

- اسمك "محمد" واسم أبيك "محمد" واسم أمك "فاطمة"، وتقول عن نفسكلست مسلما!
- لا أقول إني لست مسلما، وإنما أقول إني أومن بدين جديد اسمه البهائية.
- هل أنت أحمق أم ماذا ؟
- لست أحمق، ولكني وجدت الحق فاعتنقته.
- فليكن. قال أحدهم:
- وما هو الجديد الذي جاء به هذا الدين؟
- جاء من أجل اتحاد جميع البشر وتحقيق السلام في الأرض. كما بشر بذلك الأنبياء والمرسلون.
- لكن الله لم يخلق الناس ليتحدوا، أليس كذلك، أ... لفقيه؟ متوجها بالسؤال لأحد زملائه الذي يبدو أنه يحفظ القرآن، فقال : أجل ، إن القرآن يقول:

" ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين"[27] .

---

[26] - **الأعراف : 33 و 34 .**

[27] - **هود : 118 و 119 .**

واستطرد المستفسر في نبرة واثقة:

- إنكم بالتأكيد تحلمون في واضحة النهار وتتخيلون أمورا لن تحدث أبدا. كيف يمكن أن يتحقق السلام في العالم ويتزامل اليهود مع المسلمين ويتحد الأمريكان مع السوفييت. إن هذا أمر مستحيل. ويظهر أنكم نائمون تعيشون في الأحلام التي زينها لسذاجتكم الذين غرّروا بكم ولعبوا بعقولكم الضعيفة حتى يستغلوكم لتحقيق أغراضهم الخبيثة.

لكن، قلت معقبا:

- ألم يعد بذلك الأنبياء في السابق ؟ ألم تذكر الأحاديث الواردة في حق نزول "عيسى" بأن السيوف ستتحول إلى مناجل ولا ترفع أمة على أمة سيفا؟
- هذا صحيح ، وهذا ما لا يحدث إلا في آخر الزمان.
- إن البهائيين يعتقدون أن هذا هو الزمان الذي يظهر فيه الموعود الذي ينتظرهالمسلمون وغير المسلمين.

قال أحدهم:

- كيف تستطيع أن تعرف ما إذا كان بهاء الله هو الموعود الذي تتحدث عنه؟
- بنفس العلامات التي عرفت بها أن محمدا (ص) رسول الله.
- وما هي هذه العلامات؟
- أولاهما الوحي. فكما نزل الوحي على سيدنا محمد، نزل الوحي كذلك على بهاء الله.
- وما ذا؟
- التأييد، الذي أيد الله به نبيه وأتباعه على تحمل البلاء وانتشار الإسلام، أيدالله به كذلك بهاء الله على تحمل الأذى وعلى انتشار دعوته.

قال أحدهم:

- وإذا برهنت لك أن بهاء الله ليس إلا مخادعا محتالا، فما ذا تفعل ؟
- أكون لك شاكرا. وأخرج من هذا اليقين الذي يبدو أنه يفسد العلاقة الوديةبيني وبينكم.
- وبماذا جاء بهاؤكم هذا؟
- جاء بأشياء كثيرة، كما ورد في سورة البينة:

" لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ، رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ، فيها كتب قيمة ".

وفي الكتب التي جاء بهاء الله بها أمور تتعلق بالعبادات وأخرى تتعلق بالمبادئ وسوى ذلك.

- وما هي تلك المبادئ؟ هل تعرفها؟
- أعرف بعضها، مثل: تحري الحقيقة ؛ نبذ جميع أنواع التعصب ؛ مساواة الرجل والمرأة ؛ السلام العالمي ؛ وحدة الجنس البشري ؛ وحدة الأديان ؛ اللغة العالمية وخط واحد تعلمه جميع مدارس العالم، وغيرها من المبادئ.

قال أحدهم:

- هذه المبادئ كلها في الإسلام، فما الحاجة إلى دين جديد؟ وقال آخر:
- الناس لا يحتاجون إلى دين جديد بقدر ما يحتاجون إلى تطبيق ما في الإسلام، فما قولك أنت؟ متوجها إلي بالسؤال:

- أعتقد أن البشر يفتقرون دائما إلى هداية الله، والله قد عهد للناس أن يبعث لهم رسولا كلما دعت الحاجة، ولو لم يستشعروا ذلك، وكيفما كانوا راضين على أوضاع حياتهم في هذه الأرض. كما قال القرآن المبين :

" قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا"[28]

وقال آخر:

- هل تعتقد في نفسك أنك أرجح عقلا وأكثر علما من العلماء ورجال الدين المتخصصين حتى تتمكن من فهم الدين أحسن منهم، وأن تعرف أن عيسى قد نزل وهم جاهلون، وأن تسبق أنت العلماء إلى معرفته قبل أن يتعرّفوا عليه ؟
- إني لا أدّعي شيئا، وإنما أعتبر نفسي من الذين قالوا:

" ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ..."[29]

- طيب، ومن قال لك أن بهاء الله رسول من الله؟
- إنه هو نفسه الذي قال ذلك، في لوح السلطان الذي أرسله إلى شاه إيران:

" ياسلطان إني كنت كأحد من العباد راقدا على المهاد مرت علي نسائم السبحان وعلمني علم ما كان ليس هذا من عندي بل من لدن عليم خبير"

- على هذا الأساس أنت مستعد أن تؤمن بكل من يدعوك إلى الإيمان به، حتى إذا دعوتك أنا شخصيا إلى ذلك ؟! قالها في استنكار وتحد واستخفاف.
- لم لا؟ إذا ادّعيت أنك رسول وأقمت الدليل على ذلك.

ما أن سمع جوابي المؤيد لمقولته حتى نظر إلي نظرة مستنكرة شزراء، يتطاير منها شرر الغضب المكبوح قائلا يعبر عن يأسه:

- ما ذا عساني أفعل بك! وتبادل النظر مع زملائه، وكأنه يقول لهم: لا فائدة في محاولة إقناعه وإعادته إلى رشده، ثم أخذوا يغادرون المكتب واحدا بعد آخر. وفي الأخير أخرجوني بدوري وأعادوني إلى الزنزانة حيث اتخذت لي مكانا على المقعدة إلى جانب زميليّ اللذين انتهيا قبلي من الاستجواب.

أمسكت برأسي بين يديّ، أحاول التحكم في الانفعالات التي ولّدتها التجربة التي مررت بها، إلى أن كلمني "عبد السلام":

- لا تتشدد معهم، جارهم في الكلام، إنهم لن يفهموك.

---

[28] - الإسراء : 95 .
[29] - آل عمران : 193 .

- أبذل ما في وسعي.

***

حاولنا صامتين، وقد أخرسنا الضيم والغد المجهول، أن نستسلم لمصيرنا، دون جدوى، وعبثا حاولنا البحث عن مساحة في نفسيتنا الحائرة لعلنا نجد قسطا من النوم في تلك الزنزانة الخالية من أية وسيلة تساعد على الاستراحة.

كان "عبد السلام"، من حين إلى آخر، ينادي أحدا منا باسمه، كلما تقدم بنا الليل بصوت خافت وعندما يجيبه، يتابع الكلام: إنما أريد أن أتأكد مما إذا كنت نائما. وهكذا قضينا تلك الليلة البيضاء الحالكة يقظين، تتخللها غفوات أشبه ما تكون بالكوابيس.

ذهبت جهودنا في عدم الصدع بعقيدتنا والإعلان عنها بشكل مكشوف، حتى لا نكون سببا في إثارة الاضطراب، كما كنا نفهم ذلك من التعاليم البهائية، أدراج الرياح. وحظيت جهود غيرنا في تسليط الأضواء على البهائية وعلى أوضاعنا وإبرازنا إلى بؤرة النور في الساحة العمومية، بالنجاح الكامل.

وأصبح أهل المدينة يتساءلون عما حدث في مدينتهم الهادئة، وتكاثرت الأخبار التي تناقلتها الألسن، واتسعت رقعة مساحة انتشارها ونضجت مع مرور الوقت في مرجل مخيلة الناس إلى درجة الاهتراء، واتخذت عددا من الصور والأشكال بعدد أمزجة ناقليها من الأفواه إلى الآذان، فتشوهت الحقيقة وصورها المغرضون مسخا وخطرا داهما، يهاجم المسلمين ويهددهم في الصميم بالقضاء على دينهم وتغيير قواعده واستبدال قبلته وهدم الكعبة وقبر رسول الله و...

واتخذ أتباع هذا الدين الجديد وأنصاره في تصور الذين يصدّقون الشائعات، صور مخلوقات بشعة مخيفة منحلة، تعمل في الخفاء من أجل القضاء على الدين والوطن.
وبالغ الذين تستهويهم المبالغة، المستعدون للعداء في وصف البهائية بأبشع الأوصاف وفي تقديم أتباعها الذين لا يعرفونهم على وجه التحديد، في أقبح صورة وأكثرها تشويها. قائلين:

إن رسولا جديدا ظهر في وسطهم ؛ وفي قبيلة قريبة منهم ؛ وقد تبعه جمّ غفير من الناس.

ومن قائل:

إن البهائيين يستقبلون الشمس عند إشراقها في صلواتهم تعبدا لها ؛ ويضعون المصاحف أمامهم يتبوّلون عليها ؛ ويسبون الرسول ويذكرونه بكل سوء ؛ ويستعدون لهدم الكعبة وقبر الرسول.

ومن قائل:

البهائيون يستبيحون الحرمات ويتزوج الأبناء منهم بالأمهات والإخوان بالأخوات، إلى جانب تعاطيهم للسحر الذي به يجذبون الناس إليهم لتنفيذ مآربهم.

وفي مثل هذا المجتمع التقليدي، يكفي أن يَرمى الإنسان بتهمة الخروج عن الملة والدين، التي تعدّ كبيرة الكبائر لا يرتضيها أحد لنفسه، حتى ينبذه الناس ويقذفوا به في زاوية التهميش والإقصاء، إن لم يتقربوا إلى الله بذبحه والتمثيل به.

إذ المتمسك بحريته الشخصية في العقيدة، في نظر القوم، خارج عن الملة، لا يمكن أن يكون إلا ضدها، عاملا على هدم معالمها وتخريب أسسها. لذا فإن أية صورة يمكن أن تضعه فيه قوة الخيال، لا تقوى على استيعاب بشاعة صورته برمتها. مما يجعل الأقاويل تتناسل في تناول الكليات ولا توفر الحديث عن التفاصيل والجزئيات.

وباختصار، نسبوا للدين الجديد كل ما أسعفتهم به مصطلحات اللغة من المساوئ، وألصقوا بمعتنقيه من الأعمال المنكرة ما يندى لها الجبين ويثير الاشمئزاز والكراهية ويستفز الرغبة في التخلص منهم.

***

لم تكن السلطات المحلية في غفلة عن هذه التطورات، فقد أبدت الاهتمام بالبهائية اهتماما رسميا منظما برصد أتباعها والتأكد من هويتهم ونشاطهم منذ أن توصلت من السلطات المركزية بالتعليمات الخاصة بالتعرف على حركة المنتمين إليها وضبط أسمائهم من أجل إلقاء القبض عليهم عند الضرورة. وذلك قبل أن يستفحل انتشار الإشاعات انتشار النار في الهشيم، وتكتسب، من تكرار ذكرها، مصداقية أكثر صدقا من الحقيقة نفسها، بحيث لم يعد بالإمكان التحكم في الناشرين لها ولا في إنشاء سد لاحتواء سيلها.

على أن هذه الإشاعات لم تكن بدعة ابتدعوها، بل كانت استنساخا لما جرى في تاريخ الأديان منذ أن عرفت البشرية الأديان في فجر وعيها الديني.

ألم يُتهم المسيحيون بعبادة رأس حمار؛ وتسميم المياه ؛ وأكل الأطفال ؛ والقضاء على النوع البشري ؛ وهدم نظام المجتمع ؛ وحرق "روما" التي ألصق إمبراطورها " نيرون " التهمة بهم، كما جاء في الأخبار:
" بدأ يلهي الشعب فى القبض على المسيحيين وإضطهادهم وسفك دمائهم بتقديمهم

للوحوش الكاسرة أو حرقهم بالنيران أمام أهل روما فى ' الستاديوم ' وفى جميع أنحاء الإمبراطورية حتى أن مؤهلات الولاة الذين كانوا يتولون الأقاليم هو مدى قسوتهم فى قتل المسيحيين، وسيق أفواج منهم لإشباع رغبة الجماهير فى رؤية الدماء، ومنهم من عاش فى سراديب تحت الأرض وفى الكهوف التي ما زالت كنائسهم وأمواتهم إلى الآن مزارا للسياح.

واستمر الاضطهاد الدموى أربع سنوات ذاق فيها المسيحيون كل ما يتبادر إلى الذهن من أصناف التعذيب الوحشى، وكان من ضحاياه الرسولان "بولس" و"بطرس" اللذان استشهدا عام 68 م "[30]

ولم يسلم الرسول محمد (ص) نفسه من هذه الإشاعات، كما رواها القرآن في أكثر من آية:

" وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر، ويقولون إنك لمجنون "[31]

" بل قالوا أضغاث أحلام، بل افتراه، بل هو شاعر. فليأتنا بآية كما أرسل الأولون "[32]

كانت مثل هذه الإشاعات المفتعلة لتشويه البهائيين كافية لإثارة المشاعر الدينية و توليد الاشمئزاز والتذمر، وتهييج مكنون الغضب والنقمة والعداء في نفوس السكان وتأليب العامة ضدنا.

قليل من العامة من كان يعرف تاريخ بلده قبل الإسلام، أو أخذ العبر من قصص الأولين، أو تصور ديانات أخرى نظمت حياة أسلافه الاجتماعية وهذبت أرواحهم وارتقت بها في معارج العوالم الروحانية. وأوضح ما في فكرهم عن التاريخ، أن البشرية عاشت في ظلام الجاهلية، إلى أن أشرقت شمس الإسلام من مكة المكرّمة فاستنار العالم بها.

كان معظم أهل المدينة شديدي التأثر بالمواعظ الدينية سريعي الانفعال، وشعورهم بالغيرة على الدين قويا بقدر ما كان رهيفا، أشبه ما يكون بفقاعة الهواء القابلة للنفخ سرعان ما تنفجر بزيادة النفخ، فتفجر الغضب الكامن فيها لتندفع منقضة على الفريسة المعينة والفتك المجاني بها. ولم يكن عقلاء القوم في هذا المجال أكثر هدوءا من غيرهم. وغاب عن بال علماء الدين وحكمائها في المدينة أن يبادروا إلى تبيّن حقيقة أمر هؤلاء المعتقلين، بالعمل على محاورتهم قبل إصدار الحكم عليهم.

---

[30] ـ موسوعة ويكيبديا .
[31] ـ القلم : 51 .
[32] ـ الأنبياء : 5 .

إن وقع المفاجأة والانفعال وردود الأفعال الغاضبة، ما كانت لتفسح المجال للحوار أو تقبل بإيمان جمع من الشبان بدين غير دين مجتمعهم الذي تنتظم به جزئيات حياة أفراده وكلياتها، وفي كفة ميزانه يزن الحقائق الماضية والأحداث الجارية والتوقعات المستقبلية، ويعتبره الضمان المؤتمن على سكينة واطمئنان أعضاء مجتمعه على اختلاف مستوياتهم.

ولا يتفق جميع أفراد المجتمع، من أشدهم تدينا و أكثرهم تفقها إلى أقلهم اهتماما بالعبادات وحتى غير المبالين أصلا بالدين، مثل اتفاقهم على صواب ما يدينون به.

في هكذا حال، ما ذا عسى يكون مصير جمع من الشبان المغمورين يؤمنون ويدينون بغير دين الحق في نظر الأغلبية الساحقة من السكان الذين يعتقدون، في أحسن الأحوال، أن هؤلاء الشبان قد غرّر بهم، فأوقعوا أنفسهم في الهلاك، وجلبوا الآلام والمعرة إلى أهلهم وذوي قرابتهم ؟

إن المنتمي لعقيدة مجتمع لم يتمرس أبناؤه على الحرية الدينية، ويخالفها في نفس الوقت، يرونه داء عضالا لا علاج له إلا بالاستئصال العاجل، قبل أن تستشري سمومه في جسد المجتمع كله. فما بالك بمجموعة أتت بعقيدة تغيظهم وتمس، كما قال لهم المتشددون منهم، مسّا كبيرا بمقدساتهم، وتعمل على محو دينهم من الوجود. إنهم يرونهم، لا محالة، مارقين بامتياز، وأقل ما يمكن مواجهتهم به هو تخليص المجتمع منهم.
وهكذا بدا أن جميع فئات المجتمع يسكنها تفكير واحد ويجمعها رأي واحد هو القضاء على هذه الطائفة الباغية، فتآزرت مع السلطة وتعاونت معها حتى تتصدى لها وترصدها في كل مرصد لتتصيد أفرادها، الواحد بعد الآخر، وتتمكن من إلقاء القبض عليهم جميعا.

وحتى الذين كانوا يعرفون حسن أخلاق المعتقلين معرفة كاملة إلى حد التعاطف معهم، أخرسهم الخوف من أن تلصق بهم نفس التهم، فآثروا تبنّي موقف السكوت والكتمان، طلبا للسلامة، على الإدلاء بالشهادة، أو اختاروا الانضمام إلى صفوف الغاضبين إمعانا في التمويه لإبعاد الأذى عن أنفسهم. بل عاشر أحدهم ندماء الحانة حتى يبعد الشبهة عن نفسه، لعلمه أن الغاضبين يعلمون أن البهائيين لا يقارعون الخمر ولا يختلفون إلى الحانات.

صار البهائيون وكل مشتبه فيه، مثل سرب الطيور في فضاء سماء المدينة وقد صوبت نحوهم بنادق القناصة أمام بصر المتطفلين الذين ينتظرون بلهفة وقلق وفضول القنص الموالي الذي يقع في شباك رجال الأمن.

على أن الحيرة تملكت بعضا من الذين يعرفون أخلاق هؤلاء الشبان، فلم يزعجهم الإدلاء بالشهادة في حقهم وتزكية سلوكهم عند الحديث عنهم، ولكن ما كان لهم أن يتجاوزوا ذلك إلى اعتبار السلوك القويم واكتشاف الحقائق، ولو بعد التحري، مبررا للخروج عن الإجماع والسماح بحرية اختيار دين غير الدين الذي يدين به المجتمع.

***

ما أن بدأت فترة العمل في الصباح حتى فتح شرطي باب الزنزانة وأمرني بالخروج، فخرجت وأنا في غفلة عما يروج بين الناس وما أجّجه المغرضون في نفوسهم من مشاعر الكراهية والحقد والرغبة في الانتقام من شناعة أفعال الذين هم، في نظرهم، قد تجرؤوا على الإساءة للدين.

لم يكن بمقدوري أن أتصور أني سأواجه الذي لم أتوقع مواجهته، بالرغم من أني أصبحت قابلا لتصور كل شيء بعد الذي مرّ بي يوم أمس.

لقد حضر والدي إلى مركز الشرطة، والذعر والحزن والغضب يتصارع في نفسه، والحيرة والارتباك تحول دون أن يفهم كيف وصل ابنه الذي يتباهى به إلى ما وصل إليه من ذل الاعتقال وإهانة المجتمع.
علي الآن أن أواجه، وأنا في حالة الانكسار والتعب والعطش والجوع والاتساخ، موقفا دقيقا لم أحسب له الحساب. هذا الموقف الذي طالما تهيّبته وأجّلته حتى لا أجرح خاطر والدي ولا أكون سببا في إحزان قلبه،

أملا في أن يحين الوقت والظرف المناسب للحديث بهدوء معه حتى أشرح له البهائية شرحا وافيا. غير أن الأحداث الخارجة عن إرادتي، استعجلت ما أجّلته، ووضعني القدر أمام الأمر الواقع المحتوم الذي لا مهرب منه.

بادرني والدي بالقول :

- ما هذا الذي يقال عنكم بأنكم أتيتم بدين جديد!؟

لم يكن بإمكاني، وأنا أرى ملامحه تتوقع مني أن أكذب ما يروجه الناس عني، أن أطلب منه تأجيل الكلام في الموضوع إلى أن يحين الوقت والظرف المناسب. فقلت له:

- نعم والدي، لقد ظهر دين جديد وآمنت به.

وما أن سمع مني الجواب الذي يؤكد ما يشيّعه الناس عن دين جديد في مجالس المدينة، حتى أحس بنزول الصاعقة عليه. فلم يمتلك التحكم في نفسه، وأشاح عني بوجهه، وأخذ يضرب جبهته بالجدار القريب منه متشنجا متشهّقا. فأسرعت إليه ملتصقا بظهره أحاول أن أحول بينه وبين فعله المؤذي المثير، أستعطفه بصوت مختنق متوسل:

- أبي، أرجوك، أرجوك، لا تفعل. فيرد متشنجا:
- كيف تفعل هذا بنا ... ؟؟ وفي غفلة منّا... !!

أخرجه مفتش الشرطة من مكتبه، ثم عاد ليقول لي:

- أمسخوط الوالدين... !! (هذا ما بغيت) أهذا ما تريد...؟؟

أحنيت رأسي دون أن أتفوّه بكلمة، إلى أن أمرني بالعودة إلى الزنزانة.

دخلت على رفاقي وطرحت جسدي على المقعدة باكيا، وأمسكت وجهي بيديّ مهموما، أحركه ذات اليمين وذات اليسار، وصورة تصرّف والدي حية في ذاكرتي، أستحضره خارجا من المخفر وبعض رجال الأمن ذوي السلوك العنيف والإحساس البليد واللسان اللاذع يتابعونه بنظرات عدائية وعبارات جارحة شامتة، قائلين:

" أنتم الذين لم تحسنوا تربية أولادكم " فيبتلع مرارة كل ذلك على مضض، وهو يقطع شوارع المدينة لا يلوي على شيء، دون أن تخترق جدار فكره فكرة التفكير في ماهية الدين الذي آمن به ولده، إلى أن يدخل إلى المنزل، وقد شُحن قلبه بالغضب الذي يصبه كعادته على من يصادفه في البيت وعلى زوجته، أم أولاده.

مسكينة هذه الوالدة ! النحيلة المسالمة التي لا تملك في وضعها كزوجة تقليدية أية قوة أو إرادة غير النحيب والخنوع وتحمل الأذى صاغرة مستسلمة.
إنها وضعية المرأة بصفة عامة في هذه الجهة من العالم: يحمّلها زوجها أوزار تصرف أبنائهما، يعلق عليها كالمشجب مسؤولية كل الأخطاء، ينفّس فيها احتقانه بسبب أي ضرر قد يصيب الأسرة أو أحد أفرادها، أو عندما يتعرض لأي انزعاج طبيعي أو اجتماعي أو مهني في حياته اليومية، أكانت للزوجة علاقة بذلك أم لا. والويل لها إن حاولت أن تنبس شفتاها بأية كلمة احتجاج أو تصدر عنها أية إشارة اعتراض، فإنها قد تعرّض نفسها وأولادها للطرد من البيت بلا استئناف.

وأنا في تلك الحالة، أتمثل صور أسى أسرتي، خاصة والدتي، التي تتتابع في مخيلتي، تسائلني نفسي اللوامة: أمن حقك أن تزوّد آلام والدتك، بما يصلها من أنباء وضعك المؤلم بسبب إيمانك الذي يستهجنه ويعيبه الناس، وهي التي تعلق كل آمال سعادتها في هذه الحياة على نجاح أبنائها وبرّهم بها حتى تعوّض عن كل همومها وأتعابها ؟ !

أليس من واجبك، إذا لم تستطع أن تجلب لوالديك الراحة والرخاء أن تجنّبهما،على الأقل، المعرة والألم الذي يلحقهما الآن بسببك !
تخترق هذه التصورات والتساؤلات جدران الزنزانة وما أعانيه فيها من إكراهات، فيستحوذ على خاطري شعور عميق بالذنب و... المسؤولية على كل ما يحدث لوالدي، فيصيح كياني في أعماقي مستغيثا:
إلهي، ارحمني، فإني لا أقدر على تحمل عبء مثل هذه المواقف الرهيبة...!!

***

أخرجوني من الزنزانة في المساء لأقابل في إحدى مكاتب الشرطة أستاذا مصريا يعمل في إحدى الثانويات التعليمية بالمدينة. ألقيت عليه التحيّة وجلست على كرسي إلى جانبه، أنصت إليه وهو يتحدث بإسهاب عن فضائل الإسلام واحتوائه على كل ما يحتاج إليه الإنسان من أمور الدنيا والدين، مستحضرا قول الله تعالى:

" الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون "[33]

مستطردا في شرح الآية، مؤكدا على الإعجاز العلمي في القرآن الذي يعرف بفوائد الشجر الذي رغم ريّانه واخضراره الذي يمتنع عن الاحتراق، يتحول بعد تصنيعه إلى فحم يستعمل نارا يستدفئ بها الناس وقت البرد القارس ويطهون بها طعامهم، كما يذوّب بها الصناع المعادن التي تستعمل بدورها في أغراض أخرى ... يقول ويكرر : إن القرآن لم يترك كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها . ولدى توقفه عند هذا الحد ، قلت له:

- سيدي، إننا جميعا متفقون على أن الإسلام رسالة من الله، وهي رسالة عظيمة تحتوي على كل شيء. لكن نحن الآن بصدد الحديث عن البهائية. فهل جنابك يعرف شيئا عنها؟

أبدى لي ابتسامة رسمها بخبث على وجهه، وأجاب متحديا:

- وأنت ما ذا تعرف عنها؟
- إنها رسالة إلهية، جاءت للناس في هذا الزمان... فقاطعني صارخا:
- ما فيش(لا) رسالة بعد الإسلام. ومحمد هو خاتم الأنبياء والمرسلين. ويحنا (نحن) في مصر حرقنا البهائيين الكفرة الصهاينة...

فوجئت بهذا الهجوم العنيف ولم أجد ما أرد به على الأستاذ المصري غير الصمت وما يخالج نفسي من الحيرة في ما يتفوّه به من الاستنكار و من التهم الموجهة للبهائيين. علما بأن انطباعي تجاه الأساتذة المصريين، كما هو الانطباع العام عند أهل مدينتي، هو الاحترام والتقدير لهم مع الاعتقاد أنهم يعرفون من الأمور ما لا يعرفه المغاربة. وكنت أتوقع منه التسامح في مجال الدين والوقوف في صفي أو يتخذ من المسألة موقفا محايدا، على الأقل.

أخرجوني من محضره وقادوني إلى مكتب عميد الشرطة الذي كان بصحبة عميد شرطة مدينة "وجدة"، كما قيل لي، وبيده كتيب "نسائم الرحمان" الذي جمعت فيه بعض الأدعية والكلمات المكنونة الروحانية، مشيرا إليه وهو يخاطبني:

- ما لكم أنتم والحديث مع السماء ومناجاة النجوم!؟ فلماذا لا تعيشون كما يعيش الجميع وتستريحون !؟

قال العميد الثاني يخاطب زميله ويومئ إلي:

- كنت أتوقع أن ألقي القبض على مجموعة من الأشرار... فإذا أنتم من خيرة شباب البلد. ثم سألني:
- هل لديك في منزلك كتب عن البهائية؟

---

[33] - يس : 80 .

- نعم، لدي بعض الكتب.
- هل يمكنك إحضارها؟
- بكل سرور.

أرسل العميد معي شرطيا في لباس مدني ليرافقني إلى منزلي للإتيان بالكتب التي تتوفر لدي. وعندما وصلت إلى باب المنزل، طلبت من الشرطي أن يتفضل بالدخول، فاعتذر قائلا:

- طلب مني أن لا أدخل.

اصطحبت معي الكتب التي كانت بحوزتي معتقدا أنها ستجعل السلطات مطلعة أكثر وأفضل على الحقائق التي جاءت بها البهائية والتي لا يمكن إلا أن تساهم في رفع سوء التفاهم ودحض الشبهات التي يحاول الناس إلصاقها بها.

قدمت ما لدي من الكتب للعميدين اللذين طلبا مني مرافقتهما. وبينما نحن نسير في ممر المخفر نحو مكتب آخر، والعميد يخاطبني، وخلفنا حشد من الحراس والمفتشين والضباط، إذا بأحد الحراس يرفع صوته بالسب والشتم واللعن والتهديد، فتوجهت بالحديث للعميد في نبرة شاكية:

- أترى سيدي، كيف أنهم لا يتركون أحدا يعبر عما يفكر فيه.
- ألا تعرف السكوت... متوجها بالخطاب إليه، ما فهمك أنت في مثل هذه الأمور، أيها الحمار!وتابع الكلام يطمئنني وينصحني ويعدني خيرا.

أعادوني إلى الزنزانة، وأنا مطمئن النفس إلى موقف هذا العميد الذي أشعرني حديثه بالتعاطف معي والوقوف إلى جانبي.

وما كاد يتراءى لي الذين هم في الزنزانة، بعد تعوّد رؤية العين على ظلامها، حتى رأيت "عبد العزيز الورياشي" بين الجالسين ينظر إلي دون ربطة العنق التي تعوّدت أن لا أراه لابسا أنيقا إلا بها. حملقت فيه وانتابني شعور بالمرارة يعتصر أحشائي. فقلت له لائما مستنكرا، وأنا أعلم أن يد السلطات المغربية لا تطاله في "مليلية" التي يسكن بها:

- ما الذي جاء بك إلى هنا ؟

لم يتلفظ "عبد العزيز" بكلمة، ولم يكلف نفسه أن يخبرني أنه جاء من تلقاء نفسه. ولعل تحقيق مسعاه ورغبته في وجوده وسطنا أغناه عن الكلام.

ما كان وجود "عبد العزيز" بالذات بين المعتقلين، وهو المتزوج حديثا، ليرضي أحدا.

وكم تمنيت في قرارة نفسي، بعد المعاناة التي ذقت مرارتها، أن يقتصر عدد البهائيين المعتقلين على الذين هم رهن الاعتقال.

وما أن جلست على المقعدة الخشنة حتى أسرع الزملاء متلهفين على سماع ما حدث لي، معبرين عن شدة قلقهم وخوفهم علي. فأخبرتهم بكل ما جرى، خاصة ما أدلى به العميدان.

أجزل لي أحد زملائي المعتقلين نصيحة عدم إغضاب المتحدثين معي ومسايرتهم وتجنّب الاعتراض على أقوالهم.

***

تزايد عدد البهائيين المعتقلين بزنزانة مخفر الشرطة بالتحاق "عبد العزيز" الذي ينحدر من أسرة شريفة ذات نفوذ ديني وسلطة مدنية في قبيلته. وكان من بين الشباب الطامحة نفوسهم إلى الارتقاء بنفسه في عالم

الكمالات والوصول إلى أعلا المستويات والعيش في إطار ما تقدمه له حياة الحداثة من إمكانات على النمط الاسباني.

تعرف على أمر حضرة "بهاء الله" في "تطوان"، فآمن به إيمان الموقنين، وتعرف على فتاة في مدينة "مليلية"، فأحبها وبادلته حبا بحب، وتعلقا ببعضهما تعلق العاشقين الأسطوريين.

كم كان يغبطه أنداده الشبان على صفاء حبه وبراءته التي يتبادلها مع فتاته، وكم كان يبتهج أصدقاؤه الحميميون بملاقاتهما وتبادل بعض كلمات المجاملة معهما.

انتهت قصة هذا الغرام السعيد بعقد القران وحفل زفاف بهيج في مدينة "مليلية" حيث اختارا الإقامة. وشهد على هذا الزواج

الميمون أعيان البلد وأصدقاء الأسرتين من المسلمين والمسيحيين الأسبان، وكانت بهجة الحفل لا تقل إثارة عن البهجة التي كان يثيرها منظرهما في شوارع مدينة الناضور التي كانا يزورانها أحيانا.

اختلا العروسان ببعضهما في بيت الزوجية يستمتعان بحبهما، عندما ترامت إليهما أخبار اعتقال البهائيين في "الناضور". فنغّص الخبر عليه لذة سعادته،

عبد العزيزالورياشي

وأحل في كوامن ذاته اضطرابا هيج مشاعره الصافية الهادئة، فتملّكه القلق وتولد في ضميره صراع عنيف لم يمنحه أية هدنة، وتلاعبت به أمواج الحيرة دون أن يجد إجابة تخفف عنه حدة الصراع المحتدم في داخله الذي يحاصره بأسئلته من كل جانب:

- كيف ينعم بحياته الزوجية الجديدة وإخوته يشقون في الزنازين بسبب الدينالمشترك بينهم ؟
- كيف يستمر في الانتهال من مباهج زواجه ورفاقه في الإيمان يدفعونالثمن ؟
- أيحلو له العيش بعيدا عن مشاركتهم المصير ؟
- أمن الرجولة أن يتخلى عنهم في محنتهم ؟

ثم يحيله التساؤل إلى التفكير في زوجته:

- ما ذا يكون موقفها لو أخبرها بعزمه على الالتحاق بزملائه !
- كيف يتركها بعد أن عقد القران بها ؟ ليتني أجلت هذا الزواج ... يهمس خاطر في نفسه !

وبغض النظر عن كل ذلك ... يتساءل:

- كيف يرضي ربه في مثل هذا الموقف ؟
- ألم تعد الكتب المقدسة بامتحان المؤمنين ؟
- ألم يرد قي القرآن قوله تعالى:

" أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون "[34]

- إذا كان هذا هو القانون الإلهي، هل يجدر به أن يفر منه ؟
- أيتمسك بسياسة النعامة ويدفن رأسه في الرمل، ويولّي المسألة برمّتها الأدبار؟

ليت الأمر ينحصر في سمع وبصر الحواس فيعطلها ويستريح، لكن الأمر يتعلق بالوعي والبصيرة التي إذا استيقظت لن تعود إلى النوم أبدا، وإذا تأججت شعلة الإيمان في القلب فلن تخفف مياه الذرائع من لهيبها.

---

[34] - **العنكبوت : 29 .**

***

اختفى شعور الغبطة والفرح الذي كان ينعش جوانحه ويرافق محياه وهو يتنزه في شوارع ومنتزهات مدينة مليلية بمعية عروسه الأنيقة، ليحل مكانه الشرود والاكتئاب والإحساس بسخرية الناس التي تتراءى له في وجوههم وفي حديثهم وفي التحايا العادية التي كانوا عادة يلقونها عليه، فيتعجل الدخول إلى المنزل حيث يظل شارد البال مشغول الفكر عن المرأة التي طالما استعجل الانفراد بها ليغدق عليها كل ما يكنّ لها قلبه من عطف وحنان.

تنظر إليه قرينته بدلال مستفسرة وترميه بسهام طرفها تدعوه متسائلة، فيلقي إليها ابتسامة ساهية أو يضمها إليه بقلب تعتصره المرارة وتشتته أفكار ضائعة تائهة. فتسأله وهي تحس بانطفاء شعلة عواطفه المتأججة التي كانت تبث دفء الحياة في أوصالها:

- ما بك ؟ أراك شاردا على غير عادتك. فيلتزم الصمت مستغرقا في التفكير.
- ما ذا عساه يقول لها ؟ هل يخبرها بما يجول في خاطره وهي لم تطلع بعد على الدين البهائي اطلاعا يجعلها تتفهم موقف المؤمنين وقت الشدة والامتحان ؟ أيمكنه في لحظات أن يجعلها تستوعب أهمية الرسالة التي يحمل حبّها بين ضلوعه ... ؟

وما زال في تفكيره ساهيا عما حوله حتى يخرجه إلحاحها من الاستغراق في التفكير، فيقول لها:

- لا شيء، لا شيء. إنما يشغل بالي أصدقاؤنا البهائيون المقبوض عليهم في الناضور. فتستريح لجوابه ثم تمضي بدورها مستغرقة في التفكير دون أن تفهم سببا للزج بهؤلاء الأصدقاء الذين طالما اطمأنت إليهم واستراحت نفسها في محضرهم، وأمنت على خطيبها في معاشرته لهم. فتستفسره متحيرة:
- لكن لماذا ألقي القبض عليهم؟
- لأنهم بهائيون.
- وما العيب، وما الخطر في ذلك ؟
- إنها سنة الله، كلما ظهر رسول جديد، قام الناس عليه وعلى أتباعه يضطهدونهم ويذيقونهم مرّ العذاب.
- لا أفهم.
- تأملي حياة السيد المسيح. كيف عذبوه وصلبوه، وانظري ما فعل الرومان بالمسيحيينالأولين الذين كانوا يتخذونهم فرجة في الميادين، تنهشهم الوحوش وتتغذى بهم الأسود.
- لكن هذا تاريخ، تاريخ ناس عاشوا في الهمجية، ولا يمكن أن يحدث مثل ذلك اليوم في عهدنا، في القرن العشرين !

فرضت عليهما محاولة استيعاب فهم الموضوع، الاستغراق في الصمت. وبينما كان "عبد العزيز" مترددا في المسلك الصحيح الذي ينبغي أن يسلكه مع زوجته ومتحيرا في الاختيار الأفضل الذي ينبغي أن يختاره في هذا الموقف الدقيق الصعب، عاودته الأسئلة المحيرة تلح عليه من جديد.

- هل يترك زوجته وحدها ويسلّم نفسه ليشاطر إخوته في مصيرهم ؟
- هل يغض الطرف عما يجري في المدينة المجاورة، ما دام أنه ليس من المقيمين فيها ولم يدعه أحد للامتثال أمام السلطة المغربية ؟

تراءت في مخيلته قصة الشاب المؤمن الصادق الملقب "أنيس" الذي كان في مثل موقفه، بعيدا عن مواقع الامتحان والبلايا التي كان يتعرض لها السيد "الباب"، ومع ذلك، ورغم ممانعة أسرته وحجزه، لم تهمد نار

الشوق الملتهبة في صدره، ولم يهدأ له البال ولم يسترح له الوجدان إلى أن التحق بحضرة "الباب" و اندفع راضيا إلى ميدان الافتتان راجيا أن يقبله محبوبه الأعلى في محراب الفداء والاستشهاد.

وبقدر ما كانت هذه القصة المثيرة تحرك مكامن الشوق في ضلوعه وتمد إيمانه بشحنة من الطاقة الروحانية بقدر ما كان يفكر في مصير زوجته، ويتساءل:

- ما ذا سيحدث لها من بعده لو أقدم على تسليم نفسه ؟

أعياه التفكير دون أن يتمكن من الاستراحة إلى حل مريح يقرّه عليه ضميره في حلبة هذا الصراع الذي يتصارع فيه حبّان: حب الله، وحب المرأة التي ارتضاها لنفسه وفق شريعة الله وقانون البشر.

ما الذي جعل الحبّين المتلازمين المستظل أحدهما في ظل الآخر يتنافران في محاولة التساكن مع بعضهما ؟ أو ليس حب الزوجة تجل من تجليات الحب الشامل الأعظم لله ؟

ما بال الحبّين كانا بالأمس القريب ، صنوين يعاضد أحدهما الآخر سعيدين بوجودهما معا في قلب واحد، واليوم يستنكفان العيش مع بعضهما !

- كيف يوفق بينهما في أعماقه وليس في قفص جوفه إلا قلب واحد !
- كيف يستطيع أن يُفهم محبوبته التي لم تتحرك مشاعر الحب في قلبها إلا على حبه ولا عرفت السرور إلا في جواره ووصاله ولا تعيش وتحيى إلا من أجله !
- كيف يحدثها ويقنعها "بحب الله" مصدر كل الحب الذي إذا تغلغل في قلب المؤمن يكون الموت أهون عليه من الحياة بدونه، والمشقة والمعاناة في سبيله أحب إليه من الحرمان منه !
- كيف يجعلها تستوعب أن الابتعاد الجسدي عنها لن يزيد نار حبّه لها في قلبه إلا اشتعالا، ولا روحه إلا تعلقا بها ؟

إن هذا الحب السامي المزروع في جبلّة الإنسان لم يعرفه ولم يجربه من البشر إلا من جذبته قوة مغناطيس جاذبيته إلى أحضانها، وكأنما الشاعر أشار إلى ذلك في نظمه:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

لمست خاطره أمنية، اعتقد أنها لو تحققت لهان عليه قلقه عنها، ونطقت في سريرته:

- ليتها كانت بهائية مثله تشاركه إحساسه، توافقه وتؤازره على ما يشعر به... !

***

وما أن حل الصباح حتى عاوده التفكير الملحّ على التخلص من الحيرة التي أوقعته في شباكها والتي قضت مضجعه دون أن يتمكن من التخفيف من وطأتها. ولم يعد بإمكانه الصبر أكثر على ما يعاني.

وما كان للشك في وضعيته الحرجة هذه، أن يخترق يقينه في صحة الموقف الذي يلح به ضميره على أن يتخذه، فقرر البتّ السريع في الموضوع دون تأخير.

جمع مجامع جرأته واقترب من زوجته اليافعة يخبرها أنه:

- لا يمكنه أن يعيش مستريح الضمير قرير العين وإخوانه في المعتقل .
- وماذا عساك تفعل ؟!
- سألتحق بهم .
- هل جننت! أتتركني وحدي ونحن حديثي العهد بالزواج، ولم ينته شهر عسلنا بعد !

أخلد إلى الصمت قليلا ثم قال لها :

- حبيبتي، إن الواجب يفرض عليّ الالتحاق بأصدقائي ومشاركتهم المصير، وإلا فإني لن أنعم بطعم الراحة أبدا. أيرضيك أن تريننني بائسا شقيا بقية حياتي. ثم لا أعتقد إلا أن السلطات ستطلق سراحهم بعدما تتأكد من عدم وجود ما يبرر الإبقاء عليهم في المعتقل.

فكرت زوجته الصغيرة مليا، وألم التفكير في الفراق يعتصر قلبها ورغبة إرضاء زوجها حاضرة تلحّ على فكرها، والاقتناع بأن هذا الاعتقال ليس إلا سوء فهم سرعان ما ينجلي... فتزاحمت الأفكار والأحاسيس في ذهنها، و نظرت إلى وجه زوجها الصبوح الحزين مشفقة، فأشرق في قلبها شعاع من التفاؤل مال بمشاعرها إلى إرضاء رغبة حبيبها، فقالت له دامعة:

- حسنا، ليكن ما تريد... وترامت في أحضانه.

***

خرج من البيت وكله عزيمة على تسليم نفسه، ليشهد موقفه على صدق إيمانه، ورضائه بما قدر الله له في سبيله، ويعبر عن حبه وإخلاصه للعهد الذي قطعه على نفسه يوم أن أعلن إيمانه "ببهاء الله" رسولا بعثه الله للناس في هذا العصر الجديد.

عبر الحدود المغربية/الاسبانية الفاصلة بين المدينتين دون أن يستوقفه أحد، ووصل إلى "الناضور" دون أن يعترض سبيله أحد، ووصل إلى مخفر الشرطة القريب من مقر عمله حيث كان يعمل مقتصدا في المعهد (الأصلي) الديني.

اقتحم أحد مكاتب المخفر وطرق الباب واستأذن للدخول. حيّاه الموظف ورحب به، بسبب سابق معرفة. غير أن الموظف، على ما يبدو، لا يعرفه من البهائيين، فبادره بتقديم التهاني على الزواج والسؤال عن أحواله في هذه المرحلة الجديدة من حياته ثم استفسره عن سبب زيارته:

- هل من حاجة نقضيها ؟
- سمعت بإلقاء القبض على البهائيين .
- هذا صحيح. وما علاقتك بهم ؟
- إني واحد منهم، بهائي مثلهم.

اندهش الموظف من أن يجهر أحد بانتسابه للبهائية في مثل تلك الظروف العسيرة، وأخذت منه الدهشة كل مأخذ من موقف " الورياشي " الذي يلقي بنفسه إلى التهلكة بدلا من أن يسعى هاربا بعيدا عنها. ثم قال له:

- لكن ما الذي جاء بك إلى هنا، فما من أحد يتهمك وما من أحد يبحث عنك؟ ومن الأفضل أن تعود إلى "مليلية" حيث تقيم، فما من أحد يطالك هناك.
- أعرف، لكني لا أرغب في الاختفاء بل أريد أن أكون معهم .

زادت دهشة رجل الأمن الذي يعلم ما يتعرض له البهائيون في الزنزانة المحاذية أو في المكاتب الأخرى من ضغوطات وما يتهددهم من مخاطر، فقال له مشفقا:

- أرجو أن تنصرف إلى حال سبيلك، فلا رأيتني ولا سمعت عنك، واستأنف

ناصحا. يا رجل! اتق الله في نفسك وفي أهلك. إن المسألة على قدر كبير من الخطورة، ومن الخير لك أن تذهب بسرعة ولا تعد أبدا إلى "الناضور".

غير أن "عبد العزيز" بقدر ما محّض له إشفاق رجل الأمن النصيحة بقدر ما أصرّ على الالتحاق بزملائه، وكأنما تقمص شخصه المعنى الوارد في الكلمات المكنونة:

" المحب الصادق يرجو البلاء كرجاء العاصي إلى المغفرة والمذنب إلى التوبة " [35].

وكأن لوعته لا تسكن إلا بالبرهنة على قبول ما تحمله كلمات "بهاء الله" هذه من معاني التحدي:

" إن لا يصيبك البلاء في سبيلي كيف تسلك سبل الراضين في رضائي..."[36]

أيقن الشرطي المشفق الناصح أن لا فائدة من الإصرار على محاولة إنقاذ شخص من الهلاك لا يرى راحته إلا فيه. فقاده كارها إلى مكتب حيث أخذ الإقرار على نفسه بأنه من أتباع البهائية.

*****

35 - الكلمات المكنونة : بهاء الله .
36 - نفس المرجع .

ب - الاستمرار في اعتقال البهائيـــــــــن.

لـــــم يكتف رجال الأمن بالقبض على الأفراد المعتقلين، وإنما طال اجتهاد القبض على كل من دلهم الاشتباه إلى أنه من البهائيين، خاصة وأن مهمة التحري لا تتطلب جهدا كبيرا. إذ يكفي الاهتداء إلى أحدهم بإلقاء سؤال لا يتجاوز ثلاث كلمات:

" هل أنت بهائي ؟ ".

ولا يتطلب الرد بدوره أكثر من كلمة، يختارها المسؤول بين كلمتين: "نعم" أو"لا". كلمة واحدة حاسمة ينطقها الفرد فينقله بساطها السحري إما إلى العيش العادي في مجتمعه بسلام وأمان، وإما أن تقذف به عاصفته في المجهول الواعد بالأخطار والأهوال.

والفرد في اختياره الحاسم هذا، حر مختار واع بما ينتظره في الحالتين، لأنه شاهد عيان على موقف المجتمع المعادي للبهائيين: موقف يفسره شعوره بتهديد دينه والاستهزاء بمقدساته والسخرية بعقائده دون أن يكلف نفسه مؤونة التحري للتأكد مما يقال ويشاع. موقف مدفوع بتصديق الشائعات أكثر من التأكد من الحقيقة. لأن تصديق الشائعات سهل وأجنحتها قد تحمل راكبيها إلى أبعد الحدود حيث لا يرون في هؤلاء البهائيين إلا مجموعة من الشبان المغرورين المارقين الذين لا حيلة لهم يركنون إليها، ولا قوة يعتدّون بها ولا عصبية يعتزون بها.
إنه لأمر محير، يصعب على الذين صدقوا الشائعات أن يفهموا كيف آمن هؤلاء الشبان بدين جديد وسمحوا لأنفسهم أن يضربوا قومهم من الخلف ويوجهوا لهم طعنة في الصميم!

إنهم لن يغفروا لهم هذه الخيانة أبدا، ولسوف يذيقنّهم من الأذى أضعاف ما تجاسروا على الخروج عن تقاليد مجتمعهم.

وكأن الذين هم في غليان هذا الانفعال، يخوضون حربا ضروسا مع عدو غاشم، تهزهم الشهامة والأريحية إلى أن يكيلوا له الصاع صاعين. وكأنما هم يتمثلون ما وصف به الشاعر العربي سلوك قومه أيام عزهم في جاهلية ما قبل الإسلام عندما يستفزهم غيرهم:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

إنهم كانوا لا يرون غير مسلك تأديب هؤلاء المارقين حتى يكونوا عبرة وموعظة لأمثالهم، ولن يكون الجزاء الذي يستحقونه أقل من اختفائهم من المدينة أو من الحياة، حتى لا يتجرأ أحد بعدهم على التعرض لحرمة الدين أو المساس بمقدسات الأمة.

هذه هي الإشاعات التي كان يرددها بعض المتشبثين بتقاليد الدين ويغذيها المتشددون الناطقون باسمها وبالغيرة على حمايتها، دون التأكد من حقيقة الذين اتخذوهم هدفا لصب جام غضبهم عليهم.

***

في هذا الجو المشحون بمشاعر الغيظ والكراهية الذي أثير تجاه البهائيين، كان على المشتبه فيه أن يختار بين الجواب بالإيجاب أوالنفي : أن يقول نعم "أنا بهائي أو أن يقول" لا "لست بهائيا".

ومن بين الذين وضعوا في هذا الموقف المخيف الأبعاد:

كان يشغل وظيفة مفتش الشرطة، بينما كان تكوينه التعليمي دينيا محضا: اختلف صبيا إلى الكتاتيب القرآنية التقليدية كما جرت عادة تعليم أبناء المسلمين ثم التحق بمدارس التعليم الديني بمدينة "الناضور" ، مسقط رأسه، ثم اتجه إلى "تطوان"، عاصمة المنطقة الشمالية، من أجل استكمال دراسته. ولم يتعلم اللغة الاسبانية أيام الحماية إلا في مدرسة أحد المعلمين الأسبان الذي فتح لحسابه الخاص مدرسة خصوصية بالناضور، مما أهله للتوظيف في وزارة الداخلية، التي كانت كغيرها من مصالح الدولة في أمس الحاجة إلى الموارد البشرية لتسيير دواليبها.

سمع عن أمر "بهاء الله" وأيقن، بعد الشك والتقصي، الذي هو أساس مهنته في مؤسسة الشرطة، أن هذا الدين دين الله، فأعلن عن إيمانه وانضم إلى مجموعة المؤمنين الأولين في مدينته. وعندما ألقي القبض على البهائيين، أبى عليه إيمانه ووفاؤه وشهامته أن ينجو بنفسه بل آثر التمسك بجواب التصديق ليلتحق بإخوته

<u>بوعرفة معنان</u> يشاركهم محنتهم مثلما قاسمهم من قبل لحظات المعاشرة الروحانية في رحاب الإيمان.

احتار زملاؤه ورؤساؤه أن يكون أحد المنتمين لوزارة الداخلية، العاملين في سلك الأمن الوطني، بهائيا. ولم يستوعبوا أن شخصا منهم، يعاشرونه ويتعاملون معه صباح مساء، لا يعرفون شيئا عما يحمله في عقله من الأفكار وفي قلبه من الإيمان.

عكس ما كانوا يتوهمون من أنه قد يخفي عنهم خصوصيات البهائية، فإنه لم يكن عسيرا أن يأخذوا منه كل المعلومات التي كان يعرفها عنها وكذا كتبها التي بحوزته. وكان يرى أن ذلك يساهم في اطلاعهم على معرفة حقيقة البهائية وبالتالي الحيلولة دون الافتئات عليها.

وكيفما حاول رؤساؤه المباشرون أن يثنوه ليتراجع عن التصريح بالانتماء إلى البهائية، وكيفما حذّره زملاؤه من مغبّة الانتساب إليها وسوء العاقبة التي يتعرض لها، فإنه ظل مصرّا على موقفه، صامدا متشبثا بالإعلان عن إيمانه، كلما سئل عنه.

وعندما وجه إليه الانتقاد بعدم جدية إيمانه لأنه لا يطبّق تعاليم الدين الذي يدعي الإيمان به، بخصوص حمل السلاح الذي تنهى البهائية عن حمله، وهو يحمله. أجاب:

- صحيح، أن البهائية تمنع الفرد من حمل السلاح إذا كان دون إذن السلطات الإدارية. أما أنا فإني أحمله بإذنها، وبأمر منها.

فقال له رئيسه عندما أعيته حيلة إقناعه بالتراجع عن الإيمان بالبهائية:

- ما دمت مصرا على انتسابك للبهائية، عليك الآن أن تضع السلاح، وأن تترك الشارة أيضا وتدخل في الزنزانة مع أمثالك.

وضع المسدس وشارة الشرطة على مكتب العميد مختارا، وتوجه بتمام التسليم والرضاء إلى الزنزانة حيث حيى زملاءه وجلس مبتسما على المقعدة إلى جانبهم، ينتظر مثلهم ما يخفيه القدر لهم .

***

- مصطفى لمتيـــوي".

أحد أبناء "تطوان" الذي عين معلما للغة العربية في مدارس الناضور. سمع عن البهائية من زملائه المعلمين وشارك في الأحاديث التي تروج حولها، وأخذ يهتم بمعرفتها إلى أن اطمأن قلبه إلى أصلها السماوي فآمن بها وأصبح من المنتمين إليها، وعندما سئل من طرف رجال الأمن الذين كانوا يتقصّون أخبارها وأتباعها، ألحقوه ببقية المعتقلين في زنزانة مخفر الشرطة.

***

- ميلود المستـــــــاري ".

من أبناء مدينة "وجدة" الذي عين معلما للغة الفرنسية في مدارس الناضور. انجذب إلى

الإيمان بالبهائية ولم يلق عليه القبض إلا في اليوم الأخير عندما كان المعتقلون قد شحنوا في السيارة ليقدموا إلى المحكمة الجنائية.

أخرجوه من باب مركز الشرطة وهو يصرخ في وجه الشرطي محتجا ومندهشا:

لماذا تصفعني؟ وكأن صرخته صرخة مولود من رحم المثالية المريح الذي لم يستوعب بعد جوانب واقع عالمنا المعاش المرير. جعلته يتأكد من أن ما تعلمه في الثقافة الفرنسية، ثقافة حقوق الإنسان واحترام حرية الفرد في أن يعتقد ويختار ويتبني من الأفكار والإيديولوجيات ما يشاء، تحول دون تعميم انتشارها حدود اجتماعية تحكمها مبادئ ومعتقدات وتقاليد دينية غير مبادئ الثورة الفرنسية التي نفذت إلى وجدان المجتمع الفرنسي التي يصدّرها إلى الشعوب الراضعة من ثدي ثقافتها. فجاءت صرخته صوتا مدويا للاصطدام بين ما رسخ في عقله من قناعة بالحرية الشخصية وحرية الضمير و بين الواقع المرّ الذي ترجمته تلك الصفعة المؤلمة على خدّ وجهه الذي كان منذ قريب وجه معلم يحترم فيه الجميع نبل مهمة المهنة التي شرع في تكريس حياته لها.

*****

ج - اللجنة الحكوميـــــــــة.

لـــــم تكن هذه الأحداث المحلية لتجري في غياب السلطة المركزية، بل إن خيوطها كانت تحركها الأيادي التي تمسك بها في العاصمة. ولم تكن الإجراءات التي يقوم بها رجال الأمن على المستوى المحلي إلا تمهيدا وتزجية للوقت ريثما يرسل إليهم المسؤولون المعنيون في "الرباط" بالتعليمات المفصلة التي تلزمهم بالتنفيذ.

تنامت إلى الأسماع أن لجنة حكومية وصلت إلى "الناضور" في طائرة خاصة، للنظر في مسألة البهائيين المعتقلين، مما أضفى على المسألة أهمية أكبر، عظم شأنها في تقدير الجميع، وجعلها تخرج من إطار هيمنة السلطات المحلية.
وفي زوال اليوم الثاني من وصولها، أحضر المعتقلون إلى مقر "العمالة" أمام هذه اللجنة التي كانت تتكون من أشخاص يمثلون مصالح الحكومة المختلفة، من وزارات الأوقاف والشؤون الإسلامية، والتربية والتعليم، والعدل، والداخلية ورئاسة الحكومة.
ويبدو أن المسؤولين في الحكومة توصّلوا، بناء على الانطباع الغالب الذي تكوّن لدى أعضاء اللجنة بعد الدراسة والتقصي الذي قاموا به، إلى أن المعتقلين شباب أبرياء لم يقوموا بأي عمل يخالف القانون، ولا يضمرون أية نية سيئة ولا يطمحون إلى تحقيق أية أهداف سياسية. وإنما استغل المضللون سذاجتهم وبراءتهم وقلة اطلاعهم على حقائق الإسلام، مما جعلهم ينساقون مع هذه الحركة الدينية.
ومن المستبعد أن يكون قد دار، أي احتمال أو شك في خلد أحد أعضاء اللجنة، أن الدين الذي يؤمن به هؤلاء الشبان عقيدة صحيحة، حتى يكون الشك قاعدة لانطلاق البحث وأساسا للأخذ والعطاء من أجل الوصول إلى معرفة الحقيقة أو التأكد من الزيف. فمهمة أعضاء اللجنة واضحة:
احتواء المشكلة التي قد تؤدي إلى اضطراب السكان في المدينة، وإيجاد مخرج لها.

ولم يكن ذلك في تقديرهم بالأمر العسير عليهم، إذ يكفي أن يبينوا الحقيقة لهؤلاء المعتقلين حتى يعودوا إلى طريق الرشاد فتعود المياه إلى مجاريها العادية.
أما الخطر الذي قد يشكله اضطراب أهل المدينة الحائرين المتسائلين عما يجري في مدينتهم، فلم يجدوا له في الواقع ما يدل عليه سوى ما يروج من الشائعات التي يضخمها المغرضون.

***

أحضرونا مخفورين إلى مقر العمالة وأدخلونا إلى بهو حيث استقبلنا أعضاء اللجنة الجالسين على الكراسي الناظرين إلينا واقفين أمامهم صفا واحدا وقد تركزت أنظارنا عليهم انتظارا لما يصدر عنهم. وبعد لأي، نادى أحدهم باسمي، فأعلنت عن نفسي. بادر نائب وزير التربية والتعليم السيد "حسين فيلا" الذي كان رئيسي في مهنة التعليم إلى القول:

- " قضينا الليلة كلها في دراسة الكتب البهائية، وكدنا نحن أنفسنا، ننخدع بها "

وكأنه بذلك أراد أن يكسر الصمت المخيم وينشر جوّا من الأمان والاستلطاف ويخفف عنا نحن الماثلين أمامهم وطأة الخطإ الجسيم الذي وقعنا فيه، وفي نفس الوقت، يلمح إلى حسن نوايا اللجنة وتفهمها، ويطمئننا على القرار الذي ستتخذه في حقنا، أو لعله كان يعبر صادقا عن اندهاشه وإعجابه بما قرأ وعن شعوره بالقوة في التعاليم البهائية وقدرتها على التأثير في نفوس العارفين اليقظين مثلهم، فما بالك بالشباب الغرّ أمثالنا. ثم شرع الأعضاء، كل من جهته، يلقون أسئلة تتعلق بتاريخ وعقائد البهائية وشرائعها وأخلاقها.

وكلما سمعوا جوابا مقبولا من أحد المعتقلين، كان ردهم على الواقفين رد العارف الواعظ:

- " إن هذه الأجوبة التي لقنوها لكم، ليست إلا واجهة للتضليل والتستر، تختفي خلفها نوايا البهائية الحقيقية التي تجهلونها، والتي يرمي أعداء الأمة الإسلامية من ورائها إلى تخريب الدين وتضليل المسلمين وتمزيق وحدة أبناء الوطن ".

أمام هذا العدو الذي يفترضونه في البهائية والبهائيين الذين يتمثلهم أعضاء اللجنة أحيانا في الاستعمار وأحيانا في الصهيونية وأحيانا أخرى في مكائد الغدر والخيانة والجاسوسية والطابور الخامس ... ويخبرون بها، نحن الواقفين أمامهم، الذين لم نؤمن بالبهائية إلا منذ عهد قريب ولا نرى لها أية علاقة بما ينسبونه لها، ولم نكن نتوقع رغم علمنا بافتتان المؤمن في إيمانه، أن يكون الافتتان بهذه الصورة الجدلية، ولا كان في وسطنا من يرشدنا إلى ما ينبغي اتخاذه في مثل هده المواقف الحرجة.

كنا نتصور، متفائلين، أن الاطلاع الصحيح على البهائية لن يؤدي إلا إلى قبولها أو تقديرها. فإذا بنا نجد أنفسنا في وضع لا نحسد عليه، محاصرين بمحدودية الفترة الزمنية التي عشناها بهائيين؛ وبمحدودية الاحتكاك مع إخواننا في الإيمان سواء داخل المغرب أو خارجه؛ وبعدم ممارستنا للأنشطة البهائية على المستويات الإقليمية والوطنية و العالمية؛ وبقلة المعلومات المتوفرة لدينا عن رسالة "بهاء الله".

كنا بعيدين كل البعد عن الدخول في حوار مع أناس ينتمون لمؤسسات حكومية يعززهم التكوين والمعرفة والتجربة والتوجيه وتشدّ أزرهم السلطة النافذة ويلهمهم تراث يمتد مداه على ما يزيد على أربعة عشر قرنا من الثقافة المتراكمة، و يدعمهم ميراث ديني وفقهي غزير، إلى جانب الشعب الواقف خلفهم يؤيدهم ويناصرهم.

هذا الشعب الذي قد يختلف مع الحاكمين في مسائل كثيرة إلا في مسألة الدفاع عن الدين.

والواقع أن ما جرى بين اللجنة والشباب البهائيين لم يكن حوارا بل استجوابا ومواجهة من طرف واحد، وحتى لو كان حوارا كما ينبغي، فإنه كان بالتأكيد غير متكافئ. إنه حوار العارفين المتمرسين مع البسطاء المبتدئين.

إن كل همنا وكل ما كنا نريد، هو المحافظة على الحرية المتمثلة في التمسك بالدين الذي اخترناه لأنفسنا سبيلا في الحياة.

وأمام كثرة إقرار اللجنة بعظمة الإسلام الذي نوافقهم عليها وتقديم الموعظة لنا والتهويل بخطر البهائية ووجوب الابتعاد عنها وإلحاحهم على صحة تصريحاتهم والتأكيد على زيف معلوماتنا (نحن المغرر بنا) عن البهائية من جهة، والتأكيد من جهتنا على التصريح: بأن البهائية، التي نؤمن بها، تدعو إلى الإيمان بالله والتمسك بتعاليم الدين وتحث على مكارم الأخلاق وتحرص على حب الوطن والعالم والجنس البشري كله، مستدلين ببعض الآيات من القرآن ومن الآثار البهائية التي نحفظها، والإلحاح على أن البهائية التي يتحدث أعضاء اللجنة عنها غير البهائية التي نعرفها... مكذبين بكل قوانا التهم الموجهة لها، حريصين في نفس الوقت، على تجنب التصادم مع أعضاء اللجنة وعلى الانصياع لنصائحهم ...

أمام هذا الجدال غير المتكافئ في وضعية كالحة وظروف كئيبة تطالبنا اللجنة فيها بالابتعاد عن ما يضر الوطن والأمة والدين، من جهة، ورغبتنا في سلوك سبيل السلامة واجتناب الجدال والعناد والابتعاد عن الاصطدام مع غيرنا، خاصة مع ممثلي السلطة، من جهة أخرى، لم نجد مهربا لحماية أنفسنا وما نؤمن به، سوى الامتثال لنصائحهم والتصريح بأن :

- البهائية التي نؤمن بها ليست كما تصفونها، وإذا كانت كما تصفونها فإننا نتنازل عنها .

وسأل أحدهم :

- هل أنتم تشهدون بلا إله إلا الله وبمحمد رسول الله . فأجاب الجميع، نعم.

توجه أحد أعضاء اللجنة إلينا بالقول:

- إنكم شباب طيبون ساذجون، لا تعرفون مكائد وحيل المفسدين، وتنخدعون بسهولة بالكلام المعسول... ثم قدموا لنا أوراقا، أخبرونا أن توقيعها شكلي لا يؤدي إلى أي أثر سلبي. ووعدونا بعمل السلطات مستقبلا من أجل تأطيرنا وتوفير أسباب التعليم الصحيح لنا حتى نعرف الإسلام معرفة صحيحة، لأن اللجنة

ترى فينا، كما قال أحدهم، شبابا صالحين مؤهلين لما يتوفر فينا من إخلاص وحماس للقيام بمهمة الدعوة إلى الدين القويم.

تتابعنا على توقيع تلك الأوراق التي احتفظت بها اللجنة دون أن يتمكن أحد منا من قراءتها، وكان تخميننا أنها تؤكد شهادتنا بوحدانية الله وبرسالة النبي محمد رسول الله.

يبدو أن اللجنة كانت حريصة على تنفيذ مشروعها وتحقيق غايتها، فما أن تأكدت من أننا بهائيون لم نقم بأي عمل يسيء للآخرين، وبالتالي فإن كل ما يمكن مؤاخذتنا عليه، في نظرهم، هو كفرنا وارتدادنا عن الإسلام. وعلاج ذلك فقهيا يتم بالاستتابة التي تتم بواسطة النطق بالشهادتين، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة حتى نقتنع ونعود إلى الطريق الصواب .

وما دمنا لا ننكر مزايا الإسلام ومصدره الإلهي وشرائعه وأحكامه، فإن أعضاء اللجنة قد بذلوا ما وسعهم الجهد وما أسعفتهم الفطنة من أجل أن يوضحوا لنا خطأ البهائية وخطرها على الدين والدنيا. وهم في سبيل ذلك، لم يوفروا أي مجهود لإخبارنا بما لا نعرفه عن فساد البهائية وعن كونها صنيعة " الروس " ومن ابتكار " الماسونية " وإبداع حيل " الصهاينة " وأداة من أدوات الاستعمار كي يستولي على عقول العباد ويستحوذ على خيرات البلاد.
أما نحن، فقد كنا حريصين على إظهار إيماننا وإرضاء ممثلي السلطة في نفس الوقت. كما كنا على ثقة كاملة بأن خصمنا لم يكن الله، ولا الإسلام، ولا محمد رسول الله. كما لم تكن لنا أدنى علاقة لا بالروس، ولا بالماسونية، ولا بالصهيونية ولا بالاستعمار.

وكانت ضمائرنا، من هذا الجانب، في غاية السكينة ومنسجمة تماما مع إيماننا بالله ومطمئنة إلى مكوناته الأساسية ومتأكدين من أننا لسنا كفارا ولا مرتدين عن الإسلام، بل نرى أنفسنا، بشكل ما، أكثر إسلاما من الذين يحاسبوننا. لأن إيماننا بالبهائية، في اعتقادنا الراسخ، إنما هو امتثال لتعاليم الإسلام التي تحثّ على الإيمان "بصاحب الزمان" عندما يعلن عن ظهوره.

وبذلك يكون إيماننا "ببهاء الله" رسولا لهذا العصر تطبيقا لوصية الإسلام هذه، وخضوعا لإرادة الله، وتشبثا بعهد الله وميثاقه المبرم الذي يلزم المؤمن بالتصديق برسول العصر عندما يعلن عن نفسه.

إن الذين يخاصموننا هم جمع من المتشددين، تدفعهم القناعة بخلود الدين وعدم تغيير تقاليده المرعية إلى اعتبار كل من يخالفها عدوا لها. لذلك قاموا بالتصدي لنا دون أن يكلفوا أنفسهم مؤونة البحث، للتأكد من ماهية البهائية.
من جانبنا، كنا نعلم ونوقن تمام العلم والإيقان، أن ما ينسب إلى البهائية من الفساد مجرد افتراء. ولكن موقف اللجنة السلطوي الصامد فرض علينا موقفا شبيها بموقف "جاليليو جاليلي" أمام رجال الدين، قضاة محاكم التفتيش في "روما"، لإجباره على نكران نظرية مركز الكون، الذي لم يغير شيئا في حركة الأرض حول الشمس. كما أن تنازلنا عن البهائية المشوهة، التي قدمتها اللجنة لنا، لم تغير شيئا من العقيدة البهائية السليمة التي نؤمن بها.

إن البهائية، في اعتقادنا، كانت وما زالت رسالة إلهية مستقلة، مثلها مثل أي دين سماوي، جاءت لتجديد دين الله في نفوس الأفراد وإخراج البشرية من أوضاعها المزرية والمساهمة في توجيهها ومساعدتها على التقدم في مسيرتها الحضارية المعاصرة.

وما كان بوسعنا كمعتقلين ولا كان مستوانا العلمي يسمح لنا بالحوار المتكافئ مع أعضاء لجنة، تتمثل فيها كل السلطات التنفيذية والقضائية والدينية والتعليمية، والتي لم يكن جوهر مهمتها تقصّي الحقيقة عن الديانة البهائية بقدر ما كان التأكيد على صحة الاتهامات الموجهة للدين البهائي. ذلك أن القناعة المسبقة جعلتهم، مثل غيرهم من المسلمين، يستبعدون ظهور أي دين إلهي بعد الإسلام.

وفي هذه الحالة، كانت نظرة اللجنة الحكومية ونظرتنا مثل من ينظر إلى الأشياء في الليل ومن ينظر إليها في النهار: إذ ما نراه واضحا عن البهائية في النور تراه اللجنة الحكومية أشباحا مخيفة تتحرك في الظلام.

وكأنما البهائية عملة ذات وجهين: وجه يمثل صورتها الحقيقية كما نعرفها، ووجهها الآخر صور عليه خصومها صورة مشوّهة لها.

وعلى هذا الأساس من التوافق تنازلنا عن الوجه الذي تصرّ اللجنة على أن نتنازل عنه، بعد أن أعيانا الاعتراض وشعرنا بعدم التناقض...

***

أخرجونا من البهو وصعدوا بنا إلى مكتب العامل الذي حدّثنا بأسلوب ودي أبويّ، ونصحنا محذرا من أعداء الوطن والدين، الذين شبههم بالعثة التي تنخر أرجل مائدة الخشب دون أن يفطن إليها أحد إلى أن تقع على الأرض رمادا، لا تصلح لشيء. كذلك يفعل الأعداء في جسد الأمة، ينخرونها من الداخل إلى أن تقع من تلقاء نفسها.

استمهلنا في المكتب ريثما يخرج معنا خارج مبنى العمالة حتى يرانا الناس معه، في ما يبدو، فلا يتعرض لنا أحد بسوء.

وقف معنا عند مدخل العمالة في أول الغروب، وكأنه بذلك يؤكد للمشاهدين القلائل الذين دفعهم الفضول للوقوف خارج مبنى العمالة أن المشكلة قد انتهت بسلام، وأن السلطة قد نجحت في إقناع أو إجبار المنحرفين على التراجع عن غيهم، وأنه بإمكان المسلمين الدخول إلى منازلهم مطمئنين إلى أن للدين "سلطة" تحميه.

تخطى العامل، برفقتنا، نازلا درجات مخرج العمالة العريضة وقطع الشارع ووقف على رصيف الحديقة المجاورة حيث أبعد الحراس عنه الفضوليين القلائل الذين وقفوا على مسافة بعيدة يشرئبون بأعناقهم وينتظرون ما يسفر عنه عمل اللجنة التي كلفت نفسها مشقة السفر إلى غاية "الناضور" في أقصى البلاد التي قلما تحظى بمثل هذا الاهتمام.

وقع نظري على والدي الذي كان ينتظر مع المنتظرين، فاستأذنت السيد العامل للسماح لي بالسلام عليه، وأنا أمدّ ذراعي في اتجاهه مشيرا إليه. فالتفت العامل في ذات الاتجاه وأشار إلى والدي بالإقبال علينا.
تقدم والدي يعرج بسبب الرصاصة التي أصابته إبان الحرب الأهلية الاسبانية في معركة "إيبرو"، وعلى مسافة قريبة من السيد العامل جمع رجليه واستقام في وقفته واضعا كف يده اليمنى على صدغه الأيمن وحياه التحية العسكرية الواجبة لحاكم الإقليم ممثل صاحب الجلالة ملك البلاد، كما كان يفعل مع رؤسائه العسكريين أيام الحكم العسكري الاسباني في عهد الحماية. فخاطبه السيد العامل، يهوّن عليه:

- اطمئن، لا تقلق، سوف يعود ولدك إلى الدار، وعليك أن تحسن معاملته.

فشكره الوالد، معيدا نفس التحية العسكرية ثم انصرف في حال سبيله مغمورا بالامتنان لما وعده به وبما خصه من دعوته وتمييزه بالحديث الودي الذي وجهه إليه.
سلمنا السيد العامل إلى عميد الشرطة وطلب منه أن يسير معنا في ممرّ الراجلين الممتد بين العمالة و"النادي البحري" حتى يراه السكان معنا فيهدأ روعهم وتهدأ نفوسهم ويسكن غضبهم المفترض.

سار العميد معنا بخطى وئيدة، والأنوار الكهربائية تقشع ظلام الليل الذي أرخى سدوله على شوارع المدينة، فيقف أحيانا ويسير أخرى إلى أن اطمأن إلى أن المشهد قد رآه أكثر ما يمكن من المارة والجالسين في المقاهي. ثم أشار علينا بالاتجاه إلى مخفر الشرطة حيث ردت إلينا أمتعتنا وطلب منا الالتحاق بمنازلنا والحضور في الغد صباحا إلى المخفر.
سأل أحدنا عن سبب الرجوع إلى المخفر غدا، فكان الجواب:

- لمجرّد استلام بعض الأوراق.

وبذلك اعتقدنا أن الموضوع قد انتهى. وأن هذا الإرهاق، الذي تراكم أثناء أيام الأسبوع الأخيرة المشحونة بالأحداث السريعة الملغومة بالأخطار الشديدة الوطأة على نفوسنا وأجسادنا، قد وصل إلى النهاية.

***

اتجهت إلى منزلي دون أن يعترض أحد سبيلي، فوجدت أفراد أسرتي ينتظرونني على أحر من الجمر وهم يشكرون الله على سلامتي دون أن يتجرؤوا على الاستفسار عن السبب في ما جرى لي. ولا شك أنهم قد سمعوا من الشائعات التي تلوكها ألسنة الناس ما أغناهم عن السؤال. كما أن مزاجي وطاقتي وتشوش بالي لا يجعلني راغبا عن شرح تفاصيل ما حدث.

هيأت لي والدتي أكلا دسما لذيذا تعبيراً عن احتفالها بعودتي سالما، وظنت أنه خير عون لي أسترجع به بعض القوة البدنية التي ضاعت مني خلال الأيام التي قضيتها في المخفر طويا، ولكن ما أن وصل الطعام إلى معدتي حتى تقيأته. فالتجأت إلى الفراش وسلسلة الأحداث التي مرت بي تتعاقب على شاشة ذاكرتي إلى أن أخذتني سنة من النوم.

توجهت في الصباح إلى مخفر الشرطة عبر الطريق الذي كنت أتخذه قبل إيماني بالأمر البهائي إلى المسجد، الذي لا يبعد عن المخفر إلا ببضع عشرات الأمتار. وعند الاقتراب منه، تذكرت أن اليوم "جمعة"، فاقتحمتني فكرة أوحت لي بالسبب الذي جعل السلطة تستدعينا صباح هذا اليوم بالذات ... إنها تريد منا إعلان توبتنا في المسجد أمام ملأ المصلين.

توتّرت مشاعري ودفعني التفكير في الموقف الذي ينبغى أن أتخذه:

- ما ذا عساني أفعل ، لو طلب مني الدخول إلى المسجد ؟
- ما ذا أقول لو أجبرت على إنكار انتسابي للبهائية أمام الحضور المحتشدين؟

تذكرت حادثة حضرة "الباب" عندما عاد إلى بلده "شيراز" بعد أداء مناسك الحج والإعلان عن دعوته في البيت الحرام...

- ألم يجبر على الحضور إلى مسجد "الوكيل" واعتلاء المنبر على مرأى ومسمع من المحتشدين من أجل أن ينكر ما ادعاه ؟
- هل أحظى بنفس التوفيق الإلهي حتى أتخذ نفس الموقف الذي هدّأ به حضرة الباب ثورة الغضب التي أثارها الخصوم من رجال الدين المناوئين وحاكم البلد ؟
- هل أقتصر في الحديث على الاعتراف بوحدانية الله والتصديق برسالة محمد رسول الله ، وإنكار التهم الموجهة إلى البهائيين ؟

ما زالت هذه الهواجس تتناوبني إلى أن وصلت إلى مدخل المخفر حيث طلبوا مني الانتظار. وانتظرت إلى أن حضر إخواني الآخرون الذين امتنعت عن إشراكهم في التصورات التي تعكر سكوني وهدوئي المفتعل.

خرج شرطي يخبرنا أنه بإمكاننا الانصراف والعودة مساء. فافترقنا على أمل اللقاء في المساء دون أن نكشف عن المخاوف التي قد تراودنا بسبب هذا التسويف أو يخطر ببالنا ما يخبئه لنا القدر. ذلك أن الجو الذي فضّ فيه اللقاء مع اللجنة مساء يوم الأمس، كان يوحي بكثير من الاطمئنان. وفي جميع الأحوال فإن تخوفي من إجبارنا على الدخول إلى المسجد لم يكن إلا من نسج الخيال.

عدنا مساء وأخبرونا بالذهاب إلى المحكمة من أجل استيفاء الإجراءات، وعرض علينا النقل في سيارة الأمن بدلا من أن نذهب راجلين.

وصلت السيارة إلى محكمة الجنايات الإقليمية عند مخرج المدينة، واتجه بنا الشرطي المرافق إلى مكتب قاضي التحقيق الذي شرع، فور وصولنا، في استقبالنا الواحد بعد الآخر.

ورغم حسن الاستقبال الذي خصنا به القاضي المصري، فإنه عرض علينا في الأخير لائحة رهيبة من التهم:

- المس بأمن الدولة الداخلي.
- انتهاك حرمة الشعائر الدينية.
- تأسيس عصابة مجرمين.
- مخالفة ظهير الحريات العامة المتعلق بتأسيس الجمعيات.

فاجأتنا التهم الفظيعة الموجهة إلينا، ونظرنا إلى بعضنا البعض مندهشين مستغربين متمتمين مستنكرين، إلى أن أخرجنا القاضي من اندهاشنا واستغرابنا، قائلا لنا، يحاول التخفيف من فزعنا:

- إنها مجرد تهم لا قيمة لها، ولا تعني أنكم ارتكبتموها. إنها أمور شكلية ليس إلا، ويمكنكم أن تقبلوها أو أن ترفضوها.

لم يقتصر جواب الجميع على رفضها وعدم قبولها فحسب، ولكن باستنكارها والاحتجاج على اتهامنا بها .

طمأننا السيد القاضي وأخبرنا أنه لن يحتجزنا على ذمة التحقيق، وأطلق سراحنا طالبا منا عدم مغادرة المدينة.

خرجنا من مكتب القاضي ليطلب منا البواب التوجه إلى مكتب وكيل الملك. دخلنا المكتب حيث كان كاتبه في انتظارنا يحيينا ويهز رأسه متأسفا، يقول ويعيد:

- " يريدون إيذاءكم، يريدون إيذاءكم "

وشرع في كتابة أسمائنا على مطبوعات رسمية معنونة " الأمر بالدخول إلى السجن ".

سقط في أيدينا واختلطت المشاعر في نفوسنا وصرخ بعضنا مطالبين بمقابلة وكيل الملك للاستفسار عن ما يحدث لرفع الالتباس الحاصل.

وعندما أخبرونا بعدم وجود وكيل الدولة، طلبنا ملاقاة نائبه الذي رفض طلبنا، وأخبرونا بعدم رغبته في مقابلتنا. فلم نجد من يسمع احتجاجنا وشكوانا. وأدركنا أن بحر الامتحان قد هيجته رياح القدر وأن الإبحار عبر أمواجه العالية أكبر من قوة المقاومة التي يمكننا إبداؤها.

وما هي إلا لحظات حتى اقتادتنا الشرطة في سيارة الاعتقال إلى السجن المدني.

****

5 - *مصارعة الأمواج*

أ - حياة السجن الأولـــى.

" يا ابن الإنسان: إن لا يصيبك البـــلاء في سبيلي كيف تسلك سبل الراضين في رضائي. وإن لا تمسك المشقـــــة شوقا للقائي كيف يصيبك النور حبا لجمالي "

الكلمات المكنونة

***

عندمـــا أوصلتنا سيارة الشرطة إلى السجن المدني، كان الذهول قد أخذ منا كل مأخذ من أثر الصدمة التي لم نستوعبها، وكانت مشاعرنا تضطرم بأحاسيس متضاربة متصارعة، وكياننا يعتصره الألم والمرارة. استلمنا حراس السجن وهم يطمئنونا إلى أن مقامنا هنا لن يطول، وأنهم أنفسهم في انتظار مكالمة هاتفية من "الرباط" لإطلاق سراحنا.

أدخلونا عبرالقفص الحديدي حيث أمرونا بنزع ملابسنا الخارجية في إطار "روتين" الإجراءات العادية التي يتم فيها تفتيش النازلين، ثم فتحوا لنا باب أحد العنابر وحشرونا فيه حشرا.

لم يكن العنبر في مثل سوء زنزانة المخفر، فقد كان يتوفر على أسرّة حديدية ذات طبقين، تعلوها أغطية داكنة، وفي إحدى زواياه حائط رقيق منخفض، خلفه مرحاض به صنبور ماء تستشعره حاسة الشم قبل أن تكتشفه حاسة البصر.

لكن هذه التفاصيل ما كانت لتثير اهتمامنا، ومشاعرنا تغلي بالسخط والغضب على أنفسنا، وعلى الذين تلاعبوا بنوايانا الطيبة وغدروا بثقتنا فيهم رغم كل الجهود التي بذلناها من أجل مجاراتهم وإرضائهم. كانت نفوس بعضنا مثل بركان على وشك الانفجار أو مثل وحش مجروح يتأهب للانقضاض.

ألقى "بنشلال"، الذي لم يطق صبرا على هذا الظلم النازل بنا، باللائمة على "عبد السلام" الذي كان لا ينفك عن إسداء النصح لنا بما يجب القيام به للإفلات من بطش السلطة، وحمّله مسؤولية وصولنا إلى السجن. فزجره الأخير، ناهيا إياه عن التفوّه بمثل ذلك ثانية، فتدخّل "بوعرفه معنان" يهدّئ من روعهما.

في هذا الجو الذي بلغ فيه الاحتقان إلى ذروة الاختناق، وانفجر التنفيس عنه بتلك الصورة، ارتفع صوت مبحوح صادر من الأعماق، يردد الدعاء الذي صور لوعة وحرقة "ولي أمر الله" على ما يصيب المؤمنين من الأذى بيد الأعداء:

" ربنا وملاذنا، أزل كروبنا ببزوغ شمس وعدك الكريم، وخفف همومنا بنزول ملائكة نصرك المبين، ونور أبصارنا بمشاهدة آيات أمرك العظيم.

ربنا أفرغ علينا صبرا من لدنك. ربنا افتح على وجوهنا أبواب السعادة والرخاء، وأذقنا حلاوة الهناء، وارفعنا مقاما أنت أوعدتنا به في كتبك وصحفك.

إلى متي يا إلهنا هذا الظلم والطغيان.
إلى متى هذا الجور والعدوان.
هل لنا من مأمن إلا أنت، لا وحضرة رحمانيتك.
أنت مجير المضطرين، أنت سميع دعاء الملهوفين.
أدركنا أدركنا، بفضلك ياربنا الأبهى، ولا تخيب آمالنا، يا مقصود العالمين وأرحم الراحمين"[37]

---

[37] - ولي أمر الله شوقي أفندي : نسائم الرحمان .

امتلأت جوانب العنبر بالصمت والسكون، وتسرب أثر كلمات الدعاء إلى النفوس المتوترة، وسرت روحها المؤثرة في القلوب، فخففت من فوران نار بركان انفعالها وأشاعت في جوانحها بعض السكينة والهدوء.

اتخذ كل واحد منا مكانا له على السرير الذي يؤويه، وألقى بجسمه المنهك عليه، صامتا متأملا وقد ألقى بجميع حواسه إلى فضاء السجن لعل أذنه الصاغية تسمع رنين الهاتف الذي يبشر بالخروج، وعقله مشغول بالتفكير في ما ستأتي به الأيام القادمة من المفاجآت... يغفو تارة من شدة الإنهاك ثم لا يلبث أن يصحو ليتأكد من أنه يعيش في واقع وليس مجرد كابوس إلى أن يغلب النوم قوته المنهارة، فيغمض عينيه مستسلما للإغفاء.

استيقظنا في الصباح الباكر لنجد أنفسنا قد فقدنا حريتنا وأهلنا وأعمالنا وكل عزيز علينا، ولم نعد نملك إلا سرابا من الأمل، يتعلق بجرس قد يرنّ وقد لا يرن.

وما هي إلا لحظات حتى رن الجرس رنينا، ملأ دويّه كل الأرجاء ليوقظ كل ساكنة السجن. واتضح لنا أنه غير الرنين الذي نعلق عليه أملنا.

وبعد لأي، طرق باب العنبر الحديدي الذي يضمنا طرقا قويا، وفتح الباب دون استئذان، وإذا بسجينين يحملان مرجلا عظيما مملوءا بماء عكر يتصاعد منه البخار وبصحبتهم مسجون آخر، يمد لكل واحد منا كوبا من القصدير، يفرغ فيه بالمغرفة غرفة من ماء المرجل الذي يعطى مع قطعة خبز مجانا في الصباح.

بدا في عيون المساجين الثلاثة تساؤل لم يستطيعوا التفوه به، احتراسا من نظرات حارس السجن الذي لا يكف عن مراقبة حركات وسكنات الجميع.

ما أن انتهوا من عملهم حتى أغلق الباب على أياد تمسك برغيف وكوب لا تدري ما تفعل به، إلى أن تجرأ واحد منا على لمسه بشفتيه، فقال مطمئنا: إنه الشاي ! فدفعت الآخرين الحاجة الطبيعية للأكل إلى الاقتداء به والإقبال على النهل منه وقضم الخبز المرافق له حتى توقفت غددنا عن فرز لعب الاشتهاء.
فتح الباب من جديد لتتلقف يد المسجونين الأكواب.

تجرأ أحدنا وسأل الحارس :

- هل سأل أحد عنا؟ ألم يتصل أحد بالهاتف من الرباط ؟ وكان جواب الحارس كمن يمن علينا بما ليس من حقنا:
- لا. لا.

ومع ذلك لم يتبخر الأمل الكامن في أعماقنا، فقد التمس بعضنا العذر لغياب الرنين في توقف العمل في الإدارات العمومية يومي السبت والأحد. وبذلك ظلت شعلة سماع الرنين متقدة بأمل التحاق الموظفين بعملهم يوم الاثنين

***

لم نحرم من الأكل ولا الشرب من صنبور المرحاض. فالأكل كان يوزع علينا مثل غيرنا من النزلاء في أوقاته الثلاثة المنتظمة. لم يكن لدينا أي اختيار، إما أن نتناوله أو نتضور جوعا. ولا أحسب أن شخصا متّزنا يؤثر الجوع على سد الرمق. وبما أننا لم نكن قد فقدنا اتزاننا بعد، رغم وضعنا الداعي إليه، فإننا رجّحنا الاختيار الأفضل.

كان صحن القصدير الذي تقدم فيه وجبة الغذاء، يحتوي على حفنة من العدس مستقرة في قعر سبخة ماء، تطفو فوق سطحها أجسام دقيقة تكاد تكون مجهرية أقرب ما تكون لمن يدقق النظر فيها، إلى " السوس" منها إلى حبيبات العدس.

في هذه الوجبات الغذائية المجانية، التي لا تترك مجالا لإعلان التذمر والتشكي، تهيمن القطنيات فيها دون منازع، وكل ما يتغير على سطح مواقع السباخ، هو لون وأشكال الطافيات، التي تتخذ شكل أهلة بيضاء إذا كانت الوجبة لوبية أو جلبانة، و تتلوّن باللون الداكن المحبب الشبيه بالبزور، إذا كانت حمصا أو عدسا.
لم يكن بوسع المضطر سوى أن يجتذب بحذر، ما يطفو من أهلّة صغيرة وما يشبه البزور على سطح الصحن إلى هامشه، حتى يصل بها سباحة، بمساعدة المرق الغزير، سالمة إلى شاطئ الصحن، حيث تستلقي منتظرة أن تلتحق بها أخواتها.

ارتفعت وتيرة انتظار الرنين بحلول يوم الاثنين دون أن يصلنا أي خبر عما يحدث خارج السجن، فازداد القلق والتوتر والحيرة والارتباك والارتياب أيضا، في وعود رجال السلطة والمنفذين لها.

وبدأ يتسرب إلى نفوسنا هاجس ملحّ على أن كيدا سيئ العواقب، يدبّر لنا في الخفاء.

حاولنا التأقلم مع بيئة السجن، ووزعنا في ما بيننا الأعمال والوظائف الضرورية اليومية، من غسل وكنس وتنظيف، التي يتحتم على كل نازل أن يقوم بها. ورغم نقصان التعوّد على هذه الأعمال التي تقتصر على النساء في تقاليدنا الاجتماعية، إلا أننا توفقنا في القيام بها بمهارة عالية على مستوى التعاون.

لم يحدث يوما، بفضل روح المحبة التي كانت تسكننا، أن تأفف أحدنا من القيام بدوره في التناوب على العمل. وإذا ما ألمّ التوعّك بأحدنا أو أقعدته كآبة الحزن، بسبب زيارة فرد من عائلته، تسابق الآخرون إلى تعويضه. وكان "عبد العزيز" يحرز على قصب السبق في هذا المجال.
لم يمض الكثير من الوقت حتى اكتشفنا أن قضبان أسرّتنا الجوفاء التي ننام عليها، تسكنها حشرات البقّ اللئيمة، التي تحتمي بظلام الليل وسكونه، لتتحالف مع بؤس السجن من أجل التسلل إلى أجسامنا وامتصاص قدرا من دم الحياة الذي ما زال يجري في عروقنا.
وللبق مدرسة عتيقة في المناوشة، ضاربة في أعماق التاريخ، لها أسلوب متميز في الصراع. لعل زعماء وطنيين كبارا اقتبسوا منها فنّ كفاحهم المسلح ضد القوات العسكرية النظامية. إنه أسلوب حرب العصابات الذي يتميز بمباغتة العدو بالهجوم السريع، واللوذ بالفرار والاختباء عند المواجهة، بهدف تطويقه وإرباكه و إنهاكه ثم إعادة الكرّة عليه، إلى أن تُستنزف قوته و تضعف معنوياته، فيضطر إلى الرحيل.
إنه الصراع على البقاء. فإما اختفاء البق أو رحيل ابن آدم. ولا مجال لتساكن الجنسين في موطن واحد. ولا مجال لنا للرحيل.
قدّم لنا هذا الاكتشاف المريع فرصة، دعتنا إلى الاشتغال بخوض حرب مع المعتدي الجديد المقدور عليه، وشكّل تحديا لسبر قدرتنا على التعاون وإبداع وسائل القضاء عليه. وقد ساعدنا على ذلك القليل مما تعلمناه من فن المشاورة البهائية في حياتنا الجماعية.

التأم جمعنا للنظر في المسألة ومناقشة الاقتراحات المقدمة، الواحدة بعد الأخرى: فبادر أحدنا مقترحا استعمال مواد الإبادة الكيماوية؛ بينما رجّح آخر سدّ منافذ الأنابيب؛ واقترح ثالث الاستعانة بالقنابل الكيماوية الشديدة الفعالية التي تعرض للبيع في الأسواق الشعبية؛ وتقدم رابع بمشروع استعمال النار التي تعتبر أنجع علاج للتطهير منذ القدم. وبذلك يتأكد إخلاء مساكن البق من وجودهم المزعج، وتتحقق الراحة الليلية لنا نحن المتساكنين معه في نفس الأسرّة.

بعد أن أشبعنا الاقتراحات نقاشا وقدرنا الإمكانيات المتوفرة لدينا، أجمعنا القرار على سد الثقوب نظرا لسهولة تناوله ويسر توفير مواده.
ولدى التنفيذ تبيّن عدم جدواها لأنها لم تحسم الموضوع، وظل العدوان قائما.
عاد الاجتماع إلى الانعقاد من جديد، وحظي تفجير القنابل أو استعمال البائد بالاستحسان.
لكن أنى لنا بالبائد ؟ وأنى لنا بالقنابل ؟ أنطلب من أحد أفراد العائلة إحضاره؟
نظر بعضنا إلى بعض لعلنا نكتشف في نظرات أحدنا جرأة القيام بذلك. غير أن خطاب العيون كان واضح التعبير عن النفور من التطوع للقيام بهذا العمل المفيد الكريه.

لم يعد لنا من خيار سوى التفكير في الكيفية التي تمكننا من تنفيذ فكرة استعمال النار.

علينا أن نجد خطة لا توقعنا في المشاكل مع نظام السجن حتى لا تتخذها السلطات ذريعة من ذرائع وجود فعل إثبات تبرّر به إحدى التهم المنسوبة إلينا.

أسررنا إلى كبير السجناء، "الكبران صالح"، الذي يتعاطف معنا بخطتنا، والتمسنا منه أن يسعفنا ببعض رؤوس الكبريت وقليل من الزيت. وعندما استوعب الخطة أشار علينا بتنفيذ العملية ليلا.

وما أن أرخى الليل سدوله وآوت ساكنة السجن إلى كوابيسها وعمّ الصمت والسكون جميع الأرجاء حتى بدأت حركة "المحاربين" تعالج السرير الأول بإحكام إغلاق إحدى فتحتي الأنبوب بعد حشوها وصب بعض الزيت عليها، ثم إشعال وقيدة الكبريت فيها.
وما هي إلا لحظة، حتى بدأ الدخان ينتشر في الفضاء يتلوه خروج جيش من الجنود السمر، وقد أصابهم الهلع والذعر، فارّين من فوهة الأنبوب المفتوحة لا يلوون على شيء، متشرذمين في كل اتجاه طلبا للنجاة.
غير أننا كنا لهم بالمرصاد، فأوغلنا فيهم ضربا و سحقا و قتلا بسلاح النعال وما ملكت يميننا من وسائل الطعن البدائية القليلة النادرة.

وما أن انتهينا من كسب المعركة الأولى حتى شجعنا النصر على متابعة القتال، فقمنا بشنّ حملة أخرى بنفس الأسلوب على السرير الموالي، إلى أن تم لنا النصر المؤزر في جميع معارك الأسرّة. وكسبنا الحرب.
الحرب الوحيدة التي خططنا لها ودبّرنا أمرها طيلة حياتنا. حرب فرضت علينا ظروف السجن خوضها مجتمعين، ولم تسفر تبعاتها عن أية خسائر في صفوفنا، اللهم إلا روائح العدو الكريهة التي خلفها الحريق في فضاء العنبر و أثر الدماء المسفوحة على بلاط أرضيته.

إنه النصر المؤزر على جنود جيش الظلام !

***

عندما آويت إلى الفراش بعد المعركة، خطر لي خاطر يؤانسني ويسائلني:

- أفلا تنتظرنا معارك أخرى، من نوع آخر، في حرب لا نعرف مداها، تشنها علينا تحت ستار الظلام يد خفية لم تتضح معالمها ولا مدى قوة وقدرة الذي أشعل فتيلها !
- هل سيكتب لنا التحرر من شباك الذين أو الذي لا نعرف هويته، ولا خفايا استراتيجيته وأهدافه من هذه الحرب المفروضة علينا والتي باغتتنا معركتها الأولى، بإلقائنا في غياهب السجن ؟
- ما ذا سيكون مصيرنا في هذه الحرب التي لم نتصورها ولم نعدّ لها أية

عدة؟ أفلا يكون مصيرنا مثل مصير الحشرات، فيذيقنا العدو العذاب ومرارة الهزيمة، ويسحقنا ويبيدنا في النهاية، مثلما أبدنا البق منذ قريب !

- أحقا أننا دخلنا حربا، لا ناقة لنا فيها ولا بعير، كما يقول الأعراب، وعلينا أن نخوضها مدافعين أو مستسلمين، مرغمين مكرهين ؟

إن السجين، وقد كسدت تجارة أوقات عمره، يسرح به التفكير والخيال في عوالم ما كانت لتخطر بباله وهو مشغول الفكر والفؤاد، كبقية الخلق، في حلبة سباق حياة الناس "الأحرار".

ويبدو أن حرية الإنسان على مستوى التفكير لا تنقص إذا ما حبست بين القضبان، وإنما تنتقل قوتها إلى قوى العقل لتزداد حيوية ونشاطا، مثل "بالون" رقيق لم ينتفخ جيدا، إذا تقلص طرف منه بالضغط عليه، انتفخ الطرف الآخر.

هكذا بدأت قوة تفكيري تشتغل وتتساءل، لعلها تكتشف الأسرار التي أدت بنا إلى ما نحن فيه، وأخذ خيالي يستشف المستقبل من وراء الجدران المحروسة والأسوار العالية بينما يجدّ فكري في التساؤل وطرح المشاكل وحلحلتها:

- من أشعل فتيل هذه الحرب المفروضة ؟ ما الغاية منها ؟

ليس لنا عمليا أعداء محدّدون وسلوكنا الودي في علاقتنا الاجتماعية ما كان لتتمخض عنه عداوات من أي قبيل ! إننا حريصون في أقوالنا وأفعالنا أن نكون مظاهر وصية "عبد البهاء":

" حذار حذار أن تجرحوا قلب أحد ولو كان عدوّكم ! "

لعلها الحرب الضروس، التي عرفها الإنسان منذ فجر تاريخه بين فريقين، يدّعي كل منهما نصرة الحق، يرفعان نفس الراية التي يلوّنها كل منهما بلونه، ويضربان على نفس الطبل الذي يقوّله كل منهما مقولته.

- ألا يقال بأن الحق، لا يمكن أن يكون إلا إلى جانب المظلومية والمظلومين ! وأن الحق فضيلة وحب ونور وجمال ؟
- ألا يقال إن الباطل لا يكون إلا في جانب الظلم والظالمين ! وأن الباطل رذيلة وكراهية وقبح وظلام ؟
- أليس من المؤكد " أن المحبة نور يضيء جوانب كل منزل، والعداوة ظلمة تأوي إلى الكهوف "؟
- وعلى هذا الأساس ألم نوضع حيث وضعنا رغما عنا في صف جميع المظلومين الواقفين منذ الأزل في كتيبة النور لمواجهة حفدة الظلم المحتشدين تحت راية الظلام في واضحة النهار؟
- ألا يناضل البعض بقوة السلاح القاتلة الفتاكة للوصول إلى غايتهم ؟
- ألا يخوض الآخرون نفس النضال بسلاح الصبر وتحمّل الأذى لتحقيق النصر على خصومهم ؟
- ألا يوجد في قافلة المناضلين القدامى والمحدثين، فلاسفة وأنبياء؟
- أليس "أرسطو" و "عيسى بن مريم" و "غاندي" و"الباب" و "بهاء الله" أمثلة في هذا النضال الذي انتصر فيه جنود الصبر على جيش العنف ؟
- ألا يوصي "بهاء الله" في آياته بصراحة واضحة، بما يجب القيام به في مثل هذه المواقف الحرجة، التي يفضل فيها أن يموت المؤمن في سبيل عقيدته على أن يقتل غيره من أجلها ؟ قائلا:

" خير لكم أن تُـقتـــــــلوا من أن تَقتـــــــــلوا "

*****

ب - أفراد العائلـــــــــــــة.

حصـــل بعض أفراد أسرنا على رخص الإذن بزيارتنا. ومع الزيارات، أخذت تدخل الأطعمة الشهية التي يسهر على إعدادها حنان الأمهات والأخوات ومحبة الزوجات.

عاشت أسرنا مرحلة عسيرة من حياتها أثناء اعتقالنا، فمعظم أفرادها كانوا في حيرة من أمرنا، وفي غاية الحرج لوجودهم في مجتمع محافظ لا يقبل الوقوف إلى جانب الخارجين عن تقاليده وعاداته، حائرين في التوفيق بين مساندتنا وبين الانصياع لإرادة المجتمع. وجدوا أنفسهم بين المطرقة التي تمسك بها يد المجتمع القوية وبين ذويهم المعتقلين المطروحين على سندان التقاليد الدينية الراسخة. قلا قلوبهم تسعفهم أن يمسكوا المطرقة التي يهدد بها المجتمع ولا هم يفهمون الفائدة من وجود ذويهم على صفحة السندان، علاوة على أنهم لا يدركون السبب الذي جعل ذويهم الذين يعلمون سلوكهم الحسن الذي لا تشوبه شائبة السوء، يضعون أنفسهم في هذا الموقف المشين. ومما يزيدهم حيرة وألما عدم علمهم بالبهائية إلا ما توفره لهم المعلومات المغلوطة والشائعات الكاذبة التي تروم تشويه الدين الذي نحمله في قلوبنا وعقولنا.

عسير عليهم أن يتحمّلوا بين عشية وضحاها، تغيير نظرة بعض أفراد المجتمع المفاجئة إليهم، وإلقاء مسؤولية إيماننا عليهم. فبعد أن كانوا موضع الاحترام والتقدير من الجميع على سلوكهم وسلوك أبنائهم، أصبح الناس يشيرون إليهم بأصابع الاتهام غامزين ساخرين شامتين. يتجرأ السفلة منهم على لومهم على ما اقترفه أبناؤهم بسبب ترك الحبل لهم على الغارب إلى أن تجاوزوا كل الحدود في العقوق والاعتداء على الحرمات. .

بلغت شدة المعاملة وسوء فهم المجتمع لهم درجة أن بعض المتعصبين الذين علت دعواتهم بإدانتنا، منعوا والد "معنان" من الصلاة معهم في المسجد عندما تسلح بالشجاعة وعقد العزم على الوقوف إلى جانب ولديه مستميتا في الدفاع عنهما رافضا طلبهم بإدانتهما والتبرء منهما. وهو الذي لم ير منهما ومن رفاقهما الذين يجتمعون في منزله أحيانا غير السلوك الحسن والأخلاق الحميدة والحرص على التمسك بجوهر الدين.

امتدت الحيرة إلى عدد من أفراد المجتمع الذين لا يعرفوننا إلا صدفة، ومنهم سيدة من اللائي يقدمن خدمات محو الأمية والإرشاد لنازلات السجن. تعجبت وهي تحكي عنا في مجلس من مجالس بعض نساء "الناضور". قالت، رغم نعتنا " باليهود ":

" الحق ، أنهم يقرأون "القرآن" بصوت وطريقة تلين لها القلوب".

***

وجد الآباء أنفسهم مضطرين ـ وهم يسمعون أشنع الأوصاف وأخبثها عن أبنائهم وذويهم، ومنها "يهودي" التي تفوق في الشناعة لديهم المشرك والكافر والخائن والعاق ـ إلى أن يحددوا موقفهم في مواجهة هذا الوضع المرتبك الذي تجذبهم فيه قوتان تتآزران على قضّ مضجعهم:

قوة المجتمع الطاغية. وقوة الأبوة والأمومة ورابطة الأسرة القوية التي تشدهم إلى التضامن مع أبنائهم وذويهم المعتقلين.
اختار معظمهم الوقوف إلى جانب مجتمعهم ومعتقداتهم، آملين في نفس الوقت إنقاذنا بالعمل على التأثير علينا وإعادتنا إلى دين أسلافنا، وذلك بإقناعنا بالتخلي عن تمسكنا بالعقيدة التي اكتشفناها وآمنا بها. فصرنا وذوينا كأننا في لحظة من لحظات يوم " الصاخّة " التي أخبر عن أحداثها الخبير العليم:

" يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه [38]"

أما أهالي المعتقلين الآخرين الساكنين بعيدا عن مكان مسرح الأحداث، فقد روّعهم وصول أخبار سجن ذويهم، ولم يسعهم سوى الانتقال إلى مدينة "الناضور" للتأكد مما يجري. وما أن يصلوا إليها متوترين تائهين لا يدرون من أين يبدأون ولا أين يذهبون، حتى يشرعوا في الاسترشاد عنهم في مختلف المصالح الإدارية. وما ذلك بالأمر اليسير على بعض الأمهات اللائي صاحبت حياتهن الأمية والفاقة، ولم تفسح لهن الظروف الاجتماعية مجال التعامل مع عجلات الإدارة التي تتيه عقولهن في متاهاتها بمجرّد التفكير في التعامل معها. ولا يجدن ملاذا غير الاستفسار عن عناوين مساكن الأسر المنكوبة مثلهم، لعلهن يجدن فيها مأوى وتفهّما لمحنتهن، ودليلا يرشد إلى ما يمكن عمله لإنقاذ فلذات أكبادهن.

كان الوضع صعبا بالنسبة للأسر المقيمة، وكان أصعب على أفراد الأسر الوافدة على مدينة، لا سند لهن فيها. على أن طبيعة الإنسان أحسنت، عندما جعلت النكبة تحرّك روح التضامن والتعاون في قلوب المنكوبين فيقومون على قدم وساق على شد أزر بعضهم البعض.
أخذ بعض أفراد العائلة المتزلفين للموظفين في المحكمة وقت سعيهم للحصول على تراخيص زيارة المسجونين، يؤكدون لنا مستبشرين أن السلطات أخبرتهم بأن الخروج من السجن منوط بالمحبوسين أنفسهم. إذ ما علينا، تقول لهم السلطات، إلا أن ننكر انتماءنا للبهائية، فنخرج من السجن توّا إلى حال سبيلنا.

تكررت الزيارات تحمل نفس "البشارة" التي تقع على نفوسنا وقع الصاعقة، وتجعلنا مختارين محتارين بين أمرين واضحين، أحلاهما مر: إما أن ننكر عقيدتنا للتخلص من الاعتقال والعودة إلى ممارسة حياتنا العادية، وإما أن نتشبث بها ونعيش حياة قد تطول بين جدران السجن الأربعة، التي تفوح منها رائحة الرطوبة والعفونة والكآبة !

جاء الزوار يعرضون متفائلين هذا المخرج من المأزق بصيغ مختلفة، وقلوبهم متلهفة على تقديم هذه الوصفة السحرية التي ستنقذ أعزتهم من مذلة السجن التي ألبستهم جميعا لباس العار في مجتمعهم. ومنهم والدي الذي أتقن في ذهنه خطة إقناعي، وجاءني في زيارة مستبشرا، قائلا لي:

- ألا يوصي الله الأبناء بالبر والإحسان للوالدين ؟ قلت:
- بلى. فقال بصوت فيه كثير من الاقتناع والاستعطاف واللوم:
- أترضى لوالدك أن يسير في الشوارع، وأصابع التهكم تشير إليه بالاستخفاف والاحتقار.
- كلا.
- إذن، لماذا لا تخلصني من ذلك وتريحني؟. فقلت له:
- وما ذا عساني أفعل؟
- أن تقول لهم ما يريدون منك قوله.
- أتريد مني أن أكفر بالله؟
- أنا لا أريد منك ذلك، وإنما أريد أن تقول لهم ما يريدون، وتحتفظ بما تؤمن به لنفسك ... في قلبك.

نظرت إلى أبي المقتنع بمنطقه المتأكد من مكانته عندي، لا أدري بما أجيب به ، وإذا بي أفتح فمي لأقول:

- والدي، إذا أطعتك وعصيت الله فإني قد أرضيك الآن ولكني أغضب الله. وإذا لم أفعل، فإني قد أغضبك الآن لكني أرضي الله. و من يدري لعلك سترضى عني أيضا في يوم من الأيام.

---

[38] - عبس : 34 . 35 . 36 . 37 .

اشتد حنق والدي عندما تبين له عدم جدوى محاولة إقناعي، وأخذته نوبة من الغضب جعلته يشيح بوجهه عني، وطفق يفرغ اغتياظه ضاربا الجدار بقبضة يده ورأسه مرة بعد أخرى، تعبيرا عن قلة حيلته وفشل مهمته، بينما أنظر إليه عاجزا من خلف القضبان الفاصلة، لا أملك، أمام المنظر المثير، غير المشاعر الملتهبة والدموع التي تنساح على خدي دون أن أجد سبيلا للحيلولة دون منعه عن إيذاء نفسه.

***

ذهب بعض أفراد الأسر بعد أن أعياهم طرق جميع أبواب السلطات المحلية إلى حد محاولة الاتصال بأعلى سلطة في البلاد، اعتقادا منهم أن صاحب السلطة العليا لا بد وأنه قادر على التفهم وأخذ القرار العادل وإطلاق سراح أهاليهم.

ومنهم والد "فؤاد الطحان" الذي كتب من "سوريا" إلى ملك المغرب، يستغرب ما حدث ويبسط أمامه تعريفا مقتضبا بالبهائية في نص هذه الرسالة:

" حضرة صاحب الجلالة الحسن الثاني ملك المملكة المغربية.
أرفع لجلالتكم أسمى آيات التقدير وأخلص عبارات التفخيم وأصدق مشاعر الحب والاحترام.
أما بعد.

طالعتنا الصحف بأنباء القبض على بعض البهائيين في المغرب العزيز، ثم وصلتني الأخبار بأن ابني فؤاد الطحان أحد ضحايا حركة الاضطهاد الديني في مملكتكم، ذلك الاضطهاد الذي وصل في مداه إلى حد منع المحامي المصري الذي اخترناه للدفاع عنه الأستاذ محسن عنايت من تولي الدفاع أمام المحاكم مما يوحي أن الحكم قد صدر قبل الشروع في المحاكمة، فكانت كل هذه الأخبار مثار أسفي وحزني وإشفاقي.

ولقد عشت حتى هرمت مؤمنا مخلصا بالدين البهائي، ونشأ ابني في سوريا مع إخوانه البهائيين ثم سافر إلى العراق وعاش فيها مع أحبابه البهائيين هناك، وتزوج من أسرة بهائية في لبنان، نشأ وعاش وسافر ولم يتعرض له أحد في عقيدته لا في سوريا ولا في العراق ولا في لبنان ولا في الأردن، فأدهشني أن تقع حركة اضطهاد ديني في القرن العشرين وفي دولة فتية تتطلع إلى مركز دولي مرموق وعلى رأسها ملك شاب مثقف.

إن الديانة البهائية على كثرة من قاوموها وأشاعوا عنها المفتريات سلكت سبيلها إلى الانتشار في جميع أرجاء العالم ودخلت الملايين، من الشرق والغرب، إلى رحابها تنشد السلام والإخاء والمحبة لجميع بني الإنسان وتستلهم الإيمان العميق الراسخ بوحدانية الله والتسليم الكامل لجميع رسل الله وكتبه تعالى وتنظر إلى جميع أجناس البشر على أنهم ثمار شجرة واحدة وأوراق غصن واحد وتسعى بكل التضحيات لخدمة الجنس البشري وخيره وسعادته وتنادي بترك الخلافات المذهبية والدينية والعنصرية لخلق مجتمع إنساني متحد متآزر متحاب وتهدف إلى إيجاد تنظيم وتعاون دولي يستقر في ظله العالم ويطمئن إلى سلام دائم لا تعكر صفوه الحروب وتهتف حي على الصلح والصلاح حي على نزع السلاح. هذه أماني البهائيين في الشرق والغرب، هل فيها ما يستحق الاضطهاد؟ "

***

و من مواقف أهالينا النادرة المدهشة موقف أحد الآباء المتعلمين المتشبعين بروح الشهامة والرجولة والوفاء بالكلمة التي يقطعها الرجل على نفسه، صوابا كانت أم خطأ، التي يفتخر سكان المنطقة بصاحبها وإطراء المتمسك بها، الذي نصح ولده قبل توديعه عقب الزيارة في السجن:

ولدي، إذا كنت تعتقد أن البهاء حق وقلت إنه الحق. فكن رجلا، وكن عند قولك !

كان لهذا الابن زوجة اسبانية مؤمنة بالبهائية، كثيرا ما كانت تشد أزره وتحثه على الصبر والوفاء، وتذكره بمعاناة السيد "المسيح" وما لقيه من عنت في سبيل رسالة ربه.

لكن الزيارات العائلية لم تكن كلها على هذا النمط، وكان المتزوجون منا أكثر تأثرا و تألما منها، إذ كانت الكآبة التي تكسو وجوههم بعد عودتهم من الزيارة، تؤثر في مشاعرنا تأثيرا عميقا لدرجة أننا نظل صامتين مدة، دون أن يتجرّأ أحد منا بتوجيه الحديث إليهم أو محاولة تخفيف وطأة الألم عنهم. وكان "عبد العزيز" أكثرنا إثارة للشفقة.

كنا جميعا نشعر بالمعاناة التي يعانيها عند زيارة عروسه التي تركها في بداية حياتهما الزوجية. ثم بما ذا كان يمكن أن يبرر لها سلوكه العجيب بالتحاقه بمخفر الشرطة وتسليم نفسه مختارا دون أن يجبره على ذلك أحد ؟

بما ذا يمكن أن يفسر حبه لها عندما تبثه لوعتها التي تشعر بها في وحدتها ؟

ما ذا يكون رده عندما تلومه بقولها:

لو كنت وفيا لحبنا، ما فضلت اختيار مكوثك في السجن على بقائك معي. وها هي الفرصة الآن طوع إرادتك للخروج منه، بقولك كلمة واحدة ! فما الذي يمنعك من أن تقول لهم ما يريدونه منك؟!

*****

ج- امتداد يد السلطات إلى البهائيين خارج الناضور.

تضاربـــــت أنباء القبض على البهائيين، فبعد أن أخبرت بإلقاء القبض عليهم في "الناضور"، أفادت أخرى بالإفراج عنهم. فقرر بعض المؤمنين في "تطوان" السفر إلى عين المكان للتأكد من أخبار الاعتقال والاطمئنان على إخوانهم في الإيمان.

استقلوا سيارة أحدهم واخترقوا طريق الريف الجبلية الملتوية الوعرة إلى أن وصلوا إلى "الناضور". فقرروا متابعة سيرهم إلى "مليلية" التي اتخذها "عبد السلام" مع زوجته وبنيه مقرّا لسكناهم، إثر قدومه من تطوان إلى العمل موظفا في جمارك الحدود المغربية/الاسبانية.

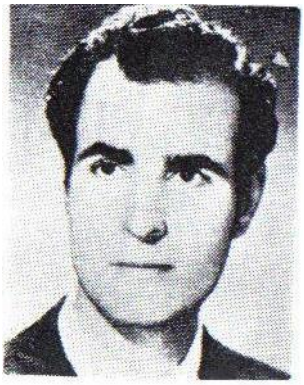

عبد السلام ميلود

كان للقادمين سابق معرفة " بعبد السلام " في " تطوان " حيث تعايشوا مدة مع بعضهم البعض يتدارسون البهائية ويعملون على أن يعيشوا حياتهم الشخصية والجماعية وفق تعاليمها. وفي مليلية تأكدوا من الخبر اليقين. وقفلوا راجعين عبر" الناضور" حيث استوقفهم " شملال" أحد رفقائهم من أهل المنطقة، مستأذنا للاتصال بأحد معارفه، حتى يستوضح منه المزيد من الأخبار. توقفوا في مقهى ينتظرون عودته دون أن يكونوا على علم تامّ بما يجري ولا يقدّرون مغبة التوقف والانتظار، أو يعلموا يقظة الشرطة في البحث عن كل منتسب للبهائية سواء كان من بين سكان المدينة أو من الوافدين عليها، إلى أن وقف عليهم رجال الشرطة، يستفسرونهم عن هويتهم وسبب تواجدهم في المدينة، ودعوتهم بعد ذلك لمرافقتهم إلى المخفر، حيث وجدوا رفيقهم الرابع، وحيث تم التأكد من الدين الذي ينتسبون إليه.

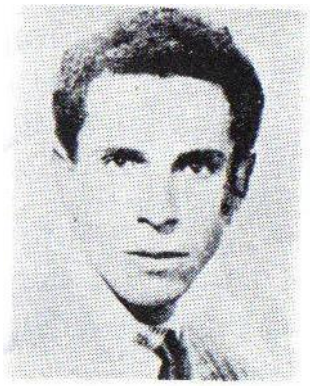

محمد السبتي

قامت الشرطة بالإجراءات اللازمة ، ومرّرتهم من نفس الممر الذي مررنا به، وألحقوهم بدار السجن.

***

ذات مساء، ولم يكن قد مضى أسبوع على نزولنا في السجن، جاءنا "الكبران صالح" يحمل إلينا خبر التحاق نزلاء جدد، بهائيين مثلنا، بأحد العنابر، فارتفعت حمّى تساؤلاتنا وفضولنا لمعرفة من عسى يكون هؤلاء ؟ إذا كانوا بهائيين.

فما كان صباح يوم الغد حتى عرّفنا بهم وأخبرنا أنهم جاءوا من "تطوان" قصد الاطمئنان علينا، فألقى رجال الشرطة القبض عليهم.

سألناه بدورنا أن يحمل إليهم أخبارنا.

وهكذا بدأ التواصل بين المجموعتين: مجموعة "الناضور" ومجموعة "تطوان".

تصادف أن أقبل على المدينة في نفس شهر أبريل، أحد المؤمنين من مدينة "فاس"، بغرض إكمال النصاب، لإعادة انتخاب المحفل الروحاني المحلي.

لم يكن يعرف المدينة أو لغة أهلها الأمازيغ، ولا له علم بما جرى، كما أنه لم يسبق له أن تعرّف على أحد منا ولا يعرف إلا ثلاثة أسماء يمكنه الاتصال بهم عند نزوله بالمدينة.

ما أن وصل إلى محطة الحافلات، حتى اتجه إلى مصلحة البريد الوحيدة، لعل "الكبداني" يحضر إلى صندوق البريد الذي يواظب عليه يوميا يتفقد رسائله كل مساء، كما قيل له.

طال انتظاره دون أن يحضر الشخص المنتظر، وعندما أوشكت مصلحة البريد على إغلاق أبوابها، حاول الاتصال بالذي قيل له: إنه يعمل موظفا بنفس البريد.
تقدم إلى أحد الموظفين الذي توسم فيه أن يكون "بنشلال". فحياه تحية أهل البهاء، ظانّا حسب الأوصاف التي أعطيت له، أنه هو. فنظر إليه الموظف نظرة استغراب وتساؤل. فتدارك "العمراني" الموقف، وسأله:

- ألا يوجد هنا السيد "بنشلال"؟ أجابه الموظف بعد تفكير، وهو يعلم أنه قد ألقي القبض عليه:
- إنه في إجازة.

خرج من مبنى البريد في حيرة من أمره، وفي حسرة على فشل المهمة التي جاء من أجلها. ما ذا عساه يفعل الآن؟ انتهى به التفكير إلى مغادرة المدينة، فاستقل سيارة للتوجه إلى مدينة "وجدة" التي تبعد عن الناضور ب 140كلم. وهو غير مطمئن إلى قراره ولا راض عن المغادرة، وعندما أوشكت السيارة على التهام ثلث الطريق الفاصل بين المدينتين، استوقفها وعاد أدراجه متجها إلى مركز الشرطة، ليسأل الشرطي الواقف عند الباب عن "بوعرفة معنان" الذي كان يعمل مفتشا للشرطة بمطار المدينة الصغير.

حملق فيه الشرطي وسأله مستغربا أن يعيد ذكر اسم الشخص الذي يبحث عنه حتى يتأكد من صحة ما سمع، ثم دلف مهرولا إلى داخل المركز دون أن يدلي بالجواب. وبعد لأي، خرج برفقة مفتش يسأل السائل:

- هل تبحث عن (سّي) "بوعرفة معنان" ؟

وما أن سمع الجواب بالإيجاب، حتى دعاه إلى الدخول لرؤيته. وما أن دخل إلى أحد المكاتب حتى بدأ استجوابه وتفتيش ملابسه وحقيبته.

وجد المفتشون بين أمتعته رسالة موجهة للبهائيين في "الناضور"، تقدمه لهم وتعرّفهم به، موقعة من طرف أحد المؤمنين المهاجرين الذين قدموا من "سوريا". وعندما سئل عنه، رفض أن يمدهم بأية معلومات تخصه، خوفا عليه من إقحامه في متاعب، وهو زوج وأب لثلاثة أبناء ، وحرصا منه على أن ينأى بنفسه من أن يكون السبب في أذيته.

كان ذلك مبررا كافيا ليعامله رجال الشرطة، الذين يباشرون استجوابه، أسوء معاملة ويذيقوه ألوانا من التعذيب، ليس أقلها بشاعة، جرده من ملابسه وتركه عاريا طول المدة التي قضاها في ضيافتهم بزنزانة المخفر التي شاء القدر أن يقضي بها بعض الأسبان إحدى الليالي، فرق أحدهم لحاله وستره بمعطفه حتى يواري سوأته، ويخفف عنه لسعة البرد التي لا تزيده رطوبة البحر والزنزانة إلا قسوة وألما.
أثناء هذه الفترة القاسية التي مرّ بها في حياته، نظر إلى نفسه يفكر في سوء الحال الذي آل إليه، فلا يرى ما يخفف عنه ألمه وذلته إلا تذكّر ما تعرض له المؤمنون الأولون في كل الأديان السماوية، خاصة منهم البابيون والبهائيون الذين هلك الآلاف منهم صبرا. وكأنما استحضر في خاطره قصة "بديع" وهو بين براثن جلاديه القساة يحاولون أن ينتزعوا منه وشاية بإخوته في الدين، دون جدوى، إلى أن يئسوا من النيل من طول صبره وسكينته، رغم وحشية التعذيب، فاغتاظت قلوبهم القاسية من قوة شكيمته فكتموا أنفاسه بقسوة لا مثيل لها.

ما أن قدم الصباح وعاد الموظفون إلى عملهم اليومي، ورمق أحد الحراس المعطف على الجسد، الذي كان بالأمس عاريا، حتى غلى في عروقه دم الغضب والحقد والكراهية التي ولدتها الإشاعات ضد البهائيين، فأسرع إليه متوعدا موبخا ومتهكما يجرده من المعطف، ليتركه كما تُرك "آدم" بعد "الخطيئة الأصلية" يوم أن اكتشف في " الجنة " أن له عورة.

غير أن "العمراني" سليل جدّه آدم، سلب من حرية محاولة إيجاد ما يستر به جسده ، بالرغم من أنه لم تغوه "الشجرة" المحرمة ولم يذق من ثمارها !

وعندما عرض على قاضي التحقيق المصري، وهو منتفخ الجسم من البرد والرطوبة ومتورم الوجه من أثر الضرب، أشفق على حاله ولام الفاعلين، قائلا لكاتبه:

انظر ما فعل هؤلاء الوحوش به! هؤلاء المسؤولون عن أمن وسلامة أجساد المواطنين!

وما أن انتهى القاضي من عرض التهم الموجهة إلى "العمراني" والتحقيق الروتيني معه، حتى مد يده إلى جيبه وأخرج بعض النقود، أعطاها للمتهم البريء حتي يصلح بها بعض حاله ثم أطلق سراحه طالبا منه أن لا يغادر عنوان مسكنه، وفي حالة التغيير، يخبره بعنوانه الجديد.

خرج العمراني من مكتب القاضي، وبينما هو يدفع قدميه ليخرج من باحة المحكمة، ويتنفس الصعداء مبتهجا بانتهاء محنته، إذا بشرطي يصرخ في وجهه وهو في مخرج المبنى:

- " أين أنت ذاهب يا هذا... "؟ عد واجلس هنا.

أجلسه على مقعد خشبي إلى أن انتهى دوام عمل المحكمة في المساء، واكتمل ما جمعه حصاد اليوم من المتهمين والمدانين، فحشروه معهم في شاحنة الشرطة ليلقوا به في السجن المدني.

وهناك، بعد الإجراءات التي تتم في قفص التفتيش الحديدي الذي يمر عبره نزلاء السجن، قادوه إلى زنزانة بها عدد من النزلاء مثله. تحملقوا في بعضهم البعض، وتبادلوا النظرات خلسة ثم اتخذ له مكانا وأخلد للصمت.

- ما ذا عسى يكون هؤلاء المسجونون الذين حشر معهم ؟
- ما ذا عسى تكون هويتهم ؟ إن ملامح الإجرام لا تبدو على سحناتهم !
- أيكونون من الثوار الذين أشعلوا نار الثورة في الريف في السنوات الأخيرة؟

توجّس خيفة من أن يحشر مع السياسيين، ويحسب عليهم في هذه اللحظات الحرجة من حياته، وهو بعيد كل البعد عن السياسة المتحزبة التي يعتبر الاقتراب منها من الكبائر المنهية عنها في البهائية، والاشتغال بها ضربة قاضية لمبدأ اتحاد من على الأرض كلها. هذا المبدأ الذي يعتمده المؤمنون "ببهاء الله" وسيلة وغاية يتحقق بها السلم في المجتمع العالمي.

أما النازلون في نفس الزنزانة فكانوا يسترقون النظر إليه من حين إلى آخر، واثقين من أن هذا النازل الجديد المشوّه بالضرب، إن هو إلا صنيعة رجالالشرطة، زرعوه في وسطهم بهذه الحيلة حتى يكتشف أسرارهم ويرفعها إلى رؤسائه في جهاز الاستخبارات.

وبقدر ما حرص على إخفاء حقيقته عنهم بقدر ما أخفوا حقيقتهم عنه، إلى

محمد العمراني

أن تجرأ أحدهم وتقدم إليه متوددا يحاول أن يطلع على حقيقة أمره.

وبعد أن تلكأ في الحديث وأعياه اللف والدوران، أخبر مستجوبه أنه قدم من "فاس" يسأل عن بعض أصدقاء له في المدينة، ففعل به رجال الشرطة ما فعلوا. وعندما سألهم بدوره عن السبب الذي أودعهم رهن الاعتقال، أجابوه نفس الجواب، وعند ما امتد حبل حب الاستطلاع إلى معرفة أصدقاء بعضهم البعض، حرص كل منهم أن لا يذكر هؤلاء الأصدقاء بالاسم حتى لا يكونوا سببا في توريطهم من حيث لا يعلمون.

غير أن الأخلاق والمعاملة الإنسانية الدالة على حقيقة انتمائهم للبهائية سرعان ما كشفت سرهم، وأفصحوا عن حقيقة انتمائهم الديني.

***

التحق بمجموعة " تطوان " بهائي آخر من الذين آمنوا في "الناضور" عندما كان يعمل معلما بها، ثم انتقل إلى مدينة "تطوان" حيث آثر العيش بعد أن تزوّج بإحدى بناتها وسكن إليها.

اتجه إلى "الرباط" للاستفسار عن حوالات رواتبه الشهرية التي طال أمد عدم توصله بها. فأخبرته المصلحة المركزية المعنية، أن حوالاته ترسل إليه بانتظام إلى عنوان المدرسة التي كان يعمل بها سابقا "بالناضور"، وما عليه إلا أن يتوجه لعين المكان قصد استلامها.

نصحه البهائيون في "الرباط" بعدم السفر إلى "الناضور" بأي حال، نظرا لما يجري هناك من قنص البهائيين بمجرد نزولهم في المدينة. لكن الرجل لم ينتصح، وقال:

- ما العيب في أن يسجن المؤمن في سبيل الله! إنه لشرف لي أن أكون من بين هؤلاء المسجونين.

محمد جباري

وما أن انتهى من تصريحه، حتى استجاب الله له رجاء " **المحب الصادق (الذي) يرجو البلاء** "[39]، وهيأ له الأسباب ليدخل إلى السجن من بابه الواسع، تاركا زوجة لا تفهم السبب الذي زج بزوجها الوديع في السجن، ولا تعرف عنه ما يستوجب سجنه غير جريرة سفره للحصول على مستحقات أجور عمله.

طال انتظارها لعودة زوجها، ولما يحمله من مال يحقق لهما بعض الرخاء. وعندما علمت بسجنه، جاءت إليه متحملة عناء السفر المتعب الطويل، لتتأكد بأن جريرة زوجها، ليست أقل من إقدامه على الإيمان بدين جديد. فنظرت إليه في مزار المساجين بعين باكية مستنكرة.

وقالت:

- كيف تؤمن بدين دون خلق الله جميعا؟!

أخبر إخوته باختصار عن هوية الزائر استجابة لاستفسارهم، وانطوى في سريره وانكفأ على نفسه المتألمة.

***

ذات يوم من شهر يوليوز، حمل إلينا "الكابران صالح" نبأ دخول بهائي أجنبي آخر إلى السجن، وضع في الحبس الانفرادي.

تبيّن لنا بعد ذلك، أنه "فواد الطحان" السوري الجنسية، العامل مديرا وأستاذا خبيرا في مدرسة إحدى المصانع الحديثة للجلود بمدينة "فاس".

أسفنا على اعتقاله، وهو زوج وأب لثلاثة أطفال وضيف على المغرب الذي تعوّد أهله استقبال الوافدين، خاصة إذا كانوا من الشرق العربي، بالحفاوة والتقدير منذ القدم، كما يروي التاريخ عن شيمة الأمازيغ: أنه منذ ما يزيد على مائة عقود، وفد "المولي إدريس بن عبد الله" على المغرب، فاراً من بطش العباسيين لاجئا

---

39 - بهاء الله : الكلمات المكنونة .

عند قبائل "أوربة" التي رحبت به ترحيبا قل نظيره. لم يقتصر على إيوائه وحمايته والدفاع عنه، وإنما رفعوه مكانا عليا بتزويجه إحدى بناتهم وتنصيبه زعيما عليهم ...

على أن ذاك زمان، وهذا زمان آخر!

وبغض النظر عن الأسى والأسف على اعتقاله، فإن وجوده في السجن، خفف بعض العنت الذي كنا نشعر به من أفراد أسرنا الذين كانوا لا يكفون وقت الزيارة عن اللمز بالبهائيين الأجانب قائلين عنهم:

إنهم قد اختفوا عن الأنظار، وفروا من البلاد طلبا للنجاة بأنفسهم، بعد أن أضلونا وغرروا بنا إلى أن أوقعونا في شرك حيلهم وتركونا ضحايا خداعهم، نتعفّن في الحبس، نسدّد ثمن جريمتهم.

كان الأستاذ "فؤاد" شخصية متميزة، حباه الله بجينات فيها الكثير من الميل إلى التفكه بالنوادر والمستملحات: مرحا خفيف الظل، حلو المعشر، متفائلا إلى أقصى الحدود، يحب النكتة والمزاح. لا يخلو مجلسه من الضحك حتى في الأوقات الحرجة التي يمر بها في الحياة. مما جعل الذين يتعايشون معه في السجن من السجناء والموظفين يستلطفون مجالسته ويستحبون الاستماع إلى مستملحاته أحيانا، واستفساره حينا عن حقيقة دينه الذي من أجله قبض عليه.

فؤاد الطحان

كان ممنوعا من الاتصال بالبهائيين الآخرين، وظل طيلة مدة إقامته في سجن "الناضور" معزولا عنا، محبوسا وحده أو مع عدد محدود من السجناء في زنزانة صغيرة. غير أن عالم السجن لا تعوزه وسائل الاتصال بين المساجين، لذا كان تبادل الأخبار والمراسلات بيننا مستمرة، كلما دعت الحاجة.

***

اتخذت قضية البهائيين في "الناضور" بعدا آخر، عندما اتسعت دائرة اهتمام السلطات بهم في مختلف جهات المملكة، وشرعت في استقصاء أحوال الأهالي والأجانب، وكل من كانت لهم علاقة بالمقبوض عليهم.

بدأ هذا الاهتمام قبل اعتقال البهائيين، بإقالة الأستاذ "فوزي زين العابدين" من عمله أستاذا في معهد الفنون الجميلة "بتطوان"، ومنعه من الاتصال بالبهائيين المحليين من أهل البلد ومن عقد الاجتماعات البهائية في منزله. مما جعله يشعر بعدم جدوى مكوثه في بلد يمنع فيه من لقاء أبنائه الروحيين ومن فتح باب منزله للطارقين، وانسداد أبواب الرزق والمعاش في رحابه. فقرر كارها مغادرة المغرب متجها إلى "تونس" في وقت لم يكن يعلم أن معظم البهائيين من سلالته الروحانية سيعتقلون ويقذف بهم في غياهب السجن.
وكان السيد "محمد معنان" من الذين تربطهم بمعظم المقبوض عليهم في "الناضور" رابطة ما: منهم من سمع عن البهائية أول مرة من حديثه معه؛ ومنهم من سار على درب تحري حقيقتها بمساعدته؛ ومنهم من شاركه في أنشطتها المختلفة في "تطوان". وبالتالي فإن تحريات الشرطة في "الناضور" للوصول إلى مصدر انتشار البهائية، كان الكثير من خيوطها تؤدي إليه.

***

كان تواجده في "تطوان" كغيره من شباب "الناضور" من أجل متابعة الدراسة في مؤسساتها التعليمية، سببا في تعرّفه على الدين البهائي الذي آمن به وألهب مشاعره بنار حبه وحرك حيويته وحماسه في ميدان خدمته، لدرجة اختار التوقّف عن متابعة الدراسة في قسم التجارة ب" البوليتكنيك " ليعمل مقتصدا في المؤسسات التعليمية من أجل أن يستقل اقتصاديا ويتفرغ ليعيش حياته وفق ما توصي به التعاليم البهائية.

وجد رؤساؤه الذين كانت تدفعهم روحهم الوطنية في بداية استقلال الوطن، في حماسه المتوثب وفكره المتفتح رغم صغر سنه النسبي وإخلاصه الصادق في العمل، ما جعله يحظى بثقتهم ويشد عزمهم على المواظبة

والاستمرار في إنجاز مشاريعهم الاجتماعية الرامية إلى مساعدة أبناء مواطنيهم لإخراجهم من آفات الأمّية والفقر والمرض.

كانت مهمّة المشروع الاجتماعي الذي يساهم في إنجاحه بمدرسة "وادي لو" ــ التي كانت سجنا مركزيا أيام الحماية الاسبانية ــ هو جمع أطفال الفلاحين الفقراء من الأرياف المجاورة وإلحاقهم بداخلية المدرسة، حيث تنظف أجسامهم ويباد القمل الذي يمص دماءهم وتداوى رؤوسهم من القيح الذي يفرزه داء القرع وتكسى أبدانهم بكسوة نظيفة مناسبة، ليندمجوا بعدئذ مباشرة في الأنشطة الدراسية والتفرّغ للدراسة والتعلم، بفضل ما توفره لهم الداخلية من المأكل والمشرب والإيواء.

وبينما هو منهمك قلبا وقالبا في عمله ، تنامى إلى سكان البلد نبأ الدين الجديد الذي يدين به " معنان "، فقامت قيامة فقهاء المنطقة وأئمتها، وأوعزوا للناس أن لا يقبلوا الكفار في وسطهم، فأوقفوه عن العمل.

وبعد أخذ وردّ من طرف المسؤولين، كاد يصل إلى درجة الاستغناء عن خدماته وطرده من وظيفته، شفع له سلوكه القويم وجده وإخلاصه في العمل، فتدخّل السيد "التهامي الوزاني" المدير العام للتعليم الأصيل في الشمال والعضو في مجلس العلماء، الذي كان لا يرى الانتماء الديني معيارا حاسما لحرمان المواطن من حقه في العمل أو من الراتب المترتب عنه.
كان حاضرا معه في العاصمة " الرباط " من أجل المطالبة باستلام مرتبه عن المدة التي قضاها في العمل.
وعندما تلكأ المسؤول بحجة انتمائه إلى " البهائية "، قام الرجل من مقعده وانحنى يمسك برجل المقعد، قائلا للموظف بصرامة:
ما ذا يهمك إذا كان هذا الرجل يريد أن يعبد هذا الكرسي. من حقه أن يأخذ الأجر عن العمل الذي قام به. إذ حتى الكلب يكافأ إذا قام بخدمة ما، فما بالك بالإنسان!
خرج غاضبا من مكتب المسؤول المشدوه، يطلب من " معنان " أن يتبعه.
وفي اليوم الموالي اتصلا بالسيد "عزيمان" نائب وزير التعليم في إقليم " تطوان " لإخباره بما جرى في " الرباط "، فبذل الرجل ما في وسعه لمساعدة "معنان" لما يكنّه له من العطف والتقدير من أجل أن يتراجع عن "البهائية"، لدرجة أنه استعان بجمع من العلماء المتخصصين قصد مجادلته بالحسنى وإقناعه بالتي هي أحسن.

كما حاول السيد "محمد بن عبود" مفتش التعليم في إقليم تطوان، الذي اتصل به وأخبره بأنه قد اطلع على "كتاب الإيقان" ووجد محتواه فارغا من كل معنى، مضيفا أن رسالة رسمية قد وردت من الرباط تطلب منه التنازل عن البهائية للبقاء في وظيفته.

وأثناء ذلك دعاه السيد "التهامي الوزاني" إلى منزله، وحاول بكل ود أن يقنعه ليتخلى عن عقيدته، ولما لم ينل شيئا من قناعته استعمل المشاعر الأبوية التي يكنها له قائلا:

- هل هناك ما يفرق بين أب وابنه؟. رد معنان:
- نعم، كلمة الله. فودعه الرجل يعانقه متأثرا.

وبعد ذلك بأسبوع أخبره السيد "عزيمان" بوفود أربعة من علماء " فاس " لمناقشته في موضوع الدين، فتهيب معنان الموقف واستعظم الحضور مع وفد العلماء ومجالستهم والدخول في حوار معهم، لما اشتهر به علماء فاس من علم وافر، ولمكانتهم العلمية في الوطن كله. فلم يجد بدا من اللجوء إلى " فوزي زين العابدين" يخبره بالحدث وبعدم قدرته على مواجهتهم، ويستشيره بخصوص عزمه على اجتناب الحضور لمجالسة هؤلاء العلماء. هدّأ "فوزي" من روع "معنان" وطلب منه أن يجلس، وتوجها معا بالدعاء إلى الله، ثم قال:

- عليك بمقابلتهم ولا تخش شيئا، وفي محضرهم توجه إلى الله وقل: " يا بهاء الأبهى " واعتمد عليه. إنه يلهمك ما يشاء.

- أدخل مساعد نائب وزير التعليم "معنان" على أعضاء الوفد في مقر نيابة التعليم، قائلا لهم: إن "معنان" مثل ولدي، وإني لعلى يقين بأن إرشاداتكم ستجعله يعود إلى الطريق المستقيم.

وما أن أغلق الباب خلفه حتى شرع أحدهم يسأله:

- هل أبوك مسلم؟ وما أن سمع الجواب بالإيجاب، حتى صرخ في وجهه بصوت مرتفع اخترق جدران المكتب: أيها الكافر بالله ...

عاد مساعد النائب أدراجه، ليقول:

- ليست هذه طريقة الإرشاد، إذا تابعتم النقاش هكذا، فمن الخير أن أصرفه إلى حال سبيله. فإما أن ترشدوه بهدوء أو أن تتوقفوا.

قال أحدهم لمعنان مشفقا عليه:

- أخذت بهذه البدعة ورميت بنفسك في التهلكة.
- إني لا أبحث إلا عن الهداية إذا أرشدتني إليها، أخذت بها.

أخذ العلماء يستعرضون آيات القرآن الدالة على ختمية الرسالة ودين الإسلام الذي اختصه الله بالقبول دون غيره من الأديان. وبعد الأخذ والرد في مفهوم النبوة والرسالة والإسلام، انتقل اهتمام العلماء إلى استفساره عن أمور تخص البهائية وتعاليمها.

كان "معنان" يتكلم شاخصا إلى وجوههم ليراها ناطقة بأسئلة أخرى، فيتبادر إليه الجواب عنها ... إلى أن قام أحد العلماء يحوقل ويشهّد، وتبعه آخرون إلى مكتب "عزيمان"، قائلين:

- هذا خطر على الإسلام يجب قتله في الحين.

شعر "معنان"، وهو يستحضر صورة السيد "عزيمان" الذي يبذل أقصى الجهد لمساعدته، بالأسف الشديد على الموقف الحرج الذي وضعه فيه، ويخاطب نفسه عندما خلا المكتب إلا منه:

جئت من أجل أن أصلح الوضع فإذا بي أعقّده أكثر على السيد "عزيمان" رغم الجهد الذي يبذله لمساعدتي من أجل العودة إلى عملي. وبذلت بدوري الجهد لمساعدته وإرضائه، لكن دون جدوى .

وبينما هو مستغرق في التفكير، دخل عليه مساعد نائب الوزير مبتسما مستفسرا:

- ما ذا حدث ؟
- لا أدري .
- قد كفّرتهم. (بمعنى أخرجتهم عن صوابهم) تعال معي إلى مكتبي.

لدى خروج العلماء من مكتب النائب، أشاحوا بوجوههم عنه وانصرفوا.

طلب المساعد من "معنان" أن يدخل إلى مكتب السيد نائب وزير التعليم الذي توقع أن يجده في غاية الغضب. فقال له النائب:

- لا أنتظر من العلماء أن يرد منهم تقرير في صالحك، ولكن ما دمتُ هنا في هذا المنصب، لن يحدث لك مكروه.

وعندما أدرك أن محاولات إرشاد "معنان" للتخلي عن البهائية لا تجدي، قدّر فيه تعلقه بعقيدته وقرر أن يساعده في حياته المهنية كرئيسه المسؤول عنه.

***

بعد توقفه نحو ستة أشهر عن العمل، أتت المساعي الحميدة بثمار إعادته إلى العمل. فعيّن في وظيفته بمدينة "أصيلة" التي ظل يعمل فيها بنفس إخلاصه واجتهاده السابق، طيلة السنة الدراسية، من أكتوبر 1961 إلى يونيو 1962، تاريخ وصول الأمر باستدعائه إلى مصلحة الشرطة ب "أصيلة"، وإلقاء القبض عليه وترحيله.

اندهش عميد الشرطة الذي كان من نفس فوج "بوعرفة معنان" المعتقل "بالناضور"، من الأمر الصادر له عندما تأكد بأن الشخص المعني بالترحيل هو "معنان"، وظن أن الأمر يتعلق بسوء فهم.

استدعى "معنان" الذي كان يعرفه معرفة جيدة لأنهما معا من بلد واحد، حتى يستوضح منه الحقيقة، قائلا له:

- توصلت بأمر أدهشني كثيرا، يأمر بإلقاء القبض عليك وترحيلك إلى تطوان، بسبب انتمائك إلى "شيء" أعتقد أن اسمه البهائية. ولا أظن أن ذلك صحيح !

لم يخطر ببال العميد أن يكلف نفسه القيام بالبحث عن معرفة هذا "الشيء" الذي اسمه البهائية. لذا انصرف تفكير العميد إلى استبعاد انتماء ابن بلدته إلى البهائية. وقد أدهشته المفاجأة عندما أخبره "معنان" أنه ينتمي إليها بالفعل.

ولدى تعبيره عن اندهاشه من تصريحه، استرسل "معنان" في التعريف بالبهائية، تاريخها ومبادئها و... وكلما زاد العميد علما زاد اندهاشا ... ثم قال العميد:

- وما العمل الآن ؟
- نفّذ ما في الإرسالية.

أرسل "معنان" مخفورا إلى "تطوان" حيث خضع للاستجواب والاتهام بنفس التهم الملفقة للبهائيين في "الناضور".

وعومل لحظة وصوله إلى "تطوان" أسوأ معاملة وترك معزولا في الزنزانة الانفرادية، ممنوعا من التغذية بسبب جرأته على المجاهرة بعقيدته والدفاع بحماس عن مصدرها الإلهي، والاستدلال بآيات من القرآن على وجوب الإيمان بها والإذعان لتعاليمها، ثم حبس في عنبر جماعي، قبل أن يرحّل إلى سجن "القصبة" العتيق في مدينة "طنجة" الذي يرجع تاريخ بنائها إلى عهد الرومان.

ألقى به في زنزانة صغيرة، أقرب ما تكون إلى مرحاض تآكل من الرطوبة من مكان لإقامة إنسان، تتسرب إليها مياه الأمطار بحيث لا يجد المجبر على الإقامة فيها إلا أن يستسلم لها ويستلقي في أحضانها بعد أن يجبره تعب الانتقال، من مكان إلى آخر في مساحتها الصغيرة، في محاولات فاشلة لاتقاء قطرات المطر المتسرّبة .

ظل مقيما صابرا على هذا الوضع إلى أن نقلوه من هذا "المرحاض/ الزنزانة أو الزنزانة/المرحاض" إلى زنزانة يقيم فيها بعض المعتقلين الأوربيين، احترازا من احتكاكه بالمساجين المسلمين وخوفا من تأثير عقيدته عليهم.

بقي معزولا عن المجتمع الخارجي لا يعرف شيئا عما يجري للبهائيين خارج السجن ولا عن الأحداث الجارية، إلى أن امتدت يد السلطة إلى المنضوين في حزب "الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية" المعارضين لسياسة الحكومة التي زجت ببعضهم في سجن طنجة، فأتحفوه ببعض ما وصلهم من الأخبار عن قضية البهائيين المحكوم عليهم في "الناضور".

ظل كذلك لم يتصل به بهائي واحد يطمئنه أو ينفخ في روحه نسمة واحدة من الانتعاش، إلى أن تمكن المحامي المصري البهائي "محسن عنايت" بصحبة المحامي المتدرب "بلقاسمي" من زيارته، بعد مرور حوالي ستة أشهر من إلقاء القبض عليه، وإخباره بما يجري في العالم البهائي خارج أسوار السجن.

إن المتهمين الأبرياء كثيرا ما يقيّض الله لهم في محنتهم، من يتفهّم وضعيتهم ويطمئنّ إليهم. إنها فطرة الإنسان السليمة غير الملوثة التي جُبلت، في غياب الرذيلة من جوهر حقيقتها، على التعرف على الفضيلة في شخص صاحبها، فتميل إليه وتؤثره على غيره من المحبوسين.

إن إدارة السجن، كثيرا ما تسند مهام السجن الدقيقة والأثيرة للمحبوسين ذوي الكفاءات الموثوق فيهم. كذلك كان الشأن مع "معنان" الذي سرعان ما انتبه المسؤولون في السجن إلى صفاء نيته و سلامة طويته وقدرته على إنجاز أعمال السجن الإدارية، فأسندوا إليه بعض تلك المهام التي خففت عنه عناء الوحدة والفراغ، مثلما وجدت مؤسسة السجن فيه، من يصرف لها بعض مصالحها الضرورية، دون أن تترتّب عنه أية مشاكل جانبية.

*****

هـ - الجامعة البهائيـــــــــة.

بـــــــدأت الجامعة البهائية تتكون تدريجيا في المغرب، منذ أن وجه "ولي أمرالله"، سنة 1953، نداء إلى المؤمنين المتواجدين آنذاك في العالم، يشجعهم على الانتشار في مختلف أرجاء كوكب الأرض من أجل فتح مدائن القلوب بمفتاح الكلمة الإلهية.

استقر بعضهم في مدن المغرب بعد التغلب على مصاعب الدخول إلى البلاد في ظروف استعمارية متأزمة، حيث كانت سلطة الاستعمار تضع كل العراقيل لطالبي تأشيرة الدخول، خاصة للشرقيين، تحسّبا لاحتمال تعاونهم مع الوطنيين الذين كانت علاقة المستعمرين المتوترة بهم آنذاك قد بلغت ذروة الاختلاف. وزادها تأزّما، نفي ملك البلاد وما تلاه من ثورة الشعب وانتشار أعمال الفداء العنيفة والمقاومة المسلحة في جهات عديدة من المملكة.

كان هؤلاء المهاجرون واثقين بأن جهودهم مدعومة بالتأييدات الغيبية، واثقين وثوقا لا حدّ له في التوفيقات الإلهية، مؤمنين بجنود الغيب المتأهّبة لنجدتهم وتعزيز مبادراتهم. ولم يكن عليهم، وهم مسلحون بهذه الروح، إلا الإقدام ممتثلين لإرشادات "ولي أمر الله" التي تتابعت نداءاته:

" أن يا أحباء الله لا تستقروا على فراش الراحة وإذا عرفتم بارئكم وسمعتم ما ورد عليه قوموا على النصر ثم انطقوا ولا تصمتوا أقل من آن وإن هذا خير لكم من كنوز ما كان وما يكون لو أنتم من العارفين... ونفسه الحق سوف يزين الله ديباج كتاب الوجود بذكر أحبائه الذين حملوا الرزايا في سبيله وسافروا في البلاد باسمه وذكره ويفتخر كل من فاز بلقائهم بين العباد ويستنير بذكرهم من في البلاد... إن الذين هاجروا من أوطانهم لتبليغ الأمر يؤيدهم الروح الأمين..."[40] .

كذلك حدث للعديد من الذين غادروا ديارهم متوجهين إلى الله الذي مكنهم من الدخول إلى البلدان التي قصدوها، ومنها المغرب حيث وجدوا فرص العمل في القطاع العام والخاص وفي المصالح الأجنبية، ومنهم من اشتغل لحسابه الخاص. فتأكدوا من أن ما وعدهم به ربهم حق.

---

[40] - توقيعات مباركة: ولي أمر الله : توقيع نوروز 110 بديع (1954). ص: 504

توطدت علاقتهم بأهل البلاد، مما سمح لهم بإخبارهم عن دينهم الجديد الموعود في التوراة والقرآن والإنجيل، فاهتم بعضهم بمعرفته إلى درجة الاقتناع بحقيقته واعتناقه.

ومن هؤلاء المغاربة الأولين الذين آمنوا بالبهائية والمهاجرين، تكونت النواة الأولى للجامعات البهائية المحلية في المغرب التي بدأت تعيش حياتها الجماعية، مثل غيرها من الجامعات البهائية المنتشرة في أركان الدنيا الأربعة التي تعيش وفق تعاليم "بهاء الله" كنواة مقدّر للبشرية أن تعيش على منوالها.

كان من رأي بعض المؤمنين المغاربة وقت اعتقال البهائيين في سجن "الناضور" أن يعبّروا عن تضامنهم معهم بتقديم أنفسهم جميعا إلى السلطات من أجل الإعلان عن عقيدتهم حتى يتقاسموا نفس مصير إخوانهم المعتقلين. غير أن حكمة المؤمنين المهاجرين حالت دون مثل هذا التصرف الذي لا يتفق مع روح تعاليم دينهم.

*****

ه - الاحتكام إلى القضـــــــــاء.

فرضـــــت ظروف الاعتقال على بعض أسرنا أن تتعارف فيما بينها من أجل التعاون على مساعدتنا وإنقاذنا من الورطة التي وقعنا فيها، فاتصلت برجال السلطة والقضاء والسجن الذين توافقوا جميعا على نصحهم وإرشادهم إلى العمل على توعيتنا بضرورة التنازل، قبل كل شيء، عن القول بإيماننا بدين جديد، و بتعيين محام ماهر قادر على الدفاع عنا.

زارني والدي في هذا السياق، وحدّثني عما اتفقت عليه الأسر، وطلب مني أن أزوّده بالمال الذي أدّخره في " صندوق التوفير الوطني " بالبريد. ففوجئ عندما أخبرته بأني قد تصرّفت في ذلك المال واستثمرته في شراكة في مشروع حلاقة "بتطوان".

سقط في يده، لما كان يعتمد على ذلك المال حتى يساهم به مع الآخرين في تعيين محام ينقذني من الحبس الذي أنا فيه. وقال لي مستوضحا مؤنبا:

- ما ذا نفعل الآن ؟ قاصدا باستيضاحه، كيف نخرج من هذه الورطة التي أدى إليها سوء تصرفك، وما زال...؟ !

خرج من مكان الزيارة غاضبا مزمجرا يفكر في ولده وفي تصرفاته الغريبة التي ما زالت تحيّره وتفاجئه: مرة بإيمانه بدين جديد، ومرة بالتصرف في المال، ولو أنه ماله، دون أن يخبره على الأقل بما يفعل به. إن هذا الولد بالتأكيد، يقول في نفسه، قد أصابه مسّ من الجن.

عدت إلى العنبر مستاء من انزعاج والدي الذي غادر السجن مكسور الخاطر خائب الرجاء، أخاطب نفسي:

ليتني أخبرته بكل شيء قبل أن يطرأ هذا الحدث ! ثم أعود وأراجع نفسي، باحثا عن عذر أفسر به تصرفي، لعلني أخفف عن ضميري وخز الألم بسبب انزعاج والدي.

ولا أجد العذر إلا في الموقف السلبي الذي كان يمكن أن يتخذه لو أخبرته حينها. إذ أعرف مسبقا، أنه ما كان ليوافقني أبدا على مشروع شراكة، وذكرى مروره بتجربة فاشلة في شراكة تجارية مع أحد أصدقائه ما زالت حية في ذاكرته. بينما كنت واثقا تماما، أن شراكتي مع "معنان" لن تكون إلا بداية حسنة وخطوة مباركة تساهم في تحسين وضعي المالي وتقدمي الاقتصادي. وسوّفت مسألة إخبار والدي بهذا الإقدام إلى أن يتحقق نجاحه. آنذاك بالتأكيد، سيتسرب السرور إلى قلبه ويغتبط بتصرّف ولده.

غير أن الأيام لم تمهلني إلى أن تتحقق الآمال، وألقت بي قبضتها في السجن كما ستلقي بشريكي في غياهبه بعد قليل.

***

كان أصهار "بوعرفة معنان" من أعيان البلد الذين لهم بعض النفوذ في الميدانين الاقتصادي والإداري، وبقدر ما أن ""بهائية" صهرهم تزعجهم وتضايقهم في وسط مجتمعهم، بقدر ما يرغبون في الاحتفاظ على سمعتهم الاجتماعية وإرضاء زوجاتهم اللائي لا يتوقفن عن الضغط عليهم لإنقاذ شقيقهن.

لم يكن تلبية رغبات زوجاتهم وأبنائهن بالأمر العسير على أصهار "بوعرفة معنان". إنما العسر والصعوبة في الشرط المصاحب لتحرير المعتقل المتعلق به شخصيا ومباشرة. إنه شرط التخلي عن العقيدة التي لا يساوم "بوعرفة" عليها، مهما حاول أفراد أسرته إغواءه أو الضغط عليه، لدرجة أن أحد أصهاره، من شدة حنقه عليه، كتب إليه رسالة بالاسبانية يلومه فيها ويصب عليه جام غضبه حتى يرعوي عن غيّه، واصفا إياه: "بالنبتة الخبيثة".

لم تتمكن مساعي أسر المعتقلين الجادة من اختراق جميع الأبواب الموصدة والوصول إلى مكاتب كل الشخصيات النافذة المقصودة، كما أن محاولات تحريرهم لم تحقق الغاية المنشودة. فتكاثفت الغيوم الداكنة في سماء أفراد أسرنا الساعين الخائفين على هلاكنا، لتحجب عن عيونهم كل أمل في إنقاذنا.

***

أما البهائيون فقد رأوا أن الحاجة تدعو إلى تعيين لجنة أطلقوا عليها "لجنة الشؤون القانونية" لتتولى شؤوننا بصفة عامة والاهتمام بالحاجيات الضرورية للعائلات التي يوجد عائلهم رهن الاعتقال، وتتولي بصفة خاصة مسألة الدفاع عنا قضائيا، ما دام الخصوم قد سلموا قضيتنا إلى يد العدالة لاستصدار حكم قضائي يقتص منا بناء على ما يوافق التهم الملفقة ضدنا .

تجنّد بعض البهائيين المحليين خاصة الذين ينتمون منهم إلى نفس المدينة للاتصال بالعائلات المنكوبة، من أجل التخفيف من روعها و طمأنتها والوقوف إلى جانبها والعمل على مساعدتها، رغم ما يتضمن ذلك من خطر إلقاء القبض عليهم.

سعت اللجنة سعيا حثيثا لعلها تجد سبيلا لتحريرنا، وطرقت كل أبواب مصالح الحكومة التي أمكن طرقها، لكن بعض الأبواب كانت موصدة في وجهها. ولم يعد بإمكانها، بعد المحاولات اليائسة مع السلطات الحاكمة لتحريرنا، سوى أن تهيئ من يدافع عنا أمام القضاء. ونظرا لتعذر إيجاد المحامين في عين المكان المستعدين للدفاع، وجهت النداء إلى الجامعة البهائية العالمية تستنجد بها، خاصة عندما أخذت يد السلطات تمتد إلى البهائيين الأجانب، وساد الشعور باحتمال طردهم من البلاد.

وكّل الأستاذ "تريكي" محاميا في مدينة "وجدة" القريبة من "الناضور" للدفاع عنا، وعينت نقيب المحامين في"الرباط" الأستاذ "فالي" الفرنسي الجنسية ... ولم تجد من المحامين المغاربة الحاذقين من تحمّس للدفاع عنا، لاعتبارات ذات أبعاد سياسية أو دينية، ما عدا الأستاذين " عبد الرحمان بوعبيد " و" المعطي بوعبيد " (الذي ترأس حكومة المغرب في فترة لاحقة) اللذين أبديا استعدادهما للدفاع عن القضية بالتعاون مع المحاميين البهائيين الأستاذ "محسن عنايت" المصري الجنسية والأستاذ " نويدي" المحامي العالمي.

لم يبق في يد اللجنة، من وسائل أخرى تدافع بها عنا بعد أن استنزفت جميع محاولاتها، سوى أن ترشدنا إلى التوجه بالدعاء والتوسل إلى الله من أجل أن يحفظنا في كهف حفظه وحصن حمايته، ويمدنا بقوة الاحتمال والصبر ويؤيدنا على الثبات والاستقامة في سبيله.

***

ذات مساء دعينا جميعا إلى زيارة خاصة في مكتب غير مكان الزيارة المعتاد الذي تعودنا على لقاء أفراد الأسر فيه.

أدخلونا الواحد بعد الآخر إلى المكتب، وبعد اصطفافنا وقوفا، بدا لنا شخص واقفا أمامنا، تظهر العناية على هندامه والاهتمام بتصفيف شعر رأسه، يلبس بذلة داكنة اللون مخططة بخطوط رقيقة طولية بيضاء، تحتها قميص ناصع البياض، تتدلى من عنقه ربطة محكمة الإغلاق، ينتهي سرواله بحذاء أسود لامع. توحي هيئته بأنه شخص مهم جاء لأمر هام. كان يدقق النظر في كل واحد منا، من قمة رأسه إلى غاية قدميه، كأنما يحاول أن يسبر غورنا ويكتشف ما تنطوي عليه سرائرنا ويطلع على ما يدور في أذهاننا.
تركزت أنظارنا عليه، منتظرين ما يتفوّه به.

•

- إني محام، قدمت من مصر من أجل الدفاع عنكم ... وإذا "بفؤاد الطحان" الذي التقى لأول مرة بنا، يقاطعه:
- هل أنت جناب "محسن عنايت"؟

وما أن أجاب بابتسامة الرضاء وحركة من رأسه بالإيجاب، حتى أسرع إليه يعانقه ويضمه بقوة إلى صدره، يحييه تحية "الله أبهى" التي لم يرتفع بها صوت في فضاء السجن منذ أن التحقنا به. فتردد صداها في قلوبنا نغمة عذبة حركت أعماقنا، ونشرت نسيما من الاستبشار سرت روحه في كياننا ورسمت ملامح الابتهاج على وجوهنا ونحن واقفين مذهولين من وقع المفاجأة السارة.
انهالت عليه الأسئلة تريد أن تعرف ما يجري للبهائيين خارج أسوار السجن، والتطورات الجارية في العالم البهائي...

وما إن اطمأنت نفوسنا إلى أن البهائيين ما زال وجودهم قائما خلف عالمنا المحدود المحصور وأنهم مهتمون بأمرنا عاملين على الوقوف إلى جانبنا، حتى استمر المحامي حديثه مستطردا:

- إن موقفكم لا تقل أهميته عن المواقف التاريخية التي وقفها المؤمنون قبلكم في تاريخ أمر الله المجيد. وبفضل الاستقامة التي أبدوها نالوا رضاء محبوبهم الأبهى وخلدوا أسماءهم التي نفتخر بها وستفتخر بها الأجيال القادمة .

جاء دوركم اليوم لتبرهنوا على صدق إيمانكم بتمسككم بعقيدتكم.

لا تجزعوا ولا تخافوا من التهديد والوعيد، لأن شدة هذه الأيام سوف تزول وما يبقى هو صبركم وما تتحملون في سبيل الله.

إن إخوانكم البهائيين في العالم ينظرون جميعا إلى ما سوف يظهر منكم من الاستقامة والثبات في الأيام القادمة في المحكمة التي تنتظركم.

كنا ننصت إليه باهتمام بالغ، وما أن أنهى حديثه حتى أقبل على كل واحد منا يضمه إلى صدره ويرسم على وجنتيه قبلتي وداع، متمنيا له الصبر والتوفيق.

كان الأستاذ "محسن عنايت" محاميا في مقتبل العمر يزاول مهنة المحاماة في مكتبه "بالقاهرة" عندما نما إليه خبر اعتقال البهائيين في المغرب، فتحرك في نفسه شعور قوي بواجب الدفاع عنهم، وسكن هذا الشعور ممارسات حياته اليومية، يلح عليه بالسؤال كلما اختلى لنفسه:

- من أولى بالدفاع عن هؤلاء المظلومين ؟
- أيحق لك أن ترافع في ملفات، وتجدّ وتجتهد في الدفاع عن قضايا خلافات بشرية واهية، وتتخلى عن الدفاع عن أبرياء معتقلين في سبيل محبوبهم ومحبوبك الأبهى، وتتركهم يتصرف فيهم من شاء بما يشاء، ولا تحرك ساكنا ؟

نضج القرار في نفسه وشرع في البحث عن أسلوب لصرف مصالح زبنائه، فقام بالإجراءات الأولية اللازمة واستقل الطائرة ليصل إلى المغرب في وقت كان فيه البهائيون في أمسّ الحاجة إلى رجل قانون مثله: يتكلم لغة المحامين إلى جانب العربية وخلفيته الثقافية التي تلتقي مع ثقافة المغاربة، وتيسّر له التفاهم مع المسؤولين.

أسندت له " لجنة الشؤون القانونية" ملف القضية، معتمدة عليه، مطمئنة إلى مشورته ورأيه.

استلم الأستاذ "محسن عنايت" الملف، وشرع في الاتصالات الأولية في "الرباط"، ثم سافر إلى "الناضور"، على بعد يقرب من 700 كلم، عبر "وجدة"، من أجل الالتقاء بنا والتعرف والاطمئنان علينا وإبلاغنا أننا لسنا وحدنا.

ثم شرع في المساهمة في إعداد الدفاع وتنسيقه على مختلف المستويات الداخلية والخارجية، إلى أن اهتدى إلى المحامين المغاربة والأجانب الذين اقتنعوا بالدفاع عنا وتفنيد الاتهامات الواهية الموجهة لنا.

***

عدنا بعد هذه الزيارة إلى زنازيننا، وكأن نسمة منعشة هابة من رياض المحبوب مرت على أوراق شجرة قلوبنا الذابلة فهزت أوراقها وبعثت في عروقها روح الحياة والأمل من جديد.

جلسنا إلى بعضنا نتدبّر الكيفية التي يجب أن نواجه بها المواقف التي تنتظرنا في المحاكمة القادمة.

كانت المدة التي قضيناها في السجن والضغوطات التي مورست علينا أثناءها كافية لاستشفاف المصير وإفراز الوضوح في رؤية المواقف التي سيتخذها كل واحد منا:

فريق يرى أن الثبات على الإيمان هو المنهج القويم الذي ينبغي السير فيه، مهما كانت النتائج. حجتهم في ذلك، أن إيمانهم جاء على أساس قناعة كاملة بأن "بهاء الله" هو موعود القرآن والكتب المقدسة، مثله مثل رسل الله جميعا، جاء من أجل أن تتحقق إرادة الله بين الناس في الأرض. من آمن به فكأنما آمن بكل الرسل، ومن أنكره أو خذله فكأنما أنكر جميع الأنبياء والرسل، مثل ما ورد في "لوح أحمد":

" وإنك أنت أيقن في ذاتك بأن الذي أعرض عن هذا الجمال فقد أعرض عن الرسل من قبل ثم استكبر على الله في أزل الآزال إلى أبد الآبدين "[41]

وفريق ثان، رغم اتفاقه من حيث الجوهر مع الفريق الأول، لا يرى فائدة من التعرض للتهلكة بينما يمكن أن يكونوا خارج السجن أكثر فائدة. علاوة على أن الناس لن يتفهّموا موقفهم ولن يرحموهم. والله خبير بما في قلوبهم وأدرى بالأسباب التي تضطرهم إلى اتخاذ هذا الموقف، وأنه تعالى بالتأكيد أكثر تفهما ورحمة من هؤلاء العباد. والأجدر بهم أن يعوذوا برحمة الخالق من أن يتركوا أنفسهم عرضة لقسوة ظلم خلقه، وأن المسألة لا تستحق كل هذه المعاناة ومن الخير أن يكونوا كما يشاء العباد!

لم يؤثر اختلاف مواقفنا على علاقاتنا الودية ولم تعكر تعايشنا وتعاوننا أية شائبة، وإنما فرض هذا الوضع علينا تنظيم أمورنا والاتفاق على الأقوال التي سندلي بها أثناء التحقيق والمحاكمة، حتى لا تورّط تصريحات العاقدين العزم على الثبات على الإيمان الذين قرروا إنكار انتسابهم للبهائية ومشاركتهم، من قريب أو بعيد، في ما قد ينمّ عنه انتسابهم إليها أو التعاطف معها أو ممارسة أحكامها أو القيام بأي نشاط في إطارها.

وعقدنا لذلك جلسات تدريبية لاستقراء الأسئلة المحتملة طرحها من طرف القضاة وقت الاستجواب، وإعداد الردود المحتملة عليها، لاجتناب وقوع أحد أفراد الفريقين في شراكها.

***

عادت حياتنا في السجن إلى مجراها الطبيعي، لا يعكرها سوى زيارات أهالينا التي ارتفعت نسبة تواترها حتى بالنسبة للذين يسكن ذووهم بعيدا عن مكان اعتقالنا.

---

41 - بهاء الله : لوح أحمد .

ويبدو أن العاملين في المصالح الحكومية التي يتصل بها الأهالي، قد وجدوا الصيغة التوافقية المناسبة للجميع، التي تحررنا من السجن.
وبما أن المشكلة تكمن في إصرارنا على الإيمان بدين جديد، والسلطات لا تريدنا على ذلك، فالصيغة المناسبة لحل المشكلة تتلخص ببساطة في أن نصرح بما تريد السلطة منا ونحتفظ بما نؤمن به في قلوبنا. وبذلك تكسب السلطة جولتها ونكسب حريتنا، وتنتهي المشكلة.

*****

و- التحقيق والمحاكمـــــــة.

أخيـــــــرا شرع القضاء في التحقيق معنا، وأخرجونا لأول مرة من السجن زرافات ووحدانا في شاحنة الشرطة المغلقة من أجل أخذ أقوالنا في محكمة الجنايات الإقليمية.

هذه المحكمة التي كانت مدرستي، أيام طفولتي، أجلس على مقاعد فصولها الدراسية، منكبا على كتبي ودفاتري أحاول أن أمتلك الأدوات الأولية الضرورية التي مكنتني من شحذ أفكاري والاغتراف من معارف غيري وتحرير عقلي من قيود الأمية وغبن الجهل.

ما أكثر ما ارتعشت خوفا ومهابة من هيمنة وسلطة المعلمين، المغاربة والإسبان، خاصة عندما يوقفونني أمام زملائي، يسائلونني، حرصا منهم على تهذيب ما اعوج من عملي وترشيد سلوكي وترقية قدراتي.

ولم أخرج منها إلا وأنا مبتهج بتلقي أول جائزة مدرسية تسلمتها كتابا قصصيا تحت عنوان "واضع الإنصاف".

ها أنذا أعود إليها من جديد لأسأل عما وصلت إليه من معرفة لم تحدد المدرسة حدودها، وما تبنيت من قناعات لم يعين أحد مداها، وأعاقب على ما آمنت به من عقيدة دونها خطوط حمراء لا يجوز لأحد تجاوزها.

كانت العودة إلى هذا المكان المشحون بذكرياتي في المدرسة الابتدائية، أول فرصة سمحت لي ولزملائي باللقاء والاتصال بمعارفنا العاملين في المحكمة منذ أن زجّ بنا في السجن:

منهم من يلومون على فعلتنا ومنهم من ينظر إلينا نظرة شماتة واحتقار، ومنهم من يعاضدنا ويتمنى الخلاص لنا.

ومن مظاهر الاستخفاف والاستهزاء بنا وبعقيدتنا، ما عبر عنه كاتب التحقيق، عندما سألني عما إذا كنت أحفظ شيئا من النصوص البهائية ؟ ولدى سماع الجواب بالإيجاب، طلب مني أن أستظهر بعضا منها، فشرعت أرتل:

هو السلطان العليم الحكيم
هذه ورقة الفردوس تغني على أفنان سدرة البقاء ...

استوقفني وهو يكتب قائلا: ما ذا ؟ سدرة البقر ... استخفافا وتهكما: فاستأنفت، بل:

البقاء بألحان قدس مليح وتبشر المخلصين إلى جوار الله والموحدين إلى ساحة قرب كريم وتخبر المنقطعين بهذا النبإ الذي فصل من نبإ الله الملك العزيز الجميل وتهدي المحبين إلى مقعد القدس ثم إلى هذا المنظر المنير. قل إن هذا لمنظر الأكبر الذي سطر في ألواح المرسلين، وبه يفصل الحق عن الباطل ... "

عدنا إلى الزنازين - بعد أن تم تفتيشنا داخل قفص الدخول الحديدي - نحكي لزملائنا ما جرى لنا ونستعيد الأسئلة التي ألقاها المحقق علينا مرفوقة أحيانا بالأجوبة التي توفقنا إليها، واستمرت مرحلة الاستجوابات على هذه الوتيرة إلى أن تم استجوابنا جميعا، لتعود حياتنا في السجن إلى رتابتها العادية، ونعيد التفكير في ما كان وفي ما يمكن أن يكون منتظرين ما ستسفر عنه الأيام القادمة. وبلغ بنا التكهن، بناء على ما استخلصناه من الأخبار والإشاعات التي وصلتنا، إلى أن الأحكام التي ستصدر في حقنا، قد تنحصر بين الحكم علينا بثلاث سنوات سجنا أو بالسجن المؤبد أو بتبرئتنا وتسريحنا.

ومنا من تنبأ بتطبيق حكم " الردة " علينا، غير أن غالبيتنا استبعدت الاحتمال الأخير لاعتقادنا أن هذا الحكم قد أتت عليه الأيام ونسخه الزمان.

في جو الانتظار، الذي لا يقل قسوة عن جو خوض غمار التحقيق أو مواجهة المصير نفسه، قضينا الأيام والأسابيع والشهور التي تفصلنا عن المحاكمة، مستغرقين في التفكير:

منا من يفكر في زوجته التي تركت معرضة للمكائد والأخطار دون معيل، ولا إمكانيات مالية تمكنها من تسديد فواتير الماء والكهرباء، ودون مداخيل ريع تغطي مصاريف مستلزمات الكراء ولوازم العيش الأخرى ... ولا أسرة تساندها وتقف إلى جانبها، فيضيف ذلك ألما إلى المحنة التي هو فيها.

ومنا من يفكر في صغاره، فلذات كبده، فيتصورهم مشردين ما بين الافتقار إلى من يعتني بمدرستهم وتربيتهم وتلبية حاجياتهم والحدب عليهم، تطاردهم نظرات استغراب معلميهم التي ترميهم بمعاني الإشفاق أحيانا والشماتة أحيانا أخرى، وتحيط بهم شقاوة زملائهم الصغار الذين قد يسخرون منهم ويعتدون جسديا عليهم، فتهاجم أشباح تلك الأفكار المخيفة خياله، فتقضّ مضجعه وتطرد من عيونه غفوات النوم المسكّنة.

ومنا من ينتقل به تفكيره بين هذا وذاك، فيضطرب قلبه مرتين ويزداد ألمه ضعفين.

وآخر يفكر في نفسه التي ما زالت في عمر الزهور، فيسرح به الخيال إلى عالم أحلامه الذي كان يمنّي النفس بالعمل من أجل الوصول إلى تحقيقها، فإذا به يقبع في عنبر السجن تحول قضبانه الحديدية دون أن يعيش رومانسية الحياة الزوجية ودون أن يتذوّق طعمها ولا أن يتمكن من إنشاء أسرة ولا أن يستمتع بالمباهج التي توفرها الحياة لأمثاله من الشبان، فيحزّ ذلك في أعماقه.

وفي لحظات أخرى يطوف حول بعضهم طائف يذكرهم بالسبب الذي جعلهم رهن الاعتقال، ويذكرهم بالسلوك الذي ينبغي الالتزام به، والصفات التي ينبغي التحلي بها. ويحملهم الخيال على جناح السرعة إلى مسرح التاريخ، يشاهدون صور الشخصيات البارزة التي خلدت الأجيال أسماءها في ذاكرة الدين البهائي والديانات السماوية الأخرى. يستعرضون عبر صفحات الذاكرة التاريخية جموع المسيحيين الذين استشهدوا متحملين الخوف والأذى والألم، و "بلال الحبشي" و"آل ياسر" الذين ضربت جلودهم وعذبت أجسادهم وصبروا على الألم والأذى، وأرواحهم مستبشرة تتوقّع رضاء الله عنهم. ويتراءى لهم من خلال نافذة التاريخ آلاف البابيين والبهائيين على مسرح الماضي القريب، يجري عليهم ما جرى على أسلافهم الروحانيين، يُعرضون على الجلادين الذين تفننوا في تعذيبهم، لانتزاع كلمة واحدة تخرج من أفواههم يثبت بها تنصّلهم من محبة الله:

منهم من وضعوه مقذوفة في فوهة مدفع.
ومنهم من شقوا جسمه شقين.
ومنهم من سلخوا جلد أخمص قدميه وأجبروه على الركض.
ومنهم من جرّ من أنفه بعد أن خرموه ووضعوا الحبل في أرنبته.
ومنهم من أركبوه معكوسا على الحمار بغاية الذلة والهوان يرافقه الطبالون والزمارون، إمعانا في السخرية والاستهزاء والتشهير به في الدروب والميادين، يعرضونه على الجمهور فرجة مجانية.
وكثير من النساء والرجال الذين لم ينلهم حد السيف، ذاقوا الأمرّين بما تعرضوا له من المكاره. وتحملوا كل ذلك مختارين في سبيل إظهار محبتهم الصادقة لله، والثبات على عهد الإخلاص والوفاء الذي قطعوه على أنفسهم، يوم أن تمسكوا بعروة الله الوثقى وبميثاقه الغليظ.

كان البعض منا، كلما أتيحت لنا فرصة ترتيل "لوح أحمد" في محنتنا، تستوقفنا هذه الآية:

" أن يا أحمد لا تنس فضلي في غيبتي ثم ذكّر أيامي في أيامك ثم كربتي وغربتي في هذا السجن البعيد. وكن مستقيما في حبي، بحيث لن يحوّل قلبك، ولو تضرب بسيوف الأعداء ويمنعك كل من في السماوات والأرضين "

فنشعر كأنما "بهاء الله" يخصنا بهذا النداء ويحثنا على الاقتداء بحياته التي قضاها في السجون والمنافي، لا لذنب اقترفه إلا ذنب تنفيذه لإرادة الله وتبليغ رسالته السماوية الهادية لعباده، فيهوّن علينا ما نحن فيه من العنت وما نخضع له من الإكراهات، وينفخ في نفوسنا نفسا من الروح يمدّنا ببعض القوة الخفية التي تساعد على المزيد من التحمل.
ورسخ في ضمائر بعضنا التعهد بالصدع بإيماننا ولو أدى ذلك إلى إعدامنا، اقتداء بما تفضل به محبوبنا:

" قد اشتد علينا الأمر في كل يوم بل في كل ساعة إلى أن أخرجونا من السجن وأدخلونا في السجن الأعظم بظلم مبين * إذا قيل لهم بأي جرم حبسوا قالوا إنهم أرادوا أن يجددوا الدين * لو كان القديم هو المختار عندكم لم تركتم ما شرع في التوراة والإنجيل * بيّنوا يا قوم ليس لكم اليوم من محيص * إن كان هذا جرمي قد سبقني في ذلك محمد رسول الله ومن قبله الروح ومن قبله الكليم * وإن كان ذنبي إعلاء كلمة الله وإظهار أمره فأنا أول المذنبين * لا أبدل هذا الذنب بملكوت ملك السماوات والارضين "[42]

ظلت هذه الأحوال تتعاقب على حياتنا طيلة تواجدنا في سجن "الناضور" إلى أن جاء موعد المحاكمة.

***

حضر المتهمان اللذان كانا في السراح المؤقت، وكانت فرحة لقائنا بهما تضاهي أسفنا على اعتقالهما. وبوجودهما معنا اكتمل عددنا، 14 معتقلا. حشرونا جميعا في نفس العنبر، ما عدا "فؤاد الطحان" السوري الجنسية الذي ظل طيلة مدة السجن يقيم في عنبر غير الذي يقيم فيه إخوانه في العقيدة، ولعل الغاية من ذلك الإبعاد، في نظر السلطات، هو حماية المغاربة المعتقلين من التأثير السلبي والدعم المعنوي الذي يمكن أن يكون للبهائيين الأجانب عليهم.

ألم يكن هؤلاء الأجانب هم الذين حملوا الديانة البهائية إلى المغرب؟

أدخل البهائيان الملتحقان بنا حديثا روحا جديدة، أضفى جوا مغايرا على ساكنة العنبر بما حملاه معهما من أخبار طرية عما يجري لأفراد أسرنا وعن تفاصيل أحوال بقية البهائيين خارج السجن.

والحق، أن التحاقهما غيّر كثيرا من الجو الذي عشنا فيه طيلة الشهور الثمانية التي قضيناها وراء القضبان. أدخلا معهما نكهة من الابتهاج خاصة "عبد السلام ميلود" الذي كان يمازح رفيقه "شملال" الذي بسبب استنظاره إياهم في "الناضور"، في رحلة تفقدهم لنا، ألقي عليهم القبض. وكثيرا ما كان يقول له:

"كلما خرجنا من البئر الذي أوقعتنا فيها، أوقعتنا في بئر أخرى". يقولها بالاسبانية بلهجة وشكل يثير الكثير من الضحك والابتهاج . ذلك أن " عبد السلام" كان لا يخرج الكلمات التي تبدأ بالضمة إلا بعد أن ينتفخ شدقاه قبل أن تتمكن أوتار صوته من النطق بها.
وكان "عبد السلام" هذا، و"بوعرفة" أكثر المعتقلين محنة، فهما إلى جانب المحنة المشتركة مع بقية زملائهم، كانا يعانيان من أمراض تتطلب تناول الدواء بانتظام.

كان وفود القادمين الجديدين مناسبة لتناول الحديث عما يحدث خارج الأسوار والتدبر من جديد في قضيتنا واستحضار الاحتمالات التي يمكن أن تقرر مصيرنا.

و تواترت على أفكارنا خواطر شتى عندما تأكدنا أن أيادي "حزب الاستقلال" بريادة زعيمه "علال الفاسي" هي التي تدفع بقضيتنا في اتجاه الهاوية. وأنه هو الذي كان جادّا في العمل على إثارة السكان ضدنا بدعوتهم

- **بهاء الله** : **لوح شيخ نجفي** .

إلى التوقيع على العرائض التي تطالب بإدانتنا والقضاء علينا واستئصال جذور البهائية والترويج لفكرة الخروج بمعتنقيها إلى ملعب الكرة قريبا من سوق المدينة لرجمنا. وبذلك يوفرون على السكان مشقة السفر إلى "مكة" لرمي الجمرات رجما للشيطان...

وعلمنا أنه أمكن للبهائيين بعد جهد جهيد، العثور على بعض المحامين الذين قبلوا الدفاع عنا أيام المحاكمة. ولم تكن موافقة المحامين على المرافعة لتبرئتنا أمام الحشود التي تستهجن الدفاع عن أمثالنا، بالأمر السهل: منهم من امتنع لأسباب سياسية ومنهم من امتنع لأسباب دينية اجتماعية، خوفا في تقديرهم من أن ينعكس دفاعهم عن البهائيين والبهائية بالتبعية سلبا على سمعتهم ومستقبلهم المهني، بما قد يتعرضون له من الطعن في غيرتهم على دينهم وإخلاصهم لمقومات وطنهم. الشيء الذي قد يعرّضهم لرميهم بالكفر والخيانة وما يستتبع ذلك من سخط الناس وغضب السلطة عليهم. ومنهم من تشجع وقبل الدفاع شرط أن نتنازل عن العقيدة البهائية.

وفي الأخير تجرأ بعض المحامين وتولوا الدفاع، بدافع واجب المهنة وما تفرضه عليهم من الوقوف إلى جانب المتهم لمساعدة القضاء في الوصول إلى الحقيقة، شرط الاقتصار على مضمون الملف الجنائي دون التعرض لبعده الديني. فوافق البهائيون الذين لم يكونوا يتوقعون أكثر من ذلك.

تعلق أملنا على المحكمة وعلى القضاة الذين يفترض أن تكون لديهم الوسائل الضرورية والمعرفة القانونية اللازمة والعقلية المنطقية المرتبة المنضبطة والضمير الحي الواعي المتيقظ الذي يمكّنهم من إبراز الحقيقة لكل الناس، حتى يعرف العام والخاص أننا لا علاقة لنا بالتهم الموجهة إلينا.
كانت ثقة بعضنا كبيرة في أن دفاع المحامين و نزاهة القضاة، وما يفرضه عليهم الضمير المهني ورجاحة العقل من التحري والالتزام بمقتضيات القانون، قمين بإنصافنا ودحض ما نسب إلينا من التهم الباطلة.

وبمثل هذه الدرجة من الثقة كان القلق والفزع من هول المحاكمة يسكن قلوبنا. لدرجة أني ارتجلت يوما:

عاشر دجنبر يوم يراقبني وعلى صدري ثقل رمل كثبان

***

وصل اليوم الموعود، يوم الاثنين 10 ديسمبر، الذي يوافق ذكرى يوم الاعلان العالمي لحقوق الانسان التي تنص مواد ميثاقه على أن:

" لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين . ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته ، وحرية الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاتها سواء أكان ذلك سرا أم مع الجماعة " .

" لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان، دون أي تمييز ، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو أي رأي آخر ، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو الميلاد أو أي وضع آخر ، دون أية تفرقة بين الرجال والنساء ".

وتزامن أيضا مع الاستفتاء على الدستور المغربي الذي لم يكن قد مضى على قبوله من طرف الشعب أكثر من ثلاثة أيام قبل الشروع في محاكمتنا.

والذي ينص في فصله السادس على أن:

" الإسلام دين الدولة، والدولة تضمن لكل واحد حرية ممارسة شؤونه الدينية".

على أن المرجعية التي كنا نستند إليها، لم تكن الدستور الذي لم نكن على علم بمواده ولا تمكنا من التصويت عليه، بحكم تواجدنا في الحبس، ولا على المواثيق الدولية التي كنا، كعامة الناس، قلما نسمع عنها أو نهتم بها، لكن مرجعيتنا كانت الآيات التي وردت في القرآن، أمثال:

" لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي ..."[43]

" ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين"[44]

" إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين "[45]

" فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر"[46]

***

ذات صباح غائم اقتادنا رجال الشرطة في شاحنتهم الصغيرة إلى المحكمة، وكانت دهشتنا كبيرة لمشاهدة ذلك الجم الغفير من المواطنين المحتشدين حول مبناها، والشرطة تدفع بهم بعيدا عن مكان وقوف الشاحنة حتى نتمكن من النزول منها. لم نكن نعرف ما إذا كان هذا الشعب قد احتشد للتشفي والنكاية بنا أو لمساندتنا أو لمجرد الفرجة المجانية التي منحتها لهم محاكمتنا.

في وسط ذلك الجمع أمكن لي وللذين أسعفهم الحظ مثلي، رغم توترنا واضطرابنا، أن نلمح بين المحتشدين أحد المعارف أو الأقرباء أو الأصدقاء، يلوّح بيده على استحياء فتصل الإشارة إلى قلوبنا نفحة عابرة تثير في نفوسنا نسمة من الارتياح.

دخلنا إلى قاعة المحكمة التي كانت مقاعدها الأمامية المواجهة لمنصة هيأة القضاة من نصيبنا. وبعد لحظة قصيرة، تم الإعلان عن دخول هيأة القضاة، فوقف الجميع إجلالا وتعظيما لما يمثله القضاء من قيم العدالة التي لا يستقيم الحكم بدونها ولا تتحقق الراحة إلا بها.

استقر أعضاؤها: السيدان "شعيب الإدريسي" و"عبد السلام لعرج" وكاتب الضبط السيد"محمد حمو السيدالي" إلى جانب ثلاثة مستشارين محلفين وممثل النيابة العامة السيد "محمد بن الحداد".

بعد انتصابهم على أرائكهم المنصوبة على المنصة المرتفعة، أعلن الرئيس السيد "إدريس الزروالي" عن افتتاح الجلسة باسم صاحب الجلالة ملك البلاد، وبسط ملف القضية، محل النظر أمامه، ونادى على أول متهم في اللائحة.

هل أنت المسمى "الكبداني محمد محمد علي" . أجاب الواقف الممتثل أمامه في قفص الاتهام:

- نعم
- إنك متهم بجرائم الثورة والفتنة؛ والمس بالأمن العام؛ وتكوين عصابة المجرمين ؛ وتهديد الأمن الداخلي ؛ وانتهاك حرمة الشعائر الدينية ؛ ومخالفة الفصل الثامن من ظهير الحريات العامة . فما قولك في هذه التهم المنسوبة إليك ؟

---

[43] - البقرة : 256 .
[44] - يونس : 99 .
[45][45] - القصص : 56 .
[46] - الغاشية : 21 و 22 .

- إنها تهم لا أساس لها من الصحة.
- هل أنت بهائي ؟
- نعم .
- كيف عرفت البهائية ؟
- سمعت عنها وقرأت بعض الكتب التي تتحدث عنها ، وتأكدت بأنها الحقيقة فآمنت بها.
- من أخبرك أول مرة بها ؟
- كان ذلك بالصدفة، عندما أخبرني صديقي "محمد معنان" بأن البهائية دين جديد . لم أصدق الخبر في بادئ الأمر ، لكن بعد القراءة والتفكير تأكدت من صحة الخبر
- أين ظهرت البهائية ؟
- ظهرت في إيران وسط القرن التاسع عشر .
- هل لكم صلاة وصيام وزكاة وحج مثل المسلمين ؟
- نعم .
- كيف تصلون ؟
- في البهائية ثلاثة أنواع من الصلوات ...

وتتابعت الأسئلة على ضوء أركان الإسلام الخمسة وطريقة أدائها...
أكثر القاضي من استقصاء الجزئيات والتفاصيل، لدرجة أحسست وأنا واقف في قفص الاتهام أن أعصابي تكاد تنفلت مني، وكأني تلميذ يسأل من طرف أستاذ متحايل، قرّر مسبقا رسوبي في الامتحان، ولا همّ له غير تسقّط العثرات، بإلقاء أسئلة ملغومة ليوقعني في فخاخها، فتنفجر في وجهي وتقطع أوصالي.

تمالكني الضيق والضجر من سخافة اللعبة وتفاهتها، وانتبهت إلى أن حالي مع القضاة، ليست أحسن من حالة ومصير الثور الذي تتناوشه سهام االمصارعين المشاة ورؤوس رماح الفرسان في انتظار غرزة مهارة السيّاف القاضية في حلبة مصارعة الثيران. وأن المراد من الأسئلة مجرد الكشف عن اختلاف الشعائر التي نمارسها عن شعائر الإسلام، من أجل تشويه حقيقتها واستقطاب سخرية واستهزاء وغل الحضور. خاصة عندما دخل في تفاصيل تخص الأراض المقدسة التي بها قبلة البهائيين ومزاراتهم. سألني القاضي:

- أين تقع القبلة البهائية إذا كنت في المغرب ؟
- تقع جهة الشرق...
- وإذا كنت في تركيا ؟
- لست أستاذا في الجغرافية .
- ما هو دور البهائية بخصوص وحدة العالم، من الوجهة السياسية ؟
- إن مستواي الفكري لا يسمح لي بالجواب على هذا السؤال.
- قلت إن البهائية لها مبادئ سياسية، ما هي هذه المبادئ السياسية ؟
- لم أقل إن البهائية لها مبادئ سياسية، وإنما قلت: لها مبادئ أساسية، منها:

وحدة الأديان؛ وحدة العالم الإنساني ووحدة اللغة. ومنها تحري الحقيقة؛ و مساواة الرجل والمرأة؛ واتفاق العلم والدين وسواها ... مثل نبذ التعصب ...

- ما رأيك في الإسلام ؟
- إنه دين من عند الله .
- ما العلاقة التي توجد بين الأديان ؟
- إن جميع الأديان من الله، يتعاقب ظهورها وفق ما تقتضيه إرادة الله
- هل البهائية مثل الأديان الأخرى ؟
- إنها دين مستقل، مثلها مثل الأديان الأخرى.

البهائية تعارض الإسلام الذي هو دين الدولة الرسمي، فكيف تقول إن البهائية لا تمس الحكومة التي تقوم على أساس الإسلام ؟

- أعتقد أن الإسلام دين من عند الله وأن البهائية كذلك، وليس في الإسلام ما يجبر الانسان على أن يكون مسلما بالقوة .
- ما موقفك الآن من البهائية ؟
- إني أومن بها .
- بحكم أنك معلم، هل تعلم التلاميذ البهائية أم الإسلام ؟
- أعلمهم مقررات وزارة التعليم .

أخرج القاضي من الملف ورقة شفافة، مستنسخة على ورق "الكاربون"، مكتوب عليها بخط اليد. بسطها أمام بصري، وسألني:

- هل هذا خطك ؟ حملقت فيه وأجبت:
- نعم، إنها مناجاة.
-

كانت هذه المناجاة قد أرسلها لي "فوزي زين العابدين"، واستنسختها حتي يستفيد منها البهائيون الآخرون. وهذا نصها:

" رب رب، لك الحمد والشكر بما هديتني سبيل الملكوت وسلكت بي هذا الصراط المستقيم الممدود ونورت بصري بمشاهدة الأنوار وأسمعتني نغمات طيور القدس من ملكوت الأسرار واجتذبت قلبي بمحبتك بين الأبرار.

رب، أيدني بروح القدس حتى أنادي باسمك بين الأقوام وأبشر بظهور ملكوتك بين الأنام.

رب، إني ضعيف قوني بقدرتك وسلطانك، وكليل اللسان أنطقني بذكرك وثنائك، وذليل عززني بالدخول في ملكوتك، وبعيد قربني بعتبة رحمانيتك.

رب، اجعلني سراجا وهاجا ونجما بازغا وشجرة مباركة مشحونة بالأثمار مظللة في هذه الديار إنك أنت العزيز المقتدر المختار "

- لما ذا استنسختها ؟
- حتى يستفيد منها غيري .
-

عندها علق النائب العام، مستفسرا:

- أراك تتحدث بلهجة عربية تختلف عن المغربية، هل يعلمونكم هذه اللهجة قبل أن تكونوا بهائيين أو بعد انخراطكم في البهائية ؟
- إننا سيدي، لا نتحدث بالعربية في "الناضور". والعربية التي نتكلمها، تعلمناها من الكتب ومن أساتذتنا ، ومن الأفلام المصرية و"فريد الأطرش" و"صباح" ...

ضحك بعض الحاضرين في القاعة، ومنهم من تجرأ على التصفيق !

***

جاء دور الدفاع وشرع المحامي في إلقاء أسئلة، فيها الكثير من الحرج بالنسبة لي، نظرا لما يتضمنه السؤال من مصطلحات تحمل الكثير من المعاني الخطيرة، لم تخطر ببال أحد منا عندما كنا نستحضر الأسئلة المحتملة التي يمكن أن يلقيها علينا القضاة، ولم نفكر فيها أبدا، مثل :

- هل تتوفر على رخصة السلاح الذي في حوزتك ؟ فأجبت على الفور:
- أي سلاح وأية رخصة هذه التي تتحدث عنها ؟
- ألم يجد لديك رجال الأمن أي سلاح ؟
- لا، سيدي .
- هل لديك سلاح في منزلك ؟ هل استعملت سلاحا لمنع الناس من أداء صلاتهم ؟
- لا .
- هل لديك في مخبإ ما ، بنادق أو مسدسات أو قنابل ؟
- لا .
- هل استعملت مسدسا لإجبار شخص ما على فعل شيء أو تركه ؟
- لا ، إني لم أمسك بيدي مسدسا طول حياتي .
- هل ركبت دبابة حاولت أن تهدم بها مسجدا ؟
- لا .

وتتابعت أسئلة مخيفة من هذا القبيل، سرّبت الهلع إلى روعي، وتملكني تساؤل مريب في ما إذا لم يكن هذا المحامي الذي يدّعي الدفاع عني، يحاول بدوره توريطي في أمور لا علاقة لي بها، مثل الدبابات والقنابل التي تستعمل في الانقلابات العسكرية.

لم أكن أدرك، أن المحامي يحاول أن يبين للقضاة بالواضح الملموس، أن التهم الموجهة لموكله لا علاقة لها بالأسئلة حول الدين والصلاة والصوم ... التي تركز عليها المحاكمة، وإنما هي تهم لها علاقة بأفعال تتطلب توفر أدوات إثبات محسوسة محجوزة لدى المتهمين وشهود إثبات. وأن على المحكمة أن تحاسب المتهم على أفعال ارتكبها وليس على آراء وأفكار ومبادئ يتبناها أو دين يؤمن به. فالمحكمة، محكمة جنائية وليست محكمة دينية.

***

كانت الأسئلة الملقاة على باقي المتهمين، الذين تتابعوا على الوقوف في قفص الاتهام، نمطية لا تختلف كثيرا عن الأسئلة السابقة، تهدف إلى التأكد من انتساب المتهمين الماثلين أمام هيأة المحكمة إلى الدين البهائي وإلى معرفتهم لمبادئها وممارستهم لشعائرها.

استمرت المحاكمة على هذا النمط على مدى خمسة أيام. كانت أجوبتنا عليها متماثلة ومختلفة أحيانا، باختلاف المواقف التي اختارها واتخذها كل واحد منا:

فالذين أنكروا انتسابهم للبهائية صرحوا بأنهم إنما قرأوا بعض كتبها أو سمعوا زملاءهم يتحدثون عنها. فقد أجاب "بنشلال" على سؤال:

- متى آمنت بالبهائية ؟
- أنا مسلم، وأبقى مسلما، وصرحت أمام قاضي التحقيق أني مسلم، وأني ما زلت مسلما وأني لم أؤمن بالبهائية .
- إذا، ما السبب الذي دعا إلى اعتقالك إذا كنت بريئا ؟
- أنا لا أعرف السبب، وألتمس من رئيس المحكمة أن يبين لي السبب ...

أو ما أجاب به "المتيوي" على نفس السؤال:

- لم أؤمن أبدا بالبهائية، ولم أكن أبدا بهائيا ولو ليوم واحد. كل ما أستطيع قوله هو أني اهتممت بالبهائية كدراسة من أجل الاطلاع فقط .
- ما رأيك الشخصي في البهائية ؟
- ليس لي أي رأي شخصي، وقبل أن أكوّن الرأي، ألقي علي القبض.

كان القاضي لا يستثني أحدا من السؤال :

- ما رأيك في البهائية أو ما موقفك من البهائية أو ما اعتقادك في البهائية الآن؟

أكد أغلبية المتهمين، بطريقة أو أخرى، إيمانهم بالبهائية أمام هيأة المحكمة والجمهور الحاضر في القاعة... وكان كل واحد منا واثقا من أن مصيره معلق بخيط جوابه على سؤال الانتماء إلى البهائية.

والجدير بالذكر أن جميع المعتقلين، رغم ما يوحي به موقف المحكمة من الصرامة والقسوة تجاه الذين سيظلون ثابتين على إيمانهم بالبهائية، لم ينبس ولا واحد منا بكلمة تسيء إلى البهائية أو إلى رموزها المقدسة أو زملائهم البهائيين، رغم ما كانت ترمي إليه بعض الأسئلة من إثارة ذلك الاتجاه. مثل ما صرح به "بنشلال"، الذي أكد أنه ليس بهائيا، عندما سئل عن السبب الذي يجعله يتلفظ بكلمة الاحترام "حضرة" كلما ذكر اسم "بهاء الله":

- إنه من الأدب أن نحترم الأشخاص الذين لا نعرفهم.

أما الذين أصروا على التشبث بإيمانهم مثل "بوعرفة معنان" الذي كان ذا أنفة وصراحة، لا يقبل الضيم ولا يرضى بالهوان، فإن الأسئلة المستفزة جعلته يجيب بكيفية لا ينتبه إلى ما ترمي إليه الأسئلة من استدراج أجوبة المتهم إلى ما يخدش شعور المسلمين المستمعين المؤمنين بخلود دين الإسلام وأبدية شريعته الصالحة لكل زمان ومكان. فأجاب، دون مراعاة، عن سؤال يتعلق بتعارض البهائية مع شريعة الإسلام، بأن الشريعة البهائية نسخت شريعة الإسلام.

ثم أضاف عندما سئل في النهاية عن السؤال المكرر المعتاد، لإثبات ما إذا كان بهائيا:

- ألست نادما الآن على تمسكك بالبهائية ؟ أجاب:
- ندمت على الأيام التي لم أكن فيها بهائيا.

***

في مرحلة من مراحل سير المحاكمة، طلب الدفاع من المحكمة تأجيل القضية في انتظار استلام رد الحكومة المغربية على رسالة السكرتير العام لجمعية حقوق الإنسان الدولية الموجهة إلى سفير المغرب لدى هيأة الأمم المتحدة "السيد أحمد بنهيمة" الذي قدم نسخة منها لرئيس الجلسة، ورد فيها:

"... إن هذه السياسة من قبل حكومة المغرب تقلقنا، خاصة وأنا كنا نعتقد الاعتماد على أن قانون المغرب يعطي حرية العقيدة كاملة للجميع. لا توجد إشارات في المعلومات التي بين أيدينا، تشير إلى أن هؤلاء الأشخاص اقترفوا ما يسيء إلى الحكومة المغربية، أو حاولوا بأي وجه فرض آرائهم الدينية على الآخرين . تبدو هذه المسألة بداهة، أنها تتعلق بحرية العقيدة المحضة.
هل لنا أن نسألكم عن سياسة حكومتكم في هذه المسألة، وما هي نيتكم تجاه هؤلاء المسجونين؟ "

ألحت النيابة العامة على استمرار الجلسة بدعوى "أن المشكل يتعلق بمقوماتنا الدينية والوطنية"، مقرّرا أن الإسلام محفوظ ويستحيل تزويره، مستدلا بآية من القرآن:

" إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون "[47]

وصولا بذلك إلى أن أية سلطة مهما كانت، لن تتمكن من التدخل في المحكمة.
وبعد رفع الجلسة من أجل مناقشة الحادثة والمشاورة، عادت الهيأة ليعلن رئيسها استئنافها لعدم ارتكاز الدفاع على الأسس القانونية.

كما قدم الدفاع مذكرة، يحاول مرة أخرى تأجيل الجلسة، طالبا من المحكمة أن يدلي وزير الدولة المكلف بالشؤون الإسلامية بالتوضيحات حول التناقض بين طلبه بمتابعة المتهمين بسبب اعتناقهم الدين البهائي، وتصريحاته لجريدة "صوت الجامعات" المتعلقة بالمغربي المسمى "بنزكور" من " فاس" الذي ارتد عن الإسلام وآمن بالديانة اليهودية.

طلب النائب العام من هيأة المحكمة رفض المذكرة بعلة أن المتابعة الجارية للمتهمين إنما وقعت "بعد القرار الذي اتخذه الشعب والمقدم لصاحب الجلالة الملك ثم إلى رئاسة المجلس وجميع الوزراء".

وبعد المداولة، رفضت المحكمة مرة أخرى طلب الدفاع.

لعل الدفاع كان يرمي، من وراء ذلك، إثبات أن تبديل المسلم لدينه، في نظر وزير الشؤون الإسلامية المحرك لملف البهائية، ليس ممنوعا قانونا، ومن ثم فإن البهائيين يدخلون في نفس الإطار، وبالتالي فلا حاجة إلى متابعتهم بناء على تصريح الوزير للجريدة السابقة الذكر.
بل إن جريرة المسلم الذي يتهوّد وينكر مصدر الإسلام الإلهي أعظم، في المنطق، من المسلم الذي يؤمن بالبهائية ويؤمن برسالة الإسلام وبنبيه الذي أتى بها رحمة للعالمين. ولو استجابت المحكمة لطلب الدفاع، وحضر الوزير وحدثت المقارنة، لتحولت المحاكمة إلى متابعة عقائدية وجدل فلسفي ديني لا ينتهي.

أمام إصرار هيأة المحكمة على السير حثيثا في الخط المرسوم، قرّر الدفاع الانسحاب من المحكمة لعدم أخذ هيأة القضاة بدفوعاتهم، واحتجاجا على مجرى المحاكمة البعيد عن مقتضيات متابعة المعتقلين على التهم الموجهة لهم.

غادر الدفاع القاعة بعد أن أرشد باقي المتهمين الخمسة الذين لم يستجوبوا بعد، بعدم الإجابة على أسئلة المحكمة وعدم قبول أي محام للدفاع عنهم. وأوعز إلى الأستاذ "التريكي"، المحامي الذي قدم من "وجدة"، أن يقتصر على تقديم مذكرة المحامين للمحكمة، بينما قفل الأساتذة "بالي" (الفرنسي) و "المعطي بوعبيد" و "أحمد بلحاج" عائدين إلى مدنهم.

***

[47] - **الحجر: آية. 9 .**

أعلن ملك المغرب، الملجأ النهائي للمواطنين المتظلمين، في ندوة صحفية يوم 12 ديسمبر، والمحاكمة جارية، عن موقفه الواضح من البهائية، القاضي بعدم السماح للبهائيين بممارسة شعائرهم الدينية في المغرب.

وبذلك تركنا وحدنا في محنتنا، نتحسس حبل الأزمة الذي يضيّق الخناق علينا، نواجه قدرنا الذي لا يحسدنا أهل الدنيا عليه. وكأنما قوى الطبيعة بدورها، قد عيل صبرها وضاق صدرها بما ستؤول إليه العاقبة، فتعاطفت مع أهالينا الذين أخذت نبضات قلوبهم تتسارع من الهلع ومشاعرهم يعتصرها الألم، فتجهمت أجواء المدينة واكفهرت السماء وهاجت الرياح التي هبّت مولولة، وماج البحر الذي ارتفعت أمواجه غاضبة، تخترق حاجز الكورنيش وتلطم أبواب وجدران المنازل المحاذية، كما تلبدت السماء بالغيوم التي سالت الدموع من عيونها غزيرة جارفة، تحاكي دموع الأمهات المتضرعات وحرقة الزوجات المتألمات، وتجسّد ما وصف به بهاء الله وضع البشرية في "لوح الحكمة":

" ... في هذه الأيام التي فيها تغبّر وجه العدل وأنارت وجنة الجهل وهتك ستر العقل وغاضت الراحة والوفاء وفاضت المحنة والبلاء وفيها نكثت العقود ونقضت العهود لا تدري نفس ما يبصره ويعميه وما يضله ويهديه.."

تتابع على نفس الوتيرة، رغم غضب الطبيعة، استجواب بقية المتهمين الذين رفضوا الإجابة على أسئلة المحكمة امتثالا لإرشادات المحامين.
أحضر المتهم الرابع عشر الذي كان راقدا في المستشفى، لما حل بصحته من الضرر بسبب عدم توفير الأدوية والشروط الصحية الضرورية لمعتقل يعاني من "مرض السكري".

امتثل أمام القاضي واقفا في قفص الاتهام، واهن القوى بادي الضعف، يقوى بالكاد على الوقوف.

عبّر بصوت محتضر لهيأة المحكمة عن عجزه على الوقوف، فأشفق القاضي على حاله وأمر بإحضار كرسي إلى قفص الاتهام ، يعينه على متابعة الاستجواب .

- سأله القاضي عن الدواعي التي انتهت به إلى اعتناق البهائية ؟

أجابه ضعفه وعجزه وهوانه، وكأن شخصا آخر يتحدث في داخله بصوت هادئ رتيب يسمع ولا يسمع، أشبه ما يكون بالنجوى، يعبّر عن المعاني التي ذكرها "عبد البهاء" في أكثر من مقال تعبيرا عن وحدة الجنس البشري ووحدة الأديان:

- سيدي، سمعت أن رسالة إلهية جاءت من السماء تدعو إلى عبادة الله

وإلى محبة البشر، لأنهم جميعا جنس واحد، مثلهم مثل أزهار متنوعة في حديقة واحدة، لكل زهرة لونها ورائحتها الخاصة التي تزيّن بها معرض الحياة. وأن جميع الأديان من الله يكمل بعضها بعضا ولا يكتمل دين إلا بالآخر، مثل البذرة التي لا بد منها للنبتة، والنبتة التي لا بد منها لظهور البرعم، والبرعم الذي لا بد منه لظهور الزهرة التي تؤدي إلى ظهور الثمرة... وأن جميع رسل الله جاءوا من أجل المحبة والألفة بين الناس ومن أجل السلام والاتحاد... فآمنت بها...

لكن أقواله ومشاعره لم تؤخذ بعين الاعتبار كما لم تؤخذ أقوال ومشاعر من سبقه من المتهمين المستجوبين.

وبالاستماع إليه في جو يثير الشفقة ويستدرّ الرحمة، أعلنت المحكمة الانتهاء من الاستماع إلى جميع المتهمين، وأعطت الكلمة للسيد النائب العام ليدلي بمرافعته، التي قال فيها:

" ... نحن اليوم أمام مجموعة ضالة من المغاربة، تركوا دين أسلافهم واعتنقوا دينا لا علاقة له بدينهم.هذه المجموعة تتكوّن، ويا للأسف ! من المتعلمين. معظمهم من المعلمين الذين يدرّسون أبناءنا، وآخرين من الموظفين.هذه المجموعة الضالة لها علاقة بعناصر أجنبية ترغب في زرع بذور الخلاف في قلوب المغاربة وتعمل على تفرقة الناس لصالح الأجانب المنتشرين في المغرب، الذين أغلبهم من الإيرانيين وغيرهم ...إن الصهيونية تشجع البهائية بتوفير المال اللازم لها، حتى تمزق الوحدة العربية وتضرب المسلمين في دينهم ...

نحن اليوم في حالة الدفاع عن الإسلام.

إن في مثل هذه الحالة، قام خليفة الرسول، سيدنا أبو بكر بالجهاد من أجل الدفاع عن الدين..."

وفي نهاية المرافعة، طالب الوكيل من المحكمة أن تصدر في حق هؤلاء الضالين أقسى عقاب:

" الإعدام لثلاثة؛ السجن المؤبد لسبعة؛ عشرون عاما سجنا لباقي المتهمين ".

أعلنت المحكمة نهاية المرافعات وانسحبت للمشاورة وأخذ القرار... وتركتنا وذوينا نحبس أنفاسنا منتظرين على لظى القلق والخوف والتوتر.

عادت هيأة المحكمة للنطق بالحكم. أخذت مجلسها، ووقفنا صفا واحدا، متوترين متوجسين وجلين لسماع ما قررته هيأة العدالة.

شرع رئيس الجلسة في قراءة نص الحكم، معدّدا الحيثيات التي اعتمدها من الظهير الشريف، المؤرخ في 2 ماي 1961، المتضمن للقانون الأساسي للمملكة المغربية الذي ينص على أن المغرب، مملكة عربية إسلامية؛ وأن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة؛ وأن الدولة تسهر على وحدة الأمة، وتحارب كل ما من شأنه أن يفرّقها؛ والقانون الأساسي يعلن أن كل مساس بالمؤسسات الأساسية للمملكة يقع تحت طائلة القانون، والإسلام من المؤسسات الأساسية للمملكة؛ والقانون الأساسي يهيمن على القوانين العادية...

ثم انتقل إلى الحيثيات المعتمدة لإدانة البهائيين المعتقلين. وعدّد المبادئ والأسس التي تقوم عليها البهائية، حسب ما أوردته الكتب المعادية لها التي تتحدث عنها، منها:

الحلول؛ واختلاف الأحكام عن شريعة الإسلام السمحة المتعلقة بالصوم والصلاة والوضوء والتقويم والميراث والطلاق؛ وتأسيس المحافل الروحانية وصندوق الخيرية؛ ونشر البهائية؛ واستبدال الحكومات القائمة في العالم بما فيها الحكومة المغربية، بحكومة بهائية عالمية.

وأضاف:

حيث أن اعتناق البهائية يفرض على أتباعها الممارسة الدينية وتطبيق مبادئها الأساسية الهادفة إلى السيطرة على العالم، دينيا وسياسيا، بمضاعفة خلاياها، وإنشاء علاقات حميمة بينها في داخل المغرب وفي الخارج، حتى تزداد البهائية قوة، وتحقق هدفها الأعلى، المتمثل في إخضاع العالم إلى نظام الدولة البهائية الوحيد، وذلك بالقضاء على الوطنية المغربية، بواسطة الهجوم على دين المواطنين المسلمين، واتخاذهم وسيلة لقلب الحكومة، وإدماج المغرب في الدولة البهائية العالمية؛ ذاكرا أن مجرد التجمع في أماكن من أجل تطبيق المبادئ البهائية، التي منها التبشير، وإخراج المواطنين المغاربة من دينهم الإسلامي الذي يتمسكون ويفتخرون به وبقيمه، التي هي أعز من أنفسهم وأموالهم؛ وأن مجرد دعوة الناس لاعتناق البهائية التي تعارض مبادئها مبادئ الإسلام، يعتبر عملا مقصودا، الهدف منه منع المسلمين المدعوين من ممارسة دينهم ...

ثم حشد ترسانة من مواد القانون الجنائي، التي صففها صفّا يتكون من حوالي 16 وحدة، كل وحدة منها تحمل راكبها إلى وادي الهلاك. ثم نبّه إلى أن المحكمة اعتمادا على الحيثيات التي سلف ذكرها... وأطلق في النهاية رصاصة الحكم، بإدانة تسعة متهمين وتبرئة الباقين، بسبب عدم توفر العناصر الكافية لإدانتهم.

***

كنا واقفين وآذاننا صاغية وأبصارنا مركزة على شفتي القاضي المتحركة، ونبضات قلوبنا متسارعة لدرجة أن "فؤاد الطحان" الذي كان واقفا على يميني قال لي هامسا:

- ما لي أشعر بقلبك ينبض بسرعة كبيرة. أجبته:
- كلا، ليس ذاك قلبي، إنه كبدي. أما قلبي فقد توقف عن النبض.
-

أخذ القاضي في تسمية المتهمين والأحكام الصادرة في حق كل واحد منا، بدءا بالذين برّأتهم المحكمة. وبينما كان القاضي يذكر أسماء الذين حكمت عليهم بالسجن المؤبد، كان "فؤاد الطحان" يقول للمحكوم عليهم: "ابتسموا ... ابتسموا...". وعندما نطق بأحكام الإعدام التي صدرت في حق الثلاثة الباقين، صرخ "بنشلال"، أحد المبرّئين، الذين حكمت المحكمة ببراءتهم، بصوت متحشرج عال يخنقه البكاء:

إن هذا ظلم ! إن هذا ظلم كبير !

أعلن القاضي عن انتهاء المحاكمة، وانصرف القضاة وقد تخلصوا من عبء ثقيل بعد أداء واجبهم النبيل، لعلهم يخلدون إلى بعض الراحة بعد عناء العمل المسترسل الممتد على مدى خمسة أيام دون انقطاع، يلتمسون لأنفسهم الخلاص من التعب المضني الذي كلفهم هذا الملف المعقد الذي استطاعوا في النهاية أن يجدوا له المخرج المناسب وفق الخطة المدبرة من قبل الذين هيأوا فصولها من البداية إلى هذه النهاية المنشودة التي مثلها هذا الحكم القاسي الذي جاء ثمرة لكل هذه الجهود.

خلت القاعة من القضاة ومن الحضور الذين واظبوا على تتبع جلسات المحاكمة بقلق وتوقع وانتظار إلى أن استمعوا مذهولين إلى الأحكام التي تمخضت عنها. أحكام، فاقت قسوتها توقّع حتى أعداء البهائيين في "الناضور"، المناوئين الحاقدين الذين كان أكبر رجائهم أن يؤدّب أبناؤها تأديبا يرجعون به عن غيّهم ويعودون إلى الرشد والصواب.

حل محل الحاضرين في القاعة السكون والفراغ المخيم إلا من وجودنا ومن بعض رجال الشرطة الذين يحرسوننا وينتظرون الأمر بترحيلنا.

توقف زماننا، ولم نعد نشعر بنبضات قلوبنا المكلومة أو نحس بذواتنا المنكسرة، وكأن أنفاسنا مكتومة وأفكارنا مشلولة وأصواتنا مخنوقة. جلسنا على المقاعد حيارى، لا يعرف الكلام إلى شفاهنا سبيلا، ولا يمر بخواطرنا إحساس واضح سليم أو تخطر ببالنا فكرة معقولة نعبر بها عن ردود أفعالنا الطبيعية بالصراخ أو الاستنكار أو القبول، كأنما هو الطوفان أغرقتنا أمواجه الطاغية وابتلعتنا في لجّة أحشائها المظلمة... وشلت قدرتنا على الحركة والمقاومة والصراخ.

***

اقترب منا رجال الشرطة ووضعوا الأصفاد في معاصم المحكوم عليهم بالإعدام، وقادوا الجميع إلى جوف السيارة حيث راكمونا وقادونا من جديد إلى مقرنا الكريه بالسجن.

أما أفراد أسرنا الذين جلسوا على لظى الانتظار طيلة فترة النطق بالحكم، صابرين متلهفين، إلى أن طرقت آذانهم مطرقة الأحكام القاسية المفاجئة التي عطّل دويها النبض في دماغهم وشلت صدمتها خلايا تفكيرهم وقلقلت ضجتها اتزان عقولهم... فلم يتمالكوا إلا أن ينظروا حولهم بعيون بليدة جفّف الحزن مآقيها ويفكروا بعقول خامدة أطفأت الصدمة نورها، ولا يملكون غير إرادة انهارت قواها وقلوب تنبض بالحزن... ليس

بمقدورهم الحيلولة دون إلحاق الأذى بفلذات أكبادهم ولا بأيديهم وسيلة يستطيعون بها دفع الضرر عن أعزتهم الذين يعرفون سيرتهم وحسن سلوكهم وتصرفاتهم أكثر من الذين أصدروا الحكم عليهم.

خرجوا مذهولين غير مصدّقين، تعساء حائرين، والألم يعصر قلوبهم، يعبرون الشوارع ، يرمون بأرجلهم في بقع المطر تائهين ضائعين.

ومنهم والدي الذي كان يعرج برجله المجروحة في الحرب، يدفع جسمه دفعا دون وعي أو شعور إلى حيث لا يدري، إلى أن وصل إلى منزله وقد تلطخت ملابسه بالماء والطين دون أن يشعر بأنه قد وقع في بقعة ماء.

رمى بكل ثقله وسط مدخل المنزل ، متألما متأوّها صارخا:

محمد مات، آ محمد ... قد مات ! محمد حكموا عليه بالموووووت ! فوقعت أختي الكبيرة مغشيا عليها، وترنحت والدتي ممسكة بالجدار.

****

6- في بحبوحة الغـــــرق

أ- الحبس الانفـــــرادي.

" طوبى لمن استضاء من شمس كلمتي. طوبى لمن زين رأسه بإكليل حبي. طوبى لمن سمع كربي وقام لنصرتي بين شعبي. طوبى لمن فـــــدى نفسه في سبيلي وحمل الشدائـــــــد لاسمي. طوبى لمن اطمأن بكلمتي وقام بين الأموات لذكري... "

لوح الأقدس

***

اقتـــرب منا رجال الشرطة، ونفوسهم تأبى التسليم بتجريم الذين كانوا، في تقديرهم، مجرد متهمين سيبرئهم القضاء أو يصدر في حقهم عقوبات زجرية ملائمة.
اقتربوا منا صامتين وأوثقوا معاصمنا بالحديد وقادوا بقية المدانين مثنى مثنى إلى مصير مجهول، لا يقل عن مصير الخرفان التي تقاد إلى المذبح في يوم العيد.

سلمونا إلى حراس السجن الذين أعادوا المحكوم عليهم بالحبس مدى الحياة إلى العنبر الذي كان يؤويهم من قبل، بينما أودعوا المحكومين بالإعدام في زنازين منفردة.

كان جميع المحكومين بالحبس المؤبد متزوجين ما عدا "العمراني". وأحسب أنهم قد تصوّروا حرمانهم من زوجاتهم وما سيحدث لهن بعد قضاء ما تبقى من حياتهم في السجن وإلى ما سيؤول مصير أبنائهم في غيابهم الدائم عنهم. يتمالكهم الحزن والأسى وشعور بالمهانة وإحساس عميق بالعجز وقلة الحيلة لدفع الضرر عن أهلهم أو القيام بأي شيء لصالحهم أو من أجل مستقبلهم الضائع. فخان بعضهم التجلد وانفجرت عيونهم بالدمع.

أمام هذا الوضع المحزن الكئيب، التفت "جباري" إلى "العمراني" قائلا له:

- ألا تحفظ القرآن ؟
- بلى.

وشرع في تلاوة سورة "يوسف" بصوته الرخيم وقراءته الحسنة التي ترتقي الروح بطلاوتها و تلين القلوب بعذوبة لحنها. وما أن وصل إلى قوله تعالى:

" قال: رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه، وإلا تصرف عني كيدهن، أصب إليهن، وأكن من الجاهلين "[48]

حتى غص صوته من التأثر واختنقت الكلمات في حنجرته، وانهمرت عيناه بالدموع، وعجز عن الاستمرار في التلاوة. فقال له "جباري":

- "أحسنت. هكذا نبكي جميعا، هكذا يبكي حتى الذين لا يقدرون على البكاء".

تنهد "العمراني" معيدا قول رب العزة، الحاكم في الرقاب ومقلب قلوب العباد...

---

[48] - يوسف : 33 .

" رب، السجن أحب إلي مما يدعونني إليه... "

قضوا ليلتهم وسحابة اليوم التالي دون أن ينالهم شيء من الأكل و الماء أو أن يتصل بهم أحد من أهلهم وذوي قرابتهم. أما نحن المحكومون بالإعدام الذين لم نكن متزوّجين ما عدا الأستاذ السوري "فؤاد الطحان" الأب لثلاثة أطفال ذكور، فقد سيق كل واحد منا على انفراد إلى زنزانة خاصة به.

***

اقترب الحراس من باب الزنزانة التي كنت أجهل وجودها في هذا السجن، رغم إقامتي الممتدة فيه على مدى ثمانية شهور.

دخلت في ظلامها الدامس إلا من نور مصباح خافت وسط سقفها المقعر، وارتميت بجسدي المنهك على ما كان مفروشا على الأرض دون أن أشعر به، وأخذتني سنة من النوم أو نوبة غيبوبة لم أستيقظ منها إلا بعد فترة، لا أدري هل كان أمدها طويلا أم قصيرا، ولم أميز ما إذا كان الوقت ليلا أو نهارا، لا أرى سوى ذلك المصباح المشع بنور أصفر باهت يكشف عن قطرات، ترشحها الرطوبة أو الماء المتسرب من السطح، عالقة بالسقف تتردد بين التعلق والوقوع.

كان والدي أول ما خطر ببالي.

- كيف يكون وقع هذا الحكم الشديد القسوة عليه ؟
- وكيف يكون حاله وحال والدتي المرهفة الإحساس النحيلة الجسم الشديدة التعلق بي ؟

لا ريب أن هذه الفاجعة قد مزقت أحشاءها وقصمت ظهرها وأوهنت قوتها وزعزعت عقلها وأدمت فؤادها، وأتت على ما تبقى من صحتها المتذبذبة.
تراءى لي والدي منهارا رغم شدة بأسه وكثرة تحمله، لما مرّ به من تجارب مآسي الحرب الأهلية في إسبانيا، إلا أنه بالتأكيد، قد أصيب بهذه الصدمة في الصميم، يتناوبه التوتر والحيرة، ضاربا أخماسا بأسداس، لا يدري كيف يتصرّف ولا أين يطلب النصيحة ويجد الإرشاد. أما والدتي فقد خرجت من منزلها، ضاربة عرض الحائط، بالتقاليد المانعة من خروج النساء، باحثة عن سند في محنتها، لعلها تجد من يدلها على ولدها لتحظى بالنظر إليه ولو للمرة الأخيرة.

قادها حدسها إلى والدة "معنان" التي تعاني بمثل ما تعاني ولم تكن أقل منها قلقا.

اتجهتا معا إلى المحكمة ... دون جدوى، وفي الطريق رأت أم "معنان" أحد المعارف، فاقتربت تستخبر منه. فتشعّب الحديث بينهما، وحاول التخفيف عنها، بتبرئة ولدها من المسؤولية وإلقاء اللوم عليّ. فنطقت والدتي: وما ذا فعل الكبداني " أمّس نسيذي" أي يا بن سيدي؟ بالأمازيغية.

- من تكون هذه السيدة ؟
- إنها والدة " الكبداني ". فقال الرجل:لا بأس، سأمر عليك بالمنزل لاحقا، وأكلمك في الموضوع.

وبذلك تملص من الموقف الحرج الذي كان يريد أن يستعرض فيه نظرية محاباته.

إنها عادة معظم الناس، إذا ما نزل بهم مكروه، يحاولون التخفيف على أنفسهم أو على الذين يتعاطفون معهم، بإلقاء المسؤولية على غيرهم. كذلك كان أفراد الأسر وأصدقاؤهم، يحاولون تبرئة ذويهم بإلقاء الذنب على مرافقيهم الآخرين، في وضعهم العاجز عن التعرف على المذنب الحقيقي.

وبينما كان أفراد أسرنا يبذلون المساعي اليائسة، لاستشفاف مصيرنا أو إيجاد وسيلة للتخفيف من وطأة ما نزل بنا، كنت في زنزانتي مستسلما للقدر، راضيا بما قدر الله لي في سبيله، تهب علي نسمات كلماته المواسية الواردة في المناجاة المتناثرة في ذاكرتي، فتخفف عني بعض الثقل الذي نزل بي:

" لك الحمد يا إله الأسماء بما أيدتني وعرفتني ووفقتني على عرفان شمس ظهورك وبحر عرفانك، أي رب أسألك بنفسك بأن تجعلني ثابتا راسخا على هذا الأمر الذي به أخذ الزلازل قبائل الأرض، إنك أنت المقتدر على ما تشاء وفي قبضتك ملكوت الأشياء، لاإله إلا أنت المقتدر القدير"

كان بإمكان هؤلاء الخمسة أن يتوصلوا ببعض المواد الغذائية من طرف أفراد أسرهم الذين تمكنوا من أن يفعلوا شيئا من أجلهم خلاف المحكومين بالإعدام الذين ظلوا معزولين عن كل شيء خلا الوحدة التامة في زنازينهم التي سلمتهم لوحشة تصوراتهم.

حدثت نفسي أواسيها:

لا بأس أن حكموا عليك بالإعدام، فالكل ينتهي به ركب السير إلى الموت، وليس بمقدور الإنسان أن يخرج من الحياة إلا ميتا، بطريقة قد تختلف عن غيره، ولكنها في النهاية تؤدي إلى نفس المصير. فمن الناس من يموت بالمرض، ومنهم من يموت في حادثة طريق، ومنهم من يموت في الحرب... ألا تتذكر أنك كدت تموت في البحر المجاور غريقا عندما كنت صبيا. وشاء الله أن يدّخرك من أجل أن تموت في سبيل إيمانك به، والثبات على عقيدتك... وجرى على لسان باطني البيت الشعري المعروف.

من لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

وبينما كنت أناجي نفسي، فتح الحارس الباب وقدم لي صحن طعام السجن، وسألني عن حالي، يحاول أن يخفف عني ببعض كلمات التشجيع والمواساة، فاغتنمت الفرصة للاستفسار عن حال والدي. أخبرني أنه رآه في الشارع، ولكن حاله ليس على ما يرام.

مضى بعض الوقت وفتح الباب من جديد، وأمرني الحارس بالخروج، فإذا بي أمام جمع من الحرّاس مدججين بالسلاح وأشخاص آخرين بلباس مدنية، واقفين متجهمين.

طلب مني أن أقرن يدي إلى الخلف، ففعلت، فوضعت يده المرتجفة الصّفاد في معصمي.

شعرت أن ساعة إعدامي قد أزفت، فجمعت شتات صبري ولملمت ما تبقّى من شجاعتي وسرت بخطى وئيدة، امتثالا لأمرهم إياي بالمشي في الممر المؤدي إلى باب الساحة المكشوفة، حيث يسمح للمساجين، لبعض الوقت، بغسل ملابسهم المتسخة، ورؤية فضاء السماء، ومشاهدة حركة السحب، وعبور الطيور، وشم الهواء، والمشي والرياضة أحيانا.

أمروني بالخروج إلى الساحة، والاتجاه يسارا، والمشي بمحاذاة الجدار. كنت أمتثل لأوامرهم، وفي أعماقي صوت يستغيث: رب قوني وكن معي... وأنا أواصل المشي إلى أن وصلت إلى وسط الجدار المقابل لهم .

أمروني بالوقوف. وقفت أنظر في اتجاههم، ومرت بخاطري أفكار متلاحقة ... لعلهم سيعرضون علي العصابة لأضعها على عيني قبل إطلاق الرصاص علي. قررت رفضها واستقبال الموت بعيون مفتوحة. وإذا ما عرضوا علي السيجارة، كما رأيت ذلك في بعض الأفلام السينيمائية، فإني سأرفضها معتذرا بأني لا أدخّن ...

بينما كانت هذه الأفكار تراودني، سمعت صوتا يناديني:

عد إلى هنا، على نفس الطريق.
اتجه نظري، وأنا عائد، إلى نوافذ العنبر الذي كنت أقيم فيه مع رفاقي قبل الحكم، فتراءت لي في النور الباهت ذراع أحدهم وهو يحاول إغلاق النافذة، فأشعرني وجودهم بلمسة من الارتياح غمرت أعماقي. وتابعت السّير إلى أن وصلت إلى الجمع الذي يراقبني.

رافقني الموكب في الممر المؤدي إلى الزنزانة، وعند مدخلها، اقترب مني الحارس ليفك الصفاد دون أن يتمكن من ذلك بالسهولة المطلوبة.

كان الحارس متقدما في العمر نسبيا، قصير القامة ضعيف الجسم لا يتناسب جسمه مع المهنة التي يمارسها، فلمته شاكيا بصوت خافت:

- إنك تؤلمني . فأجابني الحارس متأسفا:
- إن يدي ترتجفان.

أغلق الباب الحديدي خلفي، فطرحت نفسي على الفراش، كمن عاد إلى الحياة من جديد، أتأمل قطرة الماء المتمسكة بالسقف، تمسّك الإنسان بالحياة، وأنا لا أصدق أن خروجي ذاك، إنما كان من أجل أن لا أحرم من حقي في شمّ الهواء، ولو في سكون ظلام الليل.

وفي غفوة، رأيت نفسي في المنام أمشي مطأطأ الرأس، بمعية "عبد البهاء" على رصيف ميناء "الناضور"، أفكر متضايقا من عدم لياقة منزلي لاستضافة وإيواء حضرته. فإذا "بعبد البهاء"، كمن يعلم بما يختلج في خاطري، يعفيني من هذه المضايقة، ويخبرني بأنه سيقضي الليلة في مكان، عيّنه بالمدينة في الحي المدني حيث كان يسكن شريك والدي في التجارة.

***

في اليوم الموالي باكرا، نبّهني صوت مزلاج باب الزنزانة، ثم نداء الحارس يخبرني بأن أستعد للرحيل.

رافقني إلى أن وصلت إلى باب القفص الحديدي، حيث قدمت لي أوراق طلب نقض الحكم للتوقيع عليها مثلما فعل بقية زملائي المحكوم عليهم الذين كانوا في انتظارنا، نحن المحكوم عليهم بالإعدام. اهتممنا جميعا بالسؤال عن بعضنا البعض قصد الاطمئنان.

كان كبير المساجين "الكابران صالح" ينتقل ذهابا وإيابا، يحضر أمتعتنا وهو يكفكف دمعه، وفي لحظة من قوة الانفعال، اندفع نحونا يعانق كل واحد منا بعاطفة جياشة ودمع غزير ثم انصرف يجهش بالبكاء.

احتفظ المحكومون بالسجن المؤبد ببعض الموز، قدموا منه حبتين إلى كل واحد منا. كان التهامها أول شيء ترحب به أمعاء بعضنا، منذ أن بدأت المحاكمة التي لم نتذوق أثناءها طعاما مناسبا ولا راحة.

قيدنا الحراس بالأصفاد مثنى مثنى وحشرونا في السيارة المغلقة التي انطلقت بنا تخترق المدينة النائمة الخالية شوارعها التي شاهدت طفولة بعضنا ونحن نمرح مع أندادنا غافلين، ومراهقتنا مع أقراننا ونحن مبتهجين بالانتماء إلى فريقنا المتسم بالبأس الذي نسترضيه بما ننجز من أعمال وما نعيش من أحلام، وشاهدت شبابنا الطامح إلى التفوق بالعمل في إطار ما تتيحه لنا الحياة من فرص تحقيق الذات.

تراءت لي من خلال نافذة مؤخرة السيارة أرض الشوارع المبللة، تنتشر في أطرافها بقع الماء، فنظرت جهة اليمين، عندما مالت السيارة يسارا لدى مخرج المدينة، ألقي نظرة وداع على المنزل الذي يؤوي أفراد أسرتي القابعة فيه.

تخيّلتها منهارة خائرة القوى، لا يعلمون أني، في تلك اللحظة، راحل إلى مصير مجهول قد لا ألتقي بهم مرة أخرى في هذه الحياة الدنيا.

كنت أسوأ الجميع حالا، منهار القوى، مقيّد اليد مع يد "بوعرفة معنان"، فأغمي علي.

أسعفني الحراس ببعض أقراص "الفيتامين" التي أنعشتني قليلا في تلك الرحلة الطويلة التي امتدت من الفجر إلى الغروب، دون طعام أو شراب، إلا كوبا من القهوة الذي تفضل به كرم الحراس أثناء الرحلة.

على بعد حوالي ثلاثين كيلومترا من المدينة، شاهد السائق والحارس بجانبه، جرّار محراث، يصارع الوحل، محاولا إخراج عجلاته التي غرزت فيه. أعدّ الحارس رشاشته وتأهب لإطلاق الرصاص احتسابا لإبطال أية مفاجأة تحاول في توقعهم، تخليصنا.
مرت السيارة وحمولتها بأمان، وشرعنا نتحدث عن أمور لا علاقة لها بعالم الإجرام، وتوطدت بيننا وبين الحراس المرافقين علاقة ثقة، جعلتهم يشاركوننا الحديث ويجيبون على اهتماماتنا الخاصة بوضعية المعاملة والعيش في السجن المركزي الذي نتجه إليه.

لم يكن بإمكان أحد منا أن يقف أو يمشي أو يغير وضعه داخل السيارة دون أن يحرك المقيّد معه. وعندما اضطر أحدنا للتبوّل وسمح له الحراس بالنزول، ما كان لهم أن يفكوا قيده، وإنما ينزل مع المقيد معه كتوأمين ملتصقين: أحدهما يتبول، والثاني ينتظر واقفا في أعالي هضاب الأطلس المتوسط التي يهب عليها ريح خفيف قارس يلمس صفحة الوجه بلمسة باردة تُشعر بالحياة في ذلك اليوم من منتصف شهر ديسمبر.

تمكن "فؤاد الطحان" بروحه المرحة وطبعه المتفائل من إنعاش الجو داخل المركبة، ذاكرا أن ما يحدث لنا مفخرة واعتزاز، ينبغي أن يكون سبب فرح وسرور لا مدعاة للحزن والاكتئاب . ثم قام واقفا ينتزع المقيد معه من على المقعد، يهز عطفيه راقصا وسط التصفيقات المشجعة. الشيء الذي استحضر في ذاكرتي مأساة استشهاد "ميرزا الحاجي سليمان خان التبريزي" (صاحب الشموع التسعة) الذي استخلص بقية جثمان حضرة "الباب" بعد استشهاده في "تبريز" بمقتضى الفتوى الصادرة عن أفكار علماء الدين الشيعة الآسنة وبنادق رجال الحكم الآثمة.

ليتهم ما فعلوا ...! إذ بما أطلقوا الرصاص على "السيد علي محمد" ، سليل رسول الله الذي لقب نفسه "بالباب"، أعادوا الجريمة الشنعاء التي ارتكبها بنو أمية في حق سبط الرسول عندما جزوا بالسيف رأس حفيده "حسين بن علي" في كربلاء العراق، أو ما فعل علماء بني إسرائيل بعيسى بن مريم. وبذلك نكسوا راية الإسلام ودفعوا أمتهم إلى الهلاك وأحلوا قومهم دار البوار.

وهذه هي قصة سليمان خان، كما أوردها "نبيل أعظم" في تاريخه "مطالع الأنوار":

" ... كان حاجب الدولة قد أمره ناصر الدين شاه، أن يفحص أمر اشتراك المتهم (سليمان خان) وإذا تحقق من براءته، يطلب منه الارتداد عن دينه، فإذا قبل، يعفى عن قتله، ويحجز لحين الفصل في أمره نهائيا، وإذا امتنع، يعدم حالا بالطريقة التي يختارها.

تحقق حاجب الدولة، بعد الفحص، من براءة الحاجي سليمان خان (من الاشتراك في محاولة اغتيال الشاه)، وما كاد المتهم يعلم بالأوامر الصادرة في شأنه من مليكه، بشأن الارتداد، حتى صاح بكل فرح:

- هذا لايمكن أبدا، فما دام فيّ عرق ينبض بالحياة، لا أقبل أن أنكر دين محبوبي. فهذه الدنيا التي شبهها " أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) بالجيفة القذرة، لا يمكن أن تغرّني أو تصدني عن محبوب قلبي.

فسئل أي ميتة يريد أن يموتها، قال:

- أثقبوا جسدي تسعة ثقوب، وضعوا في كل ثقب شمعة، ولتوقد جميع الشموع حول بدني، وعلى هذه الحالة أسحبوني في شوارع طهران، وادعو الجماهير أن تحضر وتشاهد فخر شهادتي، حتى تنقش حوادث مماتي على صفحات قلوبهم، وتساعدهم، وهم يذكرون شدة معاناتي، على أن يعترفوا بالنور الذي أعتنقه، وبعد أن أصل إلى مكان التنفيذ وأكون قد نطقت بآخر مناجاتي في هذه الحياة الدنيا، أشطروا جسمي شطرين، وعلقوا كل شطر على جهة من جهتي باب طهران حتى أن الذين يمرون من تحته يشاهدون المحبة التي أوقدها دين " الباب " في قلوب أصحابه، وينظرون إلى درجة إخلاصهم... وعندما استهزأ به الجلاد، قائلا:
- ما دمت ترى الموت جميلا إلى هذا الحد، لماذا لا ترقص إذا؟ !

- نعم أرقص. فهذه الكأس في راحتي، وفي الأخرى جدائل الشعر من محبوبي، وهذا الرقص وسط السوق مرغوبي... "[49]

***

عندما وصلت السيارة إلى "فاس"، مرت قريبا من منزل "فؤاد الطحان" الذي طلب من الحراس أن يقفوا بجواره، ليطمئن على زوجته وصغاره.

لم يرفض الحراس طلبه ولم يقبلوه، وتابعوا سيرهم كأن لم يسمعوه.

شعرت أن الحراس ما كانوا ليترددوا في الوقوف، لو لم تكن فيه مسؤولية كبيرة. لكن واجبهم بالتأكيد، لا يسمح لهم بتلك المجازفة.

وما أن خرجت السيارة من "فاس" ووصلت إلى مفترق الطرق المؤدية إحداهما إلى "القنيطرة" والأخرى إلى "مكناس" حتى وقفت في "الضويات"، ونزل منها الحراس متوجهين إلى المقهى، حيث تناولوا قسطا من الراحة وفي نفس الوقت، تذكروا رفاقهم المكبلين فأتحفوا كل واحد منا بكوب من القهوة الساخنة التي كانت كل طعامنا في هذا السفر الشاق.

*****

[49] - **محمد زرندي الملقب نبيلي أعظم : مطالع الأنوار .**

ب - السجن المركـــــــــزي.

تابعنـــــا السير إلى أن وصلنا إلى مدينة "القنيطرة"، مارّين بجوار الميناء النهري، صاعدين العقبة المؤدية إلى السجن المركزي الذي فتح لنا بابه الحديدي العظيم المهيب على مصراعيه. ولجت السيارة إلى الساحة الواسعة المزينة بالأعشاب والأزهار، بينما الباب العظيم ينغلق خلفها.

أمرنا الحراس بالنزول وأدخلونا من باب كبير آخر نحو السجن، حيث كان في انتظارنا عدد من الحراس، يتطلعون إلى التعرف علينا، وأثر إشاعات التشويه والتهويل لقضيتنا، التي بلغتهم قبل وصولنا، ظاهرة على وجوههم، وقد كوّنت لديهم فكرة مسبقة ولدت لديهم مشاعر مشحونة بالعدوانية.
التف جمعهم مزدحمين حول كاتب خلف طاولة بجانب الجدار، تشرف على بهو فسيح مترام الأطراف، تتراءى منه بعيدا أسفل الأدراج، صفوف المسجونين التي لا تتناهى، ويمتلئ صدى أصوات خطواتهم ودمدماتهم أرجاء فضاء ذلك البهو العظيم التي تنتهي إلى أسماعنا، فيزيد المشهد رهبة ومهابة. كأن قوة كل ما يدور في السجن من أقوال وأفعال وأهوال قد حبست بدورها، ولا يجوز لها أن تتجاوز أسواره المنيعة، فيتردد صداها المتراكم بكل قوته في فضاءات السجن. وكأن جيش المساجين، بالنسبة لنا وللذين لا يعرفون السجون مثلنا ولم يتعودوا على الحياة فيها، عمال مصنع كبير عائدين من عملهم، أو طلاب مدارس يخرجون من المطعم ليلتحقوا بغرف النوم.
كان المنظر مهيبا حقا، يثير الرهبة في النفس !

التف حولنا الحراس الواقفون أمام كاتب يتأهب لتسجيل المعلومات الشخصية عنا، في سجل استلامنا والتحاقنا بالسجن. ثم قادنا الحراس بما نحمل من أمتعة، إلى حي المحكومين بالإعدام .

نزلنا الأدراج الكثيرة عددها، ثم مالوا بنا نحو اليمين، في ممر طويل ينتهي إلى فراغ به ساحة صغيرة، تكشف عن وجه السماء، لنصل إلى باب مغلق من قضبان الحديد المنيعة. فتحه الحارس، ودلفنا منه إلى باب حديدي آخر مثله، يؤدي إلى حي المحكومين بالإعدام: ممر مغلق، تصطف على جانبيه زنازين المسجونين، الذين تطل عيونهم من نوافذ صغيرة مفتوحة في وسط أبوابها الحديدية المحكمة الإغلاق.

رغم الاستغراب الذي أثارته في نفوسنا، أدركنا تلقائيا أنها عيون الأشقياء التواقة إلى معرفة ماهية الأشقياء الجدد.

كانت وجوه الحراس عابسة متجهمة يتطاير شرر الشر من عيونهم، وكذلك كان مساعدوهم المساجين الذين يمتثلون لأوامرهم بكامل الذلة والخنوع، يحاكونهم في معاملة الأسرى بغاية الصرامة والاستعلاء، كأنهم كلاب شرسة تلهث لافتراس الغرباء، وتتذلل واضعة أذنابها بين أفخاذها لأية إشارة ناهية تصدر من الحراس.

عوملنا ليلة وصولنا أسوء معاملة. جردونا من ملابسنا واستبدلوها بأسمال متسخة داكنة بالية: قميص وسروال وجبّة لا تخضع لأي مقياس، وأحقر في حقارتها من ملابس المساجين المعاقبين داخل السجن. أمرونا بلبسها بدلا من الملابس التي كانت تكسو أجسامنا في هذا الفصل البارد.

طلب '"جباري" من أحد الحراس أن يدله على مكان يغيّر فيه ملابسه، فنهره حانقا صارخا في وجهه:

- أتدّعي أنك تخجل من خلع لباسك أمام الناس، أيها المجرم، الكافر بالله ! اخلع لباسك هنا، والبس هنا.

كان سلوك الحراس ومساعديهم يشعرنا بتوقع جلدنا وتعذيبنا.
بعد أن لبسنا جميعا تلك الأسمال، أعطي "جباري" لوحة خشب شبيهة بأخشاب البناء، طويلة سميكة ثقيلة، تثبّت على ما يبدو في جدار الزنزانة، حتى توضع عليها الأغراض المسموح بها. ترنّح "جباري" من ثقلها يمينا ويسارا، عندما وضعت على كتفه، فاستدار واستدارت الخشبة التي كادت تصيب رؤوس الواقفين حوله من الحراس والسجناء لولا احتراسهم.

يالها من لوحة ! لا ينقص إلا نصفها، ليتكوّن الصليب الذي حمله السيد "المسيح" صوب المصير الأليم !

***

فتحت أبواب الزنازين، وحشر المحكومون بالمؤبد في جوف إحداها في مكان ما، بعيدا عن الزنازين الثلاثة المجاورة الأخرى التي حشر في كل واحدة منها أحد المحكومين بالإعدام.

دفعني أحد الحراس داخل الزنزانة التي لازمتها طيلة مكوثي في هذا الحي، دون أن أعلم بمكان تواجد رفاقي. وما أن صرت في وسطها، حتى أغلق عليّ الباب الحديدي بمزلاجين، أثار دوي صوتهما القوي رعبا، ارتعدت منه فرائصي.
أرغمني التعب الشديد وعناء السفر وكثرة الانفعالات المتعاقبة المتسارعة التي تعرضت لها، طيلة الأسبوع الذي أوشك على الانصرام، بإلقاء كل ثقل جسمي المنهك على الفراش. ورغم حاجتي الملحة إلى الاستلقاء، فإنني شعرت بما يشبه السكاكين تنغرس في ضلوعي، فقفزت من مكاني أحاول التأكد وأنا أتلمّس الفراش. أدركت أن الفراش محشو بأوراق الذرة و سيقانها المنكسرة حديثا، والتي تفعل في الجلد فعل السكاكين ووخز الإبر. غير أن النفس المنهارة و الجسم المنهك الذي يحملها لم يكن يقوى على الوقوف أكثر، فحاولت أن أصلح قليلا من شأنها ثم ألقيت بنفسي عليها، باحثا عن وضع أستسلم فيه للاسترخاء.

وبعد برهة فتح الباب، ووضع شيء جانبه قبل إعادة إغلاقه. نهضت إليه مستطلعا، إنه صحن من الحليب والأرز، أقبلت عليه ألتهمه التهاما، ثم عدت لأستلقي من شدة الإعياء الذي أخذ مني كل مأخذ. وما كدت أفعل، حتى فتح الباب وسحب الصحن بسرعة ورتابة.

بينما كنت أتقلب على الفراش مرة على جنبي ومرة على ظهري، سمعت صوتا ينادي من بعيد بأسمائنا. إنه صوت أحد رفاقنا المحكوم عليهم بالمؤبد، يريد التأكد من مكان وجود باقي رفاقه، ثم سمعت طرقا على جدار الزنزانة الملامسة وصوت "فؤاد" الذي ينادي باسمي، فاستجبت للنداء ثم سمعت صوت "بوعرفة" إثر ذلك. فأحسست بنوع من الاطمئنان، عندما أيقنت أن جميع رفاقي يتواجدون في نفس المكان.

عدت للاسترخاء مرة أخرى، فإذا بأصوات غريبة تتنامى إلى سمعي: أصوات رقيقة وأخرى خشنة، يرددها الممر الطويل المنعرج فتختلط ببعضها، ويتولد عنها صدى أصوات في غاية الغرابة، بحيث خطر لي ما كان عالقا في تلافيف حافظتي، من الحكايات التي سمعتها عن النبي "سليمان" (ع) وشياطين الجن وعفاريت الإنس التي يحكمها في عالمها الغريب.

تصورت لحظة، أن المكان مقر سكناها، أو أنه السجن الذي كان نبي الله "سليمان" يحبسها في غياهبها حيث يقيدها بالسلاسل والأغلال. فتملكني الخوف والفضول، وقمت رغم تعبي أستطلع الأمر.

ألصقت أذني على النافذة الصغيرة وسط الباب الحديدي، واتضح لي أن ما أسمعه أصواتا بالفعل. حاولت أن ألمس لوحة حديد النافذة بأصبعي، فإذا بها تتحرك. زحزحتها ذات اليمين فإذا بالنافذة تطل على الزنزانة المقابلة التي تراءى لي من خلفها عينا شخص ينظر إلي.

- سألني صوته عن المكان الذي قدمت منه، فلم أردّ عليه، لأن حالي ومزاجي لم يكن ليرغّبني في الحديث، لكن الجار المقابل أعاد السؤال. فأجبته:
- من "الناضور".

حاول أن يحدثني بالاسبانية، لأنه يعلم، بالتأكيد، أن أهل تلك المنطقة في شمال المملكة، ولعله منها، لا يتقنون الحديث بالعربية، وفي تقديره، أني قد أستريح للكلام بالاسبانية أكثر، فسألني من جديد:

- ما ذا فعلت ؟
- لا شيء.

- ما ذا تقول ؟
- أجبته بالنفي مؤكدا جوابي الأول بتحريك سبابة أصابعي يمينا ويسارا من النافذة الصغيرة.
- هل قتلت شخصا واحدا ؟

سمعت صوت خطوات أقدام مرور الحارس الذي دفع لوحة الحديد وأغلق في وجهي نافذة الباب. لكن جو تلك البيئة الغريبة وفضول الاطلاع عليها، جعلني أعاود دفع لوحة النافذة بحذر، وأطل من جديد، لأجد المسجون المقابل لي لم يبرح مكانه. وما أن لمحني حتى أعاد عليّ نفس السؤال:

- أجبته أؤكد من جديد جوابي للمرة الثالثة، بتحريك السبابة والوسطى، مستعملا لغة الإشارة الصامتة بدلا من الصوت.
- أقتلت اثنين ؟

أغلقت النافذة واستلقيت على الفراش بعد أن اطمأنت نفسي إلى أن الأصوات بشرية تأتي من زنازين المسجونين.
استمر الحديث واللغط يتردد صداه المتشابك المرتفع أكثر فأكثر، إلى أن نهر الحارس ساكنة الحي، مهددا صارخا:

- سكا اات ! سكا اااااا ت ! وأتبع أمر السكوت بإطفاء النور.

***

استغرقت في نوم مضطرب لا أستيقظ منه، من حين إلى آخر، إلا على انفتاح النافذة التي يفتحها حارس الليل، ليطمئن على وجود المعتقل وسلامته. وما بين النوم واليقظة رأيت نفسي ماشيا تحت رذاذ خفيف ينهمر من السماء على بوادي الريف المبتلة المعشوشبة بأعشاب الخريف الأولى، فإذا بي وجها لوجه أمام سيدة مسنّة، رأيت صورتها التي قدمها لي أحد المؤمنين البهائيين، عندما كنت حرّا طليقا، قائلا لي:

- إنها صورة " الورقة المباركة العليا "*[50].

وقفت أمام شخصها الذي تكلله هالة من الوقار، جعلني دون أن أشعر جاثيا على ركبتي، وهي تضع يدها على رأسي وتقول:

إنك من الآمنين، إنك من الآمنين، إنك من الآمنين ! ثلاث مرات.

***

أشرقت شمس اليوم الأول (الاثنان 17 ديسمبر) ونحن في زنازين السجن المركزي التي لا يصلها نور أشعتها الساطعة، فانتبهت إلى أن الزنزانة تتوفر على نافذة صغيرة عالية يمر عبرها بعض النور والهواء، وتحتها يوجد صنبور ماء ومرحاض أرضي لا مغلاق له، تسكنه الصراصير التي تعيث في الزنزانة في ظلام الليل وفي غفلة السجين، وفوق مكان النوم تمتد خشبة على طول الجدار .

قدرت بدافع التقييم العفوي، أن الزنزانة أفضل من زنزانة "الناضور" مساحة وإنارة وهواء...

سمعت طرق الأبواب والمزاليج المتتابع في كل مكان، ثم فتحت نويفذة باب زنزانتي دون أن تغلق ثم تحرك المزلاجان ليفتح بعدئذ الباب ويدخل معه فطور الصباح.

*** - كريمة بهاء الله. قامت بدور هام في تصريف شؤون الأمر البهائي بعد صعود شقيقها عبد البهاء.**

إنه الحليب، يا لها من مفاجأة ! ويا له من فطور أميري ! لم أتناوله منذ ما يزيد على ثمانية شهور.

إنها لنعمة محسوسة وسط المخاطر المحفوفة من كل جانب والبلاء النازل من سماء القضاء!

***

حشدنا الحراس بعد الفطور مباشرة خارج الزنازين، وصففونا في أسمالنا مثنى مثنى، ونحن نحمل ملابسنا التي دخلنا بها بالأمس ليلا. وأمرونا بالخروج من الحي على نفس الطريق الذي دخلنا منه مساء الأمس ، من أجل استكمال إجراءات السجن الإدارية.

وبينما نحن سائرون والحراس يأمروننا مؤكدين على إلقاء التحية الرسمية على زملائهم الذين نجدهم في طريقنا ، إذا بحارس يصرخ في وجه " محمد السبتي"، أكثرنا قصرا ونحافة، زاجرا آمرا إياه بفظاظة صارمة، أن يلقي التحية. فرفع "محمد" يده الفارغة ليضعها على صدغه تحية للحارس، وإذا بسرواله العريض يقع من على حقويه إلى أسفل ركبتيه، حائرا في كيفية التوفيق بين ملابسه التي يحملها في يد وبين اليد الأخرى التي تمسك بالسروال حتى لا يقع، والتي ينبغي في نفس الوقت أن تتكرس لتحية الحراس.

وصلنا إلى المكتب الخاص بالتسجيل الذي تجمّع فيه عدد من الحراس في بداية اليوم الأول من العمل الأسبوعي. وشرع الكاتب يسأل كل مسجون على حدة، وتوقف عند السؤال عن الدين.

تظاهر الكاتب بالاستغراب عندما سمع أننا بهائيون، كما استغرب الحراس أن يكون الذين يحملون أسماء مغربية مسلمة، بهائيين ! سارع أحد الحراس إلى القول محتجا:

- لكن جميع المغاربة مسلمون، ولا يمكن أن يكون المغربي إلا مسلما... فقلنا:
- إنما نحن هنا، لأننا بهائيون.
- حسنا، وليكن. لكن قولوا لنا، أين تدفنون عندما ينفّذ فيكم حكم الإعدام ؟ إذ توجد مقابر لليهود والأخرى للنصارى ومقابر للمسلمين، ولا توجد مقابر أخرى.

لم يكن لدينا أدنى استعداد للإجابة عن أسئلتهم، التي لم تكن أسئلة بقدر ما كانت استخفافا وتهديدا ووعيدا.

أجاب "فؤاد الطحان" أحد المحكومين بالإعدام ، الذين قضوا وزملاءهم ليلة وصولهم متوترين، وأثر الإرهاق من تعب السفر ومعاناة المحاكمة ووطأة الحكم، ما زال باديا على ظاهرهم وعلى معنوياتهم:

- ليعلقوا جثثنا في مدخل المدينة.

ألقى الكاتب نفس السؤال علي فأجبته غير مكترث:

- ليدفوننا حيثما كان، إنها ليست مشكلة بالنسبة لنا وليضعوا على جثثنا لافتة وليكتبوا عليها: هؤلاء لا مكان لهم لا بين الأحياء ولا بين الأموات.

ولدى سؤال بوعرفة، أجاب:

- أنا مثلهم.

***

سلمنا ما لدينا من أمتعة، ليأخذنا الحراس إلى مكان الحلاقة حيث شرعوا في حلق رؤوسنا. وما أن خط الجلم خطّا وسط رأس "العمراني" من جبهته إلى رقبته فاصلا شعر طرفي رأسه عن بعضهما، حتى نهر الحارس الحلاق ناعتا إياه بكل أوصاف الغباء والجهل بالأصول.

ترك الحلاق ذلك الرأس ليحلق رؤوس المحكومين بالإعدام، كما أشار عليه الحارس وفق مسطرة أولويات رتب المسجونين المرعية.

تبسم السجناء من منظر "العمراني" الغريب دون أن ينتبه إلى أن سبب ابتسامة زملائه الناظرين إليه هو ما يثيره في النفس منظر رأسه الغريب الشبيه بغابة مصغرة يخترقها نهر جاف...

لم أكن لأعلم أن المحكومين بالإعدام لهم امتيازات تجعلهم يحتلون مكانة الصدارة والأسبقية في أكثر من مقام ...

وضع رأسي تحت رحمة الحلاق المهان بدوره الذي أخذ يصب جام هوانه وغضبه المكبوت على رأسي المنحني الذي تتساقط خصلات شعره على الأرض وعلى ركبتي، صغيرة سوداء، تمتزج بها حبيبات دقيقة بيضاء من بقايا الخلايا الميتة المتراكمة على مدى شهور السجن الماضية، كأنها نجوم متناثرة في ظلمة السماء.

كنت أنظر حاني الرأس إلى تساقطها أمامي، وذل الضيم يثير في نفسي شعورا عميقا بالهوان الذي كاد يفجّر الدمع في عيني لولا التجلد والاحتمال. لم أقدّر يوما ، أن شعر رأسي له قيمة لدي. تراءى لي في تلك اللحظة لامعا جميلا، رغم ما به من شوائب وأوساخ. وما زال منظره ذاك يقفز إلى ذاكرتي إلى اليوم، كلما ذهبت إلى الحلاق وأخذ مقصه يعالج شعر رأسي المخضب بالشيب عندما يتساقط على الفوطة الموضوعة على ركبتي.

أعادوا محلوقي الرؤوس لابسي الأسمال إلى زنازينهم، يلتفتون في طريقهم إلى رؤوس بعضهم البعض، وقد رسمت على محياهم الشاحب ابتسامة حزينة، تنطق بخيانة الزمان وتقلبات الأيام، مشفقين على مشهدهم الغريب الذي لم يكن يختلف عن منظر أي بهلوان، لولا الملابس المتسخة أكثر من اللازم، ساخرين من أنفسنا ضاحكين منها، نذكر أسماء "بؤساء فيكتور هيجو" ومنها "جان فالجان" الذي أطلقناه لقباعلى "بوعرفة معنان".

***

أدخلونا إلى الزنازين، لتفتح أبوابها على "فؤاد" و"بوعرفة" وعلي، للخروج منها بعد الزوال. فطوّقنا ثلاثة حراس تميزهم شارات درجتهم العالية على أكتاف ملابسهم الرسمية.

أخذوا يسألوننا بأسلوب ممزوج بالشفقة واللوم والمؤاخذة، ينمّ عن توصلهم بأخبار سيئة عنا، كونت لديهم انطباعا معاديا لنا وللبهائية، لعل أكثرها شيوعا ما بلغهم من أن البهائيين لا يحترمون المقدسات الإسلامية ويقومون بأعمال تخريبية... وزاد فضولهم ما تنشره بعض الجرائد من المقالات الناقدة للحكم.

قصصنا على الحراس أخبارنا، وحاولنا إفهامهم مقاصد البهائية، بينما هم يستمعون صامتين مستزيدين، وعلامات الاستغراب بادية على وجوههم. وكلما زدناهم علما بالبهائية تعاظم اندهاشهم إلى أن انطبع في ذهنهم أن جرائمنا تتلخص في إيماننا برسول العصر الذي ينتظره جميع الناس من مسلمين وغيرهم. فقال أحد الثلاثة:

- أبعد سيدنا محمد، يظهر رسول آخر؟ أجبناه:

هذا ما قلناه، وهذا هو السبب الذي أتى بنا إلى هنا، لأن الناس يعتقدون مثلما اعتقد النصارى واليهود، أنه بعد الرسول الذي يؤمنون به لن يأتي رسول آخر، وبذلك حكموا على الله بالعجز عن إرسال رسول بعد رسولهم، كما قال تعالى في القرآن العظيم:

" ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات، فما زلتم في شك مما جاءكم به، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب "[51]

---

[51] - **غافر : 34 .**

اندهش أحد الحراس وهو يسمعنا نتلو القرآن، فقال:

- أو أنتم تؤمنون بالقرآن ؟
- بالتأكيد، نؤمن بالقرآن. وتابعنا الحديث، والقرآن يقول أيضا منددا بهذا الاعتقاد:
-

" وقالت اليهود، يد الله مغلولة، غلت أيديهم، ولعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان، ينفق كيف يشاء "[52]

والله، قسم أحد الحراس الثلاثة قائلا:

- إن هذا السبب ليس كافيا ليحكموا عليكم بالإعدام. ولكن كيف تصدقون بمجيء رسول ؟
- لأننا نعتقد أن الوعود التي بشر بها القرآن، والأحاديث النبوية الشريفة، قد تحققت.
- كيف ؟
- ألم يقل الله في القرآن :

" ولكل أمة أجل، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون* يا بني آدم، إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون"[53]

- هل توجد هذه الآية في القرآن ؟
- نعم، يمكنك التأكد منها.
- إذا كانت في القرآن، على ماذا يحاسبونكم، إذا ؟
- لأن الحديث يقول:

" إذا ظهرت راية الحق ، لعنها أهل الشرق والغرب ".

والقرآن العظيم يقول:

" فتول عنهم، يوم يدع الداعي إلى شيء نكر"[54]

بمعنى أن الداعي إلى الله عند ظهوره، لن يرحب به الناس وإنما ينكرون عليه دعوته، لأنه جاءهم بشيء جديد. مثل ما حدث في تاريخ جميع الرسالات الإلهية السابقة...

وفي الأخير، قال أحدهم مستغربا مرتابا:

- أمن أجل هذا فقط، حكموا عليكم بالإعدام !؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.
-

انصرفوا مستغربين وهم يعيدوننا إلى زنازيننا المتجاورة، ليقفل علينا الحارس أبواب الحديد.

---

[52] - **المائدة : 64 .**
[53] - **الأعراف : 34 و35 .**
[54] - **إبراهيم : 6 .**

في صباح اليوم الثاني، حضر نفس الحراس وأخرجونا لنمشي معهم في نفس الممر حتى يتابعوا معنا الحديث حول البهائية، يستفسرون عن وقت ومكان ظهورها، وهم يظهرون مزيدا من العناية بنا وشيئا من الاعتبار والتقدير لنا، يعاملوننا كما يعاملون الناس العاديين. واستغربوا عندما علموا أن البهائية دين مستقل، لها شرائعها وأحكامها ونظامها الخاص الذي به ينتظم المجتمع البهائي في كل مكان في العالم.

سأل أحد الحراس:

- لماذا غيّر "بهاء الله" أحكام الإسلام وشريعته ؟
- إن رسل الله يأتون بشرائع جديدة عند ظهورهم، ولا يأتون من أجل أن يتركوا الناس على الحال الذي هم عليه، وإنما يأتون قصد التغيير والتبديل. أما إذا لم يعملوا على تغيير أحوال الناس بوضع نظام جديد، فما الحاجة إلى مجيئهم؟ بل إن مجيئهم وعدم مجيئهم سيان إذا لم يجددوا الحياة الروحية والاجتماعية معا. لذلك يأتون برسالة جديدة، يجددون بها روح الإيمان والقيم الدينية المشتركة بين جميع الأديان ويضعون قانونا جديدا مناسبا يساعد البشرية على الاستمرار في تقدمها الدائم.

لم يكن هؤلاء الحراس الذين ألهمتهم العناية الإلهية الاهتمام بجرائمنا وعقيدتنا والأحكام القاسية التي صدرت علينا، يدركون مدى الخدمة العظيمة التي قدموها لنا، ولا مدى الإحسان الذي أسدوه لنا، بما فسحوا المجال لنذكر محبوب قلوبنا ويسري مفعول ذكره المنعش في كياننا، ويؤدي أثر استحضاره في حديثنا إلى طمأنة نفوسنا وعودة السكينة المفتقدة لتتخذ مستقرها في أفئدتنا.

*****

ج - انقلاب السلـــــــوك.

أخرجنـــــا السجان في صباح اليوم الموالي بعد فطور الصباح إلى ساحة مكشوفة، حيث تركونا وحدنا مدة نصف ساعة، نستمتع بنور الشمس ومشاهدة السماء ولمسات الهواء. فتحوا لنا بابها ثم أعادوا إغلاقه علينا.

ما أن لمس الهواء البارد وجوهنا وملأ صدورنا في ذلك اليوم الغائم حتى شرعنا في اكتشاف محيطنا.

سرعان ما تبيّن لنا أن أحد جدران الساحة جزء من الزنازين التي نقيم فيها، وكنا على علم بعدد الزنازين التي تفصلنا عن الزنزانة التي يقيم فيها زملاؤنا المحكومون بالمؤبد. ذلك أنهم عندما كانوا يخرجون من زنزانتهم لأغراض مختلفة، كانوا يمرّون في الممر عبر أبواب زنازيننا، يلقون علينا التحية وكلمات تنبئ عن أحوالهم ومكان تواجدهم.
اقتربنا منها، وقرعنا جدارها وناديا باسم من أسماء المحبوسين فيها، فإذا بأحدهم يرد علينا. استفسرنا عن أحوالهم وسألنا عن ما جد من الأخبار. فإذا بالخبر المفاجأة ينبئ أن وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، واثنين من وزراء حزبه، قد يجبرون على ترك مهامهم الوزارية.
اندهشنا لما سمعنا، واستغربنا الحدث، واعتقدنا أن استقالتهم أو إقالتهم إذا صحّت، لا بد أن تكون لها صلة مباشرة بنا. خاصة وأن تفكيرنا كان منحصرا في عالم قضيتنا، ولم نر سببا غيرها، يدعو وزراء "حزب الاستقلال" إلى الاستقالة.

ارتسمت في أذهاننا علامة استفهام أخذت تكبر وتتناسل، وتحث ذكاءنا وتذكي مشاعرنا بعدد من الأسئلة، تتشكل وتتكرر في عقولنا:

كيف، لماذا، من أجل ماذا... ما علاقة ذاك بذاك... بسجننا... بالحكم... ومن ... وما وراء ذلك؟

واستقر رأينا في نهاية المطاف على أن دلالات هذه الإقالة، لا يمكن أن يكون انعكاسها على قضيتنا، في جميع الأحوال، إلا لصالحنا.

***

شرعنا نحلل موضوع قضيتنا من جديد ومن البداية.

رأينا أن السلطات المحلية في "الناضور" أنهت مهمتها المنوطة بها: فقد ألقت القبض على البهائيين وحالت دون أن يتحول غضب المجتمع، المزعوم المثار، إلى أعمال عنف محتملة ينفلت معها زمام الأمن، وأحالت المعتقلين على السلطة القضائية لتتخذ الإجراءات الخاصة بها. وبذلك انتهت مهمتها.

والمؤكد، أن الشرطة القضائية لم تمسك المقبوض عليهم يمارسون أي فعل يؤاخذهم عليه القانون، ولم يوقعوا أي محضر أثناء استجوابهم في المخفر، ولم توجه لهم أية تهمة محددة. فالاستجواب لدى الشرطة أو القضاء كان كله يدور حول أمور دينية تتعلق بالوجدان والعبادات ولا تتجاوزها إلى أعمال تنمّ عن ارتكاب الجنح أو الجنايات.

- لما ذا إذاً، أخبرنا قاضي التحقيق بتلك التهم الخطيرة الموجهة إلينا؟
- ما هي الجهة التي وجهتها لنا بعدما أطلقت السلطات المحلية سراحنا؟
- من له أو لهم المصلحة في اعتقالنا ومحاكمتنا ؟
- هل مصلحة الدولة العليا تقتضي أن يزجّ بمجموعة من أبنائها الشباب في السجن بتهم مفتعلة كي تتحقق المصلحة العامة؟
- وأية مصلحة هذه ؟

لم نكن ندرك أن الماسكين بالملف البهائي السائرين به إلى مرحلته النهائية يركبون في رحلتهم مطية التصرف وفق المسطرة القانونية حتى تبدو القضية مرتكزة على أساس قانوني، وبذلك يصدر الحكم بإدانتنا ملفوفا في أوراق العدالة.

وبقدر ما كنا نجهل الخلفيات بقدر ما كنا نجهل تداعيات حكم "الناضور" وما أثاره من ردود أفعال الرأي العام الوطني والعالمي على جميع المستويات الفردية وعلى مستوى الأحزاب السياسية والمنظمات الحقوقية داخل وخارج المغرب، وعلى مستوى الجامعة البهائية العالمية بالذات.

ولم يكن النافخون ما نفوسهم من الأهواء والأغراض وما في عقولهم من الظنون والأوهام حول البهائية في "بالون" الاعتراض، يتصورون أن "البالون" الذي ينفخون فيه قد ينفجر في وجوههم، ويسمع صدى دوي انفجاره القوي في أركان الدنيا الأربعة.

وكانوا يعتقدون، في الغالب، أننا في حالة استنجادنا بمن يواسينا ويقف إلى جانبنا في محنتنا، لن نجد غير الانتقاد والسخرية والاستهزاء من طرف رجال الحكم وعلماء الدين والتابعين لهم.

لقد كانوا محقين في تقديراتهم، بقدر ما كنا مخطئين في توقعاتنا. فبدلا من الإنصاف الذي كنا نأمله في القضاء، حكمت علينا هيأة المحكمة بأقصى وأقسى عقاب. وبدلا من الرفق الذي كان يمكن أن نجده في السجن بالمنفى حال وصولنا منهكين منكسرين، استقبلنا الحراس بتكشيرة الغضب والسخط والتهديد والمضايقة. وبدلا من أن نجد الحماية في حماة القانون والمدافعين عن الحق لم نجد في أكثرهم غير الاعتذار خوفا على أنفسهم ومصالحهم.

وحتى الذين استنكروا الأحكام القاسية علينا، لم يفتهم أن يقللوا من شأن ديننا ويستصغروا

قضيتنا ويحتقروا عقيدتنا ويسفهوا أحلامنا، كما أن الذي يمثل السلطة العليا في البلاد لم يتخذ منا موقفا محايدا.

***

إن المغرب في هذه الفترة من تاريخه القريب من الاستقلال، لم يكن قد أصدر دستوره بعد، ولم يكن يتوفر على سلطة تشريعية تمثل إرادة الشعب. وأكدت"المؤسسة الملكية" وجميع "الأحزاب السياسية" على أن عملها يرتكز على القيم والمبادئ الإسلامية التي يدين بها جل أفراد المجتمع المغربي الذي تمثله. كما لا يدعو أي منها إلى العلمانية، وتعترف جميعها بأن الدين والدولة يلتقيان في شخص الملك الذي يجسد أعلى سلطة سياسية ودينية في الدولة.

كان موقف "حزب الاستقلال" منا واضحا، إذ أن زعيمه، الذي يتولى وزارة الشؤون الإسلامية، هو الذي رفع مذكرة اتهامنا ومتابعتنا، وسخّر إمكانيات الحكومة وإمكانيات حزبه قصد إدانتنا. وكذلك كان وزير العدل أحد الأعضاء البارزين في "حزب الاستقلال" يمسك بالسلطة القضائية ويهيمن على القائمين على " حكم الناضور".

وبتصريح الملك، أثناء المحاكمة، عن موقفه الصريح بعدم السماح للبهائيين بممارسة شعائرهم الدينية، تراجع أمل أهالينا في الاحتماء بظل دوحة أمير المؤمنين، بقدر ما قويت به شوكة المناوئين الذين ازدادوا تطاولا وجرأة على إيذائنا، خاصة من قبل أولئك الذين يتخذون من التصريحات الملكية شعارات تحمل من معاني التأييد أكثر مما يحمله التصريح الملكي نفسه، إمعانا في تمجيد الملك وإبراز ولائهم لسدته العالية، مما يجعلهم يتحولون إلى "ملكيين أكثر من الملك"، كما هو شائع في الأمثال الفرنسية. ويبادرون متحمسين إلى الفتك بالواقعين في دائرة ممارسة منهيات أمير المؤمنين حتى يبرهنوا بالملموس على التزلف والإخلاص في الولاء.

وبالتالي فلم يكن أحد واقفا إلى جانبنا، بما في ذلك أمير المؤمنين **" الظل الذي يحتمي به كل ضحايا الظلم "**[55] في المغرب.
لم يبق لنا من عاصم، سوى إيماننا واعتمادنا الكامل على الله، والتشبث بتعاليمه التي ينادينا صوتها من أعماقنا:

" يا أهل البهاء لا تنظروا إلى الخلق وظلمهم وضوضائهم بل إلى الحق وعدله وسلطانه كذلك نطقت سدرة المنتهى في سجنه العظيم ... [56].

***

إذا كان مبدأ "الضغط يولد الانفجار" قاعدة عامة، فإن هذه القاعدة المسلم بها لا تسري على البهائيين الذين يشكلون استثناء لها. لأنها لم تفجّر في أعماقنا بركان الكراهية والغل ولا الحقد والنقمة، رغم الضغوطات التي مورست علينا وعلى غيرنا من البهائيين في أكثر من زمان وأكثر من مكان. وذلك بفضل التعاليم البهائية التي لا تسمح بالانتقام ولا بالقصاص، كما لا تسمح بالجهر بالسوء من القول، في مواجهة ظالميهم وشاتميهم والمشوّهين لحقيقتهم. وأقصى ما بوسع البهائي القيام به إذا اشتدت عليه المكاره وضاق به الصبر، هو التوجه إلى الله بقلبه والتوسل بالدعاء لمناوئيه:

".. وعزتك، لو كشفت لهم كما كشفت لي لنبذوا ما عندهم رجاء ما عندك"

واللجوء إلى القانون والقضاء، وتحريك الأرض والسماء، إذا دعت الضرورة، حتى تتخذ العدالة مجراها الطبيعي.

أما إذا تخلى عنهم القانون وتخلت عنهم مؤسسات السلطة، وتُركوا بين مخالب الظلم، فإن ثقتهم كبيرة في أن القدر العادل وتدبير الغيب المنيع، يقيّض لهم من أهل النخوة والفضيلة، بدافع المروءة والغيرة على الحق والشعور الطبيعي بنجدة الغير، من يدافع عنهم وعن القيم الإنسانية المشتركة الثابتة لإحقاق الحق، والتصدي للمغرضين الظالمين الذين يصيدون في الماء العكر، من أجل تعرية الباطل وفضح أساليبه مهما كانت ملتوية، وإسعاف المنكوبين من الغرق في محيط الظلم والعدوان وإنقاذهم من الضياع وغمرات الحزن والأسى.

كذلك كان وضعنا أشبه ما نكون بقصة ذلك الابن الذي له الثقة الكاملة في الوعد الذي وعده به والده في أن يكون معه دائما كيفما كانت المصاعب التي يلقاها.

والقصة تحكي أن زلزالا هدّ بناء المدرسة على من فيها من الصغار، فأسرع الوالد ليشاهد... يالهول ما شاهد... كوما من الأنقاض.

حاول إزاحة الأحجار عن الموقع الذي خمن أن تحته الفصل الدراسي الذي يدرس فيه ولده، دون أن يمنعه، يأس الناس من العثور على الأحياء ورميهم إياه بالحمق والجنون، وهو يستمر جادا لاهثا في محاولاته إلى أن رأى فجوة نادى من خلالها بصوت عال: أحمممد، فإذا بصوت يجيب:

إني هنا، يا أبي ... ها هنا يا أبي ... لقد أخبرت زملائي بأنه مهما كان، فإنك لا محالة آت لإنقاذنا، كما وعدتني.

---

[55] - ذاكرة ملك .
[56] - بهاء الله : لآلئ الحكمة ، المجلد الثالث .

****

7- الإسعـــــــــــــــــــــاف

أ - الإعلام وردود الأفعـــــــــال

"... وأحب أن أبشر كل بقعـــة من بقاع الأرض وكل مـدينـــــــة من مدائنها بهذا الظهور..."

لوح الكرمل.

***

إن مـــــا أثارته قضية "الناضور" من اهتمام لدى سكانها وما أثاره الحكم القاسي الذي أصدرته محكمتها الإقليمية من ضجة وما تلاه من ردود أفعال قوية على المستويات المحلية والوطنية والعالمية، يعكس مكانة الدين السامية لدى المغاربة عموما والأمازيغ منهم بصفة خاصة. وقد أعرب عن ذلك مراسل جريدة " العلم "، لسان " حزب الاستقلال "، في مراسلته التي يصف احتشاد السكان في ذلك اليوم الأول من بداية المحاكمة:

" ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد، أن قاعة المحكمة لم تشاهد في حياتها هذا العدد من المواطنين بل خرج المواطنون إلى النوافذ حيث وقفوا على سطوح السيارات الخصوصية لمشاهدة المحاكمة... و حضر إلى المحكمة الإقليمية بالناضور، ما يربو على 1500 مواطن من مختلف أنحاء الإقليم للحضور في محاكمة دعاة البهائية"[57]

والحق، أن "الناضور" لم تشهد طيلة وجودها زلزالا اجتماعيا مثل الذي أحدثته هذه القضية التي شغلت بال سكانها وهزت مشاعرهم، وامتدت دائرة أثر اهتزازها لأسباب غير عادية إلى مختلف جهات كوكب الأرض.

وإذا كانت المدينة قد اختيرت، كما أشارت إحدى الجرائد، لموقعها في ركن منعزل في جغرافية أرض المغرب لتحاكم البهائية في زاوية النسيان حتى لا تلفت الأنظار، فإن العقلية التي أُسندت إليها مهمة القضاء فيها كانت بدورها ضاربة في أعماق التاريخ، بما حاولت استعادة مبررات أحداث الزمن الماضي وحيثياته الدينية وتفعيلها وإسقاطها على الحاضر للوصول إلى إصدار مثل ذلك الحكم القاسي.

أيقظت صدمة حكم الناضور القوية جميع أولائك الذين كانوا يعتقدون أن المساوئ المتعلقة بالتعصب الديني قد دفنت منذ قرون في قبر الماضي، ويجزمون باستحالة انبعاثه في حاضر تعيشه عقولهم المنشغلة

---

[57] - العلم : العدد 4792 المؤرخ في 15 دجنبر 1962 .

بطموحات تتجلى مشرقة في أفق المستقبل الواعد بمزيد من استقلال الشعوب وحقوق الأفراد وحرية الضمائر.

ومن الجرائد الخارجية السباقة إلى الإعلان عن قضية الناضور" فرانس سوار" الفرنسية، ذات الصيت البعيد لدى المثقفين "الفرنكوفونيين"، التي تلقفت خبر الحكم ونشرته في صفحتها الأولى تحت عنوان:

" ثلاثة أحكام بالإعدام "
" من أجل الجريمة ضد الدين "

وقالت تستعرض وجهات النظر المتباعدة لجريدتين مغربيتين:

" غريبة هي المحاكمة الدينية في الناضور (المنطقة الاسبانية سابقا) ... بما أنه لم ينشر أي تقرير في الإعلام وأسباب الحكم غير معروفة، فإن جريدة "ماروك انفورماسيون" تتساءل عن السكوت الغريب الذي يحيط هذه المحاكمة التي هي من زمان غير زماننا. بينما جريدة "العلم"، لسان حزب الاستقلال يدعي بأن الجماعة المعنية تموّلها يد أجنبية خفية وتدفعها للعمل ضد المسلمين وضد دين المغرب الحنيف"

وبذلك كشفت الجريدة عن وجود تيارين متعارضين في المغرب: التيار الراغب في الكشف عن الحقيقة والتيار الذي يقر الحكم دون تحفظ.

بينما نشرت "لو موند" الفرنسية الخبر، آسفة، تنبئ قراءها الفرنكوفونيين، وما أكثرهم في المغرب، وتنبّههم إلى مسار القضية التي عنونت لها:

" محاكم التفتيش في المغرب "
" محكمة الناضور تحكم بالموت على ثلاثة أتباع "مذهب ضال".
" إن الحكم بالموت من طرف محكمة (شريفية) على ثلاثة أشخاص ـ أحدهم أجنبي ـ متهمين (بالضلال) يستقبل باستغراب وأسف من طرف جميع الذين أجزموا على تقدير وإكبار صدور الدستور، بمبادرة الملك الحسن الثاني، كانتصار للبرالية في المغرب"[58].

وأشارت في ذات المقال إلى الفصل السادس من نفس الدستور الذي ينص على أن الدولة تضمن للجميع حرية الاعتقاد. لتتساءل عما إذا لم يكن قضاة "الناضور" قد أخذوا بعين الاعتبار (بدل نص الدستور) ما صرح به الملك في الندوة الصحفية التي عقدها الأربعاء الماضي (12 ديسمنبر أثناء سير المحاكمة) التي أعلن فيها عن موقفه بعدم السماح بممارسة البهائية في المغرب ...

" إنا نعلم مقدار الضرر الذي ألحقته (محاكم التفتيش) على مدى قرون حيث لم يكن الرأي الدولي يتجنّد مثلما يفعل اليوم عندما كان الناس يضطهدون من أجل عقائدهم ".

إن إعادة جريدة "لو موند"، الذائعة الصيت إلى الذاكرة، "محاكم التفتيش" التي أساءت إلى الدين بما اقترفه رجاله في أوروبا وغيرها، ووصمت تاريخ المسيحية بعار التعصب الأعمى وإنكار حق الإنسان في اختيار

---

[58] ـ لو موند : عدد 5573 . 18 دجنبر 1962

العقيدة، وإعلانها عن قلقها وخيبة أمل أصدقاء المغرب الذين رأوا في صدور الدستور مؤشرا يضمن السير في طريق ممارسة النظام الديمقراطي الليبرالي الذي يحقق تقدم الأمة، مشيرة إلى التناقض القائم في ذهنية القضاة بين مواد الدستور والتصريح الملكي بخصوص حرية العقيدة الدينية وعلاقة ذلك بالبهائية... كان ذا أثر على الماسكين بزمام السياسة في المغرب.

وفي 5 يناير 1963، كتبت تحت عنوان " محرقة الناضور " تقول:

" لم يكن أحد يعلم بأن عملية الأمن التي جرت في منطقة نائية ستؤثر بعد شهور على التوازن السياسي للمملكة..."

وبعد استعراض التهم الدينية الموجهة للبهائيين من طرف وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية التي يراها المقال من اختصاصات النقاش بين علماء الدين... استأنف قائلا:

" ... إن ما يهم ليس الرأي الأجنبي الذي هو مطلع، أقل أو أكثر، على الملف بصفة عامة، وإنما الرأي المغربي الذي يتساءل، في اليومية البيضاوية "ماروك انفورماسيون" وأسبوعية الرباط "لي فار" عن الضرر الذي سيلحقه الحكم بسمعة المغرب في العالم "

وبذلك كشفت "لو موند" عن أن الأمور التي بدت في أعين الساسة المغاربة المتتبعين لهذه القضية صغيرة، تحولت إلى أمور كبيرة، وأن البهائية المتطورة باستمرار في العالم البهائي التي فجر ذرّتها المناوئون لها، قد انعكست أشعة تفجيرها على السياسة الوطنية عندما باشرتها وزارة الشؤون الإسلامية بطريقة غير سليمة ودفعت بها إلى القضاء بدلا من أن تبقيها محصورة في دائرة الشأن الديني بين علماء الدين، وتوفر على نفسها إثارة قلق جريدتين وطنيتين على الأقل، والتشويش على سمعة المغرب الطيبة في الخارج.

***

فوّتت قسوة الحكم ووسائل الإعلام تحقيق الغاية التي سعى إليها المناوئون المحافظون التقليديون، رغم ما توفر لديهم من سلطة ونفوذ وما بذلوه من جهد بمهارة قصد القضاء على من وصفوهم بأهل الزيغ والضلال، غير أن ذائقة الجيل الجديد من ذوي الفكر الحديث، المدرك لعواقب الأمور، لم تستسغ طعم طبختهم ولم تستحسن نكهة البهارات التي أضافها المتطرفون منهم، لتقديم أطروحتهم لقمة سائغة سهلة المضغ للمستهلكين. كما مجّتها أذواق المتحررين واستنكرتها نظرتهم البعيدة، فأثاروا حملة "رأي" عفوية، تحولت إلى ضجة كبرى، انعكست أصداؤها في آلاف المقالات المنشورة في الصحف الوطنية والعالمية وفي الأحاديث المبثوثة عبر دور الإذاعة وفي البرقيات المنهالة من كل حدب وصوب على سكرتارية هيأة الأمم المتحدة ورئاسة الحكومة المغربية. عبّر فيها المرسلون عن مشاعرهم وقلقهم على مصير حرية الضمير وعن آرائهم التي استغربت الحدث وطريقة تعامل السلطة القضائية معه. فحرّك الحكم الصادر اهتمام المواطنين داخل الوطن، لما له من أثر مباشر على توجيه تفكيرهم، وما له من انعكاس على حريتهم ومعتقداتهم وتقاليدهم العتيدة، يمس مبدأ حيويا يهمّ كل الفئات الاجتماعية التي تهتم بمسألة الحرية الشخصية بصفة عامة و حرية العقيدة الدينية بصفة خاصة، ولما يترتب عن تداعياته من أبعاد سياسية ودينية تؤثر سلبا أو إيجابا على تقدم البلاد في مرحلة الإقلاع السياسي التي تعيشها.

وقد قيّمت جريدة "ماروك انفورماسيون" المغربية الأحداث الهامة الجارية في المغرب، التي استحوذت على اهتمام وسائل الإعلام، وقت صدور حكم "الناضور"، في المقال الذي نشرته قائلة:

" خصصت الصحافة العالمية في هذا الأسبوع مساحة كبيرة للحديث عن المغرب، أولا، من أجل تقديم النقط الأساسية لندوة صاحب الجلالة الحسن الثاني، ولكنها خصصت كذلك أخبارا وتعاليق تخص حدثين اثنين أثارا في عين المكان ردود أفعال مختلفة: أحدهما يتعلق بإعفاء ... والآخر هو محاكمة البهائيين في الناضور الذي أثار تعاليق مختلفة في الأوساط الصحفية. نتمنى هنا أيضا أن تنشر عناصر الأخبار الرسمية المقدمة في المحاكمة ليطّلع عليها العموم"[59]

*****

ب – المواجهـــــــــة.

[59] ـ ماروك أنفورماسيون : عدد 617 ، بتاريخ 22 دجنبر 1962 .

فتـــــح الصراع المحتدم بين دعاة التحرير السياسي ودعاة التقليد الديني، الباب على مصراعيه لكل من أراد أن يدلي بدلوه في هذه القضية. وأخذت وجهات النظر، ما لم يرتدعها رادع، تتدفق على صفحات الجرائد. منها ما يذكي العاطفة الدينية ومنها ما يخاطب العقل، منها ما يحتكم إلى الشرع ومنها ما يحتكم إلى القانون.

على أنه ينبغي أن لا يغيب عن البال أن بعض الليبراليين، دعاة التحرير، لم يقفوا إلى جانبنا رغبة في الانتصار لنا، وإنما اعتراضا على سياسة "حزب الاستقلال" ورجال الدين المعارضين للتحرر وحرية الضمير، تمثلا بالقول السائد: **" لا حبا في حسين ولكن كيدا في يزيد ".** وحتى الذين استنكروا الأحكام القاسية علينا لم يفتهم أن يقللوا من شأن ديننا ويستصغروا قضيتنا ويحتقروا عقيدتنا ويسفهوا أحلامنا، عندما ما كتبوا:

" ... فهذه القضية التي سميت بقضية "المذهب البهائي" ليست لها أهمية في حد ذاتها بقدر ما لها من أهمية بالنسبة لذلك النفر من المتهمين البؤساء... الذين جذبهم تيار الجهل والضلال فتاهوا عن سبل الهدى والرشاد..."[60]

ومنهم من خاض غمارها انتصارا لخط حرية الإنسان الأساسية الذي اقتنعوا بسلامة منهجها، ورفضا للاستبداد الديني الذي يفرضه الآخرون نيابة عن الشعب بكامله، المعتبرون أنفسهم أكبر مقاما وأكثر علما من الجميع.

***

إن صدور الحكم على البهائيين في اليوم 14 من شهر ديسمبر الذي استقطب الاهتمام، تزامن مع صدور الدستور الأول في المغرب، المنظم للمجتمع المغربي المبيّن لما لأفراده من حقوق وما عليهم من واجبات، والمؤسس للعلاقات بين أضلاع مثلث السلطة وفق المبادئ الحديثة والقوانين المعاصرة لبناء كيان الدولة الجديدة وضمان أمنها واستقرارها على أسس ثابتة.

أعطى حكم الناضور وصدور الدستور في نفس الوقت زخما أيقظت قوته الدافعة الضمائر وأتاحت فرصة للتيارات السياسية المتنافسة داخل المغرب، للتعبير عن مفاهيمها حول الحريات العامة بصفة خاصة، وحرية العقيدة بالتحديد، قبل الاستحقاقات الانتخابية المحلية والبرلمانية القريبة، التي سيتولى فيها الفائزون مقاليد السلطتين التشريعية والتنفيذية معا. كما كانت مناسبة لاستعراض الآراء المتباينة التي تحملها أفكار قادة الفكر ورجال الدين في الموضوع نفسه.

و تسابقت الجرائد والمجلات الوطنية إلى الإعلان عن حادثة البهائيين وترديد أصداء التعليق عليها وتخصيص بعض أعمدتها (منابر) لعرض مختلف المعلومات والآراء حولها في نقاش وحوار حامي الوطيس: يفنّد بعضها ما تنشره الأخرى و يتحرى غيرها الحقيقة أو يرغب في التحري عنها بينما لا يهم الأخرى إلا أن ترفع صوتها عاليا ليسمع الجميع غيرتها في الدفاع عن دينها دون التأكد من حقيقة ما تقول عن البهائية.

كما تبارت الصحف العالمية ذات الشهرة الواسعة والسمعة المسلم بها، بمختلف اللغات، مثل " لو موند " الفرنسية و " الغارديان " الانجليزية، تتساءل عن مصير حقوق الإنسان في بلد حديث العهد بالاستقلال،

---

[60] - المنارات : عدد 24 . الصادر في 26 دجنبر 1962 .

بازغا في سماء هيأة الأمم المتحدة، واعدا بمؤازرة مواثيقها ومناصرة مواقفها، معلنا في علاقاته الدولية بانتهاج سياسة الباب المفتوح على العالم.

والجدير بالذكر، أن الأحزاب السياسية يومذاك لم تكن أحزابا دينية، لكن حكم محكمة "الناضور" أثار مسألة الحرية الدينية النائمة في مواجهة صريحة بين زعيم "حزب الاستقلال"، وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الذي أثار المسألة البهائية ووقف ضدها، وبين زعيم حزب "جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية"، وزير الداخلية والفلاحة، الواقف موقف الداعي إلى التحرر. فبدا الحزبان تيارين سياسيين متعارضين: يمثل أحدهما التيار الديني المحافظ المائل نحو تطبيق "الشريعة" في ملف البهائيين تحت مسمى القانون، والآخر يمثل التيار الليبرالي المائل إلى التمسك بالديمقراطية وحرية الفرد.

كان الحزبان طرفي نقيض في توجههما حول سير المحاكمة والحكم معا. مما جعل كل واحد منهما يستعرض وجهة نظره وتفنيد ما يذهب إليه الطرف الآخر في جريدة حزبه أمام الرأي العام الوطني. الشيء الذي ألقى النور على ما يعنيه مفهوم الحرية لدى كل فريق، و نبه رجال السياسة إلى أي الاختيارين ينبغي أن يُتخذ منهجا لنهضة الأمة وتقدمها، واستشفاف مسلك المستقبل الذي سينهجه المغرب في بناء دولة يتحقق في إطاره ضمان السيادة الوطنية وعلاقات التعاون مع دول العالم واحترام المواثيق الدولية التي تحدد سياسته العامة المتعلقة بحقوق المواطنين والمتعاملين معهم من شعوب ساكنة المعمور. واتضح الاختلاف والصراع في ما تنشره جرائد حزب الاستقلال ورجال الدين من جهة، وما تنشره الجرائد التي تتبنى التحرر وترفض القيود المفروضة على العقل والضمير من جهة أخرى.

رفعت "العلم"، جريدة حزب الاستقلال، راية محاربة البهائية والبهائيين منذ البداية، توضح الأخطار الموهومة وتبيّن الجرائم المفترضة التي ينوي معتنقوها ارتكابها عندما تقوى سواعدهم، وتدعو إلى استعمال جميع الأساليب والوسائل والإمكانيات من أجل القضاء عليهم.

ومما نشرته تستفحل أمر البهائيين وتستعدي الرأي العام عليهم، تحت عناوين مستفزة:

" الحكم على البهائيين حماية للإسلام ".

ومما جاء في المقال:

" كان الحكم على البهائيين في الناضور من أهم الأحداث التي علقت عليها بعض الصحف "المغربية" ونقلت تعليقها واستفادت منها بعض الصحف الفرنسية والإسرائيلية.وموقف المغرب من هذه الحركة واضح جلي لا غبار عليه وقد أوضحه جلالة الملك في ندوته الصحفية حيث أشار إلى أن المغرب يتسامح مع جميع الأديان السماوية اتباعا لتعاليم الدين الإسلامي ولتقاليده التي كانت دائما مضرب الأمثال في التسامح ... إلا أنه لا يمكن أن يتسامح مع طائفة غريبة عن المغرب وغريبة عن الديانات تريد أن تقوم بدعوة وسط المجتمع المغربي فيها إساءة كبيرة للدين الإسلامي الذي هو دين الأمة كلها وهو الدين الرسمي للدولة. ومقاومة هذه الطائفة هي دفاع عن الإسلام لا اعتداء على ديانة أخرى... "[61]

ولم تكتف "العلم" بما تنشره في حملتها، من مقالات معادية للبهائية بل تنشر لكل المناوئين الطاعنين فيها، كما تعيد على صفحاتها نشر ما يُكتب في الجرائد الأخرى من المقالات المعادية لها. ولم يقتصر هجومها على البهائية وإنما طال كل الداعين إلى نجدة أتباعها المدانين. ومما نشرته في عددها 4806 الصادر في 2 يناير، تحت عنوان:

---

[61] - **العلم** : عدد 4795 ، 19 دجنبر 1962 .

" إلى المسلمين بالولادة "
" جريدة النضال تفضح البهائيين وترد على أنصارهم ".

ومما جاء في هذه الأسبوعية:

" ... ولكن الواقع الذي غاب عن الغاضبين وعن أصدقائنا " التقدميين في الفكر الحديث " هو أن القضية قضية سياسية قبل أن تكون قضية دينية، وأن أخطر ما فيها ـ وذلك ما أزعجنا ـ هو أن فرسانها البهائيين لا يقفون عند العمل على تحويل المسلمين المغاربة عن دينهم وعقيدتهم وشرائعها المتعلقة بالمجتمع، بل يذهبون إلى ما هو أخطر من ذلك إذ يهدفون ـ حسب ما تدعو إليه تعاليمهم ـ إلى تقويض المجتمعات والأنظمة السياسية والحكومات القائمة ليحل محلها جميعها نظام واحد لمجتمع عالمي واحد ... ومصيبتنا في "الثورة" التي أثيرت بسبب الأحكام الصادرة في قضية الفتنة البهائية أن أصحاب تلك الثورة أو الضجة مسلمون ولكنهم لا يعرفون عن الإسلام إلا أنهم مولدون من أبوين مسلمين..."

وبذلك تكون "النضال" قد غضبت بدورها مثل "العلم" على الغاضبين على الحكم القاسي، والذين هم، في نظرها، يجهلون الإسلام جهلهم بواقع المدانين الذين وصفتهم تهكما "بالفرسان" القائمين بعمل مزدوج ديني وسياسي، محاولة بذلك أن تقحم القضية البهائية في ميدان السياسة ومتاهاتها.
وفي 6 يناير 1963، ألقى زعيم "حزب الاستقلال"، في اجتماع مجلسه الوطني، خطابا سياسيا استعرض فيه قضية " الناضور"، وعبر عن امتعاضه مما أثاره الحكم على ما سماه "مؤامرة البهائيين" من انتقاد لموقفه تجاهها في الصحف الوطنية والعالمية، والذي نشرته "العلم" في عددها 4810 ، ومما جاء فيه:

"... ثم صدر حكم محكمة ' الناضور' في قضية مؤامرة البهائيين ، فبدأت حملة في صحف صهيونية وأجنبية أجابت عنها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية بما من شأنه أن يدفع التهم الموجهة للدولة ، وبينت أن القضية محضر دعوى جنائية لا دخل لها في مسائل العقيدة ولا الوجدان الديني، وكانت القضية بالنسبة للصحف موشكة على الانتهاء لأنهم لا يملكون أكثر من كتابة مقالات أجيبوا عنها، وبقي الأمر للقضاء الذي هو وحده الفاصل في الموضوع .

ولكن السيد ' أحمد جديرة ' مدير الديوان الملكي العام ووزير الداخلية والفلاحة أبى إلا أن يثير في صحيفة ' المنارات ' باللغتين مقالا يصور قضية البهائيين كمأساة ضد الحرية تثير الدهشة وتستوجب حذر اليهود والنصارى وشرّاب الويسكي من أن يصبح اقتناع القاضي موجها ضدهم. ويوجه النداء لضمير محكمة التمييز ليقف دون إقرار الحكم الصادر ضد البهائيين .

لست أكتمكم أيها الإخوان أن صدور هذا المقال من المدير العام للديوان الملكي، وبعد التصريح الذي أدلى به جلالة الملك في ندوته الصحافية الهائلة، والذي يؤكد أنه لا محل في المغرب للوثنيات ولا للمذاهب كالبهائية، قد أزعجني كثيرا، لا لأنه يدافع عن حرية طالما أخذ الناس باسمها ولكن لأنه يحرّف الكلم عن مواضعه ويعرب عن معنى كلها استهتار بالقيم الروحية ومحاولة للتأثير على القضاء...

والأدهى من كل هذا، أن قضية البهائيين كانت عرضت على مجلس الوزراء بعد أن أثيرت حولها ضجة ومظاهرات في ' الناضور' وبعدما كاد الشعب يفتك بالذين يدعون لتلك النحلة ويمسون من كرامة الإسلام، لولا حماية السلطة لهم. وقد قرّر جلالة الملك بعد مداولات المجلس إيفاد بعثة وزارية للناضور متركبة من ممثلي العدل والداخلية والشؤون الإسلامية، وبعدما رفعت هذه اللجنة قرارها، وتبين أن في المسألة تآمرا على الدولة وعلى البقاع المقدسة الإسلامية، قام الحق العام بواجب رفع الدعوى أمام القضاء العادي الجنائي وعينوا محاميهم، ووقعت مداولات المحكمة علنية وطبق عليهم القانون الجنائي الجاري به العمل منذ عهد الحماية .

فأية معاشرة تبقى داخل حكومة تدرس قضية من جانب ما أحدثته من اضطراب ومظاهرات وتبث في ضرورة البحث فيها ثم يتدخل فيها القضاء بكامل الاستقلال ويصدر حكمه، وإذا بوزير الداخلية الذي عرض القضية على الحكومة، والذي يهمه قبل غيره حفظ أمن الدولة، يثير في صحيفته ما يعني استنكار كل ما جرى وتحذير الناس من الوقوع في مثله ".

إن الزعيم قد كشف في خطابه عن المسار الذي اتخذته قضية البهائيين في الناضور والقرار الجماعي الذي باركته الحكومة التي يترأسها "أمير المؤمنين"، كما أشار إلى المسار القانوني الذي اتخذته القضية على مستوى أجهزة الدولة المعنية، وأكد على استقلال القضاء وألمح إلى عدم أهمية الرأي العالمي الذي لا يملك أكثر من الكلام. وزاد على ذلك ضجة الشعب ومظاهراته وتصرفه الوحشي (الموهوم). وبالتالي فإن القضية سارت، في تقديره، سيرا عاديا وفق ما يرومه القانون، لولا تدخل وزير الداخلية بالمقالات التي نشرها في جريدته. ولم يُخف الزعيم اتهام الوزير بالاستهتار بالدين والتدخل في شأن القضاء.

***

يبدو أن أحدا لم يتوقع، كما لم نتوقع نحن أيضا، أن تكون ردود الأفعال داخل الوطن، تعارض الطريقة التي عولج بها "الملف البهائي" من طرف المتحاملين الّذين ركبوا موجة سياسة إدانتها. لقد فوجئوا، وارتأوا بفعل المباغتة ونوبة الغضب، أن يعلنوا عن انسحابهم من الحكومة، وأن يتركوا القضية، وما أدت وتؤدي إليه من عواقب، إلى مجلس الوزراء لمعالجتها.
وبذلك أصبح تصرفهم حيال البهائيين مزدوج الخطأ: إقحام الحكومة في ورطة تتعلق بحرية الضمير ثم التملص من تحمل أوزار تبعاتها.

والغالب أنه عندما قيل لهم:

اتقوا الله، في مواطنين لم يرتكبوا ما يستحقون عليه العقاب! أخذتهم العزة بالإثم، وآثروا مجانبة فضيلة الرجوع إلى الحق، وفضلوا التمادي في سياستهم، ولو كلفهم ثمن ذلك، الخروج من الحكومة والوقوف في خندق المعارضة، حفاظا على صيانة ماء وجه "الحزب"، بدلا من الاعتراف بالخطأ والعمل على تصحيحه...

وهذا ما يفهم من الخطاب السابق للزعيم عندما تعرض للأسباب التي دعت حزبه إلى الخروج من الحكومة:

" إن الحملة التي قام بها السيد جديرة وبعض موظفي الإذاعة ضد حكم الناضور ينبئ عن تحول يفاجئ في الروح الإسلامية التي ما فتئ جلالة الملك وحكومته يعلنان عنها، وهو تحول لا يمكن أن يقبله ممثلو حزب الاستقلال ولا سيما من دخل كوزير للشؤون الإسلامية "

وكأن على كل من يدّعي التشبع "بالروح الإسلامية" أن ينقض على من تسوّل له نفسه التشبث بحقه في "الحرية الشخصية" الخاص "بحرية العقيدة". وكأن من يتصدى للدفاع عن حق الآخرين بدوره، يستدعي الغضب ويستحق التأنيب. وأحسب أن إقالة وزير أو وزراء بسبب سياستهم الخاطئة، أفضل لهم، مهما كانت قناعتهم، من قتل النفوس البريئة وأدعى إلى تخفيف عبء الأذى عن الحكومة وأقرب إلى التمهيد لإصلاح ما فسد.

استمرت المواجهة... ونشرت العلم في عددها 4811، ملتمس المجلس الوطني "لحزب الاستقلال" المنعقد في يومي 5 و 6 يناير 1963 الذي يعلن أنه:

1 ـ يؤكد المجلس تضامنه الكامل مع وزرائه السابقين في الدفاع عن القيم الدينية والخلقية طبقا لدين المغرب الرسمي وهو الإسلام ولمبادئ وأهداف وبرنامج حزب الاستقلال.

2 ـ يعلن تشبث الحزب بمحاربة كل زيغ عن الدين وعن الأخلاق الإسلامية ويؤكد العمل على صيانة الإسلام من كل طائفة تحاول المس به أو تخريبه بالزيغ عن مبادئه وتمس أمن الدولة وسلامتها .

3 ـ يستنكر المجلس تدخل الإدارة في شؤون القضاء وخاصة في قضية البهائيين مما يعد مسا بمبادئ الدستور ...

4 ـ يعبر المجلس عن ثقته في جلالة الملك باعتباره "أمير المؤمنين ورمز وحدة الأمة وضامن دوام الدولة واستمرارها وحامي حمى الدين" كما ينص على ذلك الدستور في أنه سيقف في وجه المسؤولين الذين يمسون القيم الدينية ومقدسات الأمة المغربية .

5 ـ يؤكد الحزب تشبثه بالدفاع عن الدين الإسلامي الذي يضمن وحدة البلاد وازدهارها بروحه التقدمية وتسامحه المثالي .

وبهذا الموقف يكون حزب الاستقلال قد عبر رسميا عن موقفه من حرية العقيدة في المغرب. وتكون سياسته، ذات الغطاء الديني، تتجه نحو تسخير السلطات القضائية والتنفيذية والدينية للتصدي لكل من تسول له نفسه الانفلات من كماشة الدين ورجاله.

*****

ج- **موقف علماء الديـــــــن.**

تطابـــق موقف بعض علماء الدين وجمعياتهم مع موقف رئيس "حزب الاستقلال" ووزير الشؤون الإسلامية المعادي للبهائية. ومن هذه الجمعيات:

جمعية "البعث الإسلامي" التي وجهت نداء إلى المواطنين، تحت عنوان:

" حول الحكم على البهائيين "

" نداء من جمعية " البعث الإسلامي "

قالت فيه:

" تقبلت جمعية (البعث الإسلامي) بكامل الارتياح قرار المحكمة الإقليمية بالناضور في شأن الجماعة الهدامة التي تدعى بالبهائيين ... فإن الواجب يقضي بالضرب على هؤلاء ، كما قال تعالى :

(إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض)...

أيها المواطن:

إن العالم يشهد لك بنخوتك وتفانيك في حب دينك ، وهاته جماعة تسعى لهدم كيانك ، وتفريق شملك وتشتيت رأيك . فلتضرب على يدها ولتعمل كل الوسائل للقضاء عليها ..."[62]

وبهذا النداء، عبرت عن استراحة نفسها واطمئنان ضميرها إلى إعدام المواطنين وتحريض العامة جهارا على سفك الدماء بدلا من الدعوة إلى الهداية كما تفرض عليها مهمتها الدينية، أو تدعو إلى المطالبة بحكم عادل بعد استيفاء التحري في عناصر إثبات الإدانة، كما تقتضي الحكمة ويفترض في العقل الهادئ الرزين التقي الذي يتجه إلى الله ويرجو لقاء ربه.

وتحالف الناشرون الذين تبنّوا حكم الإعدام الذي نطق به حكم محكمة "الناضور" على نشر مقالات معادية في جريدة "الميثاق"[63] التي دعت بدورها إلى مساندة الحكم، وكان لها جولات في محاولة تشويه سمعة البهائية والبهائيين والتشهير بهم وبالمواطنين المثقفين الذين نهضوا في محاولة جريئة يستنكرون حكم محكمة " الناضور" ويدافعون عن حرية الضمير والدين.

نشرت الميثاق في عددها 30 تحت عنوان:

" لمن تدق الأجراس ؟ دفاع عن البهائية أم محاربة للإسلام ؟ "

ثم قالت تهاجم أحد المواطنين:

---

[62] - الميثاق : 28 دجنبر 1962 .

[63] - الميثاق صحيفة إسلامية تصدرها رابطة علماء المغرب ، يديرها عبد الله كنون . منذ تأسيسها في سنة 1960 .

" في نطاق حملة الصحافة الأجنبية والصحافة المغربية التي تسبح في فلكها على حكم محكمة الناضور الصادر في قضية البهائيين، كتب أحد هؤلاء في جريدة (ماروك انفورماسيون) مقالا بامضاء " ابن الطاهر " دفاعا عن البهائية وتحاملا على علماء الإسلام الذين نعتهم بكل وصف ذميم ..."

" ... فما دخل العلماء في الحكم الصادر على البهائيين ؟ وبماذا استوجبوا هذه الحملة المنكرة من دعاة البهائية والمروّجين لها من قريب أو بعيد ؟ ... بمعنى أنه لم يحكم على هؤلاء البهائيين بقول الرسول(ص): من بدّل دينه فاقتلوه، ولا بأقوال فقهاء الإسلام في المرتد بل إنه لم ينظر فيه من زاوية الدين مطلقا... "

لا يرى بعض علماء الأمة في محاولات الدفاع عنا لإنقاذنا من الإعدام بسبب غلو حكم هيأة المحكمة، إلا حربا معلنة على الإسلام، تستوجب الإدانة. يقتفون في ذلك أثر وكيل الدولة العام في مرافعته "بالناضور" وأثر وزير الشؤون الإسلامية وهيأة المحكمة التي حكمت علينا كمواطنين بالإعدام، لأسباب دينية محضة، تتعلق بالإيمان بدين جديد.

وهكذا حذا صاحب المقال الأستاذ "عبد الله كنون" حذو "وزير الدين" الذي حاول قبله، أن يوضح أن الدين وعلماء الدين لا دخل لهم في هذه القضية. على أساس أن القضاء مستقل والمحكمة لم تأخذ بأقوال الفقهاء المدعوم بقول الرسول، كما ذكر: " **من بدّل دينه فاقتلوه** ".

وما كنا ، نحن المحكوم علينا بالإعدام، لنفرق بين مصطلح الإعدام الذي نطقت به المحكمة والقتل الذي اقتبسه العلماء، عندما تنزل على أعناقنا مقصلة القضاء، لأن وطأة الحكم علينا بالإعدام لا تختلف عن وطأة حكم القتل الذي أراد الفقيه "كنون" بهذا "الحديث" الذي أورده أن ينفي به تدخل رجال الدين في قتلنا.

وفي ردّ متناقض، على المقال المنشور في "المنارات"، يقول الأستاذ "عبد الرحمان الكتاني"، أحد فقهاء الدين بالمغرب، يؤكد في رده على أن حكم محكمة "الناضور" هو حكم ديني إسلامي محض. تحت عنوان:

" المنارات تدافع عن البهائيين "، يقول فيه:

" ... وقبل أن أناقش المنارات في الموضوع أفيدها بأن الحكم الصادر عن محكمة "الناضور" هو حكم إسلامي صحيح، وقع الاتفاق عليه بين علماء المذاهب الإسلامية ".

ويقول :

" نشرت جريدة المنارات مقالا طويلا بعددها الصادر يوم الأربعاء 26 دجنبر المنصرم مبدية فيه تعجبها وألمها من الحكم الإسلامي الصادر على البهائيين من المحكمة الإقليمية بالناضور ومطالبة المجلس الأعلى بالتخفيف منه ومشفقة على سمعة المغرب في الخارج الذي أصبح يقال عنه أنه متعصب للدين، وتفضلت إذاعة المملكة المغربية فقدمت هذا المقال إلى المستمعين مرتين عوضا عن التعليق السياسي..."

ثم يقول :

" ولقد كانت المنارات في غنى عن كل ما كتبت ما دامت تعترف بإسلامية الدولة واستقلال القضاء وفقا للدستور. فإسلامية الدولة تحتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم كيفما كان نوعها وفقا لأصول الإسلام الأربعة: الكتاب، السنة، الإجماع والقياس ".

وينتهي إلى القول:

" إننا نحذر جريدة المنارات من جرح كرامة الشعب المغربي في دينه....
كما نحذر أيضا إذاعة المملكة المغربية من إذاعة ما هو من هذا النوع، لأنها إذاعة إسلامية..."[64]

وبذلك ندد وهدد الجريدة التي نشرت المقال حتى لا تعود إلى نشر أو إذاعة ما تراه صوابا، كما حذر الإذاعة التي بثته على الأثير، ووعدها، بالويل والثبور إن لم تضع على فمها الكمام.

***

والحقيقة الثابتة أننا معشر البهائيين، نؤمن بالإسلام دينا سواء كنا من خلفية إسلامية أو مسيحية أو من أية أصول دينية أو غير دينية، لا نحاربه ولم نحاربه قط، ولا نحمل في عقولنا ولا في أجندتنا نية وبرنامج محاربته، كما توهّم "الزعيم الوزير" ومن نحا نحوه من الذين افتروا على البهائية وتعمدوا تشويه صورتها والتشهير بها لدى الرأي العام، بما نشروا على صفحات جريدة حزبه مثل هذه العناوين المثيرة التي تقول:

- **(البدعة البهائية تهدف إلى تحطيم الإسلام وهدم الكعبة)[65]**

- **(الحكم على البهائيين حماية للإسلام. الدعوة البهائية تقوم على أساس هدم الكعبة وتغيير الصلاة والزكاة والصيام . لا مكان لدعوة مخربة في أرض المغرب المسلم) [66]**

- **(موقف المدافعين عن البهائيين يتنافي والحرية الدينية والتسامح الإسلامي)[67]**

عناوين يتردد صداها في مقالات بعض علماء الدين، كما وردت في مرافعة وكيل الدولة العام أمام محكمة " الناضور" حيث قال:

"... نحن اليوم أمام مجموعة ضالة من المغاربة، تركوا دين أسلافهم واعتنقوا دينا لا علاقة له بدينهم... "

" ... نحن اليوم في حالة الدفاع عن الإسلام ".

ولم يغفل وكيل الدولة تنبيه المحكمة وتوجيه هيأتها إلى أن تتخذ من "أبي بكر" خليفة الرسول (ص) أسوة بما فعله في حروب الردة. فاحتلت بذلك تهم تبديل الدين و"الردة" المساحة الكاملة في الاصطلاحات الواردة في مرافعة الحق العام الذي رأى أن اعتناق البهائية، في حد ذاتها، تشكل هجوما على الإسلام وتهدد أمن الدولة وتضع الأمة في حالة حرب، تستوجب الاستنفار والدفاع عن الإسلام. كل ذلك من أجل الوصول إلى إقامة الحد علينا، وفق نصوص القانون المغربي التي استعرضها اجتهاده أو أُوحي بها إليه، أمام نظر هيأة المحكمة.

---

[64] - الميثاق : عدد 24 . 27 يناير 1963 .
[65] - جريدة العلـــــم : عدد 4793 في 16 دجنبر 1962 .
[66] - " " 4795 " 19 دجنبر 1962 .
[67] - " " 4804 " 30 دجنبر 1962 .

ولعله من الصعب أن يتحلى القضاة بالموضوعية الكاملة والالتزام بالقانون المجرد ومقتضيات إثبات الجريمة وعدم التحيز في مثل هذه القضية التي تمس، في نظرهم، عقيدتهم الشخصية ومنظومة حياتهم الاجتماعية.

إذ كيف يمكن للقاضي، اللهم إلا إذا كان كامل الإنصاف، أن يكون محايدا مع الذين هم في نظره، كما يقال عنهم، يعطلون أحكام دينه في الجهاد و الصوم و الصلاة و نظام الأسرة، ويعملون على هدم أقدس مباني أماكنه المقدسة وإقامة دولة بهائية بعد الإطاحة بجميع دول العالم؟

إن الدين والقانون والسياسة امتزجوا ببعضهم في قضية "الناضور" امتزاجا صعب على قضاة "الناضور" الذين لم يواجهوا مثل هذه القضية في حياتهم المهنية، ولا يتوفرون على سابقة قانونية شبيهة يقيسون عليها للتمييز والفصل بين الدين والسياسة والقانون.

إنهم لم يذهبوا إلى حد الاجتهاد في الفصل بين القانون الذي استؤمنوا على مراعاة بنوده وبين الدين، ويرسموا لكل منهما الحدود التي ينبغي الوقوف عندها وعدم تجاوزها.

اختلطت الأمور ولم يتبيّن خيط الخطأ الأسود من خيط الصواب الأبيض جليا واضحا.

إنهم لم يتفحصوا الأفعال المقترفة ولم يتأكدوا من دلائل إثبات التهم التي اتهمنا بها، حتى يكون الحكم موافقا، في حالة الإثبات، لما ينص عليه القانون من العقوبات الزجرية ورادعا وعبرة يتعظ بها كل الذين تسوّل لهم نفوسهم الإقدام على ارتكاب مثل هذه الجرائم الشنعاء التي ألصقت بنا.

إن القضاة وصاحب الحق العام ارتأوا أن الإيمان بالبهائية وتبديل المسلم لدينه، في حد ذاته، دليل كاف لإصدار تلك الأحكام الضاربة في الغلوّ. فغلبت العاطفة الدينية على الحس القانوني.

إن القارئ الملاحظ لملف قضية البهائيين، إعلاميا وقضائيا، لا يرى فيه ولا يشتمّ منه سوى ما يدل على روائح (الدين). كما أن مضمون وسائل الإعلام لا يتجاوز الانتهاك الديني إلى ما يفيد دعم التهم التي أداننا القضاة بمقتضاها، إلا استنتاجا وتخمينا.

ومع ذلك فإن وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، تملصا من تصرفه المماثل ل"محاكم التفتيش"، صرح لأحد الصحفيين في جريدة "الاستقلال" المغربية الصادرة بالفرنسية التي يديرها مديرها السياسي السيد "محمد اليزيدي"، يجيب عن سؤال يؤكد له فيه أن المحاكمة لا علاقة لها بالدين:

س : أثار حكم الناضور بعض التعاليق. هل لكم أن تنوّرونا سيدي الرئيس؟

ج : أرادت بعض الصحف الأجنبية أن تصف حكم الناضور بمحاكم التفتيش. علما بأن هذا الحكم في غاية البساطة. فكون محاكمة البهائيين تجري أمام محكمة جنائية، دليل على أن القضية جنائية محضة، لا علاقة لها بمحاكم التفتيش ولا بمشاكل حرية الضمير...[68]

اختلطت الأوراق، ولم يعد بالإمكان الجزم ما إذا كان المدانون مجرمي دين أم مجرمي حرب أم مجرمي الحق المدني ... أم ضحايا سوء الفهم؟ ولم يساعد الإعلام كثيرا في إلقاء النور على نوع المحاكمة، خاصة جريدة "العلم" ومن نحا نحوها. إنها لم تراع أمانة التحري في نقل الحقيقة، كما تفرضها مهنتها، وإنما خدمت مواقف وزير الدين الذي تنطق باسم حزبه، ودعمت ما أمكن استنتاجه من التهم المنسوبة إلى البهائية بغرض إثارة الناس ضد البهائيين من جهة، ودعم توجهاتها السياسية من جهة أخرى.

وبالطبع فإن المبتعد عن جادة الصواب الذي يتعمد السير في مسلكها لا يزداد مع التمادي إلا ابتعادا عن الصواب.

---

[68] - جريدة الاستقلال : عدد 301 في 22 دجنبر 1962 .

إذا كان الأمر لا علاقة له بالمحاكم الدينية، فبأية صفة تابع السيد وزير الشؤون الإسلامية هؤلاء المواطنين، وأقحم حكومة المملكة في هذا المأزق الذي سلط عليه الأضواء ولفت إليها أنظار العالم ليشاهدها تقطع الرقاب من أجل قضية دينية محضة؟
هل لم تنتبه حصافة وزير الدين إلى توجيه سفينة سياسته وفق ما تشير إليه إبرة بوصلة العصر وما يتطلبه العهد الجديد في العالم من احترام حياة الأفراد وحريتهم المشروعة؟ أم أن الإصرار على موقف إعدام نفوس، تبيّن من بعد أنها بريئة، يرجع إلى عدم ضبط ساعة التفكير على توقيت سياسة العالم الحديث؟ أم أن العقل المحافظ حاول ضبطها فأعاد عقاربها إلى الوراء، إلى الماضي الذي ولى؟

لا ريب أن الذين يفكرون في الحاضر بأفكار تكلست في تلافيفها رواسب مساوئ الماضي لا يقدرون على إنجاب ما يزدهر به المستقبل.

***

في ضوء هذه المعلومات وما تحملها من الاحتمالات، أقبلنا على بعضنا البعض متسائلين:

- ما الأسباب التي دعت إلى معاداتنا؟
- هل حرية العقيدة التي نصت عليها شريعة الله وعززها القانون مجرد شعار .
- ألسنا بدورنا إنما نمارس حقنا في هذه الحرية ؟ أم أن الحرية تقتصر على البعد الفكري والسياسي، ولا تطال أبدا البعد الديني، على رأي فقهاء القانون الذين تسكنهم روح علماء الدين، القائلين: المسلمون، أصحاب المحجة البيضاء، فما حاجتهم إلى هذه الحرية، وهم على دين الحق!؟ غافلين عن أن الذين ينعتونهم بالضالين، يعتبرون أنفسهم من الذين أنعم الله عليهم بالهداية، الراتعين في مروج تعاليم الأديان السماوية وفي سعة الحرية التي تدعو إليها آياتها:

" لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي... "[69] !

ولعل القناعة الدينية بأن الإسلام، دين الأولين والآخرين، دين خالد صالح لكل زمان ومكان، لا يأتيه التغيير ولا التبديل، هي الدافع الذي جعل الموقف من البهائية امتدادا للجهاد ضد الاستعمار الذي يرون شبحه واقفا خلف البهائية، ودفاعا عن الإسلام الذي يشاهدون أعداء له يتربصون به في كل المراصد.

ولعل ما أوردته أسبوعية "أخبار الدنيا" قد ينطوي على شيء من صحة الموقف الذي اتخذته وزارة الشؤون الإسلامية:

" ... ولكن لا يستبعد أن يكون سبب تشدد السيد علال الفاسي في موقفه هو أن البهائية تفرض على متبعيها كأساس أولي الانسحاب من جميع الأحزاب والتكتلات السياسية "[70]

لم يتوقف تفكيرنا عن التساؤل:

- هل يمكن تبرير التحامل على البهائية بجهل الناس لها وتقليد أعدائها التقليديين ونقل مقولاتهم من أجل إصدار قرار خطير، أدى إلى ما أصابنا من أذى في أنفسنا وترويع أمهاتنا وآبائنا وأبنائنا وأزواجنا

---

[69] - البقرة: 256 .
[70] - أخبار الدنيا : عدد 57 . الصادر 22 دجنبر 1962 .

وضياع أرزاقنا ومسّ لكرامتنا وتشويه لسمعتنا. وإلى جرّ العديد من المواطنين الأبرياء إلى زلة الباطل ووزر الظلم واحتمال شعورهم بالندم، حيث لا ينفع الندم، عند ظهور الحق!

- أم أن العذر يكمن في المأثور من القول في حق المجتهدين الذين إن اجتهدوا وأخطأوا... فلهم، على كل حال، مكافأة أجر واحد حتى لو أدى خطأ اجتهادهم إلى إزهاق الأرواح وتيتيم الأبناء وترميل الزوجات وثكل الأمهات ؟
- أم أن العذر في الاستباق إلى المبرات، والحرص على الاستجابة لمضمون الحديث المتداول:

" من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه ومن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان ".

- أم أن الموقع في السلطة، تفرض على من يتبوأ منصبها، أن يستبق إلى تغيير المنكر تحت مظلة أجهزة الدولة الأمنية والقضائية.

ذهب التفكير بنا إلى تصور كل الاحتمالات في الذين يضطهدوننا، بما فيها افتراض الانسجام في تفكيرهم ومشاعرهم والإخلاص لمبادئ الوطنية وصدق النية في القيم الدينية. ولكننا لم نتمكن من استيعاب سبب اتهامنا بتهم لا تقل عن الخيانة العظمى ونحن منها براء؟ ! كما لم نتمكن من معرفة السبب الذي جعلهم لا يقتبسون المعلومات عن البهائية من مراجعها ومن تصرفات معتنقيها، بدلا من التقاطها من مستندات لا تمت إلى حقيقة البهائية وواقع البهائيين بأية صلة، حتى تكون تصرفاتهم منسجمة مع قول الله تعالى الذي يفترض أنهم يمتثلون له:

" يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين"[71]

ولم نفهم السبب الذي دفع بهم إلى أن يوعزوا لسكان الناضور، بعد إلقاء القبض علينا وتوجيه التهم لنا، توقيع عرائض قصد تدعيم عملهم والتأثير بها على السلطات العليا ؟ كما لم نستوعب قصة تلك اللجنة الوزارية التي طلبت منا التوقيع على وثائق التنازل عن (تلك البهائية المشوّهة الخطيرة التي لا نعرفها) وغمرتنا بالوعود المشرقة ثم سمحت لنا بالالتحاق بمنازلنا!

أليس كل ذلك، من أجل أن يعزز الناقمون علينا موقفهم ويقوّوا ظهورهم باستجداء سند الشعب، ليساند مبادرة إقدامهم!

- ألا يمكن إساءة الظن والمجازفة بالقول: إنهم كانوا على علم كامل بأننا أبرياء ، لكن علينا أن ندفع بشبابنا وحريتنا وحياتنا وراحة أهلنا، ثمنا لصعود نجمهم ، متعمدين ذبحنا وسلخنا و بيع جلودنا لزبنائهم المتزايدين، متجاهلين الحكمة السائرة:

" يمكن خداع بعض أو كل الناس بعض الوقت، لكن من المستحيل خداع كل الناس في كل الأوقات "

- أم أنهم كما علقت لاحقا، صحيفة "بريس انتير" الأسبوعية في عددها 12:

" تؤكد مصادر إخبارية أخرى، بأن هؤلاء الشباب لم يتابعوا (بفتح الباء) إلا لكون تحولهم إلى البهائية، أدى إلى انسحابهم من صفوف حزب الاستقلال، ومن جميع تنظيماته التابعة له، بما فيها النقابية، حيث كانوا يعتبرون عناصر واعدة، تتمتع بمصداقية كبيرة وسط زملائهم "

---

[71] - **الحجرات: 6**

إذا كان الأمر كذلك، ألا تنزلق هذه السياسة نحو " الماكيافيلية " الشهيرة في عالم السياسة القائلة بمبدإ " الغاية تبرر الوسيلة " تجسيدا لقصة "التحكيم" قبلها، بما تضمنته من الدهاء والحيلة، باستعمال "المقدس" للوصول إلى تحقيق أهداف سياسية، كما يرويها التاريخ الإسلامي:

" فحارب (عمرو بن العاص) معه (معاوية بن أبي سفيان) في واقعة "صفين" الشهيرة سنة 37 هـ . وكادت رجال علي تظفر بمعاوية وأصحابه فيها، فاستنبط "ابن العاص" حيلة أخرجت الخلافة من أهل البيت إلى بني أمية. وذلك أنه أمر رجال "معاوية" برفع المصاحف على أسنّة الرماح إشارة إلى طلب الهدنة للمخابرة، فانخدع أصحاب "علي" بذلك ..."[72]

- ألا تنطبق هذه المكيدة التي خلدتها عبارة الإمام "علي" (ك): " **كلمة حق يراد بها باطل** " في استعمالها ضد البهائيين لتجريمنا وتحميل عقيدتنا البريئة ما نسب إليها وإلينا، بدعوى الدفاع عن الإسلام؟

- ألا يمكن تصنيف مثل هذا العمل ضمن جرائم الرأي أو الجرائم السياسية التي يقوم بها بعض الذين تعودوا على الهيمنة ومراقبة الفضاء السياسي والديني، ولا يتسع صدرهم لإمكانية وجود من لا يعتقد نفس اعتقادهم أو يغرّد بعيدا عن سربهم أو بغير تغريدتهم داخل النطاق الذي حددوه لمجال فضائهم الحيوي؟

- أفلا يكون إقحام البهائية في المجال السياسي هو المسؤول عن كل هذا اللغط المنتشر والضرر البالغ الذي نزل بالبهائيين وأسرهم.

- أم أن القدر قد اصطفى المعتدين واتخذتهم أهواؤهم مطية لتكرار مأساة الأولين من علماء الدين، ذوي النفوذ، الذين تصدّوا في كل زمان، لمحاربة إرادة الله في أشخاص رسله والمؤمنين بهم، مثلما ورد ذكرهم في كتب الله، وأشار إليه المفكر المصلح الإسلامي "محمد عبده" في آخر أيام حياته بهذه الأبيات الشعرية.

لست أبالي أن يقال محمد أبل أو اكتظت عليه المآتـــم
لكن دينا مثل دين محمــد أحذر أن تقضي عليه العمائم

وهو ما نبّه إليه "بهاء الله" أحد علماء الشيعة المجتهدين، في لوح من ألواحه:

" ... وبأي حجة أنكر الفريسيون وعلماء الأصنام، إذ أتى محمد رسول الله بكتاب حكم بين الحق والباطل بعدل أضاء بنوره ظلمات الأرض وانجذبت قلوب العارفين. وإنك استدللت اليوم بما استدل به علماء الجهل في ذاك العصر. يشهد بذلك مالك مصر الفضل في هذا السجن العظيم. إنك اقتديت بهم بل سبقتهم في الظلم وظننت أنك نصرت الدين ودفعت عن شريعة الله العليم الحكيم. ونفسه الحق ! ينوح من ظلمك الناموس الأكبر، وتصيح شريعة الله التي بها سرت نسمات العدل على من في السماوات والأرضين ... "[73]

***

---

[72] - **جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي .**

[73] - **بهاء الله : لوح موجه للمجتهد المعروف ب " نجفي " .**

في غياب من يدافع عنا علنا من أبناء المدينة الذين يعرفوننا، أبت همة بعض المثقفين من الوطن إلا أن يكتبوا مقالات يعبرون فيها عن دهشتهم وقلقهم واستنكارهم وتساؤلاتهم عن أبعاد حكم "الناضور" الذي يهدد جدياّ الحريات الأساسية والشخصية التي تعد من المكتسبات الثمينة التي حققتها البشرية ببذل التضحيات الجسيمة، والتي لا ينبغي التراجع عنها.

الشيء الذي أثار احتجاج وزارة الشؤون الإسلامية على نشر تلك المقالات، واستعملت حقها في الرد الذي نشرته لها نفس جريدة "ماروك انفورماسيون" في العدد الصادر يوم الأربعاء 19 ديسمبر 1962. في عمود "المنبر الحر"، تحت عنوان:

" وزارة الشؤون الإسلامية تجيبنا:
" الوجه الحقيقي للبهائية ومحاكمة الناضور "

تقول:

" وزارة الشؤون الإسلامية بقلم الأستاذ "محمد برادة"، مدير ديوان السيد "علال الفاسي"

يجيب على المقالين اللذين نشرناهما حول محاكمة "الناضور". سيجد قراؤنا أن " ذ. برادة "

لا يشاطرنا نفس الرأي في هذه المسألة.

وسيأسفون كذلك دون شك مثلنا، على بعض التلميحات الموجهة إلى جريدتنا والتي تصب في الاتجاه، الكثير الانتشار، الذي يرمي أوّلا إلى التكذيب عن طريق تخويف المحاور أكثر من العمل على إقناعه.

لكن من جهتنا، نرى هذا الموضوع خطيرا يستحق أن يعالج بجدية كاملة. لذا نفتح مع "ذ. برادة" منبرا حرا، سينشر من هنا فصاعدا جميع آراء ذوي النوايا الحسنة الذين يريدون التعبير عنها باحترام ".

جاء في رد الوزارة (وزارة الشؤون الإسلامية):

" نشرت " ماروك انفورماسيون " مرتين متتابعتين مقالات غير موقعة بخصوص "محاكمة الناضور" تدين باسم حرية العقيدة، المحاكم المغربية لحكمها على أعضاء المذهب البهائي. على أن الإدانة تذهب إلى أبعد عندما نشرت مقالا على صورة وثيقة "لإخبار" قرائها بأصل ومرامي هذا المذهب. بما أن المقال غير موقع، فإن مديري الجريدة يتحملون مسؤولية نشر هذه الوثيقة، لأن الوثيقة مغلوطة وتفسر البهائية على أنها ديانة منزلة ولا تشكل أي تهديد للديانات الأخرى. أمام هذه الخرافات وتشويه الحقائق من أجل هدف معين، فإنه من المناسب أن نقدم لنفس قراء هذه الجريدة التوضيحات حول هذه الديانة المزعومة و طريقة عملها وفضح الأهداف التي تريد الوصول إليها....

ومما جاء في نفس الرد بعد أن ذكر بعض تاريخ بداية البهائية، في محاولة مجحفة للكشف عن حقيقتها:

"... بعد أن منعتها السلطات الإيرانية تحولت إلى منظمة سرية تخدع النفوس وتنتزع منها أخلاقيات الديانات الثلاثة لتعلن لهم أنهم صاروا بهائيين. وبهذه الطريقة أشعلت الحرب الأهلية في القرن التاسع عشر في إيران التي أزهقت أرواح مليون مواطن... وبعد أن نسب إلى عملها السري الاستعداد للقيام بثورة لإنشاء حكومة بهائية مهمتها هدم الكعبة والتحالف مع الصهيونية لهدم العالم العربي وأماكنه المقدسة، وبعد أن زكى تصرف السلطات المغربية في إطار القانون المغربي الذي لا يتنافى مع التصريح بحقوق الإنسان ولا قوانين المنظمات العالمية الجاري بها العمل...

وصل بهذا التحليل إلى النتيجة النهائية التي تتمثل في أن:

البهائية ليست دينا وإنما هي ضلال ومؤسسة أشقت مليون شخص، ودعا إلى وضع حد لها، قائلا:
" إذا لم نوقفها فسيستمر فسادها اللا إنساني "

ووقع الرد، "محمد برادة"، مدير ديوان وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية.

***

هذه الأراجيف والمفتريات وشهادات الزور التي لا يمارسها المتدينون العاديون وتتنزه عنها أخلاق الفقهاء العارفين! هي التي يشيعها الخصوم ويحاولون ترسيخها في العقول ويكتبون مقالات تحرض على قتل الذين يشهدون لهم على أنهم مجرد ضحايا لم يأتوا بما يخالف القانون.
وفي هذه الحالة، كان ينبغي، على الأقل، وهم لا يعرفوننا، أن يطلعوا و يتأكدوا من أفكارنا وأخلاقنا وسلوكنا قبل الكتابة عنا والدعوة إلى إعدامنا.

لكن جريدة "العلم" تمادت إلى حد الاستعانة بعلماء دين أجانب، مصريين وعراقيين، حتى تدعم ما ينشره الفقهاء والكتاب المحليون لتعزز منشوراتها الناطقة بالإدانة. ومنها هذا العنوان:
" البهائية مؤسسة جاسوسية استعمارية "

التي تندّر فيها العالم الجليل على البهائيين في خاتمة مقاله:

" ... مما يورّث العجب من أن يكون من يمشي على رجلين في الغباوة أشد ممن يمشي على أربع ".

وكأن من يمارس الجاسوسية ودهاء الاستعمار بهذا القدر من الغباء! بحيث يعلن جاسوسيته وخيانته أمام الملإ، كما فعلنا عندما سئلنا من طرف السلطة عن ديننا! أو كأنما أجهزة الحكومة بلغ بها الغباء إلى درجة إمساك الخونة الجواسيس ظنّا، دون التحري اللازم للعثور على دليل الإثبات القاطع لإدانتهم !

وكأنما البهائيون مخلوقات غريبة وفدت من الكواكب البعيدة، ولا يوجدون في جهات أخرى من كوكب الأرض حيث حرية العقيدة مكفولة، يمارسون فيها حياتهم الدينية وأنشطتهم الاجتماعية في واضحة النهار، وينشرون جميع أعمالهم الداخلية وعلاقاتهم الخارجية على صفحات جرائدهم الخاصة، بحيث أصبحت هويتهم معروفة لدى العام والخاص. عكس ما يحدث في المجتمعات المنغلقة على نفسها، حيث ينشط الذين يكنون العداوة والبغضاء لغير الذين لا يخضعون لمفاهيمهم الدينية، فيطلقون العنان للأشباح التي تسكن أوهامهم لتصول وتجول في وسائل النشر والإعلام، وينسجون من خيوط المفتريات في خيال من حولهم ما شاءت لهم الأوهام حتى تتراءى لهم الظنون واقعا ملموسا، والسراب نهرا متلألئا جاريا في صحراء قناعتهم، فيدفعون المندفعين منهم إلى الفتك بالبهائيين الذين ألبسوهم لباس أسطورة القائمين بدور الشرير في مسرح الحياة.
وما دام الناس غافلين عن الحقيقة، فإنهم " أعداء ما جهلوا ".

أما جريدة "النضال"، لسان حزب "الأحرار"، فقد نحت منحى جريدة "حزب الاستقلال" ونشرت مقالات مهولة، منها المقالة التي عنونتها " **القضية الجنائية الكبرى** " في عددها الصادر بتاريخ 22 ديسمبر 1962:

"... وهذه القضية أصرخ اعتداء وقع على المسلمين المغاربة وعلى الإسلام، الذي هو قبل أن يكون دين الدولة الرسمي دين أمة منذ كان في المغرب أمة... هذه القضية ستحمل للتاريخ

اسم " قضية البهائيين" أو " قضية الفتنة البهائية " الداعية إلى الثورة على الإسلام في هذا البلد الذي عاش بالإسلام وللإسلام..."

***

أن ينبري "حزب الاستقلال" وحلفاؤه للدفاع عن الإسلام دفاعا سليما رشيدا، مبادرة تستحق الثناء من البهائيين أنفسهم. لكن أن يتخذوا منا عدوّا لدودا يهاجم الإسلام، هو انزلاق ينحرف عن زاوية الصواب ب180 درجة.
إن ذريعة الدفاع عن الدين لتحقيق مصالح في "نفس يعقوب" بمحاولة إثقال البهائية بالتهم الكاذبة لن ترجح كفتها في ميزان القانون، وهي لا تبعد كثيرا عن مثال الأعرابي الذي يضع الأغراض في خُرج حماره المثقوب.

ولا تقل مغامرات الذين يرفعون لواء محاربة أعداء الدين في أشخاص البهائيين والبهائية، عن مغامرات "دون كيشوط" الذي جسدت له الأوهام أعداء جبابرة، في حركة الطواحين الهوائية، فبادر إلى تقمّص شخصية الفارس المغوار الطامح إلى تحقيق بطولات في زمان غير زمان "فرسان القرون الوسطى" وتصدى لمحاربتها كي يريح منهم البلاد ويضمن سلامة وراحة العباد، ويحقق لنفسه الأمجاد.

والحقيقة أن البهائية لا تحارب الإسلام ولا أي دين من الأديان، ولعل ما قد يزعج أعداء البهائية، هوعدم مشاركة البهائيين في ثقافة وسياسة الذين تضبط تصرفاتهم الكراهية والعداء، بدافع إرث الخوف المتأصل من الذين يهددون قيم التراث وثروات الأرض التي سادت العلاقات البشرية في الماضي، خاصة الخوف من أولئك الأجانب الذين حكموا العالم باسم الاستعمار أو ما زالوا يحاولون السيطرة عليه تحت مسميات أخرى، تتجسد دلالاته الموروثة لدى شعوب "العالم الثالث" في شكل من أشكال الارتياب وعدم الثقة في النفس وإسقاط معاناة الإخفاق على الآخر.

إن البهائيين، ككثير من العباد، يؤمنون بجوهر الحب والخير المزروع في جبلة الإنسان، ويعملون على شحن قلوبهم بمحبة العموم. هذا الإيمان يمنحهم الشعور بالثقة في نفوسهم وفي الآخرين.
ولا شك أن الثقة تغني صاحبها عن تغذية الذات بكراهية الآخر. وتجعل البهائيين مبدئيا وعمليا لا يظهرون ما لا يكنون، ولا يغذون أية مشاعر مناوئة لمن ينصبون أنفسهم خصوما لهم.

ويعتقدون أن الخلافات بين الأمم بسبب الدين أو العرق أو الوطن أو الجنس من إرث الماضي.

وأن الحاضر يوم جديد: يوم التعارف والتآلف والتعاون بين الأفراد والشعوب. ويؤمنون بأن

البشرية ماضية صوب مستقبل يتحقق فيه الاتحاد والسلام. ويرون أن النزاعات بين الأمم حول الأمور المستعصية، في حالة وجودها، يلزم عرضها على نظر المؤسسات المتخصصة للبت فيها. مثلما يحتكم الأفراد إلى مجالس القضاء بدلا من الاحتكام إلى الاقتتال الذي تغذيه الأحقاد والعناد.

***

إن عودة القارئ إلى صحف تلك الفترة، يتكوّن لديه الانطباع، بأن كتّاب المقالات لم يولوا الاهتمام لمعرفة البهائية بقدر ما اهتموا بالصراع السياسي، تحت مظلة الدين وحرية العقيدة. وقليل منهم من اهتم بمصيرنا أو بتخفيف ثقل الظلم الواقع علينا. أما من اهتم بالبهائية وتعاليمها، فقد شكل أقل القليل أو الاستثناء النادر.

إن الصراع السياسي بين الحزبين برئاسة مؤسس "جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية" من جهة، وزعيم "حزب الاستقلال" من جهة أخرى، هو الذي أبعد الحزب الأخير عن الحكومة وأزاح تأثير نفوذه المباشر

على ملف البهائيين. كما شهد بذلك "علال الفاسي" في خطابه الموجه إلى الحضور في اجتماع المجلس الوطني لحزب الاستقلال، المنوّه به سابقا:

" ... ولكننا ويا للأسف فوجئنا بعد الاستفتاء، بحملة منظمة في مسألة البهائيين، ثم فوجئنا بقضية التعديل وما يحمله في طياته من أخطار، فلم يكن معقولا أن نقبل الوضع كما هو وأن نواصل وجودنا في الوزارة ... ".

*****

د – احتجاج المتعاطفين.

لعـــل إعادة تسطير بعض المقتبسات من ما نشر وقتها، يلقي النور على النقاش الحاد الذي أثاره حكم الناضور بين أولئك المتشددين المدينين وهؤلاء المتعاطفين الذين كانوا يرون في إعدام البهائيين إعداما لحرية العقيدة وتأبيدا للأغلال في عنق الفكر والضمير.

والحق أن ظهور مثل هؤلاء المتعاطفين في مثل هذه الظروف الحرجة وتعبيرهم عن خلجات نفوسهم بمثل تلك القوة دليل واضح على أن في الأمة أفرادا يعبرون عن حقيقة ضميرها النابض بالحياة في كيانها. إن هؤلاء، على الرغم من أنهم ليسوا بهائيين، حسب علمي، فإنهم صرخوا في وجه الغلاة بكل قواهم:

توقفوا، كفى، أتقتلون أناسا يقولون ربنا الله. من نصبكم، نيابة عن الله، لتقتلوا الناس باسمه؟ كفاكم افتراء واتهاما واضطهادا وإدانة ودعوة إلى القتل بسبب العقيدة الدينية.

ولم تقتصر غيرة هؤلاء المتميزين على الاحتجاج على الظالمين والوقوف إلى جانب الذين يجسدون المظلومين، وإنما عرضوا حياتهم ثمنا لما يعتقدون من أنه الموت في سبيل حب الله.

إن أمثال هؤلاء هم الذين أشعرتهم ضمائرهم إلى أن السكوت عن الظلم إشراك ومساهمة فيه، فصاحوا يلفتون أنظار أمثالهم من المتنورين ذوي الضمائر الحية. وفي مقدمة هؤلاء السيد "بن طاهر" الذي نشر في 19 يناير 1963 مقالا تحت عنوان:

" المتعطشون للدماء ... والمتعطشون للحب "

يقول فيه :

" قرأنا هنا (في جريدة ماروك انفورماسيون) الآراء التي عبر عنها القانونيون والصحفيون والرجال من ذوي الإرادة الحسنة حول محاكمة الناضور. هذه الجريدة خدمت بجد قضية العدالة والحرية وقامت بشجاعة بدور الدفاع عن فضائل الإنسانية العالية وفضح طبيعة محاكم التفتيش القرون وسطية الشديدة الخطر على مستقبل ديموقراطيتنا الفتية.

يجب أن أقوله بكل صراحة: لا أريد أن أتكلم عن قضية الناضور كمثقف أو صحفي أو مواطن مغربي. ولكن كإنسان، مثل جميع الناس الذين لهم الحق في البحث المنتظم الذي لا يكل و المؤلم أحيانا عن الله.

لهذا نقدر الميزة المزدوجة: البسيطة السامية، التي من أجلها أقوم بكل قواي ضد الادعاء العجيب من طرف أمثالي من البشر المدّعين بأنهم يمتلكون وحدهم الفكرة العظيمة، الجميلة، المبهجة لإله العدل والمحبة، إله الحياة و الروح و الصحة و الأمل والسرور. أن تسمع وتقرأ للسادة علال الفاسي وعبد الله كنون و"علماء" آخرين، تعتقد أنهم يملكون المفتاح المعصوم لسر الوجود ويملكون بالتالي حق معاملة المجرمين، المرشحين للموت الجسدي، كل أولئك الذين لهم فكرة عن الله أقل همجية وأقل ... حسما.

... السؤال الذي أطرحه على السيد كنون والفاسي واضح: هل لنا الحق في هذا البلد أن نعبد الله كما نريد أم لا؟ أنا الذي تعذبت سنين طويلة بالسؤال الخطير، أعتبر أن العقل الضيق، في الأمور الميتافيزقية، لا يمكن أن يأتي إلا بمنهجيتين للعقل: البلادة أو النية السيئة.

البلادة ينبغي أن تحارب دون هوادة من طرف الذكاء البديع اللاغريب الذي نتوفر عليه. أما النية السيئة، فلا يمكن أن تكون لها الغلبة.

ذو النية السيئة، يستنشقها، يموت بها: إنه النذل. وضد الأنذال، يجب أن نكون جميعا جيشا من الرجال الشرفاء على استعداد للموت من أجل كرامتنا، من أجل أغلى ما فينا للدفاع أمام

القاضي الأعظم الوحيد: إنها ذاتنا الحقة التي لا تباع، التي لا يمكن التنازل عنها دون الوقوع في أسوء خسران.

لذا ترى كل نفس منصفة في هذا البلد الذي يستيقظ للحياة في عصرنا العلمي، في حكم الناضور حكما ضد حرية الضمير.

لذا، أنت وأنا، لن نسمح أبدا للوحوش المتعطشة للدم، لسفح الدم باسم الله الذي لم يبرهن لنا أبدا بطريقة مطلقة من نصّبهم للقيام بهذا العمل الفظيع...

وينهي مقاله بهذه التصريح الجريء:

إذا أعدم المحكوم عليهم في الناضور بالإعدام، أعلن أنه المصير الذي ينبغي أن يكون مصيري: سأموت إذاً من أجل حب الله. لأن الله ليس ملك العلماء فقط".

إن هذا التصريح القوي الجريء الذي يؤكد على أن البحث والتحري عن الحقيقة الإلهية الخالدة والوصول إلى الاقتناع بها ليست حكرا على علماء الدين، ولكنها مسؤولية فردية ليس لأحد أن يحاسب غيره عليها أو أن يدعي أنه وحده المالك لمفتاح أبواب ولوجها ... لعل هذا التصريح يلتقي بمفهوم قول رب العزة الذي زوّد الإنسان بالأدوات الضرورية اللازمة للبحث عنه ومعرفته والتقرب إليه:

" والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون "[74]

أثار مقال السيد " بن طاهر" حفيظة علماء الدين واستنكارهم، ودفعهم إلى التصريح في مقالات جريدتهم "الميثاق"، لتبرئة ذمتهم، بأن قضية "الناضور" لا علاقة لها بالدين ولا بعلماء الدين. كما أثار ذات المقال جمعية حقوق الإنسان في المغرب إلى دورها في هذا المجال. مما جعلها تبعث ببيان كتبه رئيس العصبة المغربية لحقوق الإنسان السيد "قاسيم محمد نور الدين"، نشرته له "ماروك أنفورماسيون" في عمود "المنبر الحر"، تحت عنوان:

" محاكمة الناضور "
" الجواب لغير الصابرين "
" عصبة المغرب لحقوق الإنسان تتخذ الموقف "

قالت الجريدة:

"السيد بن طاهر عاب بعبارات قوية في مقاله المنشور على "المنبر الحر" المخصص لمحاكمة الناضور على العصبة المغربية لحقوق الإنسان، سكوتها المثير للدهشة حول هذه القضية ...

ومما ورد في بيان العصبة:

---

[74] - النحل : 78 .

"إن قضية الناضور في اعتبارنا، رغم احترامنا للقانون واستقلال القضاء، انتهاك سافر للميثاق العام لحقوق الإنسان، المصادق عليه من طرف هيأة الأمم المتحدة في عاشر دجنبر 1948، الذي انضم إليه المغرب عند التحاقه بالمنظمة. رغم هذا فإنا نربأ على القيام بحملة إعلامية قد تسيء للملف، وبدلا من ذلك، نعمل على حلها عن طريق الإقناع ..."[75]

***

ساهم رجال القانون بدورهم في هذا النقاش، فقد نشرت جريدة "المكافح"، لسان الحزب الشيوعي مقالا "لعبد العزيز بلال" الأستاذ بكلية الحقوق، يعبر فيه عن قلقه على مصير حقوق الإنسان:

" لقد قلق الرأي العام الوطني والدولي عن حق من محاكمة الناضور لأن الأمر يتعلق هنا بخرق خطير لحقوق الإنسان الدولية، بصرف النظر عن أي اعتبار آخر.

ومع كل احترام للديانة الإسلامية، ومهما كانت وجوه مروق المذهب البهائي، فإن مثل هذه الأساليب التي تزعم الدفاع عن الإسلام لا يمكنها إلا أن تضرّ به.

فالحكم بالإعدام وبالسجن المؤبد على أناس " لمروقهم الديني " خاص بأساليب محاكم التحقيق الهمجية في القرون الوسطى، أساليب حكم عليها التاريخ حكما لا رجعة فيه، واستنكرتها الإنسانية جمعاء برقيّها إلى القيم الديموقراطية الأساسية.

إن حرية العقيدة لا تتجزأ، فاليوم يحكم على أناس " لمروقهم الديني " وغدا سيحاكمون " لمروقهم السياسي " تحت ستار المروق الديني، لأن من اليسير جدا مزج و " تقرير شرعيا " القمع لصالح التبعية السياسية باسم الدفاع عن الدين ...

إن الذين نظموا محاكمة الناضور أرادوا لا شك أن يحدثوا تلهية لصد الشعب المغربي عن الكفاح في سبيل مطامحه في التحرر والديموقراطية والعدالة الاجتماعية، وأن يحاولوا استعباده باسم عدم التسامح الديني. لكن الشعب سوف لا ينخدع ولا يسقط في الفخ المنصوب له. ولن تستطيع أية مناورة ولا أية تلهية أن ترده عن المعركة ضد خصوم حريته واستقلاله الحقيقيين ".

وكتب أحد المحامين في عمود "المنبر الحر" الذي خصصته جريدة "ماروك انفورماسيون" على صفحاتها لنشر مقالات الكتّاب حول حكم الناضور:

" هذه التهم الكبيرة ذات الصبغة القابلة للاختلاف لا يمكن أن تكون لها مصداقية. سقراط قال قديما: الذي يتهم بدافع العاطفة لا يمكن أن يكون ذا مصداقية.

الإسلام الذي هو من أكبر ديانات حضارتنا، له من القيم الأخلاقية الطاهرة الجميلة ما لا يسمح بالاعتقاد أن باسمه، أمكن لمحكمة أن تحكم في عصرنا، على أناس بالإعدام لأنهم آمنوا بدين جديد.

---

[75] - ماروك أنفورماسيون : المؤرخ في 5 فبراير 1963 .

الرجاء رغم كل شيء، أن الخطأ المرتكب سيصحح باسم هذا الدين السامي قبل أن يسبق السيف العذل.[76]

ومما نشرته "ماروك انفورماسيون"، تحت عنوان:

" سحرة الناضور "

موقعا من طرف شاهد يعرّف بالبهائية، جاء فيه:

" تجري اللحظة في الناضور محاكمة تستحق كل اهتمامنا نظرا للمبادئ الهامة التي تضعها في الميزان ... و اختار وزير الشؤون الإسلامية الناضور ليحاكم دينا قل من يعرفه في المغرب، إنه الدين البهائي المؤسس في إيران حوالي 1844 ... ليس في مقدورنا أن ننوّه – ولا أن نحاكم – دينا، (يؤمن بوحدانية الله ويعترف بجميع الرسل) وتعترف به 26 دولة وعضويته قائمة في المنظمات غير الحكومية لدى هيأة الأمم المتحدة.

وبما أن المحاكمة قائمة فمن المستحيل عدم الشعور بإحساس السخط أمام جنين محاكم التفتيش هذا الذي يدق أبواب المملكة .

أكان الكتاب (سماويا) أو غير سماوي، فإن التسامح لا يحدّه إلا المس الفعلي بالنظام العام . غير أن الحالة التي أمامنا بعيدة عن هذا.

الشريعة البهائية تمنع أتباعها من المشاركة في الحركات السياسية، وتأمرهم بالدقة في مراعاة أوامر القيصر، أي السلطة القانونية لكل بلد يقيم فيه البهائيون ...

إن هذا القلق مشروع، في فجر عصرنا الدستوري والمبادئ العظيمة التي يعلنها، وتوقيع المغرب على المواثيق الدولية الضامنة للحريات الشخصية .

ولا يسعنا إلا أن نكتب: إذا كان الله واحدا لا يقبل التعدد، فإن التسامح أيضا"[77].

إن هذا المقال الذي ينبه إلى الخطر الذي يتهدد حرية الضمير، كشف للقراء أن البهائية يعترف بها عدد من الدول علاوة على عضويتها في المنظمات غير الحكومية لدى هيأة الأمم المتحدة، الشيء الذي كان يجهله أغلب قراء الجرائد ومطبوعات المغرب التي تنسب للبهائية كل فعل شنيع. مما جعل المتفكرين يعيدون النظر في ما تكوّن لديهم من أفكار سلبية على البهائية التي ما كان لأية دولة أن تعترف بها لو كانت بمثل السوء الذي ينعتها الخصوم.

أما "ماروك انفورماسيون" ثاني الجريدتين، التي أشارت إليهما "لو موند" الفرنسية، في البداية، فقد كتبت مقالا تحت عنوان "**حكم محاكمة الناضور**" قالت فيه:

" ... اتفق الملاحظون على القول بأن أغلب هؤلاء الشباب تحركهم في ما يبدو قناعة دينية عميقة . وقد انجذبوا على ما يظهر إلى جانب صرامة المبادئ الأخلاقية للدين البهائي وما تتميّز به تطبيقاته الدينية من تحرّر... والظاهر أن المسألة لا تتعلق بأية تهم سوى الإيمان بدين جديد ...

إن المبادئ الأساسية لدستورنا تتعارض تماما مع مثل هذه المحاكمة وهذا الحكم.

---

[76] - **ماروك انفورماسيون : عدد 623 ،المؤرخ في 30 .31 دجنبر .**

[77] - **ماروك انفورماسيون: عدد 611 ، المؤرخ في 15 دجنبر .**

لا شك أن قضية "الناضور" ستثير اضطرابا عميقا هنا وفي الخارج وستخيب أمل جميع الذين اعتقدوا بأن التحرر والتسامح من أجمل منجزات المغرب "[78]

اتفقت الجريدتان المغربيتان المذكورتان على التعبير عن رأي شريحة هامة من الشعب المغربي الذين يحتكمون إلى العقل والقانون، بخصوص البهائيين وخصومهم، وأوجزته في:

- إثبات قناعة هؤلاء المواطنين المحكوم عليهم بإيمانهم بالبهائية.
- نفي عنهم التهم الموجهة لهم.
- مخالفة الحكم الصادر ضدهم لمقتضيات نصوص الدستور.
- التأكيد على ما أثاره الحكم من انفعالات لدى الرأي العام العالمي وما أدى إليه من تداعيات بدأت تسيء إلى سمعة المغرب في الخارج
- اتهام التفكير والعقلية التي أصدرت الحكم بالتعصب الوخيم عواقبه.

***

من المفيد تسطير ما نشرته أسبوعية "لي فار" (المنارات) [79] الذي أشارت إليه جريدة "لو موند" في مقالها المنوّه به سابقا، وما وجهته من انتقاد لاذع لحكم الناضور وللعقلية التي أفرزته، وما كان لمؤسسها من أثر بالغ على الذين أثاروا قضية البهائيين. كما أنها برأت المحبوسين من التهم التي أدانتهم المحكمة بسببها. تقول المنارات متسائلة:

" ... يا ترى هل كان الأمر يتعلق بمحاولة فاشلة لقلب الأوضاع القائمة أي بإحدى تلك المحاولات التي أصبحت أمرا عاديا في هذه الفترة الطائشة التي تعيشها الإنسانية فنزلت على إثرها يد القضاء ضاربة على أيدي أصحابها والمشاركين فيها ضربة ثقيلة غير رحيمة؟... أم هل نحن أمام حكاية من حكايات عهد الحروب الصليبية والقرون الوسطى؟ ... لم يكن الأمر يتعلق بشيء من ذلك على ما يظهر، فالقضية جرت في زمننا الحاضر ووقتنا هذا وفي بلادنا، والمتهمون فيها لم يحاولوا قلب أوضاع ولا هم اقترفوا جريمة ولا إثما ...".

وفي تعرض المقال لاستقلال القضاء ونزاهة هيأة القضاة الذين أصدروا الحكم:

" ... ولكن ها هو التاريخ يحدثنا ويعطينا دروسا قاسية، فيقول لنا: إن التعصب الديني إذا ما تفشى في دولة وسيطر على أمورها، فسرعان ما تتسع رقعته وسرعان ما يخرج من إطار المظاهر القليلة المنفردة إلى أنواع المبالغة التي ربما تتخذ شكلا عاما فتصبح قاعدة من قواعد الحكم. والأمر الذي يقلق بصفة أخص في قضية الناضور وأكثر من القضية نفسها، هو نوع التفكير والعقلية التي نلمسها من خلالها ..."

أثارت المقالة أيضا انعكاسات الحكم وأثره في الأوساط الخارجية، ذاكرة:

---

[78] - ماروك انفورماسيون : عدد 612 المؤرخ يوم 16 و 17 دجنبر 1962 .
[79] - لسان حزب جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية ، أسسه أحمد رضا اجديرة .

" ... وها نحن نلاحظ بعض الانفعالات في الرأي العام الدولي. وها هي جريدة " لوموند " ذات الصيت العالمي والتي تحدثنا عنها أخيرا فوصفناها بأنها "مؤسسة" أكثر منها جريدة، والمعروفة كذلك ومنذ زمن طويل بصداقتها الفعالة للمغرب، كتبت بأحرف بارزة في أحد أعدادها: " محاكم للتفتيش الديني تحدث بالمغرب " الأمر الذي ليس من شأنه أن يكون مشرّفا لبلادنا. ومنذ الآن أصبحت المجالس تتحدث لسنا ندري هل عن خطإ أو صواب عما يسمى في الاصطلاح القانوني الدولي " جريمة الرأي " و (المتابعات المبنية على مجرد نية الإقدام على الجريمة ...).

وتنتهي المقالة بهذه الجملة الحاسمة في السياسة التي ينهجها المغرب:

" إن طرق الحرية شاقة ومستعصية: فلتكن لنا الشجاعة الكافية حتى لا نتراجع عن هذا الاختيار الذي ارتضيناه لأنفسنا "[80]

هذا هو المقال الذي أدانه "علال الفاسي" سابقا في خطابه أمام المجلس الوطني لحزب الاستقلال المنشور في جريدة "العلم" يوم 6 يناير 1963، بقوله:

" إن مقال (المنارات) ضد رأي الدولة وضد قضاء المحكمة المستقلة وضد الحرية..."

لم تسكت "المنارات" عن انتقاد "العلم" لآرائها، بل استمرت في الدفاع عن وجهة نظرها بتفنيد ما ذهبت إليه العلم في المقال الذي نشرته لها جريدة " ماروك انفورماسيون" في عددها 623 تحت عنوان:

" المنارات تجيب العلم: قمنا بواجبنا. لفتنا انتباه الجميع إلى خطر المتعصبين"

تقول فيه:

" قضية محاكمة الناضور لم تنته بعد، وما زالت بعيدة عن الانتهاء. إن عيون الرأي العالمي مركزة على المغرب؛ لم يحكم علينا بعد ولكنه ينتظر. مع ذلك فإن الرهان أكبر من أن يتصوره الخيال: إن جزءا من مستقبلنا سيحكم عليه قريبا ونهائيا. لسنا نحن الذين نقول ذلك، إنه مكتوب بطريقة أخرى، بحبر أسود على ورق أبيض، في مقال المنارات حيث يجد قراؤنا أسفله مقتبسات هامة منه ".

وتتابع "المنارات" في المقتبسات التي أوردتها الجريدة، تنفي التهم الموجهة إلى فريق جريدتها من قبيل تدخّل الإدارة في شؤون القضاء و التشبّه بسلطة "الحماية" وتشجيع ضلال البهائية.

كما استنكرت الأساليب المتبعة من قبل المساندين لحكم "الناضور" للدفاع عما ارتكبوه من

الأخطاء. وتؤكد على احترام مبادئ القانون الذي ينبغي أن يكون عاملا حاسما في تقدير

القاضي ... وترفض أن يعاقب القانون على مجرد نية الأشخاص...

" أجل، (تقول المنارات) كتبنا أن حكم الناضور في تقديرنا مقلق، أدى إليه تطرّف بعيد عن زماننا هذا الذي يعرف تغيّرا كبيرا. نادينا، ما دام أن الحكم ليس نهائيا بعد، ونجدّد النداء إلى

---

[80] - المنارات : عدد 24 . الصادر في 26 دجنبر 1962 .

الضمير الحي لجميع المواطنين، قضاة أو غير قضاة في هذا البلد ... إن الذي يتحدّث هنا ليس وزير الداخلية وإنما فريق من الرجال مثل جميع رجال البلد الذين يعتزون بخدمة مواطنيهم وليس لهم من غرض سوى المحافظة على سمعة هذا البلد المبارك حيث العيش بخير، دون خوف من الحاضر ولا قلق على المستقبل، في إطار الاحترام المتبادل للآراء والأشخاص..."

إن هذا الصراع السياسي بين الحزبين هو الذي أدى إلى إبعاد وزراء "حزب الاستقلال" عن العمل في الحكومة وإزاحة نفوذ تأثيره على توجيه مسار حرية العقيدة.

***

أما بيان "وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية" الموقع باسم "ذ . محمد برادة" مدير ديوان الوزارة، الذي يبرر إدانة البهائيين، فقد رد عليه السيد "محمد مزور"، أحد زملائه في الدراسة على نفس المنبر الذي أعدته جريدة "ماروك انفورماسيون" لنشر الآراء حول حكم "الناضور"، تحت عناوين كبيرة:

" محاكمة الناضور "

" إننا دائما أهل ضلال في نظر الآخر ... "

" كثيرا ما كانت الديانات واجهة تحتمي خلفها العقول الضيقة ... "

ويكتب:

" قرأت مقالكم المعنون " الوجه الحقيقي للبهائية " ... وفوجئت من جهتي بالأباطيل العديدة الخارجة من فم رجل القانون... إن ما يتعلق به الأمر هنا هو مفهوم الحرية الذي أجده غريبا ... - وأرجو أن تعذرني؟- هل إيمان المغاربة من الضعف، بحيث أن هجمة من طرف حفنة من البهائيين، ترنحه وتخمده ؟ ... ما هي المعايير التي يمكن الاعتماد عليها من أجل الحكم على أن هذه ديانة سماوية والأخرى ... ليست سماوية ؟ ... وفي نهاية المطاف، فإن حرية العقيدة إما أن تكون أو لا تكون. ولا يمكن أن تكون وأن لا تكون في نفس الوقت. إنها الكل. تجزئته يعني إلغاؤه... على هذا الأساس ! لنعلن أن الذين ليسوا مسيحيين ولا مسلمين ولا يهود، أنهم جميعا أهل الضلال وأعداء الإسلام والمسلمين، وهادمو الحضارة وغيرها... لما ذا التحيز في السلوك للمبادئ ؟ تلك التي تخدم بعض المصالح والأخرى التي هي جديرة ب... المزبلة ! ويستشهد (ذ . برادة) **بالجمهور حتى يعطي الوزن لبرهانه ! أقتبس (** يكتب محمد مزور**) :**

" جمهور الناضور عبّر عن إرادته في أن يقتص بنفسه إذا... (لم تقم السلطة بذلك)

" ها نحن فيها ! ـ يكتب محمد مزور **ـ جمهور غير مسؤول، ككل الجماهير، أليس كذلك ؟ يهدد، يتسخط، يصرخ يا للفضيحة، ينادي للموت في الساحة العامة، مستعدّا للقتل ضربا أولئك الذين يختلفون عنّا في الدين. آه ! يا لروعة الانتفاضات العفوية !**

ويتابع المقال نافيا عن الشعب الغلو والتطرف:

لا، سيدي، الشعب المغربي أكثر اعتدالا، أكثر طيبوبة، أكثر ترحيبا وأكثر تسامحا من هذا !

... ما أناقشه هو رأيك. يا برادة:

أجده مدهشاً. لا توجد، وينبغي أن لا توجد حرية ذات اتجاه واحد.

تدّعي أنك تحمي المواطنين من أهل الضلال! لا تخف، إنهم راشدون! ويعرفون كيف يدافعون على أنفسهم ...

أجد غريبا أن شخصا في مثل ثقافتك ومعارفك وعلى قدر كبير من الحب لديننا المقدس، ينزلق بعيدا في الخطإ.

عندما يتعلق الأمر بالحياة، بحياة بعض الناس، ينبغي أن لا يستعمل القلم مكشّرا وبتهوّر وحماقة. لأن في هذه الحالة كل تكشيرة قلم تذكّر بالصدمة الكئيبة لقاطعة المقصلة الحزينة.

أنت الذي تتأسف بكل إنسانية متألما على مليون قتيل. فكيف تصفق إذاً، مثل فوكيي تينبيل[81] لقتل مخلوقات الله ؟ "

يبدي هذا المقال مبلغ الاختلاف في استيعاب المعرفة والتوجه الفكري حول مسألة حرية العقيدة في بلد تتساكن في عقول مثقفيه ثقافة مزدوجة: الثقافة التقليدية الشرقية الإسلامية والثقافة الحديثة الغربية العلمانية، أحيانا متعايشة متآلفة وأحيانا متنافرة في ميدان الممارسة.

***

أما المحامي العالمي البهائي، الذي حضر للوقوف إلى جانبنا والدفاع عنا قضائيا، فقد فند ما نشرته "وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية"، تحت عنوان:

" الوزير المكلف بشؤون الدين يجب أن يتوفر على الأضواء (الكاشفة) عن الأديان".

قال فيه.

" ... لا توجد إلا حقيقة واحدة، الحقيقية، الوحيدة.

نشر وزير الشؤون الإسلامية مقالا موقعا من طرف مدير ديوانه، حول حكم الناضور والدين البهائي.

يجب أن أحدد أنه لا يوجد في هذا المقال إلا تهم باطلة. حُكم على الدين البهائي من وجهة نظر وزيره الذي أبدى عداوة شرسة ضد هذا الدين وأتباعه

... بخصوص محكمة الناضور ، فإن كاتب المقال قد أخطأ، لأنه قبل كل شيء، ألقي القبض أولا على أتباع البهائية، وبعد ثلاثة أيام من ذلك، أعدّت رسالتان من طرف أناس مجهولين، يتهمون المسجونين أنهم ضد الإسلام. ولمدة ثلاثة أيام (من المحاكمة) لم يسمع المحامون الحاضرون سوى أسئلة وأجوبة تتعلق بالدين البهائي؛ مما جعلهم يعلنون تبعا لذلك عن استقالتهم من محكمة تفتيش ترجع لعهود أخرى وينسحبون دون أن يتولى أحد الدفاع عن هؤلاء المسجونين الأبرياء.

نرجو، أن صاحب الجلالة ملك المغرب الشاب المتحرر في أفكاره الموهوب بثقافة عالية، عدم السماح لسمعة بلاده وشعبه المحبوب أن تمس في الأوساط الدولية وأمام عيون العالم، بسبب عمل وزارة الشؤون الإسلامية، وأن يبرهن على أنه جدير باسمه وذلك بإطلاق سراح هؤلاء المساجين المغاربة الأبرياء، أتباع الدين البهائي العالمي. "[82]

---

[81] - قانوني فرنسي و رجل سياسة شغل منصب المدافع عن الحق العام لمحاكمة أعداء الثورة أثناء الثورة الفرنسية .

[82] - ماروك انفورماسيون : عدد 623 . 30 و 31 دجنبر و 1، 2 يناير 1963 .

***

كم تكون مجافاة الصواب كبيرة والابتعاد عن العدل مهينا والتخلي عن الفضيلة باسم فضيلة الدفاع عن الدين مشينا، أن يُقدّم نفر من الناس لم يصدر عنهم ما يخالف القانون ولا الأخلاق كما سيتضح في قضيتنا من بعد، قربانا على مذبح الفداء في محراب قناعات الذين نصبوا أنفسهم "حماة الدين"، الراكبين مطية الإسلام استجابة للمآرب السياسية والقناعات الخاطئة، والسالكين في منهج "إقحام الدين في السياسة" أو " إقحام السياسة في الدين".

إن محاولات التنصل من محاكمة البهائيين باسم الدين، كما ورد في التصريحات والمقالات السابقة، وصبغه بالصبغة السياسية أو الجنائية، وحشد ما أمكن من التهم غير المبررة، لم تنطل على الواعين من المفكرين المنفتحين ورجال السياسة المتحررين. كما أن سلوكنا وأفعالنا لا تشوبها شائبة سوء، ولم تكشف عن أية ثغرة تمكّن خصومنا من النفاذ منها لإيجاد دليل يدعم التهم التي يحاولون إلصاقها بنا.

وبذلك تعثر مشروع إخراج قضيتنا من إطارها الديني، وباءت جهود إقحامها في ميدان الإجرام بالفشل الذريع، كما أن محاولة تفصيل الغلاة لثوب التهم الجنائية على أجسامنا، لم تتناسب معاييرها مع مقاييسنا.

ولعل صانعي فصول ملف "الناضور" الذين أرادوا تحقيق انتصار ما، لم ينتبهوا إلى التغيير الذي عرفه مفهوم الإنسان للانتصار في مسيرة تفكيره المتطورة عبر القرون الفاصلة ما بين عقلية القرون الوسطى وتفكير النصف الثاني من القرن العشرين .

*****

إننـــــــا معشر البهائيين لا نؤله الأشخاص، ولا نقول بذلك كما يريد أن يقوّلنا خصومنا. إنا نوحّد الله وفق ما تمليه علينا عقيدتنا، ونؤمن بجميع رسل الله وما نزل عليهم من سماء الوحي الإلهي. وهذا ما هو مكتوب في أكثر من آية في الصحف والكتب المنزلة على "بهاء الله".

ومنها على سبيل المثال هذه الآية الواردة في "لوح السلطان" :

" ... ومنهم من قال إنه كفر بالله بعد الذي يشهد كل جوارحي بأنه لا إله إلا هو، والذين بعثهم بالحق وأرسلهم بالهدى أولئك مظاهر أسمائه الحسنى ومطالع صفاته العليا ومهابط وحيه في ملكوت الإنشاء. وبهم تمت حجة الله على ما سواه ونصبت راية التوحيد وظهرت آية التجريد وبهم اتخذ كل نفس إلى ذي العرش سبيلا "[83]

وقال "عبد البهاء" المبيّن المعتمد لكلام الله:

" اعلم أن حقيقة الألوهية الذات البحت والمجهول النعت لا تدركه العقول والأبصار ولا تحيط بها الأفهام والأفكار. كل بصيرة قاصرة عن إدراكها وكل صفقة خاسرة في عرفانها..."[84]

إننا مواطنون مغاربة نؤمن بالإسلام ولا يزعجنا النطق بالشهادتين، ونصدّق بكل ما ورد في القرآن وفي الكتب المقدسة التي أتى بها رسل الله قبل ظهور الإسلام، ولكننا قد نختلف في القراءة و فهم المعاني التي ترمي إليها بعض آيات الكتب السماوية. والجديد في الأمر الذي يحاسبنا عليه خصومنا، هو اعتقادنا أن موعود أمم الأديان الذي بشر به الوحي الإلهي والأدبيات الدينية المقدسة، قد ظهر. ولعل ما لم يستوعبه الذين يعادوننا في وطننا، أن أغلب المؤمنين بالبهائية في العالم، ينحدرون من أصول غير إسلامية، بمعنى أنهم لم يكونوا يصدّقون بنبي الإسلام ولا برسالته، وأصبحوا بعد تصديقهم ببهاء الله ملزمين بالتصديق برسالة الإسلام وصاحبها وتقديسهما.

ومن هذا المنطلق، فإنه من البديهي أن الذين يدعون غير المسلمين للتصديق بالإسلام، لا يمكن أن يكونوا في نفس الوقت أعداء للإسلام، يتآمرون على هدم أماكنه المقدسة!

كل ما في الأمر أن البهائية ديانة مستقلة ذات شريعة مستقلة خاصة بها، لا تلزم إلا المؤمنين بها المقتنعين بتطبيقها في حدود ما يسمح به القانون.

أما اتهامنا بنية العمل على إزالة الحكومات الوطنية واستبدالها بحكومة بهائية عالمية تهيمن على العالم، فهو وهم وسراب، بعيد كل البعد عن الصواب، و تحريف لمعنى الكلام عن مواضعه، وظن من الظنون التي قيل عنها: الظن أكذب الحديث أو من ظنون السوء التي نهى عنها العليم بما في الصدور، وحذرنا من الوقوع في آثامها:

---

[83] - بهاء الله : لوح السلطان ناصر الدين شاه .

[84] - عبد البهاء : مكاتيب . ج . 1 .

" يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن، إن بعض الظن إثم..."[85]

إننا لم نكن في وضع يسمح لنا بالخوض في الدفاع عن أنفسنا لدحض هذه التهمة، ولا لدينا من المعرفة والإدراك ما يمكننا من تفسيرها وتوضيحها. كما أن المحاكمة لم تستوف مساءلتنا في هذه النقطة بالذات، ولم تتح للمحامين المدافعين عنا فرصة التعرض لهذه المسألة، الشيء الذي جعلهم يحتجّون على سير المحكمة وينسحبون منها.

ذلك أن البهائية لا تدعو إلى القضاء على الحكومات، وإنما تبشر بحتمية وقوع الاتحاد العالمي الذي تنتظم فيه حكومات العالم.

ولعل خصوم البهائية السياسيين والدينيين الذين يقذفونها بهذه التهمة، لم ينتبهوا إلى أن التهمة تعود إليهم. إذ لو انتبهوا لوجدوا وقتها، أنهم يتهمون السياسة التي تعتمدها المملكة المغربية بانضمامها إلى "هيأة الأمم المتحدة" للعمل متعاونة مع حكومات الدول الأخرى متحدة من أجل مصلحة أهل العالم، وينتقدون عضوية الدولة المغربية المشاركة الفاعلة في دواليبها من أجل العمل على تفعيل مبادئها في المجتمع الدولي.

ذلك أن البهائيين يرون في إعادة تأسيس " هيأة الأمم المتحدة " بلورة لنواة "رابطة الشعوب العالمية" الساعية إلى جعل حكومات العالم تلجأ إلى الوسائل السياسية بدل استعمال القوة الغاشمة التي اتسع مدى شواظها بعد إخفاق "عصبة الأمم" في مهمتها، وطالت دول العالم في حرب كونية أخرى بشعة فاحشة.
إن "الأمم المتحدة" التي تنضوي تحت لوائها جميع دول العالم، ليست في نظر البهائيين، مجرد سوق "عكاظ" تقتصر مهمتها على إلقاء الخطب السياسية البليغة التي تبدأ بالكلام وتنتهي بالكلام. وإنما هي، في اعتبارهم، جنين تنمو قدراته الكامنة فيه تدريجيا و باستمرار في رحم العالم السياسي إلى أن يتم نضجه و يبلغ أشده ويصير "فدرالية عالمية" تراعي مصلحة البشر جميعا، وتصبح قرارات أجهزتها نافذة و ملزمة لجميع الدول.

لعل الذين اهتموا بالملف البهائي، لم يسعفهم الاهتمام بما تفضل به "بهاء الله" في ألواحه إلى ملوك عصره في هذا الخصوص، وما أكده وبينه "عبد البهاء"، مركز عهده وميثاقه، ثم ما شرحه "ولي أمره" من بعده. ولم يتأكدوا من أن ما ينصح به الملوك والرؤساء والحكومات، ليس القضاء على الحكومات الوطنية، وإنما قيام حكومات العالم مجتمعة متفقة متعاهدة ملتزمة بالتعاون على تحقيق السلام والأمن الجماعي.

يقول " بهاء الله " يخاطب حكام العالم، في رسالته إلى ملكة "انجلترا" في سبعينيات القرن التاسع عشر، في وقت كانت الحركة الاستعمارية وصراعاتها في أوج الغلبة والهيمنة على كل القارات المستعمرة:

" ... لما نبذتم الصلح الأكبر عن ورائكم، تمسكوا بهذا الصلح الأصغر، لعل به تصلح أموركم والذين في ظلكم على قدر، يا معشر الآمرين ! أن أصلحوا ذات بينكم، إذاً لا تحتاجون بكثرة العساكر ومهماتهم، إلا على قدر تحفظون به ممالككم وبلدانكم، إياكم أن تدعوا ما نصحتم به من لدن عليم أمين. أن اتحدوا يا معشر الملوك ! به تسكن أرياح الاختلاف بينكم، وتستريح الرعية ومن حولكم، إن أنتم من العارفين. إن قام أحد منكم على الآخر، قوموا عليه. إن هذا إلا عدل مبين"[86]

ويوضح "عبد البهاء" بعض الأسباب للوصول إلى ذلك، قائلا:

---

[85] - الحجرات : 12 .

[86] **- بهاء الله : لوح إلى ملكة فيكتوريا .**

" إن راية المدنية الحقيقية لن ترفرف على قطب العالم إلا حينما يخطو عدد من الملوك العظام أولي العزم والهمة والغيرة والحمية والحرص على خير البشرية وسعادتها خطوات عزم ثابت ورأي راسخ ، ويطرحون على بساط البحث مسألة الصلح العام ، ويتشبثون بكل الوسائل ، ويعقدون مؤتمرا دوليا عالميا ، ويؤسسون معاهدة قوية وميثاقا وشروطا محكمة ثابتة ، ويعلنونها ويشفعونها بمصادقة عموم الهيئة الاجتماعية البشرية التي تؤكد وتصادق على أن هذا الأمر الأتم الأقوم الذي هو في الحقيقة سبب راحة الخلائق وجميع سكان الأرض ، أمر مقدس . وعلى جميع قوى العالم أن تنتبه إلى بقاء هذا العهد الأعظم سالما ثابتا .

وفي هذه المعاهدة عليهم أن يعينوا حدود كل دولة وثغورها ويوضحوا سلوك كل حكومة ومدى نفوذها، ويعينوا جميع المعاهدات والمناسبات الدولية والروابط والضوابط التي تربط الهيئات الحاكمة البشرية، ويخصصوا كذلك القوة الحربية لكل حكومة بمقدار معلوم...

خلاصة القول، إن أساس هذا الميثاق المتين يبنى على الأساس التالي، وهو: إن أية دولة من الدول تفسخ هذه الشروط، تقوم جميع دول العالم بل الهيأة الاجتماعية البشرية متحدة بكل قواها على تدمير تلك الحكومة. فلو يتوفق جسم العالم المريض إلى استعمال هذا الدواء الأعظم، فإنه ينال الاعتدال الكلي، ويفوز بالشفاء الأبدي الدائم "[87]

ثم يتطرق إلى التحكيم الدولي، في إحدى خطبه بباريس أثناء زيارته لها سنة 1911، قائلا:

" ... تتشكل المحكمة الكبرى من أمم العالم ودوله، أي تشترك في انتخاب أعضائها كل أمة وكل حكومة في العالم، ويجتمع أعضاؤها في دار الشورى العظيمة هذه بكل اتحاد واتفاق، وتعرض على هذه المحكمة جميع المنازعات الدولية..."[88]

لكن وزارة الشؤون الإسلامية واللجنة الحكومية والمحكمة لم يكن لها أي توجه لمعرفة الحقيقة عن البهائية بقدر ما كان اهتمامها مركزا على إدانتنا والوصول بأية ذريعة إلى الحكم علينا، ولو لم يكن في نيتنا ولا في أقوالنا والتعاليم التي نؤمن بها أو في إمكاننا أية وسيلة للقضاء على حكومات العالم وإقامة حكومة بهائية على أنقاضها. ولكن جريرتنا الواضحة تنحصر في إيماننا "ببهاء الله"، بغض النظر عما إذا كنا مطلعين على كل ما جاء به من التعاليم أم لا، وبغض النظر عما إذا كنا قد استوعبنا أبعاد رسالته أم لا.

ولا ريب أن صدق إيماننا يفرض علينا العمل جاهدين لتطبيق تعاليمه، سواء كان بوسعنا بلوغ بعض ذلك أم لا.

هذا هو مبلغ جرمنا وكل ذنوبنا! الذي رأى فيه خصومنا جريمة الانسلاخ عن دين الآباء والأجداد الذي تختبئ تحت ردائه كل الجرائم.

لقد بحث خصومنا مجدّين في سلوكنا وأفعالنا لعلهم يجدون ذريعة قانونية يتذرعون بها لتزكية إدانتنا، دون أن يتوفقوا في مساعيهم. وكل ما عثروا عليه من أدوات الإثبات لإدانتنا أمام محكمة قضاء البشر، هي اعترافنا بإيماننا وما سلمناه مختارين من الأوراق والكتيبات للسلطات عندما طلبت منا ذلك، ونحن نعتقد، عن حسن نية، أن اطلاع السلطة عليها سيفيدها، ويجعلها متأكدة من أن البهائية لا تحض البهائيين على اقتراف ما يخالف القانون والأخلاق، ولا تدعو إلى الثورة أو الانقلاب على الحكومات أو الخروج عن القوانين التي يحتكم إليها سكان البلاد، وإنما تدعو إلى ما فيه الخير لكافة البشر.

---

[87] - بهاء الله والعصر الجديد . تأليف د. جون أسلمنت .

[88] - بهاء الله والعصر الجديد. تأليف د. جون أسلمنت

فتعاليم البهائية بخصوص السلوك الواجب اتباعه في البلدان التي يقيمون فيها وافرة واضحة، منها ما تفضل به "بهاء الله":

" إن هذا الحزب إذا أقام في بلاد أي دولة يجب عليه أن يسلك مع تلك الدولة بالأمانة والصدق والصفاء. هذا ما نزل من لدن آمر عليم"[89]

ومما قاله "عبد البهاء" :

" يجب أن تكونوا صادقين وأمناء وخيّرين في أي دولة وجدتم، كما أشار بهاء الله، وأن تعاملوا شعب ذلك الإقليم بكل أمانة وصدق وإخلاص "[90]

وقال "ولي أمر الله":

" على أهل البهاء الطاعة والانقياد للدولة وإثبات صداقتهم وحسن نيتهم لأولياء الأمور"[91]

إذا كانت المحكمة والدائرون في فلك أطروحتها، قد اتهمونا بتهمة محاولة القضاء على الحكومة المغربية، على أساس اطلاعهم على هذه الأدبيات البهائية، فذلك عيب وأيما عيب !
أما إذا كان العذر في الاقتصار على تبني مستندات ومراجع غير بهائية، فذلك عذر أقبح من ذنب ! خاصة إذا كان الأمر يتعلق بعلماء الدين وبشخصيات وطنية وسياسية مسؤولة.

اللهم إلا إذا تعمّدوا تقويل البهائية ما لا تقول، أو تمسكوا بمبدأ " كل ما من شأنه... " بالمفهوم الاستعماري الذي طالما حاربوه.

***

لعل ما شغل المفكرين والسياسيين ورجال الدين عن الاهتمام بالبحث عن الحقيقة في البهائية والمبادئ التي تقدمها لحل مشاكل العصر، هو القناعة بصحة ونجاعة مبادئ المشاريع السياسية والاقتصادية الجارية في الدول الغربية وانهماك غيرها في الاقتداء بها. وانهماك الدول الحديثة العهد بالاستقلال، في الأعمال المستعجلة التي يتطلبها الإصلاح للنهوض ببلدانها. الشيء الذي ألهاها عن محاولة البحث عن مبادئ بديلة لحل مشاكلها المستعصية في آفاق غير آفاق تقدم الغرب.
أما بعض الراغبين في معرفة البهائية دون أن يتمكنوا من ذلك، فعذرهم يكمن في ندرة المراجع البهائية والحظر المفروض على تداولها، وامتلاء سوق الكتاب بالمؤلفات المعادية لها.

إن ما يتناساه بعض المتحاملين على البهائية من علماء الدين الذين يتهمونها بالهجوم والعدوان على دينهم وأتباعهم، عندما يرون في ذلك مبررا لشن العدوان الفعلي على البهائيين، أن التاريخ لم يسجل في صفحات سيرتهم منذ فجر ظهورهم ما يثبت أنهم اتفقوا يوما على الجور أو الاعتداء على أحد في مجتمعاتهم.

---

[89] - بهاء الله : البشارات.
[90] - عبد الحسين فكري : الكنوز الإلهية (مبادئ وتعاليم وأحكام الدين البهائي).
[91] - ولي أمر الله : توقيعات مباركة

ويبدو أن حادثة البهائيين المعتدى عليهم في الناضور تعيد نفس حالة المعتدي التي يجسدها القول الشعبي " ضربني وبكى، سبقني وشكا".

والمفارقة هي أن المعتدي الحالي يقوم بجميع الأدوار، المشتكي والمتقاضي والقاضي والحاكم، ما عدا دور الضحية التي يدعيها ويلبسنا نحن الأبرياء لباس المعتدين. على الرغم من أننا لم نحارب أحدا ولم نجادل مخاصما ولا معاديا ولا معتديا.

والظاهر أيضا أن جميع الألسن التي لا تتكلم بنفس منطق أصحاب المقالات المعادية للبهائية، يقحمها المتحاملون في خانة البهائيين قصد إخراسها. فالناس في اعتبارهم، وعلى الأقل في مسألة البهائية، صنفان اثنان لا ثالث لهما: الذين يوافقونهم الرأي ويقفون إلى جانبهم مناصرين معززين، والذين يجب محاربتهم لما يخالفونهم في الرأي و يرفعون الصوت منتقدين معترضين.

إن الإنسان العادي ليحتار في الضمائر التي سمحت لعقولها أن تركّب تلك التهم الفظيعة من أجل قتل الأبرياء باستعمال وسيلة الدين وإظهار الغيرة على شعائر الله من أجل الوصول إلى تحقيق أغراضهم، ولا يدري ما الذي جعل أنصار الحكم بالإعدام والمنادين بالموت دون اعتبار... أن لا يولوا أذنا واعية لما يرشدهم الله إليه في كتاب القرآن العظيم بخصوص حرية عقيدة الفرد:

"ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين"[92]

كما أنهم لم يتمعنوا السيرة النبوية السمحة حتى تكون مواقفهم مع الذين يعتبرونهم غير مسلمين منسجمة مع سلوك رسول الله (ص). مثلما يخبرنا التاريخ عن السلوك الذي اتخذه الرسول مع المشركين من أهل مكة، في معاهدة " الحديبية ":

" ... من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن جاء قريشا من رجال محمد لم يردوه عليه ..."[93]

ألا يوجد في هذا السلوك ما يعني أن المسلمين الذين آثروا الارتداد إلى أهلهم المشركين وإلى ما يعبدونه، لن يؤثر في شيء لا على دعوة الرسول ولا على إيمان المسلمين ! ؟

على أنه شتان ما بين موقف أهل مكة الكافر بالإسلام المعادي المحارب له وما بين موقف البهائي المؤمن بالإسلام وحب الرسول محمد (ص).

إن ما تنسبه مقالات هؤلاء العلماء صراحة إلينا وما توحي به ضمنيا، من أننا نحارب الإسلام، تجعل بعض الناس غير المسؤولين الواثقين في كل ما يدلي به علماؤهم من تصريحات أو فتاوي، ومستريحين إلى الالتزام بالحديث السائر **"من قلد عالما لقي الله سالما"** وإلى الاعتذار بتحمّل علمائهم أوزار أعمالهم... تراهم يطلقون العنان للعنف الذي يفجره الاحتقان المكبوت متسارعين إلى تطبيق " شرع الله " دون تروّ أو استيعاب. كما استدلت به جمعية إسلامية بهذه الآية الواردة في القرآن، تعزز الحكم القاسي المجحف الصادر عن البهائيين حين أدلت برأيها في جريدة وطنية، توهم القارئ أن البهائيين قد حملوا السلاح وخاضوا معارك دموية ضد الله ونشروا الفساد في المجتمع، ودلتهم على العقاب الذي يستحقونه:

" إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا، أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم"[94]

---

[92]- سورة يونس. 99.

[93] - محمد حسين هيكل: حياة محمد.

[94] - المائدة : 33 .

ولا ريب أن الحكم الوارد في الآية السالفة إذا جاز تطبيقه على المعتدين الفاسدين، فإنه لا يمكن تفعيله إلا بعد حشد أكثر من دليل وأكثر من وسيلة لإثبات وقائع حرب العدوان والفساد، لتتمكن قبضة السلطة من الامتداد في ضوء القانون إلى المجرمين الآثمين.

وإذا ما حدث أن انتهكت حقوق المواطن وتطاول الخطأ واعتدي على كرامته لسبب من الأسباب، كيف يمكن أن يسكت ذوو الشهامة والنجدة عن إنجاد النفوس الذين روّعهم الشروع في قتلهم وهم متهمون أبرياء لم تثبت إدانتهم بالواضح الملموس من قريب أو بعيد؟ ! .

***

لم تبق الجامعة البهائية، على المستويين الوطني والعالمي، أمام الظلم الواضح النازل بأتباعها مكتوفة الأيدي، وإنما عملت ما في وسعها على تفعيل همّة ذوي النفوذ والإرادة الحسنة في مناصرة حقوق الإنسان والحريات العامة، خاصة في الدول ذات النفوذ والصوت المسموع في الأوساط الدولية.

فقد نشرت جريدة " ماروك انفورماسيون "، تحت عنوان:

هل تتدخل ملكة انجلترا لصالح البهائيين ؟

قالت :

" طلب المحفل الروحاني المركزي ببريطانيا العظمى من الملكة إليزابيت أن تتدخّل لدى سلطات بلدنا لصالح ثلاثة من أعضاء هذا المذهب المحكوم عليهم بالإعدام من طرف محكمة الناضور .

صرحت سكرتيرة الجمعية البهائية " السيدة بيتي ريد " خلال ندوة صحفية في لندن يوم الجمعة مساء، أن ما بين 50 و 60 جامعة بهائية في بريطانيا العظمى أرسلت البرقيات إلى الملكة تلتمس من جلالتها التدخل ' باستعجال ' لإنقاذ حياة المدانين بالقتل "[95].

وفي 26 ديسمبر أخبرت " لو موند " تحت عنوان:

" تصريح رئيس البهائيين.

علمت وكالة رويتر بأن مسؤولي المذهب البهائي قد عبروا يوم أمس عن ارتياحهم لما علموا أن محكمة الاستئناف المغربية قررت دراسة الاستئناف الذي قدمه ثلاثة من إخوانهم في الدين المغاربة المحكوم عليهم بالإعدام يوم 15 دجنبر من طرف محكمة الناضور الإقليمية.

أكد " السيد ه. ب. كابلين " رئيس الجامعة البهائية العالمية في تصريح له، أن أحد مبادئنا الأساسية هو الالتزام الكامل بقوانين كل حكومة عادلة ".

وفي 28 من نفس الشهر، كتبت " ماروك انفورماسيون " تحت عنوان:

" محاكمة الناضور. المكتب المركزي البهائي يعرض القضية على " السيد يو ثانت ".

يقول المقال :

---

[95] - **ماروك أنفورماسيون : عددا 617 المؤرخ في 22 دجنبر .**

"... وجه يوم الخميس إلى السكرتير العام (لهيأة الأمم المتحدة) يطلب منه التدخل لوضع حد للاضطهاد في المغرب للمؤمنين البهائيين " مشيرا إلى المادة الثانية والرابعة والثامنة من وثيقة الأمم المتحدة المتعلقة بالإبادة الجماعية ، وتؤكد الرسالة على أن قتل الناس من أجل جريمة التزامهم بعقائدهم الدينية فقط " يشكل تقهقرا جديا إلى الوراء في عصر يعرف التقدم والأنوار.

تنفي الرسالة التهمة " غير المعقولة " الموجهة من طرف محكمة الناضور ضد الأشخاص المدانين بتهم " التآمر ضد أمن الدولة ".

الدين البهائي، تؤكد الرسالة، الذي ينهى قطعا عن مزاولة السياسة، هو أساسا دين سلام ".

وفي 9 يناير 1963 نشرت تحت عنوان:

" البهائيون البريطانيون يلتمسون عفو الملك ".

تقول :

" البريطانيون التابعون للمذهب البهائي بعثوا يوم أمس برقية للملك يطلبون منه العفو على ثلاثة من إخوانهم المحكوم عليهم بالإعدام من طرف محكمة الناضور، كما يتدخلون من أجل عدد آخر من المدانين ...

وصرح أحد الناطقين باسم البهائيين البريطانيين يوم أمس في لندن بأن التهم الموجهة ضد إخوانهم المغاربة تخالف المادة الرابعة من الدستور الجديد الضامن بوضوح الحرية الدينية "

لم يكن البهائيون الانجليز وحدهم هم الذين التمسوا من رؤسائهم السياسيين التدخل، ولكن

البهائيين في جميع جهات العالم التمسوا، حيث أمكن، من حكوماتهم التدخل لدى حكومة المغرب لرفع الإجحاف الواقع على إخوانهم، كما تهاطلت البرقيات من الأفراد البهائيين ومؤسساتهم على الديوان الملكي وعلى كتابة هيأة الأمم المتحدة ينبهون إلى الخطإ الفادح المرتكب في حق البهائية وإلى التهم الباطلة التي يؤاخذ بها البهائيون في المملكة المغربية ملتمسين تسريح البهائيين المسجونين المدانين.

***

عندما تسربت أصداء ما يجري خلف الأسوار إلينا، نحن القابعين في السجن المركزي "بالقنيطرة"، وطرقت أسماعنا الأخبار الدالة على أن الحكم ليس نهائيا، وأن عددا من رجال الفكر والسياسة يستنكرونه ويختلفون اختلافا كبيرا مع الذين دبروا أمره... نفذ بعض الأمل إلى نفوسنا وانتعشت أرواحنا واهتز وجداننا استبشارا، ودلعت ألسنتنا بالحمد والثناء لمولى الورى مالك الآخرة والأولى، ولهجت عقولنا بشكر الروح التي حركت هؤلاء الكتاب المفكرين للتعبير عن آرائهم وخفقت قلوبنا بالذكر الجميل لمن وقفوا يناصرون الحق، بما بثوا بارقة الأمل في سماء حياتنا الملبدة بغيوم الغضب التي تهددنا رعودها وبروقها بالغرق في طوفانها، وأرت لنا بصيصا من النور في آخر النفق المظلم الذي أجبرنا على السلوك فيه، كما ساهمت مساهمة فاعلة في رفع الغطاء عن المؤامرة المدبرة ضدنا وفي دحض حجج ومبررات الساهرين على دفع المواطنين الأبرياء مثلنا إلى مقصلة الإعدام.

وبعد أن اتسع رواج حكم "الناضور"، ولفت انتباه الكثير من الناس النافذين داخل وخارج المغرب الذين تولوا الدفاع عن قضيتنا بالنيابة عنا، وقدموا العديد من الملتمسات للحكومة المغربية، واستقطب التعاطف معنا.. تأكدنا في مقر إقامتنا ب" حي الإعدام" أن وضعنا لا يمكن أن يتطور إلى أسوأ مما هو عليه، إذ الحكم علينا بالسجن مدى الحياة وبالإعدام لا يترك المزيد لمستزيد. واستراحت نفوسنا إلى وجود من يتفهم قضيتنا من أبناء وطننا، فتمسكنا بأطواق النجاة التي يسعفنا بها أهل النجدة منهم، متشبثين بأخشاب سفينة أملنا المنكسرة الطافية على سطح أمواج بحر الفتنة العاتية، متعلقين بحبل التفاؤل، منتظرين عناية الله الذي باسمه تهتف قلوبنا وعليه نتوكل إلى أن يأتي بأمر كان مقضيا.

****

8 - هدوء العاصفـــــــــــــــــة

أ - مجتمع السجـــــــن.

"قل يا أهل البهاء ، لا تحزنوا عما ورد علينا ثم اصبروا في البأساء وتوكلوا على ربكم الرحمان الرحيم. ثم اركبوا على سفينة الحمراء باسمي الأبهى. وسيروا في بحور الكبرياء ولا تلتفتوا إلى أهل الأرض والسماء. تالله كلهم هلكوا في غمرات الفناء إلا من تمسك بهذا الفلك المقدس المحكم العزيز المتين"

بهاء الله

***

بينمـــــا عرفت عاصفة "حكم الناضور" والزوبعة التي أثارتها في وسائل الإعلام هدوءا نسبيا، بدأنا نتعوّد تدريجيا على حياة مجتمع السجن الجديدة الرتيبة بين المعتقلين والحراس، في انتظار ما ستكشف عنه الأيام من خفيات ما يضمره لنا القدر في المستقبل المنظور.

كنت أقضي سحابة يومي بين جدران الزنزانة الأربعة المتجاورة التي يفتح بابها الحديدي مرتين في اليوم بانتظام، والخروج منها إلى الساحة المكشوفة لقضاء نصف ساعة في الصباح ومثلها في المساء مستمتعا بنعمة لمسات الهواء والنظر إلى حركات السحب في زرقة السماء الفسيحة.
لم تكن هذه الوتيرة تتغير إلا في حالات استثنائية نادرة، يزحزحها طارئ عارض يتعلق بزيارة أو تطبيق إجراءات السجن المرعية كالحمّام والحلاقة المتعلقة بمراعاة المصالح الصحية للنزلاء، ثم لا تلبث أن تعود إلى حالتها العادية الأصلية.

كانت كمية الحليب التي تقدّم لي في الصباح لا بأس بها، بل تزيد عن الحاجة أحيانا بحيث أضعها في منديل قطني صغير، أعلقها في صنبور الماء فوق فتحة المرحاض ليترشح إلى أن يتحول إلى جبن، أتناوله بعد ذلك طعاما سائغا، خاصة في أيام شهري الصيام ورمضان، الذي يفرض علي أو أفرض على نفسي فيهما الأكل والشرب في أوقات لا تتزامن مع أوقات الأكل المنتظمة في السجن. كما أن قطعة اللحم التي كانت تقدم لي يوميا تقريبا أجد فيها من الغذاء ما يفي حاجة جسمي ويفيض.
ومع مرور الأيام، خفّت صرامة المعاملة في السجن وسمح ببعض المواد الغذائية أن تدخل إلى الزنزانة مثل الخضر والفواكه التي كان يتحفنا بها الزوار من أفراد الأسرة والبهائيين، خاصة المهاجرين منهم الذين كانوا يدأبون على زيارتنا ويتفضلون بإكرامنا.

لعل وليمة " النيروز" عام 1963 التي هيأتها الأسر المهاجرة وتولت أنامل محبة المؤمنات إعداد أرزها وتوابلها ومرفقاتها من دجاج ولحوم وخضر وفواكه، قد فاقت جميع ولائم السجن بما فيها وليمة "عيد الأضحى"، مما جعل عددا مهما من جيراننا في السجن يتذوقون من طعم ولذة جودة ومهارة عناية صانعيها.

كان ذلك النيروز، يوما فريدا في حياة السجن لم نشهد مثله بما أغدق الفضل الإلهي علينا وعلى الذين في جوارنا من المتعاملين معنا، من النعم التي تشعر بقوة الروح التي تجمع بين البهائيين في وقت المصاعب والفتن.

في هذا اليوم سمحت إدارة السجن بأن يقدم قميص دافئ أبيض لكل واحد منا، كما سمحت لحوالي ستين زائرا من البهائيين حملوا معهم إلى السجن ما استطاعوا من مظاهر الكرم والمأكل والملبس... والزهور التي أعدناها إليهم هدية قدمناها للمهاجرة السيدة "رفيعي رفسنجاني" التي رغم تقدم سن زوجها، كانا

حاضرين مع الزائرين بأرواح خاشعة وقلوب متألمة تطفح بالشفقة والحنان، وكانا خلال هذه المرحلة من البلاء والافتتان متأهبين باستمرار للمساهمة في الخدمة بما ملكت يمينهما من الإمكانيات المالية وبسيارتهما وسائقها الذي كان لا يتوقف عن نقل المنهمكين الفاعلين القائمين على خدمة المسجونين إلى حيث ما دعت الحاجة إلى ذلك.

أما المحكوم عليهم بالسجن مدى الحياة، فكان نصيبهم من العناية الغذائية أقل منا، وكأن الفرق بيننا وبينهم هو الفرق القائم بين الخرفان والأبقار التي تسمّن من أجل الذبح وغيرها من البهائم، ومقابل ذلك كان لهم حظ أكبر في استقبال الزوار واستلام المواد الغذائية والأغراض القادمة من خارج السجن.

كانوا يقضون بعض وقتهم في حك نوى الزيتون بأرضية الزنزانة وثقب طرفي قطبيها بعد أكل لحمها، ليصنعوا بكل خمسة وتسعين حبة تسابيح يقدمونها هدايا تذكارية لزائريهم الذين كانوا في غاية الابتهاج بها والتقدير لها.

***

كانت الاستراحة من المكوث في الزنزانة، فرصة لنا، نحن الثلاثة المحكوم علينا بالإعدام، للالتقاء مرتين في اليوم في الساحة ذات الشكل الهندسي شبه المنحرف، حيث يمكن شم الهواء الطلق والمشي ذهابا وإيابا في مساحتها، وتبادل أطراف الحديث حول الماضي القريب والبعيد والحاضر الكئيب وكل توقعات المستقبل.

كان اللقاء فرصة للتعرف أكثر على بعضنا البعض، خاصة على المهاجر السيد "فؤاد الطحان" وعلى حياته وحياة أفراد أسرته وأسرة زوجته في "سوريا" و"لبنان"... وعلى نوع الحياة الاجتماعية التي يعيشها البهائيون في مجتمعاتهم: كيف يتزوجون ويتعامل الأزواج مع بعضهم البعض والآباء مع أبنائهم. كانت فرصة للتعرّف على حياة البهائيين العملية في جهات أخرى من العالم التي ما كان لي أن أطلع عليها وأنا أعيش في "الناضور" بعيدا عن العالم البهائي الوطني والعالمي على حد سواء.

لم يكن "بوعرفة" يعلم ولا أنا، أن "فؤاد" سليل أسرة عريقة في الدين البهائي، تنحدر من الخطاط المشهور أيام "بهاء الله" السيد "مشكين قلم"، الذي لا يخلو منزل بهائي من وجود "اسم الله الأعظم" أو لوحة بها آية من آيات الآثار المباركة، حبرتها أنامل إبداعه الفني بنوع من أنواع الخط العربي الجميل. يتبرك بها أهل المنزل ويزيّنون جدرانه بروعة جمال لوحاتها.

إن حبه لله وتعلقه بحضرة "بهاء الله" جعله مقرّبا عنده ، يكتب وحيه ويستنسخ ألواحه ويعلم الخط العربي للصغار والناشئين والكبار في البيت المبارك قرب مدينة "عكا" بفلسطين يوم ذاك. مما أكسبه مكانة رفيعة خاصة لدى المؤمنين، إلى جانب ما كانت تتميز به المجالس التي يحضرها من المرح والابتسام والبهجة التي كانت تنفذ إلى القلوب بفضل ما حباه الله به من روح مرحة تكتنفها الدعابة والفكاهة والتندر .

كان ذا جسم طويل نحيف يتميز بشعر رأسه الخفيف الذي يتدلى على ظهره، كما توضح صورته. ومن المعلوم في التاريخ البهائي أنه كان أحد الأربعة الذين فصلوا عن جماعة المنفيين مع "بهاء الله" إلى "عكا" عام 1868، ونفوا إلى جزيرة "قبرص"حيث ظل بها عشر سنوات إلى:

" أن حكم الانجليز الجزيرة بمقتضى المعاهدة مع الباب العالي، وتمت لهم إدارتها والنظر في شأن المنفيين بها. فأطلقوا سراحه. فتنازل عن المساعدة المالية وحماية حاكم قبرص، واتجه في إحدى ليالي أواسط سبتمبر صوب "عكا" للالتحاق بالمنفيين بها"[96].

---

[96] - موجن مومن : البابية والبهائية ما بين 1844 و 1944 .

أورد "يونس أفروخته" في كتابه[97] الذي سجل فيه الأحداث التي مرت به في "عكا" أثناء تواجده بها، أن "مشكين قلم" عندما قدموه إليه بشهرته المعروفة أول مرة في دار الزوار، وهو في سن متقدمة من العمر. قال له متواضعا مازحا كعادته:

إن بطاقتي نحو الشهرة إنما هي لحيتي الخفيفة هذه وجسمي المعقوف.

" كان قبل إيمانه مقرّبا من البلاط الشاهاني أيام حكم "ناصر الدين شاه" حيث شغل منصبا بارزا فيه. ولما سمح له الشاه ذات مرة بزيارة قصيرة لمنزله في "أصفهان" قابل أحد البهائيين هناك واستنار قلبه بالإيمان، الأمر الذي دفعه أن يتوجه إلى "أدرنه" للتشرف بمحضر حضرة "بهاء الله" بدل الرجوع إلى بلاط "الشاه" في "طهران".

ومنذ ذلك الحين كرس حياته كلها لخدمة أمر الله. وفيما بعد أرسله "بهاء الله" في مأمورية هامة إلى "الاستانة" ليدحض الادعاءات الباطلة التي روّجها السيد "محمد الأصفهاني" في الدوائر الملكية، إلا أنه بعد وقت قصير سجن مع بعض الأتباع في "الاستانة" نتيجة لدسائس السيد "محمد" وأصحابه ، ثم أرسلوا إلى "غاليبولي" لينتظروا وصول حضرة "بهاء الله" ومرافقيه في طريق السجن إلى "عكا"، وهناك تقرر مصيره حيث أرسلته السلطات مع ثلاثة من الأحباء إلى "قبرص" برفقة ميرزا "يحيى"، ناقض عهد حضرة "الباب" وميثاقه والعدو الرئيس لحضرة "بهاء الله".

بقي "مشكين قلم" منفيا في "قبرص" لمدة تسع سنوات، ورغم معاشرته الطويلة لميرزا "يحيى" الخائن الغادر، إلا أنه بقي غير مزعزع الإيمان ثابتا راسخا مستقيما في ولائه لمولاه.

وحالما استنشق نسيم حريته في 1878 توجه إلى "عكا" وتشرف بالمثول بين يدي حضرة "بهاء الله" الذي سمح له بالإقامة في المدينة، مرافقا وخادما مخلصا وفنانا ذا موهبة، وخطاطا لا يبز وعبقريا في ابتكار الأشكال الرائعة من الحروف والكلمات. ومن بين أعماله الفنية المميزة تلك التي خطها بأظافره على ورقة بيضاء.

أمضى "مشكين قلم" سنوات عدة في حياته في نسخ ألواح كل من حضرة "بهاء الله" و"عبد البهاء".

هنالك المجلدات العديدة بخطه الجميل وقد خلد اسمه بفضل رسومه ورموزه وتصميمه "للإسم الأعظم ". وبعد التحاقه بالرفيق الأعلى خلد "ولي أمر الله" اسمه في قائمة "حواريي" حضرة "بهاء الله" التسعة عشر "[98].

***

قضيت و"بوعرفة معنان" وقتا ممتعا ومفيدا في تلك المساحة الضيقة مع "فؤاد الطحان" لما حباه الله من روح مرحة، رغم ظروف وضعيته النفسية التي يقلقها هاجس الخوف على زوجته وأبنائه الصغار الذين تركوا وحدة في دار الغربة بفاس، بعيدا عنه وعن أهله وأهلها، بما امتدت إليه يد البلادة الغاشمة، وجعلت أبناءه وزوجته معرّضين لسوء الظن بهم من طرف الجيران والمعارف وعرضة لشماتة مبغضيهم.

---

[97] - يونس أفروخته : "ذكريات تسع سنين في عكا" .

. [98] - أديب طاهرزاده : ظهور بهاء الله . المجلد الأول .

ومما زاده قلقا وإيلاما ما وصله من خبر إصابة أحد أبنائه بمرض القلب الذي يتطلب التعجيل بعلاجه خارج المغرب، قبل فوات الأوان.

ومن عنايات الله التي لا تحصى، أن جعل المؤمنين في وقت الشدة أحنّ على بعضهم وأكثر إنجادا للمنكوبين منهم، فتطوع الميسورون منهم بتغطية مصاريف نقل وعلاج ولده في "لندن"، وبذلك استراحت نفسه لما كان يعلمه من أن إخوانه البهائيين لن يتخلوا عنه في محنته وسيقومون مقامه في قضاء حاجاته الخاصة التي منعه السجن من قضائها، خلاف زميليه المغربيين، اللذين وإن كنا نشعر ونؤمن بمؤازرة ومواساة البهائيين لبعضهم البعض إلا أننا لم نكن نعلم مثله ولم نفكر في ردود أفعال البهائيين في أوقات الشدة.

***

لم تكن فرص لقائنا مع زملائنا المحكوم عليهم بالمؤبد متاحة في السجن، ولا أتذكر التقاءنا جميعا في مكان واحد طيلة فترة إقامتنا في السجن المركزي، منذ اليوم الثاني من وصولنا حيث أمكن اللقاء في مكان الاستحمام، وتبادل أطراف الحديث لبعض الوقت تحت رشاش الحمام وبخار الماء.

أما المسجونون الآخرون، فبالرغم من أنهم يسكنون معنا في نفس الحي ونسمع أصواتهم في كل يوم، خاصة صوت المسجون الذي نصّب نفسه مؤذنا يدعو ساكنة الحي إلى الصلاة في أوقاتها، إلا أننا لم تكن لنا بهم أية علاقة، اللهم إلا في بعض الحالات التي كان يتخذ فيها الحارس مبادرته الشخصية ليسمح لأحدهم بالاقتراب منا، مثل ما حدث مرة بالسماح لأحد القتلة الأميين المحكوم عليه بالإعدام، أن يتصل بنا في الساحة حتى نكتب له رسالة إلى أسرته.
ومن الفرص النادرة التي أتاحت لنا اللقاء بالمساجين الآخرين في حينا، تلك التي أتاحتها مناسبة الحلاقة. فقد أحضروا ذات يوم أحد الحلاقين المعتقلين إلى زنزانة في حي الإعدام خصصت للحلاقة حتى يعالج رؤوسنا ولحانا. كان يبدو صامتا كئيبا يسكنه الخوف والدهشة التي تستحوذ أول الأمر على النزلاء الجدد. وبينما كان منهمكا في عمله، سألناه عن مدة السجن المحكوم عليه بها. أجاب:

- عشرون سنة. وعاد إلى صمته. ثم تجرأ وسأل:
- وأنت ما المدة التي حكموا بها عليك؟

عندما سمع الجواب بالإعدام، خفت كآبته وتفتحت سريرته وانفتحت ملامحه مستهينا بمدة الحكم عليه أمام حكم الإعدام الذي يبدو على أصحابه نوع من الرضاء أو على الأقل عدم الكآبة والتشكي.

شرع يسأل عن المدة التي قضيناها وعن غيرها من الأمور المتعلقة بالحياة اليومية في حينا، دون أن يهتم بالسؤال عن الجريمة التي خططت لها الرؤوس التي كان يعالجها، أو الجرائم التي اقترفتها أيديهم حتى تستحق صدور ذلك الحكم القاسي عليها. ولعله لم يفعل، مهابة أو طاعة للتعليمات التي أعطيت له من طرف الحراس ... أو لعلمه المسبق أن المجرم قد لا يقرّ بجريمته.
والمؤكد أنه خرج من هذا اللقاء، بعد أن قدمنا له تعابير الشكر على الخدمة التي أسداها، بمشاعر تختلف عن التي أبداها أول الأمر، منشرحا بعض الانشراح بما رأى من سكينة على وجوه من يحملون وطأة حكم أثقل من حكمه ومتفائلا بما ستأتي به الأيام.

كانت ساكنة الحي الذي يأوينا تتكون من المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام بسبب ما اقترفوه من جرائم القتل. منهم من كان يبدو عليه بؤس كآبة الندم، ومنهم من كان يبدو عليه القلق والخوف من أن يقاد في فجر اليوم الموالي إلى مكان إعدامه. ومنهم من أجاب مازحا أو جادا على السؤال:

- لكن لما ذا قتلت النفس التي حرم الله ؟

- إن إنسان اليوم هش، إنما وكزته وكزة، فإذا به يسلم الروح.

وآخر ادعى أن قضيته سياسية، قتل بعض المعمرين من أجل تحرير الوطن.

سمعنا من المحكوم عليهم بالإعدام القدامى المتواجدين معنا في الحي، أن أحد الذين أخرجوهم من الحي فجراً لم يقو على المشي، من شدة الخوف، فجروه جرّا إلى حيث لقي حتفه رميا بالرصاص. وآخر رفع صوته فجرا يودع باكيا ساكنة الحي الوداع الأخير وهو يسير في الممر إلى المصير النهائي.

وبالرغم من أن وجودنا في السجن المركزي تصادف مع حبس بعض السياسيين أعضاء "الحزب الاشتراكي للقوات الشعبية" المعارضين لسياسة الحكومة، ومنهم السيد "عبد الرحمان اليوسفي" الذي ترأس إحدى الحكومات بعد ذلك. فإنه لم يكن لنا أي اتصال بهم بسبب الحبس الانفرادي وابتعادنا عن النشاط السياسي.

ولم تتح لنا أثناء إقامتنا في السجن المركزي إلا فرصة واحدة للخروج خلف أسوار مبنى الحبس والعودة إليه عندما اقتضت مصلحة السجن الإدارية نقلنا إلى مركز الشرطة فيما يبدو، في سيارة مغلقة، من أجل أخذ الصور المتعددة الجوانب لنا مع رقم الاعتقال وكذا بصمات أصابع اليدين قصد إيداعها في ملفاتنا الجنائية. ولم تسمح لنا الحراسة أثناء سير هذه العملية من القيام بأي اتصال أو التعرف على مناظر المدينة. وبذلك ظل عالمنا منحصرا في دائرة الزنزانة ومقتصرا على اللحظات اليومية القصيرة التي نقضيها في الساحة.

*****

ب - في الزنزانـــــة.

يمـــــر الوقت في الزنزانة بطيئا كأنما يمانع أن يتحرك نحو اللحظات الموالية، متشبثا بمكانه مؤثرا البقاء في الحاضر على الانتقال إلى مخاوف المستقبل المجهول.

كان عليّ، مثل بقية الأسرى الذين لا يستطيعون أن يبرحوا أماكنهم، أن أتكيف مع وضعيتي النفسية ومع محيطي الخارجي وأعالج ضيق المكان وفراغ الزمان بما يتلاءم مع نفسيتي: إذا أعياني الامتداد والاسترخاء قمت أحرك قدمي ماشيا، أقطع المسافة الصغيرة في ثلاث أو أربع خطوات، أزيد عليها أو أختصرها حسب المزاج، أعدها عدّا إلى أن أضجر من العدّ فأطلق العنان، دون إرادة، لقدمي ذاهبة آيبة تمشي طليقة على عواهنها تاركا حسابها ليوم آخر أو لحظة أخرى. وإذا أعياني المشي عدت إلى الجلوس على السرير أو أمد جسمي عليه إلى أن يهز مشاعري صوت مزلاج الباب المزعج الذي يتردد صداه في النفس فيثير فيها من التوتر والاضطراب ما يبقى أثر ترديده في أعماق الشعور إلى حين وبعد حين .

أحيانا يسرح بي الفكر عبر النافذة الصغيرة العالية في جدار الزنزانة ليصل، مثل فروع النباتات المتسلقة المتطاولة المغروسة بذرتها في تربة ذاتي، إلى جميع الأرجاء التي أعرفها، فأزور الأثيرة لدي وأجالس النفوس القريبة مني، رغم المسافات الفاصلة والموانع القائمة والقيود التي تحول دون الوصول إليها، فأناجيها وكأنها معي، أستلهم من حضورها ما يملأ الروح بالراحة والانتعاش، أو ما يحيل سكون عواطفي إلى ألم وانتكاس.

وإذا ما خيّم الليل وألقى ستاره على الكون في بعض لياليه الصافية، تراءى لي أحيانا، من النافذة الصغيرة، نجم يتلألأ في ذلك الجزء الصغير المحدود من فراغ السماء اللامحدود، فيبعث لمعانه المتلألئ في نفسي من الذكريات والأحلام ما ينير جوانب نفسي المظلمة الحزينة، إلى أن تدغدغ سنة السبات جفوني ويغلق النوم عيوني، لأستيقظ في الصباح وأجد نفسي، أحيانا كثيرة، صافية خالية من القلق والاضطراب.

كثيرا ما كان يسرح به الخيال في عالم البهائيين الذي عايشته، فأتذكر تلك اللقاءات على قلتها، غنية مع ذلك بالعنايات التي تتدفق من الأحاديث الدائرة حول الكلمات الإلهية المشحونة بالبركات التي ينشرها عبق معانيها في الأجواء، وتلك المحبة التي يتسم بها سلوك المؤمنين وما تولده روحها من الراحة النفسية التي تنعش حياتي كلما مرّت على خاطري نسائم ذكراها فيملأ عبقها مساحتي الضيقة بالابتهاج.

وفي لحظات الدعاء كنت أشعر أحيانا بأن الزنزانة تمنحني أحسن فرصة أنفرد فيها بالمناجاة قريبا من ربي.

لطالما استعجلت لحظات حضور أوقات النوم، لأعيش في عالم الأحلام لحظات من الفعالية والحركة والنشاط التي تدخل التغيير على حياة يقظتي الساكنة المملة. أحيانا تجود عناية القدر بأحلام، بعضها يريح النفس وبعضها أضغاث وأخرى غامضة المعنى رغم أهميتها والأثر الذي تتركه في النفس.

منها تلك التي حملتني على جناح الروح إلى سوق أربعاء "بني سيدال" حيث نزلت ضيفا في أحد الأيام على أسرة "الورياشي" في منزلها الهام على سفح ذاك الوادي حيث تنتشر الخضر وأشجار الفواكه في الحقول المزروعة المحيطة بالمنزل الذي يستمد أهميته من غرف الطبقة المشيدة فوق مبناه، التي قل من يبنيها في بادية الريف إلا من كان ذا مقام اجتماعي متميز. رأيتني في المنام داخلا من باب السور الذي يحيط بالسوق الأسبوعي، أقطع المسافة التي تفصلني عن المبنى الذي يستقر فيه الشخص الجليل المقصود بالزيارة. لاحظت وأنا أتأهب للدخول من باب بيت المنزل المخصص لاستقبال الزوار، شخصا جالسا متكئا حسب العادة المرعية، على السرير المفروش على الأرضية في عرض الغرفة المستطيلة.

لم أتمكن من رؤية محيا ذلك الشخص محل الإجلال والتعظيم لأنه كان قد ولى ظهره لمدخل البيت.

التفت خلفي فشاهدت في ساحة السوق العديد من الزوار الوافدين، في حلل مغربية تقليدية ناصعة البياض، تزينها القلادات الحاملة للخناجر الفضية المعقوفة، والمحافظ المزركشة المدلاة من أعلا الكتف الأيسر على الخاصرة اليمنى، فشعرت بعدم لياقة مظهري للزيارة وأنا أتسربل سروالا أوروبيا وقميصا أسود اللون.

أحسست كأنما أدب الزيارة يتطلب مني تغيير لباسي بالملابس القشيبة التي يرتديها الزوار.

اشتغل تفكيري بفهم ما ترمي إليه رموز الحلم من المعاني. أحيانا أراه في وضعية اعتقالي في سبيل أمر الله التي هي فوق مستوى إمكانياتي، وأحيانا أراها في الموقف الذي كان ينبغي أن أتخذه في الفرص التي أتيحت لي من أجل الدفاع عن البهائية التي خذلتني فيه ضحالة معارفي و قلة تجربتي وكثرة مجاراة خصوم دين الله المتجدد، وأحيانا يذهب به التفكير عندما ما تحضرني الآية القرآنية:

" وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة "[99]

فأراها في عدم لياقتي واستحقاقي لموهبة الشهادة التي لا ينالها إلا الذين أنعم الله عليهم بالقبول والرضاء على ما يجري عليهم في سبيله.

***

أحيانا أفكر في الذين دفعوا بنا إلى زنازين حي الإعدام، في بعض وزراء "حزب الاستقلال"، ومن بينهم زعيم الحزب الذي أدت سياسته إلى الحكم علينا بالموت. وأحاور نفسي:

- هل السياسيون يأخذون في حساباتهم قول الله تعالى:

" من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا " ؟

- هل يوجد فرق بين جريمة فردية لأسباب شخصية كثيرا ما يصاب مرتكبها بوخز الضمير، ويعتبر نفسه خارج إطار البشرية كما لو كان قد قتل الناس جميعاً، وبين من تسبب في قتل فرد أو فريق من البشر أو الآلاف منهم من أجل العقيدة ؟
- هل الإحساس بالدفاع عن العقيدة، يجعل صاحبها في حل من أي شعور بالذنب، لما يجد في نفوذها من تبرير لما اقترفته يداه يتجاوز الزمان والمكان وإزهاق أرواح البشر؟
- هل العقيدة، في اعتبار أتباعها، ثروة تماثل ثروات الموارد الطبيعية القابلة للاستنزاف مثل البترول، فيخافون على كمها من النقصان ويقومون بشن الحرب على من يخرج منها؟

***

لم أكن أعلم ـ ومن أين لي أن أعلم! وأنا أعيش حياة اجتماعية روحانية لا علاقة لها بالسياسة والساسة ـ أن بعض النقاد يتساءلون مثلي، عن سبب محاربة حرية العقيدة في أشخاص البهائيين، وفي منطقة الريف بالذات، التي عرفت ثورة قبل اعتقالنا بثلاث سنوات. قيل عن سبب اشتعال نارها، ما تسرب إلى علم السكان من أن بعض شرائح "حزب الاستقلال" من تيار اليسار تريد شرا بالأسرة المالكة في الجنوب، وفي جهات أخرى من المملكة.

كما نشر ذلك "ألبين ميشيل" في كتاب "التحدي" للملك "الحسن الثاني"، يروي عن "محمد الخامس" وهو يوصي ولي عهده عندما كان يتأهب للسفر إلى "إيطاليا":

---

[99] - القيامة : 22 و 23 .

"احذر ولدي مما يحدث في الجنوب: العلاقات بين "عدي أو بيهي" والفروع المحلية "لحزب الاستقلال" ليست على ما يرام ! "

... ثم صرح "عدي أو بيهي" بعد استسلامه لولي العهد:

" إن ما أخرجه عن طوقه ودفعه إلى الثورة، هو تعالي وابتزاز تيار حزب الاستقلال المتطرف من جهة " و" حتى تظل السلطة الملكية محترمة " من جهة أخرى".

إن انشقاق "حزب الاستقلال" الناجم عن الاختلافات السياسية الداخلية بين الأعضاء الفاعلين في الحزب، اقتضت ترميم بناء الحزب الذي عرف تراجعا في صفوف أنصاره ومؤيديه والمتعاطفين معه. فجاءت قضية البهائيين فرصة سانحة للتصدي لها، كيما يستعيد الحزب الرونق واللمعان الذي أخذ الذبول يتسرب إليه. وكأنما ورقة البهائيين مضمونة الربح بامتياز، نزلت من السماء في الظرف المناسب! يمكن أن يستقطب بها اهتمام الفئات الشعبية، بل جل الفئات الاجتماعية التي وإن اختلفت في أشياء كثيرة، لكنها تتفق على التعلق بتقاليد الدين، ولا يستفزّ أي نفير أريحيتها ومشاعرها أقوى من نفير الدفاع عن الدين، فتهبّ مصطفّة بقوتها المعبأة وهتافاتها المدوية خلف الحزب. وبذلك يعود نجمه للسطوع كما سطع أيام التحرير في سماء السياسة المغربية، ويجذب إليه إعجاب الحشود وتأييدهم ويستقطب أصواتهم لما ينتظر في آخر السنة الجارية (1962) من الاستفتاء على الدستور ... ثم كراسي البرلمان في استحقاقات الانتخابات التشريعية !

والغالب أن المعادين للبهائيين لم يدركوا أن ما يحركنا هو حب الله الذي أوقد في نفوسنا جذوة المحبة التي ينفخ فيها روح إيماننا ببهاء الله ، فيتطاير منها شرار يضيء جوانب الحقيقة في ضمائرنا، فنرى المسار في الحياة مشرقا مضيئا نحو النهاية المنيرة التي لا تطفئ نورها مياه الاعتراض أو تحجبه صعوبة الامتحانات أو يمنعها الخصوم مهما كانت قوة شوكتهم وإتقان حبك حيلتهم.

لم يكن يدركون، ونحن لا مؤانس لنا في حياة السجن ولا من يواسينا غير آثار الله النازلة من سماء الوحي الإلهي، أن بعض النفوس الواعية سوف تنهض للدفاع عن قضيتنا حتى تخفف عنا وطأة مكائد المغرضين الماكرين. وأن قوة الحق ترفع لواء الحب رفرافا في قلوب البشر ولو حجبتها غيوم المكر عن الأنظار. إذ الحق يعلو ولا يعلى عليه. وفوق الماكر من هو أكثر مكرا منه، وأقدر على دحض مكره، كما يخبر بذلك رب العزة في القرآن الذي لا ينطق عن الهوى:

" ... و يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين "[100]

ومهما ظن الماكر، عن قصد أو غير قصد، أن خطته محكمة، فإن نتائجها لن تكون إلا وبالا عليه وعلى أشياعه، كما يعلم الذين يتدبرون تاريخ أجيال نشأة الأديان و يأخذون العبرة منها:

" ... ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، فهل ينظرون إلا سنة الأولين، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا "[101]

---

[100]- الأنفال : 30 .
[101] - فاطر : 43 .

قلبنا المسألة على جميع أوجهها، ونحن نذرع المسافة المحدودة في الساحة المحروسة لعلنا نهتدي إلى وجه مريح، دون جدوى، فتتوارد على أفكارنا شطحات فكرية، أشبه ما تكون بالخيال، فيتساءل أحدنا متأملا متحسرا:

- ما ذا لو أقمنا على "وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية" وعلى شركائه، دعوى رد الاعتبار، بدعوى أنه استغل نفوذ السلطة من أجل القضاء على حرية العقيدة، والتحريض على القتل العمد المحرم شرعا والممنوع قانونا، وشرع في تنفيذه ؟
- ما ذا لو نادى دعاة الإنصاف إلى إقامة ندوة على المستوى العالمي للبت في مسألة التكفير ومؤاخذة المواطنين بدعاوى الردة أو الخروج عن التقاليد الموروثة الثابتة، من أجل وضع الحد الفاصل بين هذه الدعاوي وبين الحريات الأساسية ؟
- ما فائدة القانون إذا لم يمحص الحقائق ويحكم بين المواطنين بالقسط، وينصف الأبرياء ؟
- لما ذا لا يخضع القضاة للمساءلة والمحاسبة ومؤاخذة القانون، إذا صدرت عنهم أحكام خاطئة فادحة، تلحق بالمتهمين الأبرياء ضررا بالغا ؟

كانت مثل هذه التصورات تطرق باب أفكارنا في خلوتنا الإجبارية، نتناولها بالدرس والتحليل

نزجي بها الوقت في ساحة الاستراحة من زنازيننا، لعلنا نجد تفسيرا مقبولا لما جرى لنا ويدور حولنا. وكثيرا ما نخلص إلى أن القانون، إذا لم يحرص الفاعلون في المؤسسات الوطنية على احترام تطبيقه على جميع المواطنين، أفرادا وجماعات وهيئات، ويفرضون الاحتكام إليه وإخضاع المتقاضين لنصوصه، فإنه يبقى حبرا على ورق، وتصبح بنوده ميتة لا تحرك ساكنا ولا توقف متحركا.

*****

ج - وضعية البهائية في المغرب الحديث.

أثنـــاء استعراضي للأحداث التي عايشتها، انتبهت إلى أن تاريخ المغرب في الفترة الممتدة ما بين 1953 و 1963 تزامن مع وصول البهائية وحبسنا ومحاكمتنا من جهة، وثورة الملك والشعب من أجل تحرير البلاد من ربقة الاستعمار ثم وضع الدستور من أجل بناء الدولة الحديثة، من جهة أخرى.

استجوبت ذاكرة تاريخ المغرب ما بين 1956 و1962، لأجد أمة حديثة العهد بالاستقلال تتطلع إلى بناء مجتمع حديث، يعيش فيه أبناؤه أحرارا عاملين على تحقيق مستقبلهم في جو آمن خال من الضغط والخوف الذي فرضته عليهم سلطات الحماية.

وتأكدت من صحة تصريح ملك البلاد الذي أدرك تمام الإدراك أن تحقيق ذلك ليس بالأمر اليسير، كما قال لأمته منذ اللحظات الأولى من عودته إلى أرض الوطن:

" عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" وأن **" الاستقلال ليس غاية في حد ذاته، وإنما هو وسيلة ".**

والجهاد في مجال تدبير شؤون البلاد، يتطلب المعرفة الإدارية والتجربة الميدانية كما يتطلب الإمكانيات التقنية والبشرية التي ما كان لأمة المغرب أن تتوفر عليها، وهي لم تطفئ بعد شموع عيد ميلاد استقلالها السابع سنة 1963. وما كان بإمكان أمة أن تكوّن أطرا قادرة على النهوض بأقدارها التي كانت تتولاها إدارة الحماية الأجنبية، في وقت كان اهتمام أبنائها المثقفين القلائل مركّزا على تنظيم الكفاح من أجل التخلص من النظام المفروض عليهم. وقد أشار " الحسن الثاني" إلى ذلك في أول الاستقلال في حوار له مع "إيريك لوران":

> **" والخلاصة أنه لم تبق ثمة حماية ولا إدارة محلية تقليدية عرفية. أما جيش التحرير فقد كان يرابط في الريف. والمعجزة رغم كل ذلك هي أن المغرب واصل مسيرته حيث لم تقم فتنة ولم تضرم نار في المدن"[102]**

كان نهر الحماس المتدفق من فرحة الاستقلال، يجري تيارا في عروق المغاربة الذين واجهوا التحديات في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والسياسية. وشمروا على سواعد البناء، ومنه الاستفتاء على الدستور في 7 ديسمبر 1962، قبل محاكمتنا بثلاثة أيام، وصدوره في 14 منه متزامنا مع صدور الحكم المجحف علينا، الذي شكل أول محك لبنود الدستور الخاصة بالحرية، وحرية العقيدة بالتحديد. إذ نص في ديباجته على أن:

" المملكة المغربية دولة إسلامية، ذات سيادة كاملة... ".

ونص الفصل السادس من الباب الأول على أن:

" الإسلام دين الدولة، والدولة تضمن لكل واحد حرية ممارسة شؤونه الدينية "

وفي الفصل الرابع والخامس من نفس الباب يتعرض لمكانة القانون، ويسطر:

" القانون هو أسمى تعبير عن إرادة الأمة ويجب على الجميع الامتثال له، وليس للقانون أثر رجعي " و **" جميع المغاربة سواء أمام القانون "**

وجاء في التصدير عن دور المملكة كعضو نشيط في المنظمات الدولية:

---

[102] - ذاكرة ملك .

" تتعهد بالتزام ما تقتضيه مواثيقها (المنظمات الدولية **) من مبادئ وحقوق و واجبات"**

رأى رجال القانون المدافعون عنا، أن قضيتنا ستخضع إلى الاحتكام إلى هذه البنود التي نص عليها الدستور الجديد، والتي تتعهد فيها الدولة بضمان حرية ممارسة الأفراد لشؤونهم الدينية، وأن الجميع ملزمون بالامتثال للقانون، والمخالفون له يقعون تحت طائلة مؤاخذته. ونحن لم نأت بما يخالف القانون.

هذا بالإضافة إلى تعهّد المغرب والتزامه بما تقتضيه المواثيق الدولية، ومنها ميثاق حقوق الإنسان الذي ينص على أن:

" لكل إنسان الحق في حرية التفكير والوجدان والدين. ويشمل هذا الحق حرية الإيمان بدين أو بأي معتقد يختاره، وحرية إظهار دينه أو معتقده عن طريق العبادة وإقامة الشعائر والممارسة والتعليم، سواء بمفرده أو مع جماعة، جهرا أو سرا "

***

لم تكن المكوّنات الضرورية لاستكمال بناء جميع مؤسسات النظام الإداري قد تهيأت للدين البهائي بعد، فهي في نموها العضوي قد كشف جسمها النامي عن ظهور مؤسساتها المحلية والمركزية، وتعمل جاهدة من أجل أن يتوج نموّها بإنشاء مؤسستها العالمية، "بيت العدل الأعظم" المنصوص عليه من طرف مؤسسه في "الكتاب الأقدس". وما كاد المشروع العالمي الذي يتحقق فيه تأسيس " بيت العدل الأعظم " الضامن لاستمرارية السلطة المقدسة النابعة من مصدر الدين البهائي، لحماية وحدة أتباعه والحفاظ على سلامة ومرونة التعاليم الإلهية حتى التحقت روح واضع الخطة الروحانية العالمية "ولي أمر الله" بالرفيق الأعلى في 1957، قبل أن تتحقق جميع أهداف مشروعه العالمي، فتولت هذه المهمة بالنيابة عنه، مؤسسة " أيادي أمر الله " الذين جعلوا نصب أعينهم تركيز جميع الإمكانيات المحدودة من أجل تحقيق الأهداف المرسومة الباقية في المشروع ، دونما حاجة إلى تبديد الموارد البشرية والمالية بمشاكل إضافية أخرى وتخصيص جزء منها في طرق الأبواب في مختلف الدوائر الحكومية والعالمية لدرء الشبهات المنسوبة إلى البهائية، دفاعا عن البهائيين وإنقاذنا من خطر القتل الذي يتهددنا ..

وتراءى لي من خلال تفكير المدافعين عنا، أن ثباتنا على إيماننا ليس مجرد إخلاص في العبادة نتقرب بها إلى الله، وإنما هي مساهمة منا مع غيرنا العاملين في ورش بناء مجتمع حديث يتمتع فيه أفراده بالحق في الحرية. وأن التحديات التي تواجهنا، نحن ضحايا التعصب والاعتساف، لا تختلف عن التحديات التي تواجه كل المناضلين من أجل التغلب على الظلم والإجحاف والملتزمين بتحقيق النصر لقيم العدالة والإنصاف.

*****

د ـ الكتابـــــــة.

لا يمكــن للمسجون الذي فقد حريته و انتزعت منه إرادته أن يلوم نفسه أو يؤاخذها عن الوقت الزائد والفراغ الفائض الذي عادة ما يحاسب الإنسان المسؤول نفسه عليه، إذا لم يصرفه في ما يستفيد منه ويفيد. ومع ذلك فإنه كان يحز في نفسي وأنا أقدّر قيمة ما يمكن أن أحقق من منجزات لو لم أحرم من حريتي. وكأنما هو قدر الإنسان: لا يقدّر النعمة حق قدرها إلا عند زوالها. ومن حسن الحظ أن إدارة السجن سمحت لنا منذ الأسبوع الأول من التحاقنا بالسجن بالكتابة إلى ذوينا و زوّدتنا بورق الكتابة الرسمي والقلم والغلاف البريدي. مما أتاح لنا فرصة التعبير كتابة عما يختلج في النفس من المشاعر تجاه أفراد أسرنا والمحبين لنا بسبب الوضع البائس المفروض علينا.

دفعني هذا الفراغ الزائد إلى إنفاق لحظات عمري المحصورة داخل أسوار السجن في شيء ما، ولو على سبيل التسلية وتزجية الوقت، فهداني تفكيري إلى محاولة التعبير عن مشاعري شعرا بدلا من النثر الذي لا يرقى في تقديري إلى وصف المعاني التي أطمح أن أبلغها إلى أهلي وأحبائي. فعملت على تنظيم أفكاري ومشاعري في تمارين كلامية مستعينا بأنساق الأبيات الشعرية التي اختزنتها حافظتي والتي ما زالت ذاكرتي قادرة على استرجاعها.

وبقدر ما كانت هذه التمارين الكلامية تسليني، بقدر ما كان العمل على تصور فضائل الأحباء واستيعابها ومحاولة وصفها تسكب في نفسي أحاسيس مريحة تطلق سراح روحي من قيد السجن المفروض على جسمي.

هكذا عملت على تسجيل مشاعري كلما أحسست من نفسي القدرة على القيام بذلك، فتأتي محاولاتي مسلية لي في كثير من الأحيان.

ومنها هذه الأبيات التي أخاطب بها أسرتي في شخص أختي الصغيرة والتي مطلعها **"حنيني إليك"** التي ما زالت محفوظة في الرسالة المرسلة إليها من السجن المركزي:

PRISON ~~CIVILE~~ de Kenitra

le 17 / 3 1963

Nom et prénoms : Kabdani Moh Ali

PREVENU-CONDAMNE

N° d'écrou : 15603 N° de pécule :

NOTA

Les correspondances entre les détenus et leurs familles doivent exclusivement etre adressées par la poste.

Les sommes en argent adressées aux détenus par leurs familles doivent l'être par mandat poste.

Les prévenus ont le droit de recevoir quotidiennement des vivres.

Les condamnés ont le droit de recevoir des vivres le vendredi et le dimanche.

Les familles des condamnés ont le droit de rendre visite à leur parent détenu une fois par semaine le dimanche ou le vendredi de 9h à 11h et de 14h à 17h30.

هذه الزيارات الشهرية هي محاولة مني ،
ولست أدري ما إذا كانت توافق القوانين والأصول
الشهرية الصارم رسوخ قدمي فيها ، ولكن الفراغ
الزائد أيقظ عقلي الى قضائه في شيء ما ، ولو على
سبيل التسلية وقتل الوقت كما يقال ، ومطلع
هذه المحاولة : حنيني اليك :

حنيني الى لقياك هيهات عسى تبراح اللقيا ما تكررا
وشوقي يهذب القلب تارة وتارة يثنني إذا طرفك انبرى
اذا اشتد ليلي أقوم قائماً ظلال الليل كي أسمع أو أرى
وأبيت أرقب النجم ساهداً يخبرني عنك دون أن يستفسرا
يحوم حولي طيفك حائماً فؤادي فيهتف اليك في الكرى
وترهف نفسي النسيم إذا هبا فتسأل عنك النسيم إذا سرى
هديل الحمام في الضحى زاد قلبي شجوناً لما تكررا
فيا دمع عيني سيلي غزيرة فما الدمع عزا إذا لم يجر أنهرا
ولي في لقياكم سبل الهنا فكيف حرمت ذا في قربكم يا ترى ؟

N. 42 [illegible] C

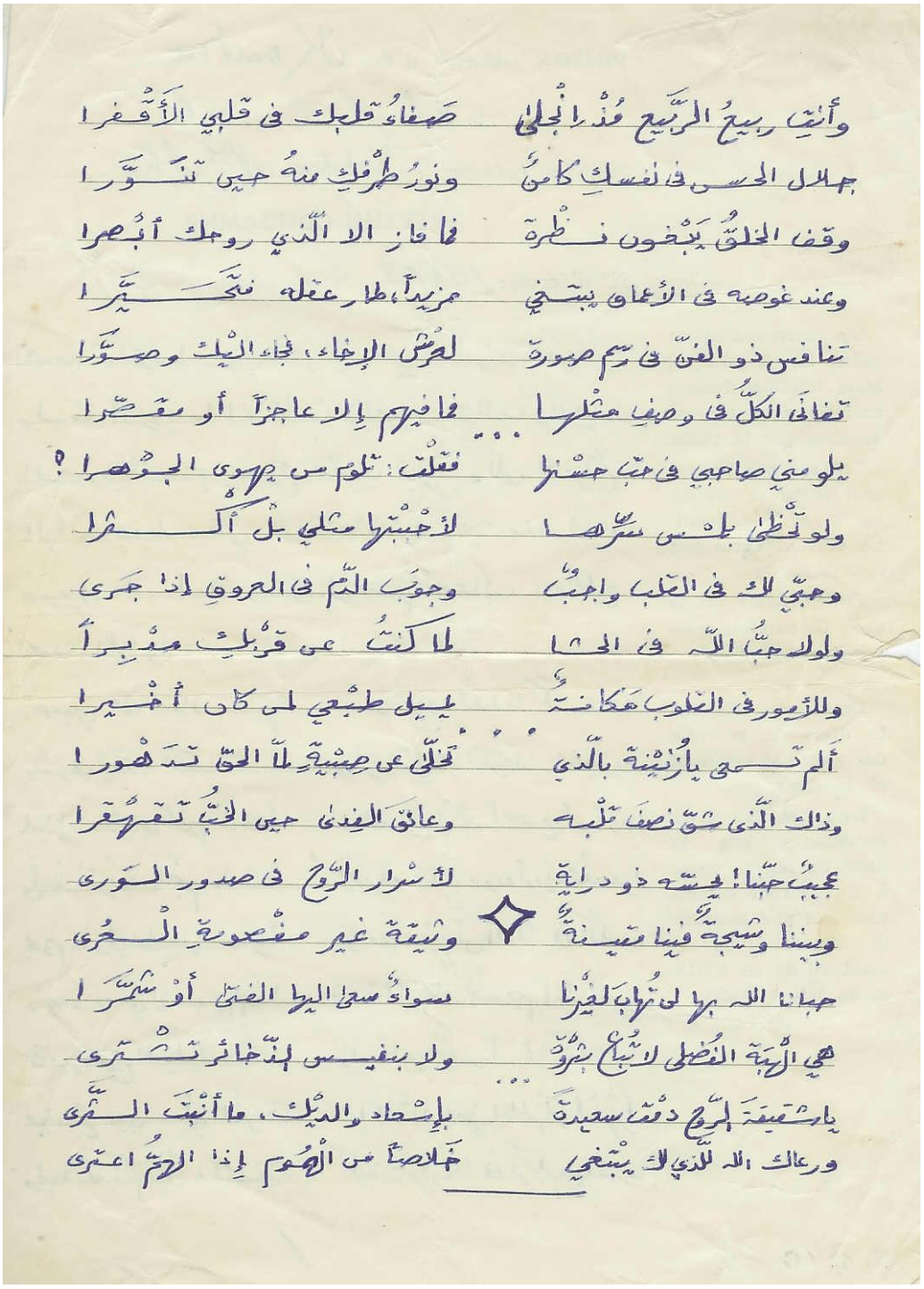

وأنتِ ربيعُ الرّبيعِ مُذ انجلى ... صفاءُ قلبكِ في قلبي الأقفرا
جلالُ الحسنِ في نفسكِ كامنٌ ... ونورُ طرفكِ منهُ حين تنوّرا
وقفَ الخلقُ يبغون نظرة ... فما فاز إلا الذي روحك أبصرا
وعند غوصه في الأعماق يبتغي ... مزيداً، طار عقله فتحيّرا
تنافس ذو الفنّ في رسم صورة ... لعرس الإخاء، فجاء إليك وصوّرا
تعاني الكلُّ في وصفٍ مثلها ... فما فيهم إلا عاجزاً أو مقصّرا

...

يلومني صاحبي في حبّ جسّها ... فقلت: ألوم من يهوى الجوهرا؟
ولو تظنّي بلمس سرّها ... لأحببتها مثلي بل أكثرا
وحبّي لك في القلب واجبٌ ... وجوبَ الدّم في العروق إذا جرى
ولولا حبُّ الله في الحشا ... لما كنتُ عن قربك مدبراً
وللأمور في القلوب مكانةٌ ... يميل طبعي لمن كان أخيرا
ألم تسعى بأزينة بالذي ... تخلّى عن صبيةٍ لمّا الحقّ تدهورا
وذاك الذي شقّ نصف قلبه ... وعانق الفدى حين الحبُّ تقرّعرا
عجبتُ حينا! ليست ذو دراية ... لأسرار الرّوح في صدور الورى
وبيننا وشيجةٌ فينا متينةٌ ... وثيقةٌ غير مفصومةِ العُرى
حباك الله بما لن تُراب لغيرنا ... سواءٌ سعى اليرط الضئيل أو شمّرا
هي الهبة الفضلى لأتباع شرّوه ... ولا بنفيس الذخائر تشترى

...

يا شقيقةَ الرّوح دمتِ سعيدةً ... بإسعاد والديك، ما أنبتَ الثّرى
ورعاك الله الذي لك يبتغي ... خلاصاً من الهموم إذا الرحمُ اعترى

ومنها هذه الأبيات التي أتذكرها من قصيدة زجلية بعد أن طرق سمعي انتقال الأستاذ "فوزي زين العابدين" إلى "تونس":

هل تونس تدري مقدما ... لحبيب حبه نـــور سمـــــــا
يممها وافد يا ليتهـــــا ... لم تصب من صمم أو من عمى

وأثناء لحظات الاستغراق في التفكير أو السهو الذي يأخذني أحيانا، أجدني أتمتم أو أكتب وأعيد أبياتا من الشعر، وبالاسبانية أيضا، من بقايا ما حفظته من الأشعار عندما كنت طفلا بالمدرسة في فترة حكم الحماية الاسبانية، مثل ما معناه:

كنز مقدس هو الشباب
سترحل دون إياب .
عندما أريد البكاء لا أبكي
وأحيانا، دون إرادتي، أبكي.

أو أخط على الورق وأعيد، كتلميذ يحاول أن يتقن تعلم الخط، كتابة جملة تتكون من كلمتين لاتينيتين: "كو فاديس"، تعني أين تذهب أيها البائس الحزين؟ وهي عنوان لكتاب قرأته بالاسبانية، أتذكر أنه يلخّص قصة القديس "بطرس" عندما خرج من "روما" يحاول النجاة بنفسه من الاضطهاد في عهد الإمبراطور "نيرون". فتجلى له السيد "المسيح" خارج المدينة يخاطبه بالكلمتين، موحيا إياه بأن لا مهرب من قضاء الله. فعاد أدراجه نحو "روما" ليكرع من نفس الكأس المريرة التي كرع منها معلمه ومولاه.

وكأنما النصّان يعكسان واقعي. فيرثي الأول شبابي بينما الثاني يذكّرني بأن الإرادة السماوية شاءت لي هذا المصير الذي ليس بإمكاني إلا الرضوخ والاستسلام له.

*****

هـ - الزيـــــــــــــــارات.

كـــــان المحامي الأستاذ "المعطي بوعبيد" ـ الذي تولى بعدئذ رئاسة الحكومة ما بين 1979و1981 ـ أول من زارنا في السجن المركزي برفقة الأستاذ "محسن عنايت" والدكتور "فؤاد أحمد بور" أحد البهائيين المقيمين في "الرباط " الذي له علاقات اجتماعية طيبة مع عدد من الأشخاص النافذين في الإدارة المغربية. ارتاع الأستاذ بوعبيد لمّا وقع بصره على منظرنا، فاحتج بقوة، وأثار قانونيا انتباه رئيس حرس السجن الذي يرافقهم إلى حالتنا السيئة وإلى الأسمال التي تسترنا وبشاعة الحلاقة التي لعبت في رؤوسنا. فاعتذر المسؤول بذريعة أن هذه الملابس مؤقتة وأن الخياط بصدد إعداد الملابس التي تناسبنا, وقطع أمامهم عهدا على نفسه بأن يتولى شخصيا الاهتمام بالموضوع. سألنا المحامي عن أحوالنا وكيف نعامل في السجن، وطمأننا قائلا:

- أؤكد لكم أن محكمة "الناضور" كانت مدفوعة إلى هذا الحكم، الشيء الذي أدى بنا إلى الانسحاب منها . وأشار إلى أن الأمور تتغير لصالحنا، وأن حكما عادلا سنحصل عليه قريبا.

وبلغنا أنه أومأ إلى المحكوم عليهم بالمؤبد في زيارته لهم، بعد أن أخذ قبعة السجن من على رأس أحدهم ووضعها على رأسه، قائلا:

- هذا تاج فخر لكم، لأنكم تدافعون عن حرية جميع المغاربة وتعلمونهم كيفية الدفاع عنها.

أمكن استئجار مسكن في "القنيطرة" لزوجات المدانين اللائي يفدن على زيارة أزواجهن حتى يكنّ قريبا منهم ويسهل عليهن الاتصال بهم.

وكانت عقول أفراد أسر المحكوم علينا بالإعدام، لا تتوقف عن التفكير فينا، وما كانت لتستكين مشاعرهم إلى عدم الاكتراث بمصيرنا أو إهمالنا، رغم أن المجتمع أقنعهم بالنظر إلينا عبر المنظار الذي يديننا، ويعتبروننا قد ارتكبنا خطأ فادحا يستوجب الجزاء الوفاق على ما اخترناه لأنفسنا؛ ومما يزيد أفراد الأسر حيرة وألما أن قلوبهم لم تكن عامرة بما نؤمن به حتى يحتسبوا توترهم وألمهم لله. ويستسلمون، مثلنا، لما أصابهم في سبيله، أو يتوجهون إليه مستمدين منه العون والصبر والرضاء على ما قدر لهم؛ ولم يكونوا من الشريحة الاجتماعية التي تتفرغ للقضايا الوطنية أو الإنسانية الكبرى ليستشفوا أبعاد القضايا النبيلة ويستشعروا بعض السلوة والأنس من تضحيتنا في سبيلها، فيهوّن عليهم ذلك بعض ثقل وطأة البلاء.

كانوا أناسا عاديين، تحركهم ما يحرك أمثالهم من غريزة التعلق بذويهم ومساندتهم في محنتهم والدفاع عنهم، بغض النظر عن الصواب أو الخطأ، خاصة وأن علاقتهم بنا قبل الاعتقال لم تعكر صفوها أية شائبة.

حزم أفراد أسرنا أمرهم، كل من جهته، متفقين ومنفردين: آباء وأمهات أو زوجات، من أجل تفقدنا بأنفسهم وزيارتنا في محبسنا حتى تهدأ هواجسهم وتستكين خواطرهم.

جمعت البلية الأسرتين: أسرة "معنان" وأسرتي، كما جمعت أبناءهم موهبة الإيمان والامتحان في سبيلها.

اتفقتا عندما علمتا بنقلنا إلى سجن "القنيطرة" المركزي، على ركوب مجاهل السفر، مستقلين حافلة عمومية تقطع بهم ما يزيد على 500 كيلومتر، لترميهم في الرباط، المدينة الكبيرة، عاصمة المملكة، بشوارعها الكثيرة ومبانيها الشامخة ومصاعد عماراتها الكهربائية التي ترعب غير المتعوّدين مثلهم، على استعمالها، يبحثون عن من يدلهم على الطريق المؤدي إلى مكان تواجدنا. مع ما في السؤال عن المكان من انزعاج وإحراج لما في نظرة المجتمع الدونية للأسير واستهجان لأهالي الأسير.

كانت هذه أول زيارة لهم بعيدا عن مدينتهم التي لا يغادرونها إلا من أجل ضرورة ملحة لا تخرج عن نطاق المنطقة القريبة التي قد يتواجد فيها أفراد أسرهم. ولا شك أن هذا السفر بالنسبة لهم مغامرة ومخاطرة، ما كانوا ليقدموا عليه لو لم يكن أولادهم في هذه الأزمة المأساوية ولم يوضعوا في هذا المأزق الخانق المميت.

ويلح عليهم التصور أن حكم الإعدام سينفذ في الغد أو بعد غد. فتدفعهم اللوعة والوجد دفعا لرؤيتنا ولو للمرة الأخيرة في حياتنا الأرضية.
ومن حسن حظهم لدى وصولهم إلى "الرباط" أن وجدوا فيها من يستقبلهم من البهائيين والمحامين الذين وفروا عليهم معاناة السعي إلى مصالح الإدارة القضائية، وبعض الحرج من تقديم نفوسهم لطلب إذن الترخيص بالزيارة. أما الوالدتان فلا تملكان سوى دموع التوسل والرجاء، تستجديان عطف المسئولين، حتى لا يحرمانهما من رؤية بنيهما. وقلما كانتا تعرفان الجواب عندما تسألان عن سبب إدانة أبنائهما، وإذا توفقتا إلى الجواب، وقالتا بعد تردد، بسبب إيمانهم بدين جديد، تعوّذ بعض الموظفين وتبسمل آخرون مرددين مكررين:
"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، باسم الله الرحمان الرحيم " بينما يهوّن عليهما البعض الآخر، محوقلين " لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم " قائلين:

لا تقلقا، هذه مسألة بسيطة، يكفي أن يعترفوا بخطئهم ليخرجوا إلى حال سبيلهم . ويؤكدون لهما مطمئنين، رثاء لحالهما البائس الكئيب، لا تخافا، إن أبناءكما لم يرتكبوا ما يستحقون عليه كل هذا العقاب، إنهم سيخرجون من السجن، إذا أرادوا ذلك.

ويتكرر نفس المشهد عند وصولهم إلى باب السجن ولدى الولوج إلى مكاتبه الإدارية.

أما مشاق التنقل وأسباب المعاش من البحث عن أكلهم ونومهم، فكان اهتمامهم به أقل من اقتنائهم ما يعتقدون أنه لازم لنا.

وإذا وصلوا أخيرا إلى مكان الزيارة، حيث يتم اللقاء، انتظروا أعزتهم على أحرّ من الجمر، يرونهم من لهفتهم في كل مارّ بجوارهم أو قادم عليهم.

***

وفي الجهة الأخرى خلف أسوار السجن المنيعة، في حي المحكوم عليهم بالإعدام، كان أحد الحراس ينادي باسمي واسم "بوعرفة"، آمرا إيانا أن نتبعه دون أن يعرفنا عن السبب، فانصعنا لأمره إلى أن وصلنا إلى جناح من أجنحة السجن العديدة، التي قلما يتعرف السجين عليها جميعا لكثرتها، حتى لو قضى الحكم المؤبد فيها.

اتضح لنا عند الوصول ورؤية شباك الأسلاك الحديدي الفاصل، أنه المكان المخصص للزيارة.

شاهدت والدتي نحيفة هزيلة، تمسك بشباك الأسلاك الفاصل بيننا، فاتجهت نحوها، غير أن المسكينة أسرعت متلهّفة تصيح: "ولدي" نحو مكان تواجد "بوعرفة" الذي ظنته ولدها.

فطنت إلى فشل محاولتها وأعادت النظر في كل اتجاه لتراني دون أن تتوفق إلى التمييز والاهتداء إلى أي المسجونين ولدها، لشدة انفعالها واندهاشها وإغريراق عينيها وعدم خبرتها في الحياة، وتغيّر مظهري.

اقترب منها والدي وعلامات التعب والانهزام بادية على محياه، فسحبها قبالتي وأنا أنظر إليها ماسكا بأسلاك الشباك، أناديها " أمي "، لعلها تسمعني وتقترب مني كي أحاول التهدئة من روعها وتخفيف الهلع الذي يلفها ويتلفها، وأحدثها بما يجعلها تشعر أني بخير. لكن وجهي الشاحب ورأسي المحلوق وأسمالي الداكنة البالية، تكشف عن وضعيتي المزرية وتكذب أقوالي المطمئنة. فتخنق العبرات الساخنة صوت والدتي المتألمة...

في تلك اللحظة الحرجة التي كان قلبي يذوب فيها شفقة على والدتي، ترجّاني والدي بصوت يلين له الحجر أن أتخلى عن عقيدتي. لأن أهل العلم والرأي والحل والعقد أكدوا له جميعا، أنه إذا تنازلت عن البهائية أطلقوا سراحي للتوّ.

أمام هذا الموقف الحرج لم أملك إلا أن أعد والدي خيرا، وحاولت أن أطمئنه وأسترضيه بما اهتديت إليه من تعابير التهدئة والمماطلة والاستمهال إلى أن أتشاور مع المحامي المدافع عني، وما زلت كذلك أستعطفه

وأسترضيه وألتمس منهما العفو والصفح على ما يعانياه من أجلي، وأشهد الله عليّ بأني لم تكن نيتي أبدا أن يحدث لهما ما حدث، إلى أن جعلتهما يهدآن وينصرفان مطمئنين.

من المؤكد أن ألم والدي "معنان" كان أعظم وأشد، لأنهما لم يثكلا في ابنهما البكر فحسب، وإنما زجّ بابنهما الأصغر"محمد" في الحبس أيضا.

لم أعد إلى زنزانتي و"بوعرفة" هادئين، كما بدأنا نتعوّد، وإنما تملكنا الألم البالغ والحزن العميق والشعور بالمرارة، الذي أضيف إلى المعاناة التي نعيشها في الحي الرهيب. ألم مرير على أبوين لا ذنب لهما سوى أنهما أنجبانا ونشّآنا وتعلقا بنا إلى أن صرنا في عمر واعد، فإذا بنا نختطف من وسطهم في غفلة عنهم، لا لذنب اقترفناه سوى أننا خلاف أندادنا، اخترنا الإيمان بدين جديد، مسلكه وعر يختلف عن مسلك مجتمعنا، أودى بنا في غياهب أكبر سجن، إن لم نقتل فيه لن نخرج منه.

إنها نفس الآلام النفسية التي كانت تتجدد في الشعور، إثر كل زيارة يزورنا فيها أفراد أسرنا في حبس "الناضور". وها هي ذي تعود التجربة من جديد، وبقوة أكبر مع هذه الزيارة التي لم تولد في الأعماق إلا الحزن والأسى والمرارة، بما شاهدناه من آثار الأذى والمعاناة التي تلازم حياة والدينا. تلك المعاناة التي انعكس بعض أثرها في إحدى الرسائل التي كتبتها إلى أختي الصغيرة:

أختي العزيزة:

إن قلبي الجريح يدمى شوقا وحنينا إليكم وكبدي يتقطع ألما وأسى لحزنكم وبؤسكم، لقد كان المصاب عليكم ثقيلا وأكثر مما تستطيعون تحمله. لقد رأيت ذلك على محيا والدي عند زيارتهما لي. ما رأيت أبي يبكي أبدا مثل ذلك اليوم. إن القلب ليذوب له، رحمة به وعطفا عليه. ورأيت أمي، أمي المسكينة ترفع يديها لتلقي بنفسها علي. ما أشقاها وما أتعسها ! لها تحترق نفسي من الكمد ويجمد الدم في عروقي من الألم. إني أتصور تأثركم جميعا في كل يوم. فواأسفي على ما أنتم فيه. ويااليت ربي يستجيب دعائي فيرزقكم الصبر الجميل.

إني ما تألمت قط مثل يوم زيارتهم وما تألمت أبدا مثل ذلك اليوم. لقد فارق النوم عيني وخيمت الكآبة على نفسي وبكى قلبي بالمرارة. بكى على الآباء التعساء الذين يرون فلذات أكبادهم، وهم قرة أعينهم، تساق إلى الموت ولا يستطيعون دفع الضر عنهم. فلله ما أبأسهم وما أكبر حزنهم !

أختي العزيزة. ... أريد أن أقول لك، إن قلبي مطمئن ونفسي مرتاحة، فلا تقلقوا علي ولا تضطربوا للحكم الذي صدر علي، إنه وأيم الحق ! للباطل المجسم وللخطأ الواضح، أخبري أباك وأمك أن السيد "بلحاج" قد زارني وحمل إلى أخبارا تنبئ بالفرج القريب ... تضرعي إلى الله يا عزيزتي. إن دعاء الفتاة كصلوات الملاك. وقبّلي أبي وأمي واطلبي، واطلبي باسمي رضاهما.

محبكم وصنيع جميلكم . كبداني

السجن المركزي. دجنبر 1962.

***

لم يكن ليخفف من شعورنا المؤرّق ذاك، إلا التفكير في مصدر هذه المعاناة، التي يتحمل وزرها أولئك الذين وضعونا وأفراد أسرنا في هذا المستنقع الكريه، وأولياء الأمور الحاكمون الذين ينفثون، عن قصد أو غير قصد، في فكر ذوينا الهلع والخوف ويزينون لهم التخلص من هذه المشكلة بإقناعنا والضغط علينا حتى

نتنازل عن إيماننا "ببهاء الله" الذي بعثه الله في يقيننا رسولا للبشرية في هذه المرحلة من تاريخ تطوّر الدين. هذا الإيمان الذي أنفقنا أرواحنا في سبيله، وهي أعزّ وآخر ما نملكه في هذه الحياة الدنيا.

فكيف للمؤمن الصادق في مثل هذه الحال أن يتنازل عن حياة روحانية مشرقة سعيدة ونعيم دائم من أجل راحة قليلة وربح عابر زائل !

وأنى لنا أن نجد في ذريعة الطاعة للوالدين، سببا لتحقيق راحة والدينا وراحتنا الشخصية، والله معبودنا ومحبوبنا الذي وصانا خيرا بالوالدين في القرآن الذي تربينا في ظلال دوحته، حذرنا من تجاوز الخط الأحمر بقوله:

" ووصينا الإنسان بوالديه حسنا، وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم، فلا تطعهما، إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون " [103]

أو كما قال لقمان لابنه يعظه في السورة التي تحمل اسمه:

" ووصينا الإنسان بوالديه، حملته أمه وهنا على وهن، وفصاله في عامين، أن اشكر لي ولوالديك، وإلي المصير* وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفا، واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون [104]"

أمام هذا الإرشاد الواضح، لا مناص لمن أراد لقاء ربه، أن يستنير به في مسلكه في الحياة، مهما كلفه من معاناة مباشرة أو معاناة أعزائه التي تسقط بعض أو كل تبعاتها عليه. والراجح أننا وضعنا في محك الامتحان وتعرضنا لمواقف عديدة طغى فيها الإكراه علينا، من طرف أبناء مجتمعنا، بما يحكمهم من محمولات ثقافية وعقائدية وتقاليد وشرائع، ومن طرف السلطات التنفيذية والقضائية التي بيدها مصير مستقبلنا في هذا العالم المحدود، ومن طرف أهوائنا البشرية الغريزية المتعلقة بشؤون الدنيا وما فيها من متع وراحة وزخارف ورخاء... ليتضح في النهاية صدق إيماننا ويتبين مقدار انقطاعنا عن كل شيء في سبيل إرضاء مقصود عقيدتنا.

وضعنا مرارا في موقف الاختيار، الذي ليس متاحا دائما للإنسان، بين الانبطاح والاستسلام مقابل طلب "السلامة" وما بين التمسك بالصدق والوفاء لعهد الله وميثاق الإيمان الذي قطعناه على أنفسنا مع خالقنا يوم أن آمنا "ببهاء الله".

وعلينا الآن أن نتقبّل مواجهة المتاعب و المصاعب في سبيل ذلك رابطي الجأش سائرين بخطى ثابتة وأرواحنا في أكفنا نقدمها قربانا على مذبح الفداء، لعلنا بذلك ننال رضاء الله على صبرنا في ما جرى لنا في سبيله.

***

---

[103]- **العنكبوت : 8 .**

[104] - **لقمان : 14 و 15 .**

أخبرتني أختي عندما سألتها عن وضعيتها في المدرسة الثانوية التي تتابع دراستها بها، بعد صدور حكم الإعدام علينا، قالت:
إن الشيخ "علال" - وهو رجل دمث الأخلاق طيب التعامل مع أساتذة وتلاميذ الثانوية التي يعمل فيها مديرا لها – كان يتفقّد فصول المدرسة ومنها الفصل الذي كانت تدرس فيه قائلا للتلاميذ ناصحا، وكأنه يقوم بحملة توعية:

- لو رجع إليّ هؤلاء المحكومون الذين جنوا على أنفسهم لهديتهم سواء

السبيل، وما كان ليحدث لهم هذا المكروه الجلل الذي يستحقونه...
وعندما تدخلت للدفاع عني مؤكدة أني لا يمكن أن آتي سوءا أو أؤذي أحدا. قال لها:

- أتدافعين عن الكفرة بالله. قالت:
- إنه أخي وأنا أعرفه، ولا يسعني إلا الدفاع عنه.

إن ما لا يعلمه الأستاذ "علال التنوتي" وهو أخ لإمام صلاة الجمعة في المسجد الكبير "بالناضور"، أني وأنا من تلاميذ تلك الثانوية، قد رجعت إليه فعلا قبل إيماني بالبهائية، انطلاقا مما أكنّه له من الاحترام والتقدير، وسألته عن أكثر من موضوع يتعلق "بالموعود" دون أن أفصح له عن أسباب تساؤلاتي. وكانت أجوبته الواضحة، التي تترجم مواقف وفهم المسلمين المتعلمين المتعلقة بالموعود، نعم العون لي في إزاحة بعض العراقيل من طريق بحثي عن الحقيقة في الدين البهائي.

ولم يخطر ببالي طبعا، أن أستأذن أستاذي ومدير ثانويتي سابقا لكي أؤمن برسالة الله.

إن إيمان الفرد أو كفره برسول عصره مسؤولية فردية، لا يتحمل وزر الكفر بها غير صاحبها " **ولا تزر وازرة وزر أخرى** "، كما لا يفوز بمواهب قبولها واعتناقها إلا المقبل عليها. أما لو استأذن الناس علماءهم وكبراءهم للإيمان برسل الله، ما كان أحد ليؤمن بهم. لأن العلماء وكبراء القوم كانوا في كل زمان وفي كل مكان، أول المعرضين المعترضين الذين يصدون الناس عن الإيمان برسل الله.

إن الروح التي سكنت ضمائرنا هي التي ألهمتنا التمسك بالإيمان، سواء فلسفنا وضعيتنا أم لم نفلسفها، وسواء أخضعنا سلوكنا للمنطق أو لم نفعل. إن روح الإيمان هي التي ألهمتنا الصبر على الأذى الذي يصيبنا والصعوبات التي تعترض سبيلنا وكل ما يرد علينا، مستمدين القوة من قوتها المنبعثة من الكلمة الإلهية التي ترافقنا وترددها ألسنتنا في إشراقنا وعشينا وفي يومنا وأمسنا:

" ... وإن يمسك الحزن في سبيلي أو الذلة لأجل اسمي لا تضطرب، فتوكل على الله ربك ورب آبائك الأولين، لأن الناس يمشون في سبل الوهم، وليس لهم من بصر ليعرفوا الله بعيونهم أو يسمعوا نغماته بآذانهم، وكذلك أشهدناهم إن أنت من الشاهدين..."[105]

تتابعت الزيارات علينا من طرف أسرنا ومن المحامين وإخواننا البهائيين والمتعاطفين معنا. فيلح علينا أفراد أسرنا بالامتثال لما تريده السلطة منا من التراجع عن التمسك بهذه العقيدة (الفاسدة)، في نظرهم، التي ألقت بنا في هاوية الهلاك. وقلما كان يهتم الوالدون بشيء أكثر من إيجاد سبيل لإنقاذنا، ولا يجدون وسيلة ناجعة إلا ما انفك يشير به عليهم الناصحون الجالسون على كراسي السلطة منذ الاعتقال في "الناضور"، ألا وهو التبرؤ من الانتماء إلى الدين البهائي. الشيء الذي وإن وافق عليه الذين بُرّئوا، لم نقبل به نحن المدانون.

---

[105] - بهاء الله : لوح أحمد .

كأنما هو نظام القضاء الذي تأخذ به بعض الدول لتخفيف العقوبة عن الجاني إذا اعترف بارتكاب الجرائم المنسوبة إليه، مع الفرق أننا معشر البهائيين اعترفنا بذنبنا منذ البدء، اقتداء بحضرة "بهاء الله"، الذي اعترف بنفس الذنب، قائلا:

" ... وإذا قيل بأي جرم حبسوا ؟ قالوا: إنهم أرادوا أن يجددوا الدين. لو كان القديم هو المختار عندكم، لم تركتم ما شرع في التوراة والإنجيل ؟ بينوا يا قوم، لعمري ليس لكم اليوم من محيص ! إن كان هذا جرمي، قد سبقني في ذلك محمد رسول الله، ومن قبله الروح، ومن قبله الكليم. وإن كان ذنبي، إعلاء كلمة الله وإظهار أمره، فأنا أول المذنبين. لا أبدل هذا الذنب بملكوت ملك السماوات والأرضين "[106]

إن الزيارات المتكررة التي كان يقوم بها أهالينا، رغم معاناتها، كانت ذات فوائد جمّة لهم، ولنا أيضا من وجوه متعددة. منها :
التقاؤهم بأشخاص متفتحين مغاربة وأجانب، محامين وموظفين في العاصمة وفي مدينة السجن، ما كان لهم أن يلتقوا بهم لولا خروجهم من مدينتهم الصغيرة ومجتمعهم المنغلق على عاداته وتقاليده؛ ومنها ما لمسوه في أناس ينظرون إلى ذلك الحكم بمنظار يختلف عن منظار أهل بلدهم، بعيدا عن التهويل الديني وما ينسبونه لهم من الخيانة لله ولرسوله وللمؤمنين، الذي رسخه أبناء مجتمعهم في أذهانهم، وإنما هي في منظورهم، قضية دينية استعملت لتحقيق أهداف سياسية محسوبة؛ ومنها التعرف على البهائيين من أهل البلد والأجانب وأخلاقهم وشدة حرصهم على القيام على خدمتهم ومساعدتهم في محنتهم وتوفير جميع ما ييسر لهم أسباب مقامهم وتنقلاتهم من أجل زيارتنا؛ ومنها الاطلاع على الدين البهائي من أفواه البهائيين، مما أدى إلى تغيير نظرتهم التي تكونت لديهم بسبب ما سمعوه من المغرضين أو الجاهلين.

تأكد أفراد أسرنا أن إعدامنا ليس عاجلا، وأن حكم "الناضور" ليس نهائيا وأن ما اقترفناه، لا يستوجب كل ذلك الحكم القاسي، علاوة على أننا لم نرتكب الجرائم المنسوبة إلينا.
إن الفضل في تغيير فكرهم واطمئنان نفوسهم، يرجع إلى سفرهم وحضورهم إلى "القنيطرة" واتصالهم في "الرباط" برجال القضاء ليتيقنوا بأنفسهم من أن ما يروج في مجتمع "الناضور" من الجرائم المنكرة المرتكبة من طرفنا، مجرد إشاعات لا أساس لها من الصحة. كما أن ما أظهره لهم المحامون من التفهم لوضعهم والتأكيد على براءتنا، وما أبداه لهم البهائيون من المساعدة والكرم والترحاب وما تنشره بعض الجرائد من المقالات تشجّب الحكم دفاعا عنا، ساعد كثيرا في التهدئة من شدة روعهم وقلقهم وفي إعادة الاتزان إلى عواطفهم ورفع معنوياتهم.
وبذلك تغير موقفهم المتشدد تجاهنا وبدأوا يشعرون أننا لسنا ضالين أو مغرّرا بنا، كما كانوا يعتقدون، أو عملاء لليهود والصهاينة أو أدوات للاستعمار نعمل من أجل تخريب الوطن والدين أو نحمل معاول لهدم قبر الرسول وبيت الله الحرام، كما قيل لهم. وإنما نحن مؤمنون برسالة جديدة وصابرون على تحمل الأذى في سبيلها. فخفت وطأة توتر علاقتهم بنا، مما انعكس إيجابا على مشاعرنا وأعاننا على الاستكانة راضين مستسلمين لما ستأتي به الأيام.

ومع ذلك فقد ظل الشعور بالحزن من أجل ذوينا يلازمنا طيلة مكوثنا في السجن، حتى في تلك الفترة التي أخذ بعض أفراد أسرنا يتفهمون مظلوميتنا، ويعبرون عن بعض الاعتذار لنا على ما ظلمونا. كما ورد في إحدى الرسائل المتبادلة بيني وبين أختي، تقول الرسالة:

" ... لم أكن أبدا أعي أن رسالتي ستحملك على طلب الغفران. ومن أولى بربك، بطلب العفو ! أنا الذي قطّعت أكبادكم، أم أنت التي تقطرين الشهد في قلوبنا ؟

---

[106]- **بهاء الله : اللوح الموجه للمجتهد الأصفهاني المعروف بنجفي .**

لست في رسائلي إلا المتسول المتوسل الذي يستجدي عطفكم ورضاكم... آه! ثم آه ! على حرقة فؤادي عندما أتذكر ما لاقيتم في سبيلي وما تكبدتم في عذابي، أنتم المسالمون الوادعون الآمنون. ألا فعفوا عن هذا المبتلى وغفرانا للمتشبث بألطاف السماء..."

كانت الأخبار الواردة من الأسرة أكثر ما يشغل بالنا، وتؤثر فينا سلبا وإيجابا. كما تعكس نفس الرسالة:

" لا شيء ينعش قلوبنا ويرفع من معنوياتنا هنا، مثل ورود الأخبار التي تحكي عن جودة صحتكم وراحة نفوسكم. ولست أستثني أحدا من هذه الجماعة المبتلاة. فكلهم يبتهجون وتنشرح صدورهم آن الاطلاع عن حالتكم المرضية. وهي تمنحنا قوة نستطيع أن نتحمل بها السجن راضين. ولا تستغربي أبدا احتمالي وتجلدي، فأنا لم أنفق شيئا من صبري وكأن مؤنته رفعت عني، والحقيقة أن هذا السجن قد أفادنا أضعافا مضاعفة مما ضرّنا به. تقولين إن أبي مفتخر بجلدي، وهذا الافتخار يجعلني أشعر بسعادة عميقة، لأنه الأمنية التي يسعى لتحقيقها كل ابن بارّ... "

ومع مرور الأيام، اتضحت الرؤية وصار بعض أفراد أسرنا أكثر تفهما لموقفنا الصامد، ينظرون إلينا بشيء من التقدير والاحترام، الذي انعكس بعضه في إحدى مراسلاتي التي كتبتها لأختي بعد أربعة أشهر من حبسي في "القنيطرة"، أقول فيها:

" ما أعظم عناية الله بنا، لو ننظر ونتأمل بعين الحق واليقين. فأمي المحترمة لم تتكالب عليها العلل منذ اعتقالي، مع أن المنتظر كان عكس هذا تماما. وأنت التي كنت تقولين بأنك لن تستطيعي البقاء في الوجود إذا أُصبتُ بأذى، ها قد عاد إليك بشرك ونشاطك. أليس هذا من نعم الله علينا ؟ وأبي الوقور، أتمنى أن يكون على أحسن ما يرام.

إن الذي سكن في قلبه الإيمان لن تهزه عواصف العذاب والامتحان. والذي امتلأت ذاته بحب الله لن يتزعزع بما يجري عليه من فتنة وابتلاء. إن السعادة الحقيقية تكمن في رضاء روح الإنسان. فما لم يكن روح الإنسان راضيا فإنه لن يسعد ولو اجتمع له الأحباب وصادقه الرخاء. إني مرتاح لأن روحي في راحة، وهادئ البال لأني قد جعلت حياتي ومصيري في قبضة الله...

أبي الوقور، أنت البذرة التي تدفن نفسها في التراب لتقوم على سطحها شجرة يانعة الأثمار. ما أعظم تضحيتك وما أكثر أتعابك ! وأنت أيتها الأم الحنونة، ما ذا أقول في حقك. لقد قيل(إن الأم في القطبين تعرض نفسها للدببة ليأكلوها، كي يصطادها بعد ذلك أبناؤها ويتغذون بلحم الدب الذي سمن على لحم أمهم). ورغم ما في هذا من وحشية، فإنه دليل كبير على مقدار ما يحمله قلب الأم من حب وحنان وتضحية. أنتما أيها الأم والأب اللذين لا يعرف الابن مقداركما حتى يكون بعيدا عنكما، فإني قد عرفت مقداركما وعلمت منزلتكما، فهل إلى تقبيل جبينكم الطاهر وقدمكم الشريفة من سبيل ؟
السجن المركزي. 14 أبريل 1963.

وكتبت إثر زيارة والدي لي بعد مكوثي ستة شهور في حي الإعدام:

" ... إن زيارة أبي تركت أثرا من الآثار الجميلة الحية التي ما تزال هزة مشاعر أثرها تسري في دمي وفرحة لقائه تتراقص في قلبي. وكان يوم الجمعة الذي جاء يودعني فيه، يوما ذا

أثر أشد، لما هدانا الله إليه من نعمة التفاهم ووفقني إليه من استدرار الرضاء والعفو من قلب أبينا الوقور..."

السجن المركزي 10 يونيو 1963.

لم تكن تتحسن سرائرنا ومعنوياتنا فحسب، أثناء فترة السجن، وإنما كان يمتد التحسن ليشمل أفراد أسرنا أيضا. إنه نفس التيار المؤثر الرابط بيننا، المشحون بعناية الألفة والسكينة الإلهية التي تتسرب قوتها إلى قلوبنا جميعا. كما عبرت رسالة أختي عن التغيير في التفكير والمشاعر وما أثارته المحنة من التآلف بين الأسر المنكوبة:

" إن عائلة معنان كلها بخير، كما أن للا حبيبة (والدة معنان) **تغيرت أفكارها كثيرا تجاهكم، فكم كنت مسرورة لمّا زارتنا أمس، لقد تعانقت مع أمي ولم تشاءا أن تفترقا الواحدة عن الأخرى. وهذا دليل محبتهما وصفاء قلبهما ".**

أما أنا ومليكة (أخت معنان) **فقد أصبحنا إخوة، لا تكاد الواحدة تفترق عن الأخرى..."**

هكذا أخذت تنقشع غيوم السخط والقنوط وإساءة الظن عن سماء العلاقات بيننا وبين أفراد أسرنا، وبين أفراد الأسر نفسها التي كان كل فرد منها يلقي اللوم على سليل الأسرة الأخرى، ويحمّله مسؤولية ما نزل بها. وحلت محل الكدورة والنفور مشاعر الود والألفة التي تنفثها القوة الإلهية في الأفئدة والقلوب. وكانت هذه الروح السارية في أجواء الأسر من أكبر النعم التي شاءت إرادة السماء أن تشملنا بها.

أما المحامون فإنهم كانوا يطمئنوننا ويؤكدون لنا جازمين أن الحكم القادم سيكون عادلا ولصالحنا. ومنهم من كان يمجّد موقف الفداء الذي بدا منا لنصرة مبادئ الحرية وحقوق الإنسان، و يعتبره موقفا بطوليا جديرا بأن يقتدي به الشباب. وكذلك كان حديث بعض المتعاطفين الذين انتبهوا إلى أن حكم "الناضور" لم يكن سوى مسرحية حاول كاتب السيناريو أن يوزع الأدوار بإحكام ليحقق نجاحا سياسيا دون أن يتأكد من إتقان نهاية المسرحية.

انتبهنا إلى أن صبرنا تحوّل إلى قضية، جلبت تفهّم وعطف ومساندة بعض النفوس الذين يضعون حرية الفرد فوق كل الاعتبارات التقليدية، الشيء الذي خفف عنا مرارة وطأة الاعتراض العام الذي لمسناه منذ اعتقالنا لدى العامة وبعض رجال السلطة وهيأة القضاء التي خيبت الآمال التي عقدناها على مؤسسة اعتبرناها ملجأنا وملاذنا الأخير.

أما البهائيون الزائرون للسجن، فكانوا أشبه بالحجاج إلى مكان مقدس يتبركون بأولياء الله المسجونين، قصد تعزيز إيمانهم بزيارتنا وتقوية علاقتهم بالله بلقائنا والتقرب إليه بإلقاء نظرة على مظلوميتنا. يلتمسون منا الدعوات قبل أن نلتمسها منهم، نحن الذين هم في أمس الحاجة إلى الدعوات، ويستعينون بمواقف صبرنا في الملمات التي تعترض سبيلهم في الحياة. لدرجة أني أنا الذي لا أرى نفسي إلا أقل من الحصاة في محضر هؤلاء المهاجرين الذين هم في اعتباري من جواهر الخلق المنقطعين عن الدنيا في سبيل إعلاء كلمة الله، الذين يتضوع من سلوكهم وتعاملهم عرف المحبة للناس والعناية بهم والإشفاق عليهم... نعم ساورني الشك، نظرا لما أوقعته نظرتهم إلينا في خاطري وما أبدوه من التعظيم والإجلال تجاهنا وما يوحي به سلوكهم معنا من إعلاء مقامنا، أثناء زياراتهم لنا، في أن أكون، وأنا الأسير البائس الذليل، قد بلغت إلى مستواهم في الارتقاء الروحاني. فخشيت على نفسي من الوقوع في شرك الغرور بأهمية ذاتي، واستغفرت الله من أن يدغدغ أنانيتي وينفذ إلى نفسي قبل أن أتمكن من التحكم فيها، فقلت شعرا متأملا في هذه الظاهرة، مقارنا بين المؤمنين المحليين والمهاجرين، أذكر منه هذا البيت:

عجبا، قال قائل إننا وإياهم على حد سواء

تحول مكان زيارتهم لنا إلى حديقة تتدفق فيها ينابيع القلوب بمشاعر المحبة والوداد التي نكنّها لبعضنا البعض.

ومع تتابع الوافدين من مختلف الأقطار ومن مختلف الأجناس، انتبه الحراس إلى أننا لسنا معتقلين عاديين لما لمسوه من الحب والإعجاب الذي نحظى به من طرف أناس لا يجمعنا بهم أي شيء في الظاهر ما عدا إيماننا المشترك "ببهاء الله"، فانعكس كل ذلك على نظرتهم إلينا وتعاملهم معنا، بل تولد لدى بعضهم الرغبة في الاستزادة من المعرفة والاطلاع على الدين الجديد.

***

ذات يوم شرفنا بالزيارة أحد المغاربة المتميزين الذين لا يجود بهم الزمان إلا نادرا. إنه من الرجال الذين لا يمنعهم مانع للصدع بما يدركون ويشعرون، ومن الذين لم يزدجرهم الخوف أو يردعهم الاعتراض. إنه "عبد السلام حجي"، ثالث ثلاثة الذين جاهروا بقوة على صفحات الجرائد منددين بالظلم، بمجرد أن اطلعوا على نبإ الحكم، وثاني اثنين اللذين صدرت من أعماقهما صرخة حملها إباؤهما في كفيهما روحا تعلن عن ربط مصيرهما بمصير المحكوم عليهم. لقد قيضهما الله للدفاع نيابة عن العاجزين عن الدفاع على أنفسهم، يطالبان الكرع من نفس كأس الظلم المريرة، التي كرع منها هؤلاء المظلومون، كما عبر عن ذلك في المقالة التي نشرها، يقول فيها:

"... لكن ضمائرهم ،(البهائيين) وهي أغلى ما يكسبونه، متأكدة من أن الإلهام الإلهي مستمر وأن الله يزرع روحه القدسي في عباده المخلصين، وضمائرهم تحتم عليهم أن يصدقوا ما جاء به بهاء الله. فهل من الحكمة والعقل والرجولة أن نعدم البهائيين لأنهم غير منافقين... ! "

ويكتب في نفس المقال:

" ... وإذا لم يسرّحوا فما على عدالتنا إلا أن تلقي القبض على كل إنسان في هذا الوطن يعلن أنه حر في معتقده، وواجب الإنسان الشهم الذي يؤمن بقداسة الحقيقة أن يربط مصيره بمصير هؤلاء الثلاثة وإلا فعلى الشهامة السلام. فواجب على كل من يؤمن بحرية الضمير ويدين سخافات الظالمين أدعياء الدين أن يقاوم الحكم الجائر. "[107]

إن موقف مثل هذا المواطن الشهم يضاهي موقف الفرعوني الذي كتم إيمانه، كما أورد خبره الرب الخبير في القرآن المبين:

" وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم، وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب "[108]

---

[107] - مجلة الأطلس : العدد الثالث. فاتح أبريل 1963 .

[108] - سورة غافر: 28 .

نظر هذا الرجل إلينا نظرة ناطقة بالكثير من معاني التأثر، عندما سمحت له الفرصة بزيارتنا في السجن، يحاول أن يجد الكلمات المناسبة ليخفف عنا وطأة المعاناة التي أنزلها بنا الظلم، فرددت على مجاملته ومبادرته دون أن أكون على علم بالنفس العظيمة الكبيرة التي كان يحملها خلف مظهره، أشكره على الزيارة وعلى كلماته الطيبة، وجرى على لساني هذا البيت من الشعر:

إذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

***

ومن جملة الزيارات الهامة التي حظينا بها، نحن المدانين بالإعدام، الزيارة التي شرفنا بها " أيادي أمر الله " جناب "جون روبرتاس" الذي جلس معنا وعانقنا وأخرج من جيبه كتاب أدعيته الشخصي وفيه صور صغيرة لجميع المسجونين، يخبرنا أنه يدعو في كل وقت يتوجه فيه إلى الله بالدعاء لنا. وطمأننا إلى أن "بيت العدل الأعظم" الذي تأسس حديثا لا يوفر أي إجراء أو مجهود من أجل العمل على تحريرنا.

إبان هذه الفترة، زارنا أيضا ممثل عن جمعية حقوق الإنسان التابعة لهيأة الأمم المتحدة التي مهدت له إدارة السجن بإدخال بعض التحسينات على حياة المساجين اليومية من تطهير الزنازين واستبدال أغطية النوم. فأسرع الأستاذ "محسن عنايت" إلى الاتصال بالمدانين بالسجن مدى الحياة، يوصيهم بعدم إظهار أي تذمر للممثل الأممي بالمعاملة التي يعاملهم بها الحراس أو بالخدمات التي تقدمها لهم إدارة السجن، حفاظا على سمعة بلدنا من الإساءة لها بالتشويش عليها.

مرت زيارة الممثل الأممي عادية، بعد أن شاهد الزنازين التي تأوينا واستمع إلى أجوبتنا التي طمأنته على أحوالنا.

***

إننا لم نكن من المناضلين في أي ميدان ولم نحاول أن نحقق الانتصار على أيّ كان، لم نكن سوى مواطنين عاديين تعرّفنا حديثا على رسالة إلهية فآمنا بها، ولمست روح حبها قلوبنا فتعلقنا بها، وألهمتنا قوة هدايتها السير في تعاليمها التي أنار نورها طريق الخير لنا ولمستقبل وطننا فسرنا في هديها، وحاولنا ما وسعتنا المحاولة، أن نعيش إيماننا لأنفسنا ومع من يشاطرنا العقيدة دون استفزاز غيرنا أو إثارة فضولهم، حتى لا نكون بأية حال سببا في اضطراب أفراد مجتمعنا، كما يوصي الله تعالي على لسان "بهاء الله":

" إنه ما أحب الفساد ومنعكم في الألواح عن كل ما تحدث به الفتنة إنه لهو الحاكم على ما يريد "[109]

واقتصرنا على عدم الخوض في الحديث عن ديننا إلا مع معارفنا المهتمين الصادقين في اهتمامهم بالأمور الروحانية، إلى أن أخرجونا، رغم أنوفنا، من دائرة الظل التي كنا نعيش فيها، إلى عين الشمس التي سلطت نورها الساطع على جوانب من عقيدتنا، واتخذ اعتقالنا ومحاكمتنا والحكم علينا حجما لم نتوقع أن يثير اهتمام الخاص والعام، وأن يحرك هرم الحكم من القمة إلى القاعدة، ويتولى الإعلام الاهتمام به في جرائده وصحفه اليومية والأسبوعية.

لم يعد بإمكاننا بعد هذا أن نواري عقيدتنا أو أن نظهر بغير ما ينطوي عليه باطننا.

---

[109] - بهاء الله : آثار قلم أعلى . الجزء الأول .

ذلك أن الحدث قد تجاوزنا بمداه، وتجاوز نطاق أبناء بلدتنا كما تجاوز النطاق الذي تطاله ذراع السلطات المحلية والإقليمية، لتتناوله دوائر السلطات المركزية العليا. وتلقف مضمون أبعاده بعض المواطنين الذين تسكنهم روح النضال من أجل القضايا الإنسانية الكبرى، كما اجتذب اهتمام إعلام الدول الكبرى التي تفتخر بين الدول بوضع قوانين المبادئ والقيم الإنسانية، وتعتز بالمشاركة في إنشاء المؤسسات التي تتولى رعايتها وتعمل على الترويج لها في مختلف المنتديات، وتتباهى بالانتصار لها والدفاع عنها من أعلا منابر الهيئات العالمية، وتستمد من قيمها شرعيتها في التسابق لتتبوأ المكانة المرموقة في العالم.

لذا ترى الذين تعرّضوا لحكم "الناضور" بالانتقاد، يوردون في تعاليقهم الهتك الصريح للمواثيق الدولية والقوانين الدستورية والقيم الدينية والإنسانية المشتركة، كما نشرت ذلك إحدى الجرائد:

" ... إن هذه المحاكمة تعد خرقا للمواثيق الدولية التي قبلتها وارتبطت بها المملكة المغربية وتعهدت بموجبها كفالة واحترام حرية الاعتقاد. يزيد هذه المحاكمة شذوذا أن القانون المغربي كباقي قوانين الدول المتحضرة، لا يتضمن أي نص عن حرية الاعتقاد أو يعاقب من يعتنق دينا دون آخر، وقد زاد دستور المغرب هذا المبدأ القانوني تأكيدا وتدعيما"[110]

كما يرون في ذات الحكم انتهاكا لحرية الاعتقاد:

" والجدير بالإشارة إليه وتأكيده، أن أساس الثورة التي اجتاحت الرأي العام العالمي وانعكست في الصحافة الدولية، لم يكن باعثها قسوة الأحكام الصادرة في أعقاب تلك المحاكمة المؤسفة، ولكن دافع حماية مبدأ حرية الاعتقاد ذاته، التي قدمت البشرية في سبيله الكثير من التضحيات حتى انتصرت بإقراره وإعلانه ..."

ووجه المقال في النهاية، تحديا صريحا للدولة المغربية:

" ... وعلى المغرب الآن، كدولة حرة متحررة، أن تسجل للتاريخ وعلى مشهد من العالم، حكمها على نفسها، فتعلن ما إذا كانت دولة تعيش في هذا العصرالتقدمي ماديا وفكريا، أم أنها لا زالت تتعثر في عهود العصبيات القبلية والتعصبات المذهبية، وهي على أي حال إما أن تتلقى تهنئة العالم لها أو سخطه عليها "[111].

لم تعد إذاً مسألة "حكم الناضور" تعنينا وحدنا، أو تعني عقيدتنا التي نكوّن معها عصا الرحى التي تدور حولها "القضية". وإنما تعني، لو أمكن غض النظر عن الدين، المبادئ والقيم الأساسية التي يقوم عليها أساس بناء المجتمع السليم، والعلاقات الحديثة بين الدول والشعوب، كما تعني العلاقة التي تربط الأفراد بالهداية الإلهية والرسالات السماوية، بالنسبة للمتفكرين فيها.

ومن نطاقات هذه الأجواء الضاغطة الجديدة أخذت الرياح العامة المنتظمة العالمية والمحلية تحل في نفوسنا محل عاصفة "حكم الناضور" التي اجتاحت حياتنا الآمنة، وشرعت تدفع سفينة قضيتنا إلى الإبحار في أعالي البحار الدولية.

****

---

[110] - أخبار الدنيا : الجريدة الأسبوعية المحايدة في عددها 69 الصادر 16 مارس 1963.

[111] - نفس المصدر السابق .

9 - مرفأ الوصـــــــول

أ - وسائل الإعلام من جديـــد.

" طوبى لملك ملك زمام نفسه وغلب غضبه، وفضل العدل على الظلم، والإنصاف على الاعتساف"

الكلمات الفردوسية

***

مـــــرت الأيام وئيدة دون أن تأتي بشيء جديد واضح يدل على المصير الذي يؤول إليه وضعنا المتأرجح بين مدّ اليأس عندما تحتد لهجة وسائل الإعلام في المقالات المنشورة التي تتعمد تشويه وجه البهائية والتشنيع والتشهير بنا، كي تؤثر على الاتجاه الذي سيتخذه "المجلس الأعلى" للقضاء لاحقا، وما بين انتعاش الأمل عند انحسار حركة الهجوم ونشر بعض الجرائد للمقالات التي تطالب بتبرئتنا.
تزايد ترقبنا، ونحن نعلم ما تبذله الجامعة البهائية العالمية من المساعي لدى ذوي النفوذ على المستوى العالمي وعلى مستوى جميع المعنيين بالملف البهائي، ونتوقع جميع الاحتمالات التي يمكن أن تخطر لنا في البال، نُطمئن نفوسنا إلى أن أسوء الاحتمالات لا يمكن أن تتجاوز شدتها الشدة التي نحن فيها. ومع وصول كل خبر وكل إعلان عن موعد تعيين جلسة المحاكمة وتأجيلها إلى موعد لاحق، يتجدد ترقبنا، لدرجة أفقدت المماطلة والتسويف مصداقية هذه المواعد، دون أن تمنع تجدد هاجس ترقبنا المتوتر مع كل تأجيل. وما بين إشاعة موعد الإعلان عن المحاكمة، وتأجيله، كانت بعض الجرائد والمجلات تصدر مقالات تجدد فيه وجهات نظر كتابها بخصوص البهائية و"حكم الناضور" والعلاقة القائمة بينها وبين دين الدولة الرسمي وحرية العقيدة: منها ما يدعو إلى عدم مؤاخذة المواطنين على عقائدهم الدينية، ومنها ما يلح على الضرب بقوة على أيدي ذوي العقائد التي لم يعترف بها الإسلام، مؤلبة الرأي العام ضدّ البهائيين حاثّة على تنفيذ العقوبات الصارمة الصادرة علينا.
مما اضطر المحامين البهائيين إلى كتابة توضيح نشرته أسبوعية "أخبار الدنيا"، يردون فيه على مقال لإحدى الجرائد:

" لشد ما هو غريب ما ذهبت إليه جريدة الاستقلال في عددها الصادر 24 فبراير 1963، في محاولتها مساندة الحكم الصادر ضد البهائيين في المغرب، واستدلالها بما صدر من أحكام في روسيا وفرنسا ضد أتباع مذهب "شهود يهوه" المسيحي على ما بين الحكمين من تفاوت واختلاف تتعذر معهما المقارنة ويستحيل القياس.
فإدانة نفر من "شهود يهوه" في الدولتين المذكورتين. باعتراف "الاستقلال" صراحة لم يكن مبناه انتماءهم لمذهب معين أو مرده أمر عقائدي، وإنما أساس محاكمة ذلك النفر منهم مما ارتكبوه مخالفا لنصوص القانون ... فالتخلف عن الخدمة العسكرية، أو حرمان الطفل من العلاج ... جريمتان يعاقب عليهما القانون ولا دخل لمذهب المتهمين في القضية ... وهذا أمر يختلف تماما عن قضية البهائيين في المغرب، والتي أساس المحاكمة فيها وكل الجرم فيها أنهم بهائيون، مما جعل هذه المحاكمة حدثا فريدا من نوعه في عالم اليوم أعاد إلى أذهاننا الذكريات المؤلمة للاضطهادات الدينية في القرون الوسطى ...
ومما هو جدير بالإشارة إليه وتأكيده، أن أساس الثورة التي اجتاحت الرأي العام العالمي وانعكست في الصحافة الدولية لم يكن باعثها قسوة الأحكام الصادرة في أعقاب تلك المحاكمة المؤسفة ولكن دافع حماية مبدأ حرية الاعتقاد ذاته التي بذلت البشرية الكثير من التضحيات

حتى ظفرت بإقراره وإعلانه. لهذا فإن أية فكرة لاستبدال الحكم الصادر ضد البهائيين بآخر أخف وطأة، يعتبر تجاوزا عن مبدأ حرية الاعتقاد ويلزم طردها من الأذهان كلية، فإن معاقبة البهائيين في المغرب بالحبس يوما واحدا، كاف لاعتبار المغرب قد أهدر آدمية الإنسان وداس حرية العقيدة والرأي تحت قدميه وبصق في وجه الأمم المتحدة ومنظماتها التي انخرط فيها على أساس قبوله واحترامه لمبادئ القانون الدولي ومن أهمها إقرار وحماية حرية الاعتقاد ..."[112]

وآلت مجلة "الأطلس" على نفسها أن تنشر جميع المقالات سواء منها المخذلة للبهائية أو المساندة لها، ونشرت في عددها الثاني مقالا تحت عنوان آراء حرة حول البهائيين بخط بارز يقول:

" تمسّكا بما التزمناه على أنفسنا من حرية ونشر جميع الأفكار، فقد وردت علينا مكاتبات حول مقال البهائيين ... تاركين الباب مفتوحا أمام كل من أراد مراسلتنا في الموضوع "

ومن جملة المقالات التي نشرتها "الأطلس"، مقالة السيد "عبد السلام حجي" الذي يعبر فيها عن قلقه الشديد على مصير ضمير الإنسان ويلوم الذين يتخذون من الدين وشاحا للاستهتار بحياة الناس لدرجة إهدار دمهم. ومما جاء فيها:

" كانت أحكام الإعدام التي أصدرتها محكمة الناضور ضد ثلاثة من الشبان الذين يدينون بالعقيدة البهائية .. مفجعة مؤلمة بالنسبة لكل حبيب لنور الحق كيفما كانت ديانته وعقيدته وفلسفته، فالمحكوم عليهم بالإعدام لم يرتكبوا جريمة ولم يعتدوا على حرية أحد ولم يتآمروا ضد الدولة المغربية. كل ما اعتمدت عليه المحكمة من براهين في معاملتهم بهذه القسوة المرهبة هو أنهم " مسّوا بالإيمان الديني " وأنهم متهمون بنشر الفوضى .. ولست أدري بماذا يمكن أن يمس الإيمان الديني في المغرب، إذا كانت جماعة من الناس يؤمنون بالله ويقدسونه ويعتبرونه الحقيقة الأولى والأخيرة يعبدونه في هدوء واطمئنان وهم يعلنون بكل حرارة، طبقا لما أوصاهم به بعد " الباب " بهاء الله ثم خلفه عبد البهاء أنهم يدعون الله سبحانه أن يهدي البشر للوحدة، ويجعلهم دينا واحدا يقدسه ويمجده وينشر، باسمه بين الناس، العدل، والمحبة، والأخوة الصادقة !"

ويبدو من المقال أن الكاتب قد سمحت له الفترة الفاصلة بين صدور الحكم في ديسمبر وبين نشره في أبريل، بالاطلاع على البهائية، إذ يقول:

" إذا سأل سائل عن البهائية، فها هي ذي، عارية عن كل لبس واضحة لا يختفي من ورائها لا طمع في حكم الدنيا أو حطامها ولا في هدم كعبة ولا في احتقار دين كيفما كان، لأن البهائيين كما هو مكتوب في كتبهم وكما هو ثابت في تاريخهم، محبون لله وللبشر جميعا " سواء كانوا مسلمين أو مسيحين أو يهودا أو بوذيين أو غير ذلك " كما أنهم خصوم روحيون للعنف ودعاة للسلم. فكل ما قيل عن معاداتهم للإسلام وانتسابهم للصهيونية زور وبهتان ومغالطة، وإني لأشفق، بكل صدق، على ضمائر إخواني المغاربة الذين اعتدوا على أنفسهم حينما حملوها وزر إدانة جماعة من خلق الله تؤمن بالله وتعبد الله وتدعو الله أن يهدي البشر ليحبوه ويمجدوه، ويحبوا إخوانهم البشر ويمجدوا فيهم البهاء الأبهى بهاء الله الذي لا يفنى ... لكن ضمائرهم، وهي أغلى ما يكسبونه، متأكدة من أن الإلهام الإلهي مستمر وأن الله يزرع روحه القدسي في عباده المخلصين ؟ وضمائرهم تحتم عليهم أن يصدقوا ما جاء به بهاء الله. فهل

---

112 - **أخبار الدنيا : عدد 69 . 16 مارس 1963 .**

من الحكمة والعقل والرجولة أن نعدمهم لأنهم غير منافقين ؟ وهل يعقل أن يوافقنا ذو الجلال والإكرام على أن نهرق دم طائفة من عباده تقول بكل حرارة إيمانها: إن الله واحد وإن الدين واحد وإن تعددت أسماء الأديان وإن المحبة هي الحقيقة الساطعة والنور الأبهى، معاذ الله أن يرضى الله عن تصرف كتصرف المصفقين لجناية حكم الناضور على الحقيقة والمحبة، والمتلذذين بدماء الأبرياء ... لست مطالبا بالعفو عن المظلومين الثلاثة الذين انتزعوا عدوانا من أطفالهم وأهليهم ونسائهم، فما كانوا مجرمين حتى يعفى عنهم. بل يجب سراحهم سراحا نهائيا، وجعل حدّ لهذه العقلية الغبية المتحجرة التي تتعصب دون هدى، واحترام الله بعدم الادعاء عليه واحترام الدستور الذي يعلن حرية الدين: وإذا لم يسرّحوا، فما على عدالتنا إلا أن تلقي القبض على كل إنسان في هذا الوطن يعلن أنه حر في معتقده".

ويذهب السيد "حجي" ليستشهد ببعض النصوص المتضمنة لبعض التعاليم البهائية الدالة على رأي البهائيين في عدد من المسائل الكبرى، ليخلص إلى استفسار الذين يتهمونها:

" أين معاداة الإسلام في هذا الكلام أيها المسلمون ؟ "

ثم يتعرض لخصوم البهائية من رجال السياسة والدين في أشخاص، ذكرهم بأسمائهم، ساندوا أحكام الإعدام:

" إني أتساءل عن نوع النشوة التي سيحس بها السيد إدريس الكتاني، أو السيد علال الفاسي، أو السيد عبد الله كنون حينما يشنق أولئك البهائيون الثلاثة، المجاهدون الصوفيون المحبون في الله الذين ذابوا في ذاته ؟ ترى هل من حق السادة الكتاني والفاسي وكنون أن ينتصبوا ممثلين لله ؟ حرام عليهم أن يستهينوا بالروح البشرية البريئة، إن هذا لتجبر وجبن ... فلما ذا لا يشنقون البابا و م. خروتشوف و الباندیت نهرو، و الفيلسوف برتراند راسل؟ لما ذا لا يشنونها حربا عوانا على كل الذين لا يؤمنون بما يؤمنون به؟ أم أنهم استغلوا ضعف الشبان الثلاثة ؟ فكيف يقولون لله يوم الحساب ؟ لماذا لم يتخذوا نفس الموقف من جميع البشر الذين لا ينظرون إلى الحياة والدين نظرتهم الضيقة ؟ هل يرضى ـ العلماء ـ أن يأتي إليهم شيوعي ويشنقهم باسم الإنسانية بدعوى أنهم يخدرونها بأفيون الشعوب ؟ وهل يقبلون تعريض أرواحهم لمصير العذاب في حين أن الدين إنما كان لتطهير القلوب من أدران الحقد والجبروت واليأس والقنوط ؟"

ويوجه دعوة حارة إلى المواطنين:

" وواجب الإنسان الشهم الذي يؤمن بقداسة الحقيقة أن يربط مصيره بمصير الثلاثة وإلا فعلى الشهامة السلام. فواجب على كل من يؤمن بحرية الضمير ويدين سخافات الظالمين أدعياء الدين أن يقاوم الحكم الجائر ... إنني أعلم أن في هذا البلد العزيز قلوبا طاهرة وضمائر حية وعقولا متفتحة إليها أتوجه راجيا أن تتحرك النفوس وأن يبعث بأكبر عدد ممكن من الرسائل والبرقيات إلى صاحب الجلالة الحسن الثاني، الذي أقدر ذكاءه الوقاد، مطالبة بالإفراج عن إخواننا في الله، المظلومين المقهورين لا لذنب إلا لأنهم بأحر ما في الفؤاد آمنوا بزعيمهم الروحي بهاء الله ".

ويعلن عن موقفه الشخصي، في حالة ما إذا لم ينصف المدانون، بهذه العبارة الجريئة التي تماثل العبارة التي أدلى بها السيد "بن طاهر" قبله في المقال الذي نشره على صفحات جريدة "ماروك أنفورماسيون":

" أما إن اعدموا فتعالوا اعدموني، وإن بقوا في السجن أدعوكم يا دعاة هذه العدالة الغريبة أن تحبسوني معهم"[113]

والجدير بالذكر، أن السيد "حجي" هو الشخص المغربي الوحيد الذي كلف نفسه مشقة الاتصال المباشر بنا في السجن حتى يتعرف شخصيا على أحوالنا.

لا بد لمثل مقاله الجريء، بدافع من قلقه وتوتره العميق الذي يغذيه تأثره القوي بمصيرنا ومصير القيم الإنسانية المشتركة، وللمقالات القوية المنشورة سابقا التي تسفه موقف بعض علماء الدين اللاإنساني من أحكام الإعدام التي صدرت عن محكمة "الناضور" وتنتقد مقولاتهم التي تعارض حرية العقيدة والرأي، كما تطالب في نفس الوقت برفع الظلم عنا... أن تفاجئ القراء، خاصة الذين ينتصبون على منصة احتكار الحقيقة الدينية ويقومون مقام الحماة المدافعين عنها وعن دين أغلبية المجتمع.
كان لتلك المقالات وقع كبير على بعض علماء المغرب الذين أثاروا موجة من الاستنكار نشروها على صفحات جريدة "الميثاق" التي تصدرها رابطة علماء المغرب تحت إدارة الأستاذ "عبد الله كنون" الذي تصدى لإدانة البهائية والبهائيين، في عدد من المقالات المتتابعة في هذه الفترة الباقية على إعادة النظر في "حكم الناضور".
ومما نشرته له جريدة الميثاق في حلقات تحت عنوان:

" لمن تدق الأجراس؟
دفاع عن البهائية أم محاربة للإسلام ؟

يقول:

"... كذلك كتب البهائي السيد عبد السلام حجي في مجلة (الأطلس) مقالا من هذا النوع؛ كله إشادة بنحلته الجديدة وتنويه بنبيها العظيم وربها الأعلى... "

ويقول:

" الواقع أن خصوم الإسلام وأعداءه من الصليبيين والصهيونيين وغيرهم قد فزعوا من انحسار موجة الاستعمار عن البلاد الإسلامية وانبعاث دولة الإسلام من جديد فهم يقعدون له في كل مرصد ويحاربونه بكل سلاح ... فإن البهائية وغيرها من المذاهب المنتحلة اليوم هي وسيلة الفئات المعادية للإسلام لعرقلة نهضته وكسر شوكته ... فالمبشرون لما عجزوا عن تنصير المسلمين أخذوا يستدرجونهم بمثل البهائية لترك دينهم وبعد ذلك تأتي حملة التنصير، والصهيونيون يعتقدون أن انتشار المبادئ الهدامة بين المسلمين باسم الأخوة الإنسانية ومحبة البشر بعضهم لبعض والسلام العالمي يفسح لهم المجال لتحقيق مطامعهم في السيطرة على بلاد الإسلام والتمكين لدولة إسرائيل ... وإذا مست البهائية وهي أقل شأنا وأضعف ناصرا من الصهيونية تعالت أصوات الاحتجاج والاستنكار من نيويورك وباريز وتل أبيب ، ووزعت المبالغ الطائلة على هذه الصحيفة وتلك وعلى هذا الكاتب وذاك ليدعو جميعا بالويل والثبور وعظائم الأمور ... "

ليخلص إلى القول:

---

[113] - **مجلة الأطلس : العدد الثالث . فاتح أبريل 1963 .**

" فالأمر إذن ليس دفاعا عن البهائية بقدر ما هو محاربة للإسلام، ولو لم تكن البهائية تعني الأمريكان والفرنسيس وغيرهما من حلفائهما المعروفين لما دقت أجراس الخطر في نيويورك وباريس واستجوب جلالة الحسن الثاني ملك المغرب عن أمرها في ندوته الصحفية بأميركا ... "[114]

وهكذا حشرنا العالم الجليل مع زمرة المستعمرين والصهاينة وجعلنا أداة من أدوات المبشرين المسيحيين ووسيلة في يد أعداء الإسلام... دون أن ينتبه إلى أن الأجراس التي يدقها في عنوان مقالته إنما تدق لإصراره على المشاركة في قتل النفوس البريئة.
وعلى نفس الصفحة نشرت مقالات يرحب فيها بعض فقهاء المغرب بإعدامنا، منها مقالة الأستاذ "الرحالي الفاروق"، يستخف فيها بردود الأفعال العالمية والوطنية التي أثارها حكم "الناضور"، ويزكي حكم الإعدام الصادر في حقنا:

"... وما كان ينبغي أن تقام هذه الضجة في قضية لها مساس بالكيان المغربي حتى لا يقع تأثير على العدالة في هذه البلاد من قريب أو بعيد ـ والقضية تهم المغرب وحده وتهم الدستور الذي يحمي دينه ... والواقع أن هدف الجماعة البهائية هو تفكيك الروابط وتضليل العقول، وخلق الفوضى، وتشكيك الناس في قيمهم ومعانيهم، وهذا فساد في الأرض، وكل فساد لا بد يقابل بالحد ... ولا معنى لأن نتأثر بما يوحي به المرجفون فيما هو مصلحة ـ وفيما هو قانون، بينما نحن نسمع من وقت لآخر ما يقع من حكم الإعدام هنا وهناك من دون أن يجرؤ أحد على التدخل والمعارضة ... "

وأنهى مقاله بالحكم القاطع على البهائية:

" ... أما البهائية فليست دينا رسميا، وإنما هي دعاية تروج وفتنة تموج "

أجل، لماذا " إقامة الضجة" من أجل قتل بعض الأنفار، ونحن نسمع ما يقع من "حكم الإعدام هنا وهناك". إن الفقيه لا يهمه أن يقتل الأبرياء المخالفون لعقيدته.

حقا، إن الذي لا يحمل همّ المحافظة على حياة الإنسان، لا يهمه أن يقتل الناس طالما أن حياته في أمان.

ونشرت نفس الجريدة في صفحتها الثامنة مقالا آخر، تحت عنوان:

"مجلة البهائيين" الأطلس تحض على الفسق والفجور".

جاء فيها:

" نشرت مجلة البهائيين الجديدة "الأطلس" في عددها الثاني صورة فتاة عارية أو شبه عارية إلى جانب قطعة من الشعر الفاحش... فهل هذه هي فضائل البهائية يا مجلة البهائيين ؟ إننا نلفت نظر وزارة التربية الوطنية لهذا الخطر الذي يتهدد أبناءنا وبناتنا بصفتها الساهرة على تهذيبهم وتكوينهم، فإذا كان ما تبنيه هي، يهدمه البهائيون بمجلتهم المتهترة؛ فمتى يبلغ البنيان تمامه ؟

---

[114] - **الميثاق : 25 أبريل 1963 .**

مرة أخرى، تهرف الجريدة بما لا تعرف وترمي غيرها، من غير البهائيين، كاذبة مغرضة، دون الحرص على مصداقيتها. وذلك حتى ينطبع في الأذهان أن البهائيين، والمتعاطفين مع قضيتهم، يدعون إلى الرذيلة حقا، ويمارسونها فعلا، دون أن يكلفوا أنفسهم مؤونة التأكد من أن المجلة ليست بهائية، كما زعموا، وأن الرذيلة رذيلة لا يدعو لها أي دين، وأن أخلاقنا سليمة كما يشهد بذلك سكان المدينة الذين يعرفوننا على حقيقتنا ويعرفون أننا لم نقترف ما يؤاخذنا عليه القانون سوى إيماننا "ببهاء الله" الذي عبرنا عن صادق تعلقنا به وبتعاليمه حتى في المواقف الحرجة. ومن تعاليمه:

" قل يا قوم دعوا الرذائل وخذوا الفضائل كونوا قدوة حسنة بين الناس وصحيفة يتذكر بها الأناس... كونوا في الطرف عفيفا وفي اليد أمينا وفي اللسان صادقا وفي القلب متذكرا..."[115]

وتحت عنوان: " **بعض شباب المغرب سلب عقله** "، نشرت:

" لقد كثر الحديث على البهائيين بين الشبان المغاربة ومن بين هؤلاء الشبان الذين ما زالوا يدرسون الحقوق في فرنسا ... برهنوا على طيشهم بدفاعهم عن البهائيين وبدعواهم أنه ليس من العدل أن تقدمهم الدولة للمحكمة محتجين بأن في دستورنا فصلا ينص على حرية الأديان ... "

يقول كاتب المقال يفسر مفهوم حرية المسلم:

" إن ذلك الفصل لا يعطي الحرية إلا للأجنبي الذي لم يولد في الإسلام ... وحيث ثبت للدولة أن الإسلام دينها تعيّن عليها أن تحمي الإسلام، وأن تأمر قضاة الإسلام بإصدار الحكم بالإعدام على كل مارق من الإسلام ..."[116]

دون أدنى اعتبار لحرية المسلم في الاختيار.

واستمرت جريدة "الميثاق" في نفس الاتجاه، تنشر المقالات المُدينة للبهائية والحاملة على كل من يدافع عن البهائيين المدانين، ناشرة عناوين مثيرة، من قبيل:

" هل نحن أمام حملة صليبية جديدة ".
" أقلام وضمائر تشترى لفائدة أعداء الإسلام "

تقول فيها:
" من عجائب الدهر وغرائب الزمان أن تجد من بين المسلمين من يتصدى للدفاع عن البهائية ويتطوع للذود عنها وعن خرافاتها وخزعبلاتها على حساب دين أجداده... ونحن وإن كنا نؤمن بحرية العقيدة ونفسح المجال لغير المسلمين بمزاولة شعائرهم الدينية في بلادنا بمنتهى الحرية والاطمئنان، فليس معنى ذلك أننا نبيح لأي كان بمهاجمة ديننا وعقيدتنا أو نتساهل مع من يتصدى لتحطيم الإسلام الذي ارتضاه المغاربة دينا لهم منذ اعتنق أجدادنا هذا الدين الحق.

---

[115] - **بهاء الله : لوح الحكمة .**
[116] - **الميثاق : يوم 25 أبريل 1963 .**

... وحرية الأديان معناها الحقيقي ومدلولها الواضح هو السماح لأصحاب الأديان السماوية بأداء شعائرهم الدينية، والبهائية ليست بدين سماوي وإنما هي حركة هدامة برزت لتشكيك المسلمين في عقائدهم.
... لهذا فنحن لا نخشى حركة البهائيين أو نهاب هجمات سماسرتهم، وإنما يعز علينا أن يتصدى للدفاع عن هذه الضلالة الكبرى بعض المواطنين الذين يشاركوننا في أسمائنا الإسلامية ونظن أنهم يشاطروننا حتى عقائد الإسلام، والواقع أننا قد استدرجناهم حتى أعلنوا عن أنفسهم ورفعوا النقاب عن وجوههم ليعرفهم الناس ويحتاطوا من مواقفهم المخجلة حقا.
وما كان يخيل إلينا أن الأقلام تباع إلى هذا الحد وأن الضمائر تشترى لاستخدامها في محاربة عقيدة الإنسان التي ورثها عن آبائه وأجداده.
أما الضجة المفتعلة حول مصير البهائية في المغرب فليست في واقع الأمر إلا خطة مدبرة تؤيدها الأسئلة الموجهة إلى جلالة الملك المعظم في ندوته الصحفية باميركا... "

ومن الجرائد التي نشرت ردودا على السيد "حجي" أسبوعية "السلام الإفريقي"، التي نشرت للسيد "عبد السلام الكويرة" مقالا تحت عنوان:

" العودة إلى البهائية "

يذكر فيه بعض المعلومات عن البهائية ثم يقول عن السيد "حجي":

" ... نصب هذا الكاتب نفسه مدافعا عن الزنادقة الغلاة والمرتدين الآثمين متحديا بذلك شعور 12 مليونا من سكان وطنه و500 مليونا من المسلمين في رقعة الدنيا فسفه بما كتبه العدالة المغربية ورجالها ورماها ورماهم بأوسخ وأنتن العبارات لا لذنب ارتكبوه ولكن ذنبهم الوحيد أنهم حكموا في الناضور على المرتدين الثلاثة بما حكم على أمثالهم الصديق الخليفة الأول لرسول الله عليه السلام ... هذا ولقد تقيأ علينا هذا المدفع الثقيل بما في صدره من غل على الإسلام والمسلمين ولقد التبست عليه الأمور فهو لا يكاد يميز بين الردة والزندقة والإلحاد والديانات والسياسة، على هذا نقول لجنابه: إن الشبان الثلاثة الذين حكمت عليهم المحكمة بنصوص القانون – هذا الحكم – هو مطابق للنص القرآني ... "
"المدافع يريد أن يعدم مع البهائيين الثلاثة: فمن الإنصاف والعدالة أن يعدم معهم ... "
" فما بالنا نحن المسلمين نرى زعانف من شواذ الخلق يتبجحون بالعداوة لديننا ونبينا وقرآننا في وطننا المسلم ونبقى مكتوفي الأيدي نحوهم... هل نكون أكثر تسامحا من الفارسيين مسقط رأس هذا البلاء الذين طهروا بلادهم منه بالنفي والتشريد والبطش ؟ ...
117"

إن جرأة السيد "عبد السلام حجي"، النادرة المثال، في الإدلاء بالرأي وسط الآراء المختلفة المعادية، وشخصيته المستهينة بالمخاطر المترتبة عنه، وقلمه الحاد الذي لا يرتجف عند الإفصاح عن ما في الضمير أو يخاف من التبعات التي يمكن أن تنعكس سلبياتها على شخصه... سرعان ما أدى إلى إعفائه من وظيفته التي كان يشغلها رئيسا لديوان كاتب الدولة في وزارة الأنباء والشبيبة، بسبب الرسالة المفتوحة التي وجهها لقداسة "البابا"، حبر الكاثوليك الأعظم، عبر فيها عن أفكاره، تطلعا إلى التحاور والتواصل والتعاون مع أية جهة حكومية أو دينية، في وقت كانت سياسة معظم القادة العرب والمسلمين تعتبر التواصل مع إسرائيل خيانة عظمى.

---

117 - أسبوعية السلام الإفريقي : يوم 20 يونيو 1963 .

نشرت له المقال بالفرنسية، جريدة ماروك انفورماسيون"[118] على عمود صفحتها "المنبر الحر" تحت عناوين:

" الجواب على يوحنا XXIII "
" السلام على الأرض"
" على المغرب أن يعطي المثل "

ثم نشرته له الجريدة الأسبوعية "السلام الإفريقي" في 17 مايو، بعد تعريبه، تحت عنوان:

" وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله "
" ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة "
" ترجمة المقال الذي قررت الحكومة على إثر نشره فصل كاتبه عن عمله "

وفي هذا لمقال أشار إلى البهائية قائلا:

" ... لقد جاء الوقت الذي ينبغي أن يتحقق فيه الوفاق، ويبلور فيه أمل السلم المحفوظ في اليهودية والمسيحية والإسلام، وأن ينصف الناس بهاء الله الذي نادى بالدين الوحيد ودعا إلى حكومة عالمية تنفيذية (وهذه الفكرة – يقول حجي- آمن بها الخطاب البابوي واقترحها **)"**

ويعرب فيه " السيد حجي " عن مطالبه:

" يجب على المغرب أن يعطي المثل، في هذا المجال، بأن يقوم بثلاث مبادرات على الأقل:
أولا) السراح العاجل للمحكوم عليهم في الناضور والمناداة بحرية الضمير على أن لا يحدها إلا احترام النظام ومنع كل عنف.
ثانيا) التخلي رسميا عن أية فكرة لغزو الصحراء أو موريتانيا والبحث بكل صدق عن نظام د اخلي لديموقراطية حقيقية وعدالة اجتماعية.
ثالثا) العمل من أجل التقارب بين العالم العربي وإسرائيل ... "

إثر ظهور المقال، صدر بلاغ رسمي يعلن أنه نظرا لنشر آراء واختيارات تتنافى مع المسؤوليات السياسية المفروضة على كاتب المقال كرئيس للديوان والتي لا تتفق مع سياسة الحكومة، فإن كاتب الدولة للأنباء والشبيبة والرياضة، قرر إقالة السيد "عبد السلام حجي" من مهامه...

***

قام الملك "الحسن الثاني" في بداية أبريل 1963، بأول زيارة ملكية للولايات المتحدة الأميركية، حيث استقبل في نيويورك بحفاوة وأقيمت على شرف جلالته حفلة غذاء فاخرة، ألقى أثناءها كلمة، أوردت جريدة "ماروك أنفورماسيون" بعض ما صرح فيها، تحت عنوان:

" ضيف شرف نادي الصحفيين الأميركيين "
" لست متفقا على الحكم بالإعدام على البهائيين "
" يصرح جلالة الملك "

---

118 - **"ماروك انفورماسيون" : في 14 أبريل .**

" ... لست شخصيا متفقا على الحكم على البهائيين بالإعدام في المغرب، إذا أكد الاستئناف الحكم الابتدائي، أستطيع القول إني سأستعمل حق العفو المخول لي "[119]

ومن أجوبته على أسئلة الصحفيين، قوله: إن دستور المغرب، الذي هو من أعظم المنجزات التي تحققت إثر توليه سدة الحكم، يسمح بحرية عقيدة الديانات الكتابية السماوية، لكن لا يمكن السماح للبهائيين بممارسة شعائرهم الدينية في الساحات العمومية مثلما لا تسمح سلطات "نيويورك" لشخص أن يسير عاريا في شوارعها.
غير أن أحد الصحفيين تساءل عما إذا كان مفهوم حرية العقيدة لا يتنافى مع تحديد الديانات التي يسمح لها بممارسة شعائرها وتلك التي تمنع من الممارسة، ومن له سلطة البتّ في ذلك؟ !.

لا شك أن مفهوم حرية العقيدة في الثقافة المنتشرة في دنيا الغرب يختلف عن الثقافة السائدة في دنيا العالم العربي الإسلامي، إذ بينما يرى الأولون حرية العقيدة عامة لا يحدها إلا القانون الوضعي المكتوب، يراها الآخرون محدودة بنصوص القرآن الكريم وتفاسير الفقهاء، علماء الدين.
وبما أنه لا توجد معايير ثابتة متعارف عليها في هذا الخصوص بين أهل الشرق والغرب، ولا متفق عليها بين فقهاء الدين الواحد، فإنه لا يمكن الجزم بأن حرية العقيدة المتوفرة لرعايا المغرب هي نفس حرية العقيدة التي تتوفر، على سبيل المثال، للمواطنين في الولايات المتحدة.

يبدو أن السؤال الذي طرح حول حرية العقيدة:

" هل لنا (معشر المغاربة) الحق في هذا البلد أن نعبد الله كما نريد أم لا ؟ "

والذي يمكن أن تتفرع عنه أسئلة أخرى عن:

حق المواطن المغربي الذي ولد مسلما في أن يستبدل دينه الذي ولد فيه بدين آخر؟

وعن حق حرية العقيدة للذي لم يولد مسلما من المغاربة، كاليهودي والمسيحي والبهائي؟

وهل هناك فرق بين الذين يبدلون الإسلام دينا و يكفرون به جملة وتفصيلا مثل المسلمين الذين تحولوا إلى اليهودية أو النصرانية، وبين الذين يبدلونه ويظلون يؤمنون به مثل المؤمنين بالبهائية ؟
ورغم أن المقالات المنشورة ألقت بعض النور على تلك التساؤلات وأجاب بعضها دون مداراة، عاكسة رأي بعض علماء المغرب الذين تصدوا للبهائية، في حرية العقيدة في الإسلام الذي عبروا عنه في جوابهم الواضح الذي لا غبار عليه في هذا التصريح:

" إن حرية الأديان معناها الحقيقي ومدلولها الواضح هو السماح لأصحاب الأديان السماوية بأداء شعائرهم الدينية "

فإن المعايير المعتمدة للفصل بين الأديان السماوية وبين غيرها ظلت غائبة، باستثناء معيار ورود ذكرها في القرآن، أما التي لم تذكر أسماؤها فيه من الديانات المنتشرة في العالم قديما أو حديثا مثل البهائية، فإنها في اعتبارهم ليست سماوية. وبالتالي لا تدخل في نطاق الأديان التي تشملها الحرية التي يُسمح لأتباعها بأداء شعائرهم الدينية.
بذلك صار من الواضح أن لا حق للمغربي المولود مسلما، أن يعبد الله كما يريد (خارج الإسلام)، وأن الحرية إذا كانت مكفولة، فهي للذين يدينون بالدين الرسمي للدولة أو بالأديان التي يعترف بها الإسلام

---

[119] - ماروك أنفورماسيون : 2 أبريل 1963 .

كاليهودية والنصرانية. أما أتباع البهائية فلا. ولا بأس من قتلهم على رأي الأستاذ الفقيه "الرحالي الفاروق" الذي كتب أن القتل في العالم عملة رائجة لا تستدعي إثارة الضجيج حولها.

وهكذا ظل التجاذب محتدما بين السماح بحرية العقيدة في المجتمع المغربي وبين منعها بقوة القانون وحكم (الردة). كل يدلي برأيه وحجته وتبريراته وعلله، في انتظار ما سيسفر عنه نظر المحكمة.

في خضم هذه الضجة الإعلامية الهائلة التي أحدثتها الأحكام القاسية، التي تعود إلى عدم دراسة الكتب البهائية والاطلاع على سلوك البهائيين، وإلى التعامل مع قضية سماوية باعتبارات وحسابات بشرية محضة، والتقدير الخاطئ من أنها من صنع الإنسان: الإنسان الشرير.

وتبين لي وسط هذا الصراع، أن من الناس من يدفعه الحب والإيمان الممزوج بالصبر والاتكال على الغيب المنيع إلى التضحية بنفسه، ومن الناس من تدفعهم الغيرة على الدين والتقاليد والسلطان والقدرة على الانتقام والتشفي إلى التضحية بغيرهم.

علما أن البهائيين ينشدون تحقيق الوحدة والاتحاد وينادون بوحدة الله والرسل والأديان التي تشكل مبدأ من مبادئ الدين البهائي الأساسية، كما أورد ذلك "بهاء الله" في أكثر ألواحه وصحفه و "عبد البهاء" من بعده في مكاتيبه وكذا خلفه "ولي أمر الله"، كما يشهد هذا النص المأخوذ من أحد تواقيعه التي توضح مكانة بهاء الله والبهائية بين الأديان في عقيدة البهائيين، والذي بعث به إلى المؤمنين في الغرب عام 1936:

" نعتبر بهاء الله رغم عظمة أمره، أنه من حيث الجوهر واحد من بين مظاهر الله الذين لا يمكن أن تتساوى ذواتهم مع الغيب المنيع ـ الذات الإلهية. وهذا هو أحد المعتقدات الأساسية في ديننا ـ وهي عقيدة لا يجب أن يكدر صفاؤها ولا ينبغي لأحد أتباعها أن يفرّط في أساسها ـ فالدين البهائي، وهو الذي جاء في واقعه وإعلانه تحقيقا للنبوات وإتماما لوعد كافة العصور، لا يرمي بأي حال إلى توهين المبادئ الأولية الخالدة التي تدعم الديانات السابقة، بل يعلن ويؤيد القوة الإلهية التي أمدتها، ويجعل هذا الإعلان أعظم ركن من أركانه، فهو يعتبر الأديان كافة نورا واحدا سطع في درجات مختلفة، في تاريخ تطور مستمر لدين إلهي أبدي واحد لا يتجزأ، وأنه نفسه ـ أي الدين البهائي ـ يكون مرحلة كاملة منه.
إنه منزه عن محاولة طمس حقيقة المصدر المقدس للأديان أو الإقلال من جاذبية آثارها العظيمة القدر، ولا يمكن أن يقر أية محاولة يراد بها تشويه مقاصدها وحقائقها أو الحط من قدر القواعد المدعمة لها، فتعاليمه لا تحيد قيد شعرة عن الحقائق الكامنة في الأديان، وعبء رسالته لا يحط ولا يقلل ذرة أو خردلة واحدة من قدر النفوذ الذي أحدثته تلك الأديان، أو روح الولاء التي أوحت به، وبينما هو أبعد ما يكون عن قصد هدم الأساس الروحي لنظم الديانات في العالم، إذا به يكشف عن مطلبه الصريح الذي لا يتغير ألا وهو توسيع قواعدها، وإحياء مبادئها، وتنسيق أهدافها، وبعث الحياة فيها، وإظهار المساواة بين وظائفها، والمساعدة في تحقيق أنبل غاياتها"[120]

ورغم النصوص البهائية المكتوبة الموثقة والمتكررة في أكثر من مناسبة التي تبين ما يؤمن به البهائيون، فإن خصوم البهائية لا يفتأون يتهمون أتباعها بأنهم أهل كفر وضلال، يؤمنون بالحلول ويؤلهون البشر في شخص "بهاء الله"، وهم إلى جانب ذلك يتهموننا بأذناب الاستعمار وعملاء الصهاينة، المستخفّين بالأنبياء والرسل المزدرين للكتب المقدسة المحاربين للأديان العاملين على هدم أماكنها المقدسة.

---

120 - **شوقي أفندي رباني : الكشف عن المدنية الإلهية .**

أحيانا يتهمون البهائية بالباطنية وأحيانا بالصهيونية وأخرى بالمسيحية وأحيانا لا يرون فيها سوى وسيلة من وسائل الفئات المعادية للإسلام، وفي تعاليمها مجرد خرافات وخزعبلات وهلم جرا ...

أما نحن البهائيون حديثو العهد بالإيمان، ضحايا فتنة "الناضور"، المتهمون المعتقلون المحاكمون والمدانون، نعجب ونندهش من كل ما يقال عنا وعن عقيدتنا. وليس بإمكاننا أن ندعي أننا من المثقفين المطلعين على ما يجري من الأمور في العالم الذي يحتوينا، خاصة وأننا لم تكن لدينا أية فرصة للاحتكاك بآراء المفكرين المتنورين من مواطنينا إلا ما كان منهم في مدينتنا البعيدة عن مراكز التيارات الفكرية.

وكان موقفنا من الإشاعات التي تثار حولنا هو استصغار شأنها على أساس أنها مجرد إشاعات كاذبة، لا أهمية لها لدى العارفين.

غير أني تيقنت من خطأ فهمي بخصوص الإشاعات التي يبثها الجاهلون بالبهائية في "الناضور"، في أنها لا تطال نزاهة المثقفين والعلماء العارفين. واندهشت اندهاشا ممزوجا بالحيرة، كما اندهش زملائي المعتقلون عندما أدركنا أن تلك الإشاعات يقول بها الماسكون بزمام المعرفة الدينية المسؤولون عن هداية الناس إلى الله رب العالمين. وتأكد لدينا أن أكابر القوم هم مصدر تلك الإشاعات الذين يتعمدون بثها ونشرها في الجرائد والكتب والعقول.

فتلاشت بذلك ثقتنا ببعض رجال الدين الذين يفترون علينا وعلى الناس، واتضح لنا بالملموس أن الفرق القائم بين هؤلاء وعامة أتباعهم سواء في ما يتعلق بالتمسك بالتقاليد أو الابتعاد عن قول الحق بخصوص الرسالة الإلهية الجديدة، إنما يتجلى في ثقل ما يحمله هؤلاء العلماء من أعباء المسؤولية. وتذكرت قول الله تعالى:

" وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا. استكبارا في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا " [121]

كما تذكرت الحديث النبوي الذي يستدل به بعض المفسرين في تفسير " **لتركبن طبقا عن طبق**" الواردة في سورة الانشقاق، والذي يروي أن رسول الله (ص) قال لجمع من أصحابه، يخبرهم عن أحوال المسلمين في المستقبل:

" لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى أنهم لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم. قيل: يارسول الله، اليهود والنصارى ؟ قال: فمن "

لم يكفّ "حزب الاستقلال" و "رابطة علماء الدين" عن العمل الجدي لتتبع البهائيين وترصدهم حيثما تنامى إليهم خبر وجودهم أو بدا لهم ظل خيالهم، محاولة منهم لقطع الطريق على تحريرنا، وصاروا ينشرون عنهم كل ما وصل إليهم من أخبار دون التأكد من صحتها. فأوقعهم عدم تحري الحقائق إلى نشر الخبر تارة وتكذيبه تارة أخرى، إذا ما أرغموا على التكذيب، ومن ذلك:

" جاءتنا رسالة من أحد أفاضل أهل العلم ... ينفي فيها ما جاء في مراسلة من فاس كنا نشرناها بالعدد 32 وقد اشتبه الأمر على صاحبها في حين أن الذين ظنهم بهائية هم رجال من أهل السنة المتمسكين بتعاليم الدين ... ولولا حدة في لهجتها مما لا يتوافق وطريقتنا في

---

[121] - **سورة فاطر : 42 و 43 .**

الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة لنشرناها مبتهجين بها. ومع ذلك فنحن نشكر كاتبها ونؤيد خطة أولئك الجماعة كثر الله من أمثالهم" [122]

أما "حزب الاستقلال" فكان كلما نزل مكروه بحزبه وأنصاره، رفع عقيرته صارخا يوجه أصابع الاتهام إلى البهائيين ليقحمهم في الموضوع، وينشر في جريدته ما يدين البهائيين ويدين من يتصدى للدفاع عنهم، ومنها ما نشر بمناسبة انعقاد الدورة السابعة لمجلس حزبه بعد فشله في الانتخابات النيابية:

" وإن الحكومة الحالية التي يسيرها أناس لا تهمهم مسائل التعريب ومغربة البرنامج (التعليمي) واشتماله على مناهج دينية صحيحة وقومية متينة. ومنهم من يسمح لنفسه بالدفاع عن البهائيين و..."[123]

*****

[122] - **الميثاق : 1 صفر 1383.**
[123] - **العلم : عدد 4998 .**

ب - رضوان 1963 والانتخابات البهائية العالمية.

تزامنـــــــــت فترة سجننا مع حدث هام على مستويين مختلفين، أحدهما وضعي على المستوى الوطني والآخر إلهي على المستوى العالمي.
يتعلق الأمر بالانتخابات التشريعية بالمغرب وانتخاب "بيت العدل الأعظم" الذي ما كان لاعتقالنا أن يؤثر عليه، بل زاد فعاليات البهائيين في العالم، تحفيزا وحماسا، مصداقا لما قال "بهاء الله" بأن الامتحانات التي يتعرض لها المؤمنون في سبيل الله، لا تزيد أمر الله إلا رواجا وانتشارا:

" قد جعل الله البلاء غادية لهذه الدسكرة الخضراء وذبالة لمصباحه الذي به أشرقت الأرض والسماء "[124]

يعلم البهائيون أن طبيعة نمو البهائية يتم عبر مراحل تعرف فيها فترات متعاقبة من الشدة لا تعرف الهزيمة، تمنحها زخما يدفع تطورها المستمر إلى الأمام ويجعلها تتقدم بسرعة أكبر نحو الأهداف المنشودة في المشروع الروحاني الذي أوشك أن يُتوّج بانتخاب "بيت العدل الأعظم"، المؤسسة البهائية العليا، التي وضع بهاء الله أساسها في "الكتاب الأقدس"،
لذلك كانت توقعات البهائيين كبيرة واستعداداتهم جارية من أجل الفوز بالمساهمة في الجهود الروحانية المبذولة على مدى السنوات العشر عبر العالم التي ستتوج بإقامة صرح بيت العدل الأعظم والاحتفال بالذكرى المئوية للإعلان عن رسالة بهاء الله.

أخذ زوارنا البهائيون للسجن يخبروننا مستبشرين بالحدث الأخير الذي سيحج إليه المؤمنون من مختلف جهات المعمور، ويستبق بريق عيونهم بشارات النصر التي سيعلن عنها وقت انعقاد المهرجان في " لندن" ما بين 28 أبريل و2 مايو 1963، إحياء لذكرى إعلان "بهاء الله" عن أمر الله في الحديقة التي سماها "بالرضوان" في بغداد العراق عام 1863.
وعندما عبّر أحد الأسرى عن تهنئته لأحد الزائرين بالحضور في ذلك الكونجرس العالمي. أجاب متأثرا:
"أفضل أن أدفع لك ثمن تذكرة السفر وتذهب مكاني بدلا عني، وآخذ مكانك في السجن". معبرا بذلك عن يقينه بأن: تحمل البلاء في سبيل الله أعظم من الحضور في أي مهرجان.
وفي الميقات المسمى استقطبت لندن آلاف البهائيين الوافدين من جميع القارات، كما أخبرت جريدة "سانداي تايماس" في اليوم الأول من الكونجرس، وذكرت صحيفة "دايلي تلغراف" في اليوم الثاني، أن ما يزيد على 6000 من أتباع الديانة البهائية قدموا من أكثر من 70 بلدا للحضور مدة خمسة أيام في الكونجرس بلندن لإحياء الذكرى البهائية المائوية. كما نشرت جريدة "ذي إيبيننغ نيوز" صورة ولدي "فؤاد الطحان" الصغيرين مشيرة إلى أن والدهما محكوم عليه بالإعدام في المغرب لإيمانه بالبهائية.
وفي اليوم الثالث، 30 أبريل، خصصت "ذي إيبيننغ نيوز" صفحتها الأولى والأخيرة لنشر صور البهائيين الحاضرين من مختلف الدول والأعراق تحت عناوين كبيرة:

" لقاء من كل جهات العالم في روايال ألبرت هول "
" الكونجرس البهائي المائوي "
" اجتمع الآلاف لإحياء ذكرى نشأة دينهم "

وقبل ذلك بقليل، واستجابة لدعوة "أيادي أمر الله" بناء على السلطة التي خولتها لهم مقتضيات "ألواح وصايا" "عبد البهاء"، قام 504 عضو في "المحافل الروحانية المركزية" المنتشرة آنذاك في 56 بلدا وإقليما

---

[124] - **بهاء الله : لوح السلطان ، ناصر الدين شاه .**

بواجب انتخاب تسعة مؤمنين من بين البهائيين المنتشرين في المعمور، ليكونوا أعضاء في مؤسسة " بيت العدل الأعظم".
وفي اليوم الثاني من أيام الرضوان، أبرق " أيادي أمر الله" هذه البشارة إلى العالم البهائي:

"... بقلوب طافحة بالشكر لحمايته المنيعة وأفضاله الغامرة، نزف بكل سرور لأحباء الشرق والغرب انتخاب الهيأة التشريعية العظمى..."[125]

وهكذا تحقق في الوجود ما كان مسطورا في "الكتاب الأقدس" وتكللت جهود البهائيين المتضافرة في الشرق والغرب بتأسيس بيت العدل الأعظم، الذي سيباشر المهام التي أناطها به واضعه.
وبذلك استطاع المجتمع البهائي أن يرسى عمليا النظام الإداري العالمي، ويبرهن رغم قلة أعداده على قدرته الخلاقة التي جسدت نموذج الرؤية المستقبلية للمدنية الجديدة، التي يمكن للواعين بحاجة الحكومات إلى إدارة تنتظم الشعوب، أن يجدوا فيه المبتغى المأمول، ويجد فيه سكان العالم الطامحون إلى مشاهدة نظام عالمي فاعل في المجتمع الإنساني، النموذج المنشود.

اشتعلت قلوب الحاضرين في الذكرى المئوية للإعلان عن الدين البهائي في "لندن"، حماسا وشوقا إلى زيارتنا في المغرب، بعد أن شاهدوا زوجة وولدي "فؤاد الطحان" في وسطهم وسمعوا أحد الصغيرين يتلو بصوته البريء:

" هل من مفرج غير الله قل سبحان الله هو الله كل عباد له وكل بأمره قائمون"

وسمعوا مناجاة مسجلة تلاها أحد المدانين بالسجن مدى الحياة القابعين في إحدى زنازين حي الإعدام بالمغرب.

وتمكنت فئة من هؤلاء المؤمنين الحاضرين في كونجرس لندن، المنتمين إلى جنسيات مختلفة: باكستانية وأمريكية وكندية ... من زيارتنا في سجن القنيطرة. منهم سيدة غربية، التمست من الحارس الواقف إلى جانبها، والدمع يسيل سخيا على خديها، أن يسمح لها بالدخول إلى موقف الأسرى حتى تتمكن من معانقتهم... رق الحارس لحالها وفتح لها، بعد تردد، باب السياج، فعانقت باكية كل واحد منهم، وبكوا لبكائها، كما بكى الحارس متأثرا بذلك المشهد الذي خلقته روح تلك المؤمنة الغربية.
علق الحارس على وضعية تلك السيدة قائلا: من عادة الغربيين عدم إظهار مشاعرهم واستنكافهم عن البكاء أمام الناس، وقال متوجها إلى الأسرى: أنتم لستم مساجين، أنتم ملوك.

***

لعله من المفيد التساؤل عن السبب الذي يجعل الانتخابات البهائية، وانتخاب بيت العدل الأعظم بالذات، على أهميته كأول انتخاب في تاريخ البشرية لمؤسسة مقدسة عالمية، يمر دون صخب وضجيج، وينتهي بالنجاح الذي لم يخامر فيه الشك بال أحد من البهائيين، خلاف ما يحدث في كثير من الانتخابات التي تجري في مختلف جهات العالم في جو حافل ساخن، تتعبأ فيها الجهود وتتكرس لها الإمكانيات وتتهيأ لها الاستعدادات وتشد إليها اهتمام الملاحظين والمراقبين وتشمّر وسائل الإعلام على سواعدها لتغطية وقائعها وأحداثها ومختلف أطوارها.

---

[125] - أيادي أمر الله : برقية مؤرخة في 22 أبريل 1963 .

إن الإشارة إلى الطريقة التي تجرى بها الانتخابات في العالم البهائي وإلى المسطرة التي تنظمها والهدف الذي ترمي إليه والجو الذي يسود فيها، قد يكون مثيرا لاهتمام المهتمين بالانتخابات بصفة عامة...

يتم جريانها في جو هادئ وفي ظروف خالية من الصخب، بعيدة عن العنف وعن الدعاية للأشخاص أو للوائح ذات الانتماء المعين أو غير ذات انتماء، وعن الترشيح من طرف أي شخص أو شريحة مجتمعية، كما تنأى عن نضال التنافس بين المترشحين من أجل الفوز في الانتخاب.
إن الناخبين في الانتخابات البهائية يمتنعون عن الإشارة المباشرة وغير المباشرة إلى الأشخاص الجديرين بثقة الناخبين وإلى كفاءاتهم وقدرتهم على أداء المهمة التي ستناط بهم. ويعتبرون ذلك من الدعاية المنهية عنها، المشوّشة على حرية الفرد في اختيار الأشخاص من أهل مجتمعه الذين يهديه التفكير والتدبّر والاجتهاد المتحرر من التأثيرات الخارجية إلى منح المستحقين منهم ثقته الجديرة بهم.

والبهائيون "أعضاء المحافل الروحانية المركزية" في كل بلد وإقليم، المنوطة بهم مسؤولية انتخاب أعضاء "بيت العدل الأعظم"، ينتخبهم بدورهم "الوكلاء" النائبون عن المؤمنين في مناطق كل بلد بنفس المسطرة وفي نفس الجو الهادئ الروحاني الرزين.
و هكذا يتجدد في كل سنة انتخاب أعضاء "المحافل الروحانية المركزية" و"المحلية"، بينما يتجدد انتخاب أعضاء "بيت العدل الأعظم" مرة في كل خمس سنوات.

تشرف كل مؤسسة بعد انتخابها في إطارها الجغرافي الإداري على تسيير شؤون أتباع الدين البهائي والعمل على صنع القرارات في بيئة اجتماعية تشاورية ودّية روحانية. لا مجال فيها للرئاسات والزعامات التى يمكن أن يفسدها الاعتزاز والاعتداد بالنفس، التي قد يركب الغرور أصحابها فيجنون على أنفسهم وعلى المعجبين بهم الناصرين لهم.

إنها انتخابات بعيدة عن المعارك الانتخابية، خالية من الدعاية والتطبيل والمنافسة والترشيح والمباهلة بين المرشحين.

تبتدئ وتنتهي دون أن تثير الانتباه غير اللازم أو تحدث ما يثير الاضطراب في المجتمع.

انتخابات تتمخض عنها مؤسسات تتآلف وتتعانق فيها الحرية الفردية وطاعة الأفراد للقرار الجماعي.

***

لم يكن "ملف حكم الناضور" في هذه الفترة من تاريخ المغرب، القضية الوحيدة التي تشغل بال حكومة المغرب، فقد كان في جدول أعمالها، إلى جانب مشاكل البطالة والأمية التي تواجهها البلاد، قضيتان في قلب مشاغلها التي يجب أن تجد لها حلا في أقرب الآجال:

- انتخاب أعضاء مجلسي البرلمان حتى يستكمل المغرب الجديد بناء النظام الديمقراطي بتوفير السلطة التشريعية للدولة التي تمكن ممثلي الشعب من التحكم في القوانين ومراقبة الحكومة، والذي لم يخل من معارضة سياسية داخلية، قضّت مضجع الحكومة.
- استكمال الاستقلال باسترجاع الأراضي المغربية على الحدود الترابية في شرق وجنوب المملكة، التي واجهت مصاعب مؤرقة مع الحكومة الجزائرية الحديثة العهد بالاستقلال.

عقب محاكمتنا في "الناضور" والاستفتاء على الدستور وخروج "حزب الاستقلال" من الحكومة في يناير 1963 ووقوفه في صف المعارضة إلى جانب "حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية" ـ الحزب اليساري الذي انشق عن حزب الاستقلال ـ أخذت الأحزاب تعد نفسها لخوض معركة الانتخابات التشريعية القادمة في شهر ماي من نفس العام والتي لم تحصل فيها أحزاب المعارضة: حزب "الاستقلال" وحزب "الاتحاد الوطني للقوات الشعبية" إلا على مجموع 69 مقعدا من أصل 144 في مجلس النواب، أي على نفس عدد

مقاعد حزب "جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية" (الحزب المحسوب على الحكومة) الذي لم يفز بدوره على أغلبية المقاعد في البرلمان التي توفر له النصاب لتشكيل الحكومة [126].

وبذلك لم تحصل الأحزاب الوطنية العتيدة، رغم رصيد تاريخها الوطني المتألق وقاعدتها الشعبية العريضة، على الأغلبية التي تضمن لها الدعم في مجلس النواب. كما لم تتمكن الأحزاب الجديدة غير المنحازة من الحصول إلا على مقاعد محدودة.

وكان للطعن في مصداقية الانتخابات النيابية واتهام إدارة الحكومة بالتزوير، والمواجهة الصريحة بين المعارضة والحكومة، عواقب أدت في يوليوز 1963 إلى إلقاء القبض على مناضلي "الاتحاد الوطني للقوات الشعبية... وإلى القبض على مناضلي "حزب الاستقلال" الذين ذكرتهم جريدته "العلم" بمناسبة انعقاد الدورة السابعة لمجلس الحزب، تحت عناوين بارزة:

" 5 آلاف استقلالي وضعتهم السلطات في السجن "

" حزب الاستقلال لا يعترف بمشروعية ما يصدر عن مؤسسات غير مشروعة"

وأكد على عدد المعتقلين عندما ذكر حملة الحكومة على اعتقال مناضلي "حزب الاستقلال" إبان حملة الانتخابات التشريعية، قائلا:

"... حتى أنه يمكننا أن نؤكد، أن الذين اعتقلوا من حزب الاستقلال وحده تجاوز الخمسة آلاف من المواطنين أطلق عديد منهم ولا يزال الباقون رهن السجون "[127].

وفي نونبر 1963، عين الملك "الحسن الثاني" الحاج "محمد باحنيني" رئيسا للحكومة التي صدر في عهدها الحكم النهائي علينا.

***

خلفت المرحلة الاستعمارية عددا من المشاكل تتعلق بالحدود الإدارية للبلدان التي خضعت لسيطرتها، فقد قسمت الإرادة الأجنبية المغرب إلى ثلاثة أقسام، بمقتضى معاهدة الحماية:
"الشمال" تحت سلطة الأسبان، و"طنجة" تحت الإشراف الدولي، و"الجنوب" تحت حكم فرنسا، تاركة الحدود الصحراوية التي لم تكن ذات شأن قبل ظهور مخزون ثرواتها المعدنية والطاقية، مطمعا للتوسع الفرنسي والاسباني.

وعندما تحقق الاستقلال لم يتم الحسم في الحدود الصحراوية شرق وجنوب المغرب، وظلت حدود المغرب المستقل موضوع خلاف بين القوى السياسية الوطنية المغربية. وأجلت السلطة الحاكمة في المغرب مسألة النظر في تراب الحدود الفاصلة بين المغرب والجزائر إلى ما بعد انتهاء حرب الجزائر واستقلالها، عازفة عن التفاوض مع فرنسا رافضة:

" الاقتراح الذي جاءت به فرنسا في أبريل 1957 لحل النزاع الترابي بين المملكة والجزائر التي كانت إقليما فرنسيا آنذاك "[128]

---

126 - مذكرات من التراث المغربي : الجزء السابع : تأليف مجموعة من المؤلفين .

127 - جريدة العلم : عدد .4998 .

128 - **مذكرات من التراث المغربي . في ركاب الأمم : مجموعة من المؤلفين .**

مؤثرة التفاوض مع "الحكومة الجزائرية المؤقتة" في المنفى التي وقع رئيسها مع ملك المغرب معاهدة "فاس" في 6 يوليوز 1961 التي تؤكد على:

" الدعم المغربي اللامشروط لنضال الشعب الجزائري ومساندته للحكومة الجزائرية المؤقتة في مفاوضاتها مع فرنسا على أساس الوحدة الترابية الجزائرية ". واعترف القادة الجزائريون بدورهم بوجود مشكل ترابي بين البلدين حيث تم وضع الحدود بصفة غير عادلة من طرف فرنسا نتج عنه حيف ضد المغرب. ويضيف الاتفاق بأن هذا المشكل سيوجد له حل بعد استقلال الجزائر " في جو من الإخاء وفي إطار المغرب العربي الكبير"[129].

وفي 1963، السنة الموالية لاستقلال الجزائر، وبينما نحن قابعون في زنازيننا ننتظر ما سيسفر عنه استئناف الحكم أمام المجلس الأعلى للقضاء، حدثت اشتباكات عسكرية في ما يعرف بحرب "الرمال"، التي قال عنها الملك "الحسن الثاني":

" إن أحداث خريف 1963 التي ذهب ضحيتها الكثيرون حالت دون إجراء مناقشة صريحة ونزيهة. لقد أوقفت المعارك، لأن الحكمة كانت تقتضي ذلك. فلم يكن ثمة مبرر معقول لمواصلة تلك الحرب غير المعقولة "[130]

هذه الأحداث التي اصطدمت فيها قوات الجارين، وتعالت فيها حرب كلامية لاذعة، تمخضت عنها خسائر وقتلى في الطرفين المتنازعين؛ وتعكّر صفو العلاقات السياسية بين الأخوين المتعاونين بالأمس على التحرر من الاستعمار؛ وامتدت تداعياته إلى انتهاج مسلك الحذر والحيطة من الآخر؛ وأدت إلى تعطيل مسيرة تحقيق "اتحاد المغرب العربي" المرتقب؛ وإلى إفساد العلاقة ما بين المغرب ومصر "الناصرية" و قطع العلاقات الدبلوماسية معها بسبب تورط طيرانها الحربي في هذه الحرب، كما نص على ذلك ملك المغرب في مذكراته:

" الجمهورية العربية المتحدة ساهمت إلى جانب الجزائر في "حرب الرمال" حيث تم القبض على ضباط مصريين خلال هذه الحرب "[131]

إن هذه المشاغل الداخلية والخارجية امتصت الكثير من الجهود، وبدا إنهاء ما تثيره المسألة البهائية من اهتمام في الداخل وانفعالات بالخارج وإسكات الأصوات المتعارضة المتباينة حولها، وإقناع الرأي العام العالمي القلق المتسائل عن مصير القيم الديمقراطية والليبرالية، ضروريا للبرهنة على أن سياسة المغرب رشيدة في قضايا القيم الإنسانية المشتركة.

على أن تعامل المغرب عموديا مع العالم الغربي من جهة، وانفتاحه أفقيا على العالم العربي الإسلامي من جهة أخرى، وضعه في عالم يتصارع فيه قطبان جاذبان تتعارض فيه إيديولوجيتهما، المتأرجحة بين مراعاة تأثير الدين الرسمي لدول الشرق الإسلامية وبين علمانية الدول الغربية التي تؤمن بالدولة المدنية الديمقراطية التي لا تخضع لتأثيرات السلطة الدينية.

---

[129] - **نفس المرجع السابق .**

[130] - الحسن الثاني : ذاكرة ملك .

[131] - مذكرات من التراث المغربي . في ركاب الأمم : مجموعة من المؤلفين .

وبقدر ما تبنى مسؤولوا "حزب الاستقلال" المنظور الأفقي المتجه نحو العالم العربي والإسلامي دونما رفض من بقية التيارات السياسية الفاعلة في المغرب، فإن المؤسسة الملكية وارتباط مصالحها بالعالم الغربي وتعاونها الوثيق مع دول أوربا، والتأثر الكبير بالثقافة والتكوين القانوني الفرنسي، لجل رجال القانون بالمغرب وعلى رأسهم الملك "الحسن الثاني"، جعل حكومة المغرب ترجح النظر في محتويات الملف البهائي المعروض على محاكم البلاد وفق المنهج القانوني المحض حسب ما هو منصوص عليه في القانون المغربي، حتى يمكن التخلص منه ومن مضاعفاته السلبية، بكيفية مشرّفة تحفظ سمعة سياسة المغرب في علاقاته الخارجية.

***

واظب "بيت العدل الأعظم"، منذ أن تأسس في 21 أبريل 1963، على بعث البيانات للبهائيين في العالم، يخبرهم بالتطورات الطارئة على ملف قضية "الناضور"، ويوجّههم عند الاقتضاء، إلى ما ينبغي عمله. ومنها البشارة التي زفها بيت العدل الأعظم إلى البهائيين في العالم، بمناسبة القرار الذي اتخذته السلطة القضائية المغربية في شهر أكتوبر بمنح السراح المؤقت للسيد "محمد معنان" المعتقل لنفس الأسباب وبنفس التهم في مدينة "طنجة". وذلك في رسالته المؤرخة في 17 اكتوبر 1963، يدعوهم إلى الدعاء لنا في:

" ضيافة شهر القول 23 نونبر من أجل أن يُتخذ إجراء لصالح هؤلاء الأحباء الأوفياء الثابتين الذين ألهم صبرهم في سبيل ديننا، البهائيين في كل مكان. إن المؤمنين في مركز الأمر سينضمون إليكم في الدعاء في المقامات المقدسة من أجل أحبائنا المغاربة ".

أجل، تم تسريح "محمد معنان" رغم استئناف النائب العام، بفضل الجهود التي بذلتها "لجنة الشؤون القانونية" بناء على عدم وجود أي إثبات إدانة في الملف ... ما عدا جريمة كونه بهائي ...

ومقابل ذلك، أفاد بيت العدل الأعظم أن توصية قدّمت مؤخرا بإحداث تغيير في القانون المغربي، يعاقب بالسجن لمدة قد تبلغ ثلاث سنوات كل من أكره المسلمين أو أغواهم لتغيير دينهم.

وبحكم أن هذا القانون لا يمكن أن يكون له أثر رجعي، فإن هذا التغيير لن يسري علينا نحن البهائيين المسجونين، كما أن النتيجة التي آلت إليها قضية "طنجة" سيكون لها الأثر الإيجابي على قضية المعتقلين في حي الإعدام لما يؤشر إليه حكم الناضور من إجحاف في القناعات وقسوة العقوبات.

والأرجح أن الملك ومستشاره السيد "جديرة" اللذين هما من رجال القانون، رجّحا، بخصوص الملف البهائي، تحكيم القانون الذي لا يمكن إلا أن يعمل على تعزيز الدولة والسلطة معا.

وعلى الحكومة في هذا المجال أن تعطي المثال في احترام القانون حتى يكون حجة لها في إلزام المحكومين باحترامه.

إن قاعدة تفعيل القانون الذي هو أساس بناء الدول وقوام مشروعية الحكم، هو ما ترجّح لدى القضاة في "المجلس الأعلى" الذين آلوا على أنفسهم أن لا يحيدوا عن الالتزام به. ومن ثم البتّ في الملف البهائي وفق ما تقتضيه بنوده التي لا تعاقب إلا المخالفين لمقتضياته.

وبحكم أن الدستور ينص على أن:

" القانون أسمى تعبير عن إرادة الأمة ويجب على الجميع الامتثال له ... وأن جميع المغاربة سواء أمام القانون "

فقد تعامل " المجلس الأعلى للقضاء" مع قضيتنا وفق الدستور الذي يمنع القبض أو حبس أو معاقبة أحد إلا في الأحوال وحسب الإجراءات المنصوص عليها في القانون ...

وبما أننا في النهاية أفراد من المجتمع المغربي في حماية الدولة التي تضمن لكل فرد حرية ممارسة شؤونه الدينية. فما على القضاء المستقل عن السلطتين التشريعية والتنفيذية إلا أن يحترم الدستور ويصدر حكما منسجما مع نصوصه.

وبحكم أن ملفنا فارغ من أي دليل يثبت اقترافنا لأية جريمة، وبحكم أن الدستور ينص على عدم الحد من ممارسة الحريات إلا بمقتضى القانون، وبحكم أن القانون كان خاليا من أية مادة يمكن أن تطالنا بسبب عقيدتنا، فإن النهاية الحتمية لملف "قضية الناضور" أصبحت للمتتبعين الجدّيين أكثر وضوحا.

وفي اليوم الحادي عشر من ديسمبر 1963 أي بعد سنة ويوم واحد من بداية محاكمتنا في الناضور:

" قضى المجلس الأعلى بنقض وإبطال الحكم الصادر عن محكمة الجنايات لإقليم الناضور بتاريخ 14 دجنبر 1962 ... "[132]

وذلك بعد النظر في التقارير؛ وإيضاحات المحامين؛ وملاحظات السيد وكيل الدولة العام؛ وبعد المداولة طبقا للقانون؛ وضم طلبات المدانين بسبب اتحاد المتابعات والمذكرات المتماثلة في شأن وسائل النقض؛ ... والإشارة إلى ما اعتمده الحكم المطعون فيه، من أن:

" الدولة تقوم بالمحافظة على وحدة الأمة ومقاومة كل ما من شأنه أن يفرق المجموعة الوطنية "[133]

والتعقيب عليه بالمبدأ الصريح الذي تضمنه القانون الجنائي:

" لا جريمة ولا عقوبة إلا بمقتضى قانون سابق " [134].

وبعد ذكر ما تمّ مؤاخذتنا عليه من جنايات وجنح:

- الفتنة وتكوين عصابة إجرامية
- الحيلولة العمدية دون القيام بشعائر دينية
- إدارة ممتلكات لجمعية غير مصرح بها.

وما أورده البيان من أخطار البهائية على الوحدة الدينية في البلاد؛ وما قد يترتب عن انتحاله من تفرقة بين أفراد المجموعة الوطنية.

والتصريح:

" بثبوت اعتناق المتهمين للبهائية. وبذلك مسوا بوحدة الأمة واعتدوا على المواطنين المسلمين في دينهم ومعتقداتهم "[135]

---

132 ـ نسخة من أصل الحكم المحفوظ بمكتب الضبط للمجلس الأعلى .
133 ـ نفس المرجع السابق .
134 ـ **نفس المرجع السابق .**
135 ـ **نفس المرجع السابق .**

وبعد ذكر المستندات المحجوزة عندهم:

" وهي كتب في العقيدة البهائية؛ وسلسلة مناجاة؛ ومذكرتان خاصتان بالتقويم البهائي؛ مع دفتر يحتوي على النظم الأساسية للحركة؛ وتوصيلا بدفع مبالغ مالية؛ وأوراق مختلفة، تكوّن دلائل قوية على ربط المتهمين اتصالات في الداخل والخارج؛ ونشر الدعوة البهائية؛ والعمل على تحقيق أهدافها؛ وتمويل مشاريعها.
كل ذلك دون التنصيص على أي عمل مادي اقترفه (المتهمون) أو وقعت محاولة اقترافه، يمكن أن يشكل:
إما اعتداء الغاية منه القضاء على الحكومة؛ أو إقامة أخرى مقامها؛ وإما اتفاقا يرمي من ورائه إنجاز مثل ذلك الاعتداء أو غيره من الاعتداءات على الأشخاص أو الأموال؛ وإما حيلولة عمدية دون إقامة إحدى الشعائر الدينية؛ وإما إدارة ممتلكات لجمعية غير مصرح بها.
فإن اعتناق المذهب البهائي، ونشر الدعوة إليه، وتمويل مشاريعه، مهما كانت شناعة ذلك وخطورته على العقيدة الإسلامية السمحة التي هي دين الدولة الرسمي أو على الديانات الكتابية الأخرى، لا يمكن أن يكوّن الجنايتين ... ولا الجنحتين ... "

وعلاوة على ذلك، حيث أن ما أتاه المتهمون من أعمال حسب ما هو وارد في الحكم لا يقع تحت طائلة أي نص صريح من التشريع الجنائي المغربي الحديث الذي يسهر المجلس الأعلى على سلامة تطبيقه.فإن الحكم المطعون فيه قد خالف إذن مبدأ "لا جريمة ولا عقوبة إلا بمقتضى القانون"

... فوجب بالتالي نقضه وإبطاله دون إحالة، إذ لم يبق من موضوع النازلة ما يستدعي البت فيه..."

من أجله:

قضى المجلس الأعلى بنقض وإبطال الحكم الصادر عن محكمة الجنايات لإقليم الناضور بتاريخ 14 دجنبر 1962 في حق الكبداني محمد محمد علي؛ بوعرفة معنان محمد؛ فؤاد محمد جواد الطحان؛ عبد العزيز محمد عبد الله الورياشي؛ الجباري محمد حسن؛ عبد السلام الحاج سالم السبتي؛ محمد محمد سعيد البقالي؛ محمد أحمد السبتي؛ عبد السلام ميلود الشكري. وذلك دون إحالة ...

كما يأمر بالإفراج عن المسمّين أعلاه حالا، ما لم يكونوا معتقلين من أجل سبب آخر..."[136]

***

لم نكن على علم بهذه الأحداث الجارية في مبنى "المجلس الأعلى للقضاء" الذي كان يقرر مصيرنا ومصير حرية العقيدة في المغرب، ونحن قابعين في زنازيننا تؤانسنا وحدتنا مستسلمين لقدرنا مستبشرين مبتهجين بمظاهر المحبة والتآزر التي يبديها المؤمنون الزوار لنا.

لم نكن نعلم أن يد القدرة آخذة في إزاحة الستار عن ما يخفيه لنا المكنون وأن ليل الغيب ينقشع قتامه ويفسح المجال لإشراقة وجه الصبح مضيئا في الغد القريب، وأن روح القوة تلهم الهيئة القضائية التمسك بمبدأ "

---

136 - **نفس المرجع السابق** .

ما بني على أساس باطل فبناؤه باطل " و تهدّ بمعول القانون صرح اعتقالنا المشيد على أسس واهية باطلة وتهم جنائية وجنحية مفتعلة قائمة على ما ادعاه باطلا الرجال النافذون من أن البهائية والبهائيين:

خصوم الإسلام وأعداؤه؛ ووسيلة من وسائل فئات الصليبيين والصهيونيين والمبشرين المسيحيين المعادية للإسلام الذين يستدرجون المسلمين بمثل البهائية لترك دينهم؛ وينشرون المبادئ الهدامة بين المسلمين باسم الأخوة الإنسانية ومحبة البشر بعضهم لبعض والسلام العالمي ليفسحوا المجال لتحقيق مطامعهم في السيطرة على بلاد الإسلام والتمكين لدولة إسرائيل؛ وتوزيع المبالغ الطائلة على هذه الصحيفة وتلك وعلى هذا الكاتب وذاك لمحاربة الإسلام؛ وتفكيك الروابط ؛ وتضليل العقول؛ وخلق الفوضى؛ والفساد في الأرض؛ وتشكيك المسلمين في قيمهم ومعانيهم وعقائدهم.

لقد ضرب حكم "المجلس الأعلى للقضاء" بكل هذه الافتراءات التي قيلت عن البهائية في الصفر، ليتضح أن البناء الشامخ الذي شيدته ظنون خصوم البهائيين على أرض الواقع، لم يكن إلا بناء من الرمل عندما وقع على الأرض.

***

كنا نحن الذين يعنينا الأمر مباشرة، نرهف السمع إلى كل ما يقال عنا، نحاول التمييز والفصل بين الحق والباطل في ما نسب إلينا حتى نعرف الدوافع التي تجعل البعض يفترون علينا.

ومن ذلك ما نشره أحد علماء الدين من أن الذين وشوا بنا حتى يلقى القبض علينا متلبسين، هم أهلنا... ونحن نعلم تمام العلم، أن ذلك محض افتراء، أملته الظنون والأوهام. ونستغرب من عالم دين، يفترض فيه التمسك بقيمه، أن يجيز لنفسه التصريح بمثل ذلك البيان الرخيص، ويخاطر بمصداقيته التي تنعكس على غيره من زملائه في الميدان ... ثم كيف يلقى ربه يوم الحساب.

والمؤكد أن العلماء إذا كانت لديهم مراجع تزودهم بالمعلومات والأخبار، فإن هذه المصادر غير موثوق بها في مسألة البهائيين. أما إذا كانت تصريحاتهم قائمة على معتقداتهم الشخصية ومعارفهم الدينية فذلك شأن آخر.

وعلى الرغم من أن التهم الموجهة إلينا لا يقوم عليها أي دليل أو قرينة، فإنها قادرة على التضليل وإثارة مشاعر الحقد والكراهية واستنفار الناس وزرع الغل في القلوب والعقول الغافلة.

وإذا كان ما يشيعونه عن البهائية له مثل هذا التأثير الكبير على العموم، فلم يكن لها أي أثر على زعزعة قناعتنا أو تفعيل الشك حتى في نفوس المبتدئين منا، بل لم يزدنا الافتراء علينا إلا يقينا ورسوخا في عقيدتنا، ومزيدا من الارتياب وزحزحة الثقة في التصريحات التي لا تتوخى الصدق في التحري.

أما القول بالحلول وادعاء الألوهية من طرف "بهاء الله" وما إلى ذلك من التهم المنسوبة لهياكل الدين البهائي المقدسة، فذلك ما لا يفهمه كل منصف عارف مطلع على الآثار المكتوبة الوافرة التي تركها بهاء الله رهن إشارة الراغبين في الاطلاع عليها.

*****

ج - الخبر المفاجـــأة.

فـــي اليوم 12 من شهر ديسمبر 1963، تحرك مزلاج باب الزنزانة الحديدي استعدادا لتقديم فطور الصباح للمساجين حسب العادة المرعية. فتح الحارس المناوب النويفذة في الباب الحديدي يطلب مني أن أقترب منه...
أرخيت أذني وأرهفت السمع أنصت إلى الحارس، الذي أخبرني هامسا، أن المحكمة قد أصدرت الحكم علينا جميعا بالبراءة، وعلينا أن نستعد للخروج من السجن. تلقيت الخبر مشدوها، لا أدري هل أصدقه أم أعتبره جزءا من المزاج الطيب الذي أراد أن يبدأ به الحارس عمله اليومي بإدخال بعض الأمل على المساجين.
انطلق الحارس مسرعا يتابع تحريك مزاليج أبواب الزنازين كعادته دون أن يمكنني من أن أسأله عما إذا كان ما قاله هزلا أم جدّا.
عدت إلى مكاني وجلست دون أن يستقر لي الجلوس ووقفت لأجلس من جديد، ومشاعر الابتهاج الممتزجة بالارتياب المتسارعة في تناوبها، تلاعبني وتحاصرني دون أن أستقر على حال ثابت. وحدثتني نفسي أن أنادي على زميلي أسرّب لهما الخبر، لكنني تمهّلت خشية أن تكون البشارة مجرد مزحة لا تستحق الترويج.
انتظرت على نار القلق حتى حضر وقت الخروج إلى الساحة حيث اللقاء بين الثلاثة، لأتأكد من أن الحارس أخبرهما بنفس الخبر الذي سمعه في الإذاعة وتناقلته الصحافة.
لم نتأكد تماما مما سمعناه إلا عندما ألقى لنا بالخبر زملاؤنا المحكومون بالمؤبد، وهم عائدون من زيارة أحد البهائيين لهم. فتوقعنا في كل لحظة أن يفتح باب الزنزانة علينا للمرة الأخيرة، دون جدوى.
تعاقبت ساعات اليوم متثائبة، أثقل من الساعات العادية دون أن يبدو ما يدل على إطلاق سراحنا، وبدأ الشك يتسرب إلى نفوسنا في سبب الاحتفاظ بنا في السجن بعد مرور يومين على الحكم بتبرئتنا.

- ألا يحتمل أن تكون السلطات قد تراجعت عن قرارها وارتأت الإبقاء علينا رهن الاعتقال؟
- أفلا يكون الخصوم قد استأنفوا بدورهم ضد حكم تبرئتنا، فتوقف تنفيذ الحكم؟

حدثتني نفسي أن كل شيء ممكن، ومن الخير لي عدم المبالغة في التفاؤل حتى لا تكون خيبة الأمل المحتملة أليمة أكثر من اللازم.
أبدى بعض الحراس ابتهاجهم بإطلاق سراحنا وقدّموا لنا تهانئهم، فاستفسرناهم عن السبب في تأخير خروجنا من السجن، فكان جوابهم أن الإجراءات الإدارية تتطلب بعض الوقت حتى تستوفي كل مراحل المسلك التي تمر بها.
وفي اليوم 13 بعد الزوال، أُستدعينا إلى مخزن السجن حيث تسلمنا أمتعتنا وملابسنا الشخصية، التي انتزعت منا يوم وصولنا إلى السجن المركزي "بالقنيطرة"، كما سلمت لنا شهادة الخروج من السجن.

قطعنا راجلين مسافة الساحة المؤدية إلى الباب الكبير المهيب الذي دخلنا منه في نفس الشهر منذ عام، في جوف شاحنة صغيرة مغلقة، مكبلين بالأصفاد وقلوبنا المنكسرة المنهزمة تحمل أجساما منهكة يدفع بنا القضاء دفعا إلى هاوية الضياع، وقد انقطعت بنا كل خيوط الأمل والرجاء إلا من حبل الله المتين الذي زاد تشبثنا به تشبث الغريق بالخشبة الوحيدة الطافية التي تتقاذفها الأمواج العاتية.

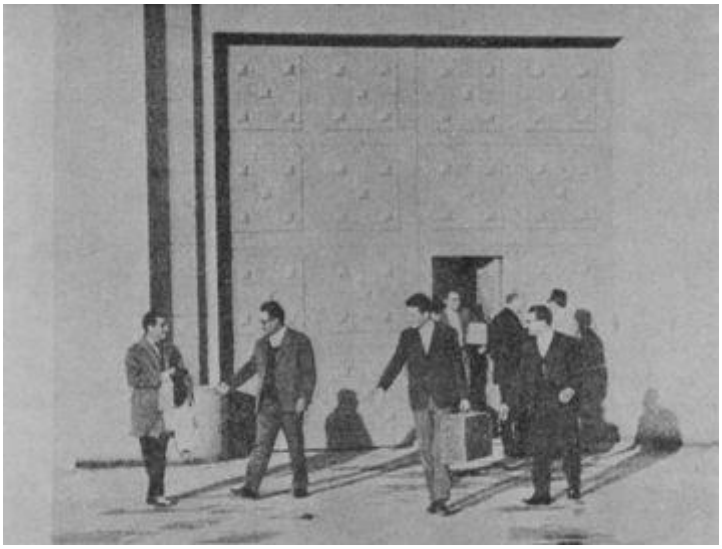

الخروج من السجن المركزي في 13 دجنبر 1963

ها نحن اليوم نخرج مشيا على أرجلنا، وقلوبنا طافحة بالشكر ونفوسنا منشرحة تعكس على وجوهنا ابتسامة الابتهاج وعيوننا تتوهج لامعة بأضواء الفرح والأمل.
فتح الباب الصغير في باب السجن الكبير لنخرج منه أحرارا، واحدا بعد آخر، كما دخلنا أول مرة إلى حظيرة الإيمان، بفضل العناية الإلهية التي أخرجتنا من سجن البلاء ومتاهات الصراع السياسي كما تخرج الشعرة الدقيقة من العجين، لنعانق فضاء الحرية الفسيح البهيج وصدور الأحباء القلائل المنتظرين، منذ ساعات، خارج أسوار السجن المنيعة، على أحر من الجمر، ينتظرون لقاءنا بحبهم الكبير الذي يسع الناس أجمعين، مشتاقين إلى معانقتنا وقيادتنا في هدوء دون صخب أو إلفات أنظار الفضوليين إلى منزل أحد المؤمنين بنفس المدينة، للترحيب بنا، ثم نقلنا إلى المدن المجاورة حيث يتم استقبالنا من طرف الأسر البهائية لتهنئتنا من طرف عموم المؤمنين.

وبصحبة اثنين من زملائي المسرحين، كنت أقطع الطريق الفاصلة بين مدينة السجن المركزي وعاصمة المملكة في سيارة أحد البهائيين، وعيوني تلتهم المناظر الخلابة التي تستعرض روعتها على أنظارنا أثناء مرورنا، فيثير سحر جمالها في كياني من الاندهاش والانبهار والحبور ما جعلني ألتفت ذات اليمين وذات اليسار حتى تستمتع لهفتي بكل منظر من مناظر بلدي الجميل الوافر العطاء.
مررنا على الجسر الرابط بين عدوتي "سلا" و"الرباط" بعد الغروب، والمصابيح الكهربائية تعكس أنوارها المتلألئة المتراقصة على صفحة نهر "أبي رقراق"، مثل تراقص نبضات قلبي في صدري السعيد الذي يحيّي فرحا كل المشاهد ابتهاجا بمظاهر الطبيعة والحياة، فألقيت التحية على النهر أداعبه:

رقرق يا رقراق قد جاءك المشتاق

توقفت السيارة "بالرباط" في زنقة تيفلت عند باب "فيلا"، دخلنا منه وتراءت لي سيدة البيت " ثريا هانم " حرم السيد " شوقي رياض روحاني " واقفة عند مدخل المنزل. وما أن وقع نظرها علينا حتى جثت على ركبتيها ساجدة، لدرجة أني سمعت دوي لمسة جبهتها عندما لمست عتبة الباب وهي تكرّر أكثر من مرة: الحمد لله. الشكر لله.

تنفس البهائيون الصعداء في المغرب، وعادت إليهم الثقة في قادة بلدهم السياسيين وقضاتها العادلين بما أنصفوا قضيتهم بعد أن كان اليأس من إنصافهم قد اتخذ له مكانا هاما في تقديرهم، وعادت فعالياتهم الروحانية إلى حياتهم العادية.

ولم يفت المؤمنون أن يعبروا عن فرحتهم وابتهاجهم بتحريرنا، ويظهروا غاية الكرم والمحبة والتقدير لنا، لما تحملنا السجن بالنيابة عنهم، وأقاموا جلسات تكريم في كثير من مدن المملكة حيث فسحوا لنا مجال سرد الأحداث التي مرت بنا والتعبير عن مشاعرنا وانطباعاتنا الشخصية.

انقلبت أحوالنا من ذلة السجن والمهانة إلى العزة بين جموع المؤمنين، ومن نقمة الناس منا إلى رحمة الله بنا ومن ظلام الزنازين إلى نور الحرية. وتبدل حزننا بالسرور وكآبتنا بالفرح والحبور.

***

تسابقت الجرائد في الداخل والخارج إلى نشر قرار المجلس الأعلى، دون تعليق كبير. ومنها جريدة "لا فيجي ماروكان" الصادرة بالفرنسية يوم 11 ديسمبر، التي نشرت تحت عنوان:

" قضية البهائيين في الرباط أمام المجلس الأعلى الذي ينظر اليوم في استئناف الدفاع ".

وتابعت في اليوم الموالي نشر مقال تحت عناوين:

" قضية البهائيين أمام المجلس الأعلى "
" إلغاء الحكم دون إحالة "
" أطلق سراح المدانين "

جاء فيه:

" أمس على الساعة 17 و 45د أعلنت الغرفة الجنائية للمجلس الأعلى برئاسة الرئيس الأول السيد الحمياني إلغاء حكم محكمة الناضور الإقليمية دون إحالة "

أما جريدة "ماروك أنفورماسيون" التي تتبّعت الموضوع منذ البداية، فقد عنوت مقالها المنشور يوم 12 ديسمبر 1963:

" انتصار العدالة في المغرب "
" البهائيون المدانون بالإعدام سيسرحون في الأيام القادمة "
" المجلس الأعلى ألغى حكم محكمة الناضور دون إحالة "

ومما جاء فيه:

" ... وبهذا الحكم الصادر عشية يوم الأربعاء ألغيت الأحكام الصارخة التعارض مع بعض مبادئ دستورنا الأساسية. أحكام في نظر الأجنبي تضع المغرب في خانة عدم التسامح الديني والتعصب جدير بزمان آخر.

في الرباط من القضاة (والشهادة لله) يفتخر بهم كل إنسان مشبع بروح الحرية في المغرب أو في غيره .
إن قضاة المجلس الأعلى، سواء تعلق الأمر بالنائب العام السيد زروق أو المستشارين في الغرفة الجنائية قد ذكروا فعلا أنه لا يمكن إصدار أية عقوبة إذا لم ينص عليها القانون. إنه مبدأ قانوني أساسي. والمجلس الأعلى لم يقم بأكثر من الرجوع إليه واستلهام الحكم منه ".

أما الجامعة البهائية في المغرب فكانت تنتظر ردود أفعال قوية من طرف الخصوم ضد هذا الحكم المنصف، وتتوقع من علماء الدين أن يحرضوا العامة ضد البهائيين. غير أن شيئا من هذا لم يحدث، وكأن الجميع سكنتهم رغبة مشتركة في طي ملف البهائيين في إضبارة النسيان، كأنما القضية كانت ولم تكن.
ولعل الخصوم بدورهم، كانوا يتربصون بالبهائيين معتقدين أن الحكم الذي برّأهم، سيستدرجهم إلى أن يتخذوا منه ذريعة لإشهار دينهم والصدع بدعوتهم، فيتخذون منه مبررا لمحاربتهم.

وقد عبرت جريدة "الميثاق" خصيم البهائيين المعلن عن رد فعل علماء الدين وموقفهم في أول شعبان 1383هـ ، بعد مرور عدة أيام، تحت عنوان :

" المجلس الأعلى يلغي حكم محكمة الناضور على البهائيين "

قالت فيه:

" أخبرت الإذاعة الوطنية في الأسبوع المنصرم أن المجلس الأعلى للقضاء ألغى الحكم الذي كانت محكمة الناضور أصدرته على البهائيين في أول هذه السنة. ولم يبين الخبر ما إذا كانت القضية ألغيت تماما أم أنها قد أعيدت إلى المحكمة للنظر فيها من جديد.
وقد كان لهذا الخبر وقع سيئ في نفس الشعب المغربي المسلم وكتب إلينا الذين يؤلمهم أن تنتصر البهائية على الإسلام في عقر داره، يقترحون القيام برد فعل قوي ودعوة جميع من لهم غيرة دينية من علماء وغيرهم إلى عقد مؤتمر عام للنظر في عواقب هذه القضية ...
ونحن نقول: إن العلماء قد قالوا كلمتهم في قضية البهائية بكل صراحة، ولم يكلفهم الشرع بأكثر من ذلك، بقي الانتصار لهذه الكلمة، وهم وسائر أفراد الشعب فيه سواء.
على أن الأنظار الآن تتجه إلى نواب الأمة في البرلمان ليثيروا هذه القضية ويستجوبوا الحكومة بشأنها وستكون الكلمة الأخيرة لجلالة الملك المعظم بصفته أمير المؤمنين وحامي حمى الدين كما ينص على ذلك الدستور في الفصل التاسع عشر ".

وبذلك نفضت يدها من قضية البهائيين وقذفت بها إلى ميدان البرلمان ليعالجها نواب الشعب والسلطة العليا في البلاد، بينما نشرت جريدة "المنارات" المناوئة لحزب الاستقلال والسابحين في فلكه مقالا بالفرنسية نشرته في 31 ديسمبر، تحت عنوان:

" العام السياسي بالمغرب "

تستعرض فيه أهم الأحداث التي عرفها المغرب في مسيرته السياسية الليبرالية، قالت:

" كانت سنة 1963 بالنسبة للمغرب، إحدى السنوات الأكثر خصوبة في الأحداث، وفي جميع الأحوال، من أكثر السنوات أهمية في تاريخه السياسي منذ الاستقلال ... "

وأوردت فيه:

" إحدى المظاهر الأولى- ولو أنها محدودة – لهذا الاتجاه الليبرالي الخالص، هي المعارضة الصريحة لإدانات "محاكمة الناضور " المتعسفة ". أظهرت هذه المحاكمة بالفعل، أن حزب الاستقلال الذي تورط في القيام بحملة من أجل الدستور، لم يكن لديه أي تنازل عن تعصبه وظلامية قناعاته ".

وفي 21 ديسمبر نشرت جريدة مقالا تحت عنوان " **يوميات رجل الشارع** "، تقول:

" ... ولا نذيع سرا إذا قلنا إن حكم الإفراج قد قوبل بارتياح كبير من طرف العناصر السياسية المغربية والأجنبية التي كانت تناصر خارج دوائر القضاء المغربي المتهمين بالبهائية والمتحيزين لهم.
وقد اجتمع فريق من هؤلاء في " قهوة باليما " يوم صدور الحكم وعقدوا جلسة لمناقشته والتعليق عليه، وقالوا في شأنه إن من " فضائله " أنه "سيخرس ويقطع لسان" من قد يدعون أن قضاءنا رجعي ومغرق في ما تركته له القرون الغابرة من التعصب الديني ".

ظلت جريدة "العلم" على مرّ السنين، رغم براءة البهائيين القضائية الثابتة، تتوهّم الشبح البهائي خلف كل إخفاق لسياسة حزب الاستقلال، سواء تعلق الأمر بفشله في القضايا الوطنية أو العربية أو الإسلامية.
فبعد مرور ما يزيد على خمس سنوات، نشرت "العلم " مقالا، تحت عنوان:

" الرئيس علال يعلن في مهرجان وادي المخازن بالعرائش "

جاء فيه:

" وهناك أيضا مشكل البهائيين الذين قويت شوكتهم في الريف فقد قرأنا بالأمس خبر اعتقال كاتب فرع الحزب "بترجيست" ومنع جريدة "العلم"، ونحن نعرف السيد العامل وهو في استقامته بعيد عن أن يخوض في مثل هذه المؤامرات ونحن على يقين من أن تحرشات البهائيين بالوطنيين والمسلمين، هي التي تؤدي إلى مثل هذه المصائب، ونحن نضع وزارة الداخلية أمام مسؤولياتها، فمقوماتنا الإسلامية أصبحت مهددة من هؤلاء، ولذلك يجب وضع حد حاسم لهم "[137]

ونشرت "العلم" بعد أيام، خطابا آخر للزعيم أمام المجلس الوطني للحزب، تذكّر فيه القراء بقوله:

" ... إذا كان المسؤولون يطلبون منا أن لا نستعمل العنف مع جيراننا وهو طلب نتقبله بكل سرور فإننا نطالبهم أيضا بأن يوقفوا بعض القواد والشيوخ ضد استعمال العنف مع المواطنين. فأنتم تعلمون خبر ما أصاب حزب الاستقلال في ترجيست من عمالة الحسيمة وفي ورزازات وفي بعض نواحي فاس، فهل يحق لقائد أن يهدد المواطنين ويقفل مكتب الحزب في ترجيست مثلا في الوقت الذي يسكت فيه عن وجود البهائية ويترك معتنقيها يدخلون المسجد ويحدثون الفتنة والبلبلة في نفوس الناس ... "[138]

***

إثر خروجنا من السجن، كتب بيت العدل الأعظم، في 18 ديسمبر 1963، رسالة إلى البهائيين في العالم يبشرهم بتحرير إخوانهم في الدين:

---

[137] - العلم : 19 غشت 1969 .
[138] - العلم : 24 غشت 1969 .

" بعد عشرين شهرا من السجن، وبعد سنة من صدور عقوبات الإعدام والسجن المفروض عليهم، أطلق سراح إخواننا الشجعان الثابتين في المغرب يوم الجمعة، 13 ديسمبر 1963. وتحقق الهدف الذي طال انتظاره. ومثلما كنا ندعو لتحريرهم في ضيافة " القول "، ندعو الآن العالم البهائي ليلتقي في دعاء الشكر على هذه النتيجة السعيدة وعلى ما مكن الجمال المبارك هؤلاء الأحباء الأوفياء من أن يظلوا ثابتين على إيمانهم خلال هذا الامتحان العسير".

كما أرشد البهائيين في نفس المراسلة إلى الموقف الذي ينبغي اتخاذه بعد هذا التوفيق المبين:

" بالنظر إلى الوضع الذي ما زال دقيقا في المغرب، فإنكم مدعوون إلى عدم البحث عن الإشهار بهذا الخصوص .
إذا اتصلت بكم الصحافة، لا تدلوا بأي تصريح أكثر من الشكر على هذا القرار العادل.
مطلوب من كل محفل مركزي، حيثما أمكن، التعبير عن الامتنان لملك المغرب الحسن الثاني على هذا القرار العادل الذي أصدره المجلس الأعلى. ينبغي القيام بذلك كتابة عبر السفارة، أو القنصلية المغربية في منطقتكم.
نطلب منكم أيضا، حيثما رأيتم إمكانية ذلك، أن تكتبوا رسائل التقدير للأشخاص والمنظمات في منطقتكم الذين قدموا المساعدات بخصوص هذه القضية ".

وفي ضوء هذه التوجيهات، وجهت إلينا " لجنة الشؤون القانونية " التي سهرت على توجيه وتتبع الملف البهائي أولا بأول من البداية إلى النهاية، رسالة هذا نصها:

" إن لجنة الشؤون القانونية يسعدها، في غمرة الفرح بالحكم العادل الذي انتهت إليه قضيتكم، أن تتوجه بكل تضرع وتوسل إلى الله تعالى شاكرة فضله وآلاءه ورحمته.
وتنتهز هذه الفرصة لتؤكد أن النهاية الموفقة لقضيتكم هي في حقيقتها ثمرة عزيزة لا شك أنها ستسفر مستقبلا عن نتائج أكثر روعة وأكثر أهمية، على أن الاحتفاظ بهذه النتيجة الأولية والخطوة المبدئية أمر هام ودقيق وهو أمانة في أيديكم تزيد من مسؤولياتكم التاريخية، مما يفرض عليكم بصفة خاصة التشبث بذيل الحكمة البعيدة النظر، وبذل المزيد من الحيطة والحرص حتى تتهيأ الظروف لاستقرار الظفر الذي تحقق بعد الأيام العصيبة التي تحملتم في شجاعة وصبر، عبئها الثقيل.

ومن الأمور الطبيعية في هذه المناسبات أن تتجه إليكم الأنظار، ويحيطكم اهتمام الأهلين، وتكثر من حولكم أسئلة المستفسرين، وتندس بينكم عيون الفضوليين وتوجه إليكم أقوال استفزازية عن عمد أو بدون قصد. على أن كل هذا، لا يجوز أن يؤثر على سلوككم الطبيعي المألوف، والتمسك دائما بمقتضيات حكمتكم المأثورة، والتحلي بفضائلكم الأخلاقية المشهورة، وتذكروا دائما أن ما يصدر عنكم هذه الأيام سيحدد كثيرا من الأمور في المستقبل القريب.
واللجنة إذ تعيد تهنئتها لكم ترجو أن تجعلوها دائما على علم بكل ما يصادفكم من عقبات أو تتخذونه من خطوات.

وإننا جميعا نتوجه إلى حضرة جمال القدم وإياه ندعو أن يجنبنا العثرات ويسدد الخطى ويلهمنا ما يستعلو به شأن أمره بين عباده.
وعليكم التحية والثناء ".

وبذلك يكون قلق اللجنة وجهودها المضنية ومساعيها الحميدة ومبادراتها الحكيمة التي تطلبت كثيرا من الدقة والمرونة والكياسة، قد تكللت بالنجاح.

أما بيت العدل الأعظم الحديث العهد بالتأسيس فقد أتحفنا برسالة قال فيها:

" أيها المبتلون في سبيل الإيمان، أبطال ميدان الإيقان، عشاق جمال الرحمان الممتحنون في المغرب.
عليهم بهاء الله.

ألف شكر للجمال الأقدس الأبهى، إذ بفضله وكرمه العميم بشر قلوب المشتاقين ببشرى استخلاص هؤلاء الأحباء الأوفياء، وفتح على وجوه هؤلاء المختارين من جمال الكبرياء أبواب السعادة والرخاء.

إن دعوات ملإ الاسم الأعظم التي ارتفعت في جميع أنحاء العالم قد فازت بالقبول وتحقق ما كنا نتمناه وخرجت جواهر الوجود من نار الامتحان في بريق الذهب الإبريز لتزين معرض الحياة.

هنيئا لكم، إذ بهمتكم العالية واستقامتكم الكبرى كنتم سبب فتح من أعظم فتوحات العصر التكويني لتاريخ الأمر العظيم، وخلدتم أسماءكم في زمرة أبطال الإيمان والإيقان ورفعتم أعلام النصر في قطب الآفاق.

الحمد لله أن اتضح لأولي الأمر وللجمهور كافة أن بهائيي المغرب لا هم بالطغاة ولا بالثوار ولا بالمتمردين على الأمن والنظام، وأدركوا أن كينوناتهم منتعشة بنفحات العناية الرحمانية وقلوبهم مشتعلة بنيران المحبة السبحانية وأنهم يتمنون ليل نهار الخير الحقيقي للنوع الإنساني ويحبون البشر كافة، راضين بقضاء الله في محبته، منزهين عن الكره والبغض، لا يشكون ولا يريدون ضرا لأحد ..."

كما وجهت الجامعة العالمية البهائية من مكتبها في مقر الأمم المتحدة المراسلة الآتية إلى ملك المملكة المغربية:

" من الجامعة البهائية العالمية إلى السيد الطيبي بنهيمة، الممثل الدائم للمغرب لدى الأمم المتحدة:

تلتمس الجامعة البهائية العالمية بكامل الاحترام لمعاليكم بإبلاغ صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني ارتياحها بقرار المجلس الأعلى بخصوص الملف البهائي.
إن الجامعة تدرك تماما بأن هذا القرار يحمي ويصون مبدأ حرية العقيدة الأساسي في بلدكم".

***

وبتحقق البراءة من التهم المنسوبة إلينا وإلى عقيدتنا، على يد هيأة قضائية عليا، ترفع قضاتها عن العواطف والأهواء وحرصت عزائمهم على الرسوخ في أرضية القانون الصلبة، صار الظلم الذي وقع علينا وأثقل كاهلنا واضحا لدى العام والخاص .

واتضح للجميع أن المدانين إنما أدينوا لإيمانهم برسالة "بهاء الله"، ولم يكن لهم من قصد سوى التقرب إلى الله ومحاولة العيش في مجتمعهم وفق القيم الدينية السامية والسلوك وفق المقاييس الأخلاقية الرفيعة والمشاركة في بناء نظام عالمي جديد يعيش فيه البشر جميعا متحدين في سلام وفق مبادئ التعايش والتعاون والعدل في جو من الود والاحترام.

إننا معشر البهائيين لا نؤمن بصراع الأديان وبعيدون كل البعد عن التمسك بالنظرية القائلة: إن الصراع محور العلاقات الإنسانية. ولا نرى مبررا للعداوة والبغضاء بين المتدينين ولا للحروب التي قامت بدور حاسم في تشكيل الثقافات العدائية للمجتمعات .. ونتشبث بمبدأ وحدة الدين الذي تعرف شرائعه التغيير والتجديد تبعا لتقدم البشر في مسيرتهم الحضارية المتطورة باستمرار، مثلما يُعلمنا "بهاء الله" في أحد ألواحه:

" وإنك لو تكون من أهل هذه المدينة في هذه اللجة الأحدية لترى كل النبيين والمرسلين كهيكل واحد ونفس واحدة ونور واحد وروح واحدة. بحيث يكون أولهم آخرهم وآخرهم أولهم. وكلهم قاموا على أمر الله وشرعوا شرائع حكمة الله وكانوا مظاهر نفس الله ومعادن قدرة الله ومخازن وحي الله ومشارق شمس الله ومطالع نور الله "[139] .

وواقع الحال، أنه " **كلما جاء أمة رسولها كذبوه** " فينفصل عنها المؤمنون بالرسالة الجديدة إلى أن تكتمل دورة رسالتهم، فيأتي رسول آخر يجدد للناس أمر دينهم، ويعدهم كما وعد الذين من قبلهم بيوم يقوم فيه الناس متحدين على الإيمان بشريعة رب العالمين، فيؤمن به البعض ويكفر به آخرون فتتكون أمة دينية أخرى تحت مسمى آخر، وهكذا دواليك ... إلى يومنا هذا الذي تهيأت فيه ظروف التقارب المادي والمعنوي بين سكان الأرض جميعا، وانتقل فيه نمو البشرية الفكري إلى مرحلة بلغ من النضج ما يسمح بتحقق ما وعد به الأنبياء والمرسلون من ائتلاف الناس واتحادهم وتكوين أسرة بشرية واحدة.

يخطئ من يعتقد أن البهائيين تعمدوا الدخول في هذا الصراع، المفروض عليهم، من أجل أن يحققوا الانتصار على دين أو أمة أو عرق أو نظام. وما كانت مبادئهم لتدعوهم إلى ذلك.

وإذا كان ما تحملناه من المعاناة قد تمخض عنه نصر ما، فإنه نصر حققته العدالة في المغرب لحرية العقيدة والضمير وحرية التعبير والممارسة التي نادى بها الإسلام والأديان الإلهية ونص عليها دستور البلاد.
ولم نكن في هذا النصر إلا وسيلة اتخذتها مكونات الأمة المغربية الحديثة سببا للوصول إلى غاية بناء الوطن على أسس وقواعد ثابتة في هذه المرحلة الأولى من التشييد في فجر الاستقلال، ووجدت في قضية الحكم علينا فرصة لتجاوز التحديات التي واجهت اختيار الشعب للحرية والديمقراطية، والتشبث بالمبادئ الإنسانية المتفق عليها وبمقتضيات فصول الدستور لتصحيح المواقف الخاطئة.

والحق أن الناظر بالبصر الحديد في "قضية الناضور"، يتراءى له من خلالها أول برعم تفتق على غصن شجرة حرية العقيدة في حديقة المغرب.

وحسبنا نحن الذين دفعنا ثمن هذا الإنجاز أن يُضمن لنا في إطار القانون، حرية ممارسة شعائرنا الدينية في أمان واطمئنان.

*****

---

[139] - **بهاء الله : جواهر الأسرار .**

د- صخب حياة الأحرار.

كـــــان علينا، بعد أن تغلبت سفينة إبحارنا على التحديات وتجاوزت جميع الصعوبات ورست بنا في مرفإ النجاة، وأطلقت العدالة سراحنا عندما تبين لها خلو ذمتنا من كل جريمة أو انحراف، أن نعود جميعا إلى أسرنا التي انتزعنا منها انتزاعا:

منا من عاد إلى أبنائه الذين هم في أمس الحاجة إلى رعايته وحدبه وإلى أزواجهم اللائي عانين في فراقهم وتحملن مهانة الحاجة وتعرضت كرامتهن للمس والإهانة؛ ومنا من عاد إلى آبائهم وأمهاتهم اللائي تفتتت أكبادهن خوفا عليهم وجفت عيونهن من الدمع حسرة على ما ألمّ بهم وإلى إخوانهم وأخواتهم اللائي تحيرن في العجز عن إذلال الصعاب وإسداء يد العون لهم والتعبير عن الوقوف إلى جانبهم وقت محنتهم؛ وإلى عملهم، مكسب رزقهم، الذي به يسدون رمقهم ويواجهون تغطية حاجيات أسرهم ويساهمون به في تنمية مجتمعهم ووطنهم.

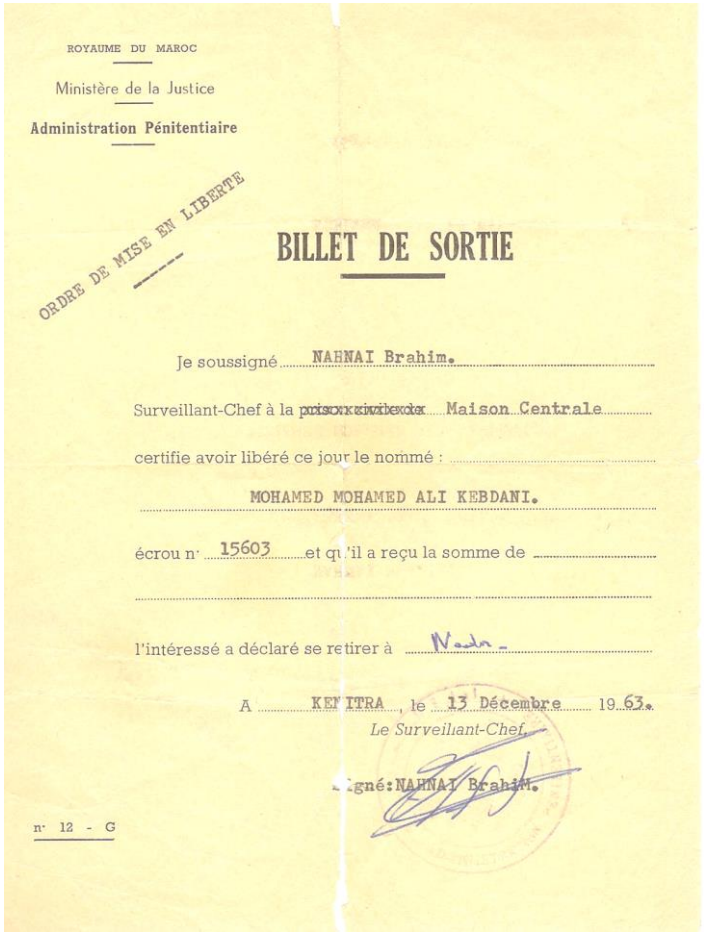

ROYAUME DU MAROC

Ministère de la Justice

Administration Pénitentiaire

ORDRE DE MISE EN LIBERTE

BILLET DE SORTIE

Je soussigné NAHNAI Brahim.

Surveillant-Chef à la ~~prisonxcivilexde~~ Maison Centrale

certifie avoir libéré ce jour le nommé :

MOHAMED MOHAMED ALI KEBDANI.

écrou n° 15603 et qu'il a reçu la somme de

l'intéressé a déclaré se retirer à Meda -

A KENITRA, le 13 Décembre 19 63.

Le Surveillant-Chef,

Signé:NAHNAI Brahim.

n° 12 - G

<u>وثيقة الخروج من السجن</u>

إن شعورنا بفرحة الحرية لم تخل من هواجس، عكرت صفاء الابتهاج بها. إذ أن العودة إلى مجتمعنا الصغير لمواجهة معارفنا ومواقف الأفراد الذين قد تكون مشاعر الكراهية نحونا، قد تسربت إلى قلوبهم وترسبت في وجدانهم، يفرض التفكير في السلوك الذي ينبغي أن نلتزم به في التعامل مع أبناء مجتمعنا، بما فيهم أفراد أسرنا.

هل سنتمكن من الاندماج من جديد في الحياة الاجتماعية دون حدوث أي ارتجاج في شخصياتنا أو اصطدام مع المتعاملين معنا؟

ما ذا عسانا نفعل بحياتنا بعد أن أصبحنا معروفين في مجتمع، قدمونا له موصومين بوصمة "الزيغ والضلال" ؟

هل سأتابع تكريس حياتي، بمحض إرادتي، في حقل النضال الروحاني من أجل الارتقاء بروحي في فضاء الحب والرضاء وتحرير العقيدة والضمير من قيود المفاهيم التقليدية والمساهمة في بناء حصن اتحاد بني الإنسان للتعجيل باليوم الذي يتحقق فيه السلام ؟

أم سأندمج في صخب حياة المجتمع العادية التي تمتص رحيق أعمار العموم الذين يخوضون غمارها سعيا وراء الحصول على الحاجيات المادية والمكانة الاجتماعية، دون تقدير واعتبار لما ميزتني به فترة الحبس من تحمل مسؤولية العقيدة البهائية وما تتطلبه من الالتزام بالصمود والمثابرة على بناء الأخلاق الفاضلة والتمسك في السلوك بمبادئها التي جاءت لينتفع بها سكان العالم؟

***

عدت إلى مدينة "الناضور"، إلى مرابع صباي، حيث نشأت ومرحت في طفولتي مع صغارها واستأنست بطبيعتها ومرافقها وتربيت على حب الله والأسرة في أحضانها، وتعلمت مع رفاقي احترام المعلمين والجيران والأصدقاء.

ابتهج بلقائي أفراد أسرتي واغتبطت أمي وأبي بعودتي بريئا من التهم المنسوبة إلي، واستقبلني الأهل والجيران والأصدقاء بالفرح والابتهاج، وحمدوا لي الله الذي أخرجني من السجن وأعادني إليهم سالمين. دون أن يثير أحد منا الحديث عن الأسباب التي أدت إلى السجن أو التي أدت إلى الخروج منه، وحتى الذين ورد في أحاديثهم عرضا، أن العفو الملكي كان السبب في الإفراج عني دون أن يعتبروا أو ينتبهوا إلى البراءة التي قضت بها السلطة القضائية، لم أحاول التعليق على حديثهم أو تحليل الفرق بين العفو الملكي والبراءة.

وبصفة عامة، لم يسأل أحد عن ماهية البهائية ولا اتخذت بدوري المبادرة للتعريف بها. وكأن الذين يعرفونني ويحتكون بي، اعتبروا المسألة موضوعا شخصيا لا حق لهم في حشر أنوفهم فيه، أو لعلهم في حالة رغبتهم في المعرفة، يشعرون أنهم يقحمون أنفسهم في خصوصياتي، فيتجنبون الحديث في الموضوع معي تجنبا لإحراجي. أو لعلهم يعتقدون أنني قد عدت إلى رشدي، إلى دين أمتي ولا حاجة، في نظرهم، إلى جرح مشاعري الدينية وقلب المواجع التي أدت إليها نزوة مرحلة الشباب التي عادة ما تندمل في نظرهم، مع تقدم العمر . أو مثل ما قال أحد الذين يعتبرون أنفسهم من حكماء المدينة: لكل جديد صولة والزمان كفيل بقبرها.

احتمالات كثيرة جعلت معارفي لا يتكلمون معي في الدين البهائي، أما القلائل من محبي الحقيقة الذين كانوا استثناء للقاعدة، وأظهروا الاهتمام بمعرفة البهائية، وحاولوا الاتصال بي للاطلاع على ماهيتها، فلم يجدوا لدي إلا رغبة محدودة في الإسهاب في الحديث معهم التزاما بالاقتصار في الجواب على أسئلتهم واختصارا شديدا في توضيح الأمور لهم، استجابة مني للنصائح التي قدمت لي بخصوص الفضوليين الذين قد يتصلون بي واحترازا من المندسين المغرضين.

أقام والدي مأدبة عشاء، دعا إليها المعارف والجيران وقراء القرآن الكريم. أكل الجميع وشربوا ونفح والدي القراء بنصيب من المال، حسب العادة المرعية، على ما قرأوا من الآيات ورفعوا أكف الدعاء بصالح الدعوات. وخرجوا يباركون ويهنئون، فشكرت لهم تهانئهم.

عندما غادر الضيوف مهنئين، اختليت بنفسي في غرفتي وألقيت بجسدي المشتاق إلى فراشه على السرير الذي حرم منه منذ ما يزيد على عشرين شهرا، فتحركت أمواج الذكريات في مخيلتي تتلاطم في ذاكرتي، حية أحيانا ومجرد ذكرى أحيانا أخرى، كأنما واقع الحرية وفقدانها لا يفصلهما عن بعضهما في نفسيتي إلا خيط رقيق متحرك بين الحاضر والأمس القريب، أكاد لا أستبين الفرق ولا أستشعر الأمان على سلامة حريتي. وكل صوت أو وقع طارئ لجسم على الأرض يعيد إلى إحساسي نفس المشاعر التي يحدثها اصطكاك أقدام حراس السجن وقرقعة مزاليج الزنازين في نفسي.

فتحت عيني صباحا على جدران غرفتي أتأملها فيسري الشعور بالاطمئنان في كياني عندما تأكد لي أني في بيتي بمنزل أهلي، وما أن تناولت أول فطور مع أفراد أسرتي المبتهجة بي حتى خرجت لزيارة المدينة، أتفقد الأماكن التي تعوّدت على مشاهدتها.

قادتني قدماي إلى كورنيش البحر لأرى منظر الأمواج الباهرة في حركتها الهادئة والنسيم البارد المنعش في شهور فصل الشتاء، فوجدتها رائعة كما عهدتها، لا يعكر صفاء روعتها ومشهدها المعبر عن عظمة قدرة خالق البر والبحر والسماء سوى الشوائب المتناثرة على مياه البحر المحاذية لجدار شاطئها والرائحة الكريهة التي تؤذي الأنوف كلما امتد المكوث في جوارها.

التقيت في شوارع المدينة ببعض المعارف والزملاء الذين حيوني تحية ود، وعبروا لي عن سرورهم بهذه النهاية الطيبة لقضيتي التي كادت تودي بحياتي، واعتبرها العديد منهم معجزة حققتها العناية الإلهية. ومن الذين التقيت بهم وحيّوني تحية أخوة وأبدوا ابتهاجهم بخروجي من السجن، بعض من وردت أسماؤهم على العريضة الموقعة المرفوعة إلى السلطات العليا من أجل مؤاخذتنا وقطع دابرنا.

وعند عودتي إلى المنزل أخذ أقربائي يقبلون علي من أجل إظهار الأسف على ما حل بي والتعبير عن تهانئهم لي ولأسرتي بالعودة سالما إلى أهلي ومدينتي. وكنت سعيدا أن أرى من بينهم أحد الذين قضوا معي فترة السجن "بالناضور".

إن تصرف الناس معي بعد خروجي من السجن دلت بوضوح على أن معظم الشعب المغربي بعيد عن التعصب الديني وعن الانتقام من الآخر المخالف له في العقيدة. ذلك، أنه لم يصدر عن السكان أثناء زيارتي الأولى لمدينتي بعد خروجي من السجن، ما يقلق راحتي أو يزعج وجودي، ولم أتعمد بدوري الحديث عن نفسي وعن عقيدتي... وما أن مرت بعض الأيام حتى شعرت أن الوقت قد أزف للعودة إلى العمل.

اتصلت بمدير المدرسة التي كنت أعمل بها، فأخبرني بأنه لا يتوفر على أية معلومات بخصوص الالتحاق بوظيفتي، وأرشدني إلى الاتصال بالمصالح المركزية "بالرباط".

استأذنت والدي واستقلت الحافلة متجها إلى العاصمة حيث وجدت ضالتي في مكاتب وزارة التعليم التي رحبت بالتحاقي بوظيفتي شرط أن لا أعود لمزاولتها في "الناضور".

كذلك كان الشأن بالنسبة لباقي زملائي الموظفين الرسميين باستثناء "بوعرفة معنان" مفتش الشرطة الذي خيّر بين الالتحاق بوظيفته وبين التنازل عن عقيدته، فاختار الهجرة إلى ألمانيا بعد أن ضاقت به سبل العيش في وطنه.

****

المراجـــــــع

1. أديب طاهر زاده :

- ظهور بهاء الله . المجلد الأول . دار النشر البهائية في البرازيل عام 2000 .

2. أيادي أمر الله .
- برقية الإعلان عن انتخاب بيت العدل الأعظم .
- قضية الناضور . 1963 .

3. بيت العدل الأعظم :
- بيانات بخصوص قضية الناضور ، 1963 .

4. جون أسلمونت :
- بهاء الله والعصر الجديد .

5. جرجي زيدان :

تاريخ التمدن الإسلامي

6. جرائد ومجلات:

- العربية : العلم ؛ الميثاق ؛ الاستقلال ؛ المنارات ؛ أخبار الدنيا ؛ مجلة الأطلس

- الجرائد غير العربية :

Les Phares ؛ La Vigie Marocaine ؛ Le Monde ؛ France Soir ؛ Sunday Times ؛ The Evening News ؛ Daily Telegraph ؛ The Guardien؛ El Pais.

7. رسائل :
- بيت العدل العدل إلى المحررين من السجن .
- لجنة الشؤون القانونية إلى المحررين من السجن .
- الكاتب إلى أسرته من السجن وإليه .

8. عبد البهاء :
- مكتوب لأحباء أميركا ؛ المكاتيب ج .1
- ألواح الخطة الإلهية .

9. صحف وكتب بهاء الله :
- الكتاب الأقدس .
- الإيقان : الطبعة الرابعة . عام 1997 . دار النشر البهائية في البرازيل .
- لآلئ الحكمة ، المجلد الثالث : دار النشر البهائية في البرازيل 1991 .
- ألواح حضرة بهاء الله إلى الملوك والرؤساء : لوح السلطان ؛ لوح ملكة فيكتوريا . دار النشر البهائية في البرازيل 1983 .

- الكلمات المكنونة : مطبعة البيان ، بيروت ، لبنان 1957 .

- مجموعة من ألواح حضرة بهاء الله : البشارات ؛ الكلمات الفردوسية ؛ لوح الحكمة : دار النشر البهائية في بلجيكا ، 1980 .
- جواهر الأسرار : دار النشر البهائية في البرازيل 2003 .
- لوح شيخ نجفي : مؤسسة ملي مطبوعات أمري سنة 119 بديع .
- لوح الأقدس : مؤسسة ملي مطبوعات أمري سنة 120 بديع
- لوح أحمد : نسائم الرحمان . الطبعة الثالثة المصححة .
- لوح الكرمل.

10. الصور:
- صور بعض المحكوم عليهم .
- صورة الخروج من السجن .
- صور مدينة الناضور .
- صورة رسالة شعر.

11. القـــرآن:

12. موجن مومن:
- البابية والبهائية ما بين 1844 و 1944 . جورج رونالد . أوكسفورد ، 1981

13. الملك الحسن الثاني :
- التحدي : الطبعة الفرنسية . ألبين ميشيل ، 1976 .
- ذاكرة ملك : الطبعة العربية . الناشر الشركة السعودية للأبحاث والنشر .

14. محمد حسين هيكل :
- حياة محمد . الطبعة 13 . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة .

15. مذكرات من التراث المغربي:
- الكتاب الخامس والسابع .

16. نبيل أعظم :
- مطالع الأنوار . مطبعة المستقبل . الاسكندرية . مصر

17. ولي أمر الله :
- توقيعات مباركة : نوروز 110 بديع . دار النشر لانكانهاين ، ألمانيا 1992.
- الكشف عن المدنية الإلهية . توقيع 1936 لأحباء الغرب . مطبعة رمسيس . الاسكندرية. مصر .

18. وثائق قضائية :
- حكم محكمة الناضور الجنائية .
- حكم المجلس الأعلى للقضاء

19. يونس أفروخته :
- ذكريات تسع سنين في عكا .

****